شرح حماسة أبي تمام

دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها

الدكتور
محمد عثمان علي

دار الأوزاعي

www.dorat-ghawas.com

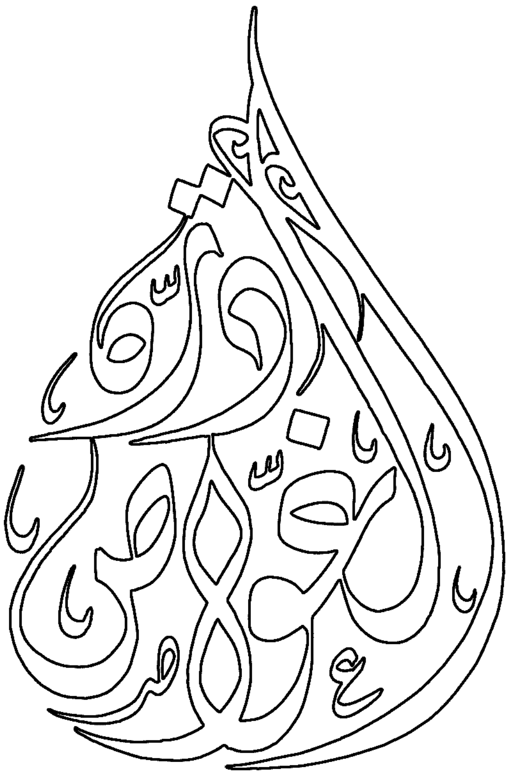

شُرُوح حَماسَة أبي تمام

دِراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها

الدكتور
محمد عثمان علي

دار الأوزاعي

تصوير : أسد الدين محمد

تنسيق وفهرسة : د . الشويحي

٩-٧-٢٠١١ م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

جميع منشوراتنا تطلب من مكتبة دار الاوزاعي بالدوحة
ص.ب ٧٣٨٤ ـ هاتف ٤٣٨٩٥٥ ـ تلكس ٤٥٧٤

دار الأوزاعي للطباعة والنشر والتوزيع ـ النويري ـ بناية فواز سنتر ـ الطابق الرابع ـ ص. ب: ٦٠١٠ ـ ١٤ بيروت ـ لبنان

الاهداء

إلى روح شقيقي جعفر . .

الذي رحل فجأة قبل أن يكتمل هذا العمل ، وكان

يتمنى أن يـــراه .

محمد عثمان

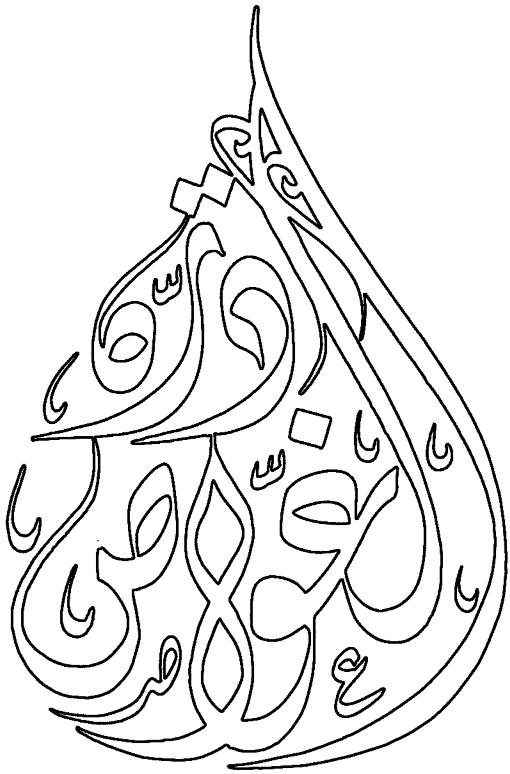

« بسم الله الرحمن الرحيم »

توطئــة

حظيت المادة الشعرية في حماسة أبي تمام باهتمام بالغ من قبل العلماء الشراح الذين تضافرت جهودهم على شرحها منذ منتصف القرن الثالث ـ وفق ما رجح الباحث في هذا البحث ـ والى عصرنا هذا الحديث .

ولم يكن هذا الاهتمام من العلماء ـ وبخاصة الأوائـل منهم ـ وليد محاكاة فحسب بل كان بسبب قيمة اختيار الحماسة الذي أجمع السابقون من العلماء واللاحقون على أنـه الغاية في بابه ، فهو طراز فريد أو نسيج وحده ، صاحبه عالم بالعربية وشاعـر عظيم ، يعد زعيم مدرسة في شعرنا العربي ، يعرف كيف يختار من القطع الشعرية أبدعها، ومن القصائد أروعها .

ومن أجل ذلك كان لاغرو أن نجد العلماء وطالبي الأدب يحتفلون به في كل زمان ومكان ، دراسةً وشرحاً ، أوقراءة وتعلماً ، ابتداءً من أبي محمد القاسم الديمرتي والى سيِّد علي المرصفي أستاذ الدكتور طه حسين ـ رحمهم الله جميعاً وأضاء قبورهم بنور المغفـرة والرضـوان ـ هذا فضـلاً عن عنـاية علماء اللغـة به ، حيث عدوه وثيقــة يستشهدون بأشعاره على اللغة وشرحها .

واذا كانت لجهود العلماء من السلف الصالح قد تركزت في مجال الدرس والتعليم على ديوان الحماسـة مُخَلِّفِـينَ في شرحـه أعمالاً ضخمــة فانَّ هذا يقتضي أن تقــوم الدراسات حول هذه الجهود لبيان قيمتها ، وطرق مناهجهـا ، وتـوضيح مدى ما حققته في هذا المجال من خدمةٍ لهذا الاختيار من جهة ، وصناعةٍ في شرح الشعر من جهة أخرى .

وهذا البحث الذي يُقدِّم له الباحث بهذه التوطئة يُعَدُّ من الأعمال التي قامت من

أجل هذا الغرض ،ولكنه يقتصر الدراسة فيه على الشروح التي ظهرت إلى نهاية القرن السادس الهجري ، وعلة هذا التحديد الزمني ترجع في نظر الباحث الى سببين : أحدهما ما لاحظه في دراسة هذه الشروح ، أنها سلكت من حيث المنهج والتطبيق خمسة مناهج ، كان آخرها المنهج التجميعي الانتخابي الذي بدأ عند الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ ، وتجلّى بوضوح عند شراح القرن السادس أمثال أمين الدين الطبرسي وأبي الرضا الراوندي ، كما أن المنهج الاختصاري التسهيلي الذي سبق المنهج التجميعي الانتخابي بقليل على يدي زيد بن علي الفارسي والأعلم الشنتمري وأبي الحسن البياري قد تجلّى هو الآخر لدى أحد شراح القرن السادس هو صاحب الشرح المنسوب خطأ إلى أبي العلاء المعري .

وأما السبب الآخر فيتمثل فيما لاحظه الباحث من قراءته لجملة من الشروح التي تلت القرن السادس الهجري ، أن عملية الشرح في الحماسة قد أصبحت مجرد تكرار لأعمال السابقين اختصاراً وتسهيلاً أو تجميعاً وانتخاباً ، ليس فيها ابتكار يذكر ولا إبداع يُعَوَّلُ عليه ، بل ظهر من الشراح من لا يحقق في عمله شيئاً سوى النقل من السابقين دون عزو مثل يحيى بن حميد المعروف بابن أبي طي ، وهو أحد شراح الحماسة في القرن السابع الهجري ، فقد ذكر ابن شاكر في « الفوات » « أنه كان يعمد إلى كتب غيره فيُقَدِّم فيها وَيُؤَخِّر أو يحذف ويختصر ويدعيها لنفسه، ومثل شارح مجهول من شراح القرن الثاني عشر عثر الباحث على مخطوطة شرحه بتركيا ، ووجده في عمله عالة على الامام المرزوقي وأبي الفتح ابن جنى ينقل منهما دون عزو .

ويجدر بالباحث أن يشير إلى أن عمله هذا قد اتصل بعملين من اعمال المعاصرين أحدهما « شروح الشعر الجاهلي » لأحمد جمال العمري الذي طبعته دار المعارف بمصر ، والآخر « حماسة أبي تمام وشروحها » لعبدالله عبدالرحيم عسيلان الذي طبع بمطبعة البابي الحلبي في مصر أيضاً . فأمّا « شروح الشعر الجاهلي » فيرجع اتصاله الى أن صاحبه في دراسته لشروح الشعر الجاهلي قد درس كلاً من الامام المرزوقي والخطيب التبريزي اللذين هما قطبا المنهج الأدبي الابداعي ، والمنهج التجميعي الانتخابي في شروح الحماسة ، وهو عمل - والحق يقال - غاية في بابه ، أفاد الباحث

منه في مواضع متعددة من هذا البحث ، وان كان قد أخذ عليه بعض المآخذ وبخاصة في وصفه لمنهجي المرزوقي والتبريزي حيث بدت بعض المعايير والصفات التي حددها لمنهج كليهما نظرية بحتة ، يصعب تطبيقها في عمل الرجلين ، ولا تقوم إلاَّ في مواضع طفيفة ، لا تقاس بالعمل الكلي الذي أدَّاه كلٌ منهما في شرح الحماسة .

وأما « حماسة أبي تمام وشروحها »فَعِلَّة اتصاله بعمل الباحث ترجع إلى أن صاحبه قد قام بدراسة تعريف لجملة من الشروح الداخلة في دائرة الفترة الزمنية التي حددها الباحث لعمله ، وهو عمل ـ إنْ جاز لباحث أن يحكم على عمل غيره ـ مع ما ضم من فوائد ـ كثير الوهم والخلل ، وقد حاول الباحث أن يصحح بعض الأوهام التي وردت فيه ، وذلك في الأمور التي تتصل بصميم عمله ، ولم يكن من وكده أن يتتبع كل ما فيه من وهم ليصلحه ، لأنَّ هذا يبعده كثيراً عن الغاية التي رجاها من بحثه غير أنَّ واجب العلم يحتم على الباحث أن يشير إلى أنَّ جُلَّ شروح الحماسة لا يزال مخطوطاً ، وأنَّ إعطاء معلومات عنها في بحث جامعي يجب أنْ يُحاطَ بالدِّقة والحذر ، وإلاَّ كان مدعاة لايقاع الدراسين ممن لا تتيح لهم الظروف الوقوف على هذه المخطوطات في أوهام من حق العلم أن يكونوا بعيدين عنها ، ومن هنا كان لزاماً على الباحث وقد وقف على هذه الشروح وقوف دارس أن ينبه على أن في « حماسة أبي تمام وشروحها » أحكاماً غير متثبتة تتصل بجملة من الشروح المخطوطة لم تتوفر للباحث ـ بحكم طبيعة عمله ومساره فيه ـ مناقشتها وتبيان الوهم فيها ولعل صاحب البحث يعود إليه فيصلح ما فيه ، أو يصلحه باحث آخر ممن تتوفر لهم دراسة هذه المخطوطات .

وان الباحث ليقول وهو أحوج الناس إلى أن يستعيذ بالله من كل وهم مستجيراً به في أن يكلأه برعايته حتى لا يقع فيه في عمله هذا الذي يقدمه لنيل درجة علمية .

واذا كان قد بقي للباحث شيء يقوله في توطئة هذا العمل الذي يقدمه في كتابين ينتظمان في ثلاثة مجلدات فهو عرفانه بالجميل وإحساسه الدائم بالامتنان للذين أعانوه على هذا العمل ، وأولهم سنده وأستاذه الجليل الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي رعاه

منذ دراسة الماجستير ، ولم يأل جهداً في نصحه وإرشاده وتبصيره بما حقق لهذا العمل الوصول الى غايته ، كما يخص بعميق شكره وامتنانه أستاذه الدكتور محمد رشدي حسن الذي تعهده في دراسته الجامعية قبل عقدين من الزمان ثم كان له فضل المشاركة في الاشراف على هذا العمل .

كما يتوجه الباحث بالشكر والتقدير للقائمين على المكتبات في كل من مصر وتركيا والرباط وتونس ومدريد الذين أعانوه على جمع مخطوطات هذا البحث . وكذلك شكره وامتنانه إلى إخوته وزملائه في قسم اللغة العربية بكلية التربية في جامعة الفاتح بطرابلس الغرب الذين مدوه بالعديد من المصادر والمراجع مما توفر لديهم في مكتباتهم الخاصة ، وقد كان لذلك أثره الحميد في قيام هذا البحث .

والباحث بعد هذا كله يسأل الله تعالى العلي القدير أن يقبل عمله هذا قبولاً حسناً وأن يجعل منه شيئاً مفيداً لقراء العربية إنَّه سميع مجيب .

القسم الأول

دراسات ممهّدة

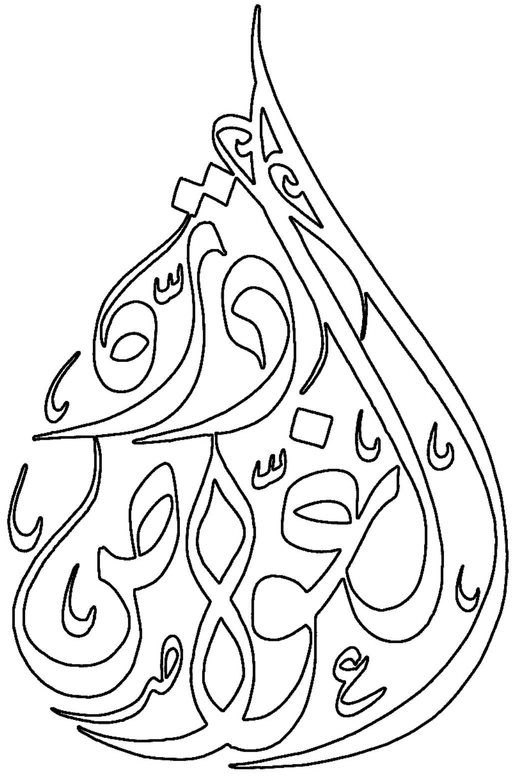

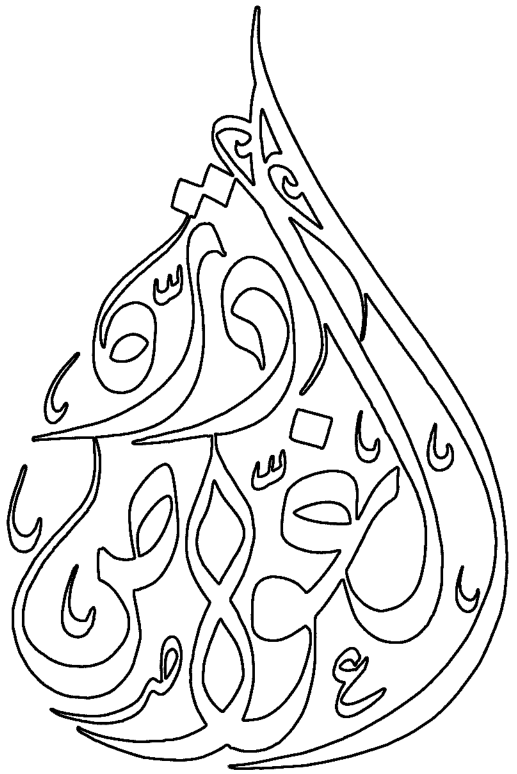

الفصل الأول

في اختيار أبي تمام للحماسة وصنيعه فيه

١ . اختيارات أبي تمام في الشعر :

ليس من عزمات هذه الدراسة أن تضطلع بالبحث في شاعريّة أبي تمام أو شعره ، فهذا أمر خاض فيه الرجال منذ عصر أبي بكر الصولي -٣٣٥ هـ - وإلى عصرنا هذا الحديث ، ولكن الذي يهمنا بحق - ونحن نبحث في اختيار أبي تمام للحماسة - هو أن نقف عند المكوِّنات الثقافية التي كانت وراء شاعريته ، والتي جعلت منه شاعراً متفوقاً وزعيم مدرسة في تاريخ شعرنا العربي .

وكان من أهم هذه المكوِّنات روايته لشعر من سبقوه في عصور الأدب الأولى أو شعر من عاشوا في عصره ، وهي ميزة قد شارك فيها غيره من الشعراء ، ليس في عصره فحسب بل في سائر العصور السابقة له أو التي جاءت بعده ، غير أن الأمر بالنسبة له كان مختلفاً عنهم ، فهؤلاء وان شاركوه في هذه الميزة فانهم قد اكتفوا برواية شعر السابقين بقصد التعلّم والتثقّف وصقل شاعريتهم والسمو بها الى درجة أعلى في الفن الشعري . أما أبو تمام فقد تميّز عنهم بأنَّه لم يقف عند حد الحفظ والرواية لشعر غيره بل كان - كما يقول الدكتور طه حسين - : « كثير النظر في الشعر ميَّالاً الى الاختيار منه . . . يعاشر الشعراء معاشرة متصلة ، يقرؤهم ويطيل النظر فيهم ، ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي يختاره في كتب يذيعها بين النَّاس»[١] .

ولم تكن اختياراته هذه ضربة لازب أو لمجرد جمع الشعر وروايته ، وانما

(١) من حديث الشعر والنثر ط دار المعارف مصر ، العاشرة ص ٩٨ .

كانت عملاً قائماً على الدراية والفهم الدقيق . يؤكد هذا ما نقله الصولي عن الحسن بن رجاء[1] أنه قال : ما رأيت أحداً قط أعلم يجيّد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام[2] .

غير أن هذه الاختيارات قد شابها شيء من الخلط والاضطراب في سبب تأليفها ، والوقت الذي ألّفت فيه فالتبريزي يحدثنا في مقدمة شرحه للحماسة أن أبا تمام « جاء من خراسان يريد العراق ، فلما دخل همذان اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة ، فأنزله فأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم ، قطع الطرق ومنع السابلة ، فغم أبا تمام ذلك ، وسر أبا الوفاء . فقال له : وطّن نفسك على المقام فان هذا الثلج لا ينحسر إلاَّ بعد زمان ، وأحضره خزانة كتبه فطالعها واشتغل بها وصنّف خمسة كتب في الشعر ، منها كتاب الحماسة والوحشيات »[3] .

وبناء على هذه الرواية فانّ أبا تمام قد صنع خمسة كتب في الاختيارات الشعرية بهمذان ، ولكني وجدت في مقدمة الشرح المرجّح نسبته إلى زيد بن علي الفارسي رواية تقول بأن هذه الكتب ثلاثة قال : « وأحضره أبو الوفاء كتبه فاختار أبو تمام منها هذا ـ يعني الحماسة ـ والوحشي وشيئاً من انتخاب» ثم أضاف أن هذه الكتب بقيت عند أبي الوفاء، لا يمكن أحداً منها إلى أن مات، ووقعت في يد رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل ، فنسخ هذه الكتب الثلاثة ، وحملها إلى أصبهان »[4] .

فهي إذا على هذه الرواية ثلاثة كتب لا خمسة كما ذكر التبريزي ، على أننا نجد الآمدي في الموازنة يفيد بأن هذه الاختيارات ستة كتب ، وقد عرّفها بقوله : « منها الاختيار القبائلي الأكبر ، اختار فيه من كل قبيلة قصيدة ، وقد مرّ على يدي هذا الاختيار ، ومنها اختيار آخر ترجمته القبائلي اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار

---

(١) هو أحد أمراء بني العباس ، كان شاعراً ممدحاً من الشعراء ، وهو الذي قال فيه أبو تمام بيته الفريد :

لا تُنْكِرِي عَطَلَ الكَرِيمِ مِنَ الغِنَى ... فالسَّيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ العَالِي

(٢) أخبار أبي تمام للصولي ص ١١٧ .

(٣) ينظر شرحه ١ : ٤ .

(٤) ينظر مقدمة الشرح الذي حققناه في الكتاب الثاني من هذا البحث .

القبائل ، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين ، ومنها الاختيار الذي تلقط فيه محاسن شعر الجاهليَّة والاسلام ، وأخذ من كلٍّ قصيدة شيئاً حتى انتهى إلى إبراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف باختيار شعراء الفحول ، ومنها اختيار تلقَّط فيه أشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين غير المشهورين ، وبوّبه أبواباً وصدّره بما قيل في الشجاعة ، وهذا أشهر اختياراته وأكثرها في أيدي الناس ويلقب بالحماسة ، ومنها اختيار المقطعات وهو مبوبٌ على ترتيب الحماسة إلاّ أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم والقدماء والمتأخرين وصدّره بذكر الغزل ، وقد قرأت هذا الاختيار ، وتلقّطت منه نتفاً وأبياتاً كثيرة ، وليس بمشهور شهرة غيره ، ومنها اختيار مجرد في أشعار المحدثين وهو موجود في أيدي الناس » (١) .

فهي وفق هذا الذي ذكره الآمدي ستة كتب : اختيار القبائلي الأكبر ، واختيار القبائلي ، واختيار شعراء الفحول ، وديوان الحماسة ، واختيار المقطعات الوحشيات أو الحماسة الصغرى ، واختيار أشعار المحدثين . غير أن الآمدي لم يشر إلى أن هذه الكتب قد ألفت بهمذان ، وانما كان حديثه منصباً على الكتب ووصفها ، ولم يهتم بمكان تأليفها أو الزمن الذي ألّفت فيه ، ويمكن أن نؤكد أن الاختيار الأخير وهواختيار أشعار المحدثين اختاره أبو تمام بعيداً عن همذان ، وذلك لما أورده الصولي عن الحسن بن إسحاق قال : « سمعت ابن الدقاق يقول : حضرنا مع أبي تمام وهو ينتخب أشعار المحدثين فمرّ بنا شعر محمد بن أبي عيينة المطبوع الذي يهجو به خالداً ، فنظر فيه ، ورمى به وقال هذا كله مختار»(٢) . فابن الدقاق لم يكن مع أبي تمام في همذان عندما كان في بيت أبي الوفاء بن سلمة ، فلا بدّ أن يكون قد صنع هذا الاختيار في بغداد أو سرّ من رأى أو غيرهما من البلاد التي كان يتنقل فيها . ومن ثم بقي لنا الاحتمالان اللذان وردا في الروايتين السابقتين أنه ألف بهمذان خمسة كتب ، وفق رواية التبريزي أو ثلاثة كتب وفق رواية الشرح المرجّح نسبته إلى زيد بن علي الفارسي . ولكن أي الاحتمالين أرجح ؟ .

(١) الموازنة بين الطائيين ط المكتبة التجاريّة الكبرى ، الثانية ص ٥١ وما يليها .

(٢) أخبار أبي تمام ص ١١٨ .

إن الدكتور طه حسين يعترض على رواية أن أبا تمام قد صنع هذه الاختيارات في همذان فقد قال: «تحدثنا الأخبار أن أبا تمام قد اختار كلّ هذه الكتب لأنّه اضطر الى البقاء في همذان، فقد حال الثلج بينه وبين المضي في سفره فاضطر الى البقاء، وعكف على خزانة الكتب فأنفق وقته في تصنيف ما ظهر له من المختارات، ولكن هذا غير ممكن وغير معقول، فقد كانت إقامته رهن زوال الثلج، وهذا لا يتجاوز الأشهر القليلة، ومن المستحيل أن يصدق أنه قد اختار هذه الكتب في شهرين أو ثلاثة»(١).

وهو رأي يصعب دفعه إذا قلنا برواية التبريزي، أما إذا قلنا بالرواية الأخرى التي تقول بأنه صنع في همذان ثلاثة كتب، فان الأمر يصبح في حيّز المعقول وبعيداً عن المستحيل الذي أشار اليه الدكتور طه حسين، وبخاصة إذا علمنا أن أبا تمام كان كثير الحفظ من شعر العرب، وأن هذا يعينه كثيراً على إنجاز ما أزمع صنعه في هذه الاختيارات الثلاثة، كما أنّ الروايات لم تذكر أنه لبث في همذان شهرين أو ثلاثة، وإنما الاشارة إلى هذا جاءت مبهمة في كلام أبي الوفاء لأبي تمام: «وطّن نفسك على المقام فإن هذا الثلج لا ينحسر إلا بعد زمان» فربما كان انحسار الثلج يتطلب زمناً أطول من الزمن الذي حدده الدكتور طه حسين، وربما ظلّ أبو تمام فترة من الزمن بعد انحسار الثلج، فليس في المصادر ما يفيد أنه غادر همذان في تاريخ محدد.

وكان الأستاذ علي النجدي ناصف قد اعترض على قول الدكتور طه حسين المتقدم، وبنى اعتراضه على عدة أوجه: أحدها أن أبا تمام لم يكن ينوي أول الأمر أن يلبث في همذان إلا ريثما يذوب الثلج ويتيسرّ السفر، ثم عدل عن نيّته هذه أو غيّر منها حين أقبل على العمل، فاستبان قيمته وأدرك جدوى المضّي فيه. وثانيها أن أبا تمام لم يكن له عهد بكتب آل سلمة من قبل، فرأى العكوف عليها والافادة منها غنيمة بالغة، وَنُهْزَةً نادرة، لا يجمل بمثله أن يتهاون فيها أو يؤثر حاجة عليها. وثالثها أن أبا تمام كان يكره الشتاء ويحذر البرد، وله من الأشعار ما يؤكد ذلك، ومن ثم فان إقامته في همذان لم تكن رهناً بزوال الثلج عنها لأن زوال الثلج من بلد لا يعني

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٩٨.

زوال البرد عنه ، وحلول الدفء فيه ، إذ لابد من فترة أخرى يصير فيها من الخوف إلى الأمن، ومن القلق إلى الطمأنينة حتى يرحل حين يرحل معتقداً أن لن يفاجئه البرد في بعض الطريق بما عسى أن تشقّ عليه مقاومته والاحتماء منه . ورابعها أن رجلاً له مثل ما لأبي تمام من ألمعيّة خاطفة وذوق مرهف لا تبطىء به القراءة والاختيار ولا يكلفانه من الوقت والجهد مثل ما يكلفان سواه ، وليس بعيداً أن يكون أصحابه من آل سلمة في حرصهم عليه ، وبرهم به ، وملاطفتهم له ، قد رفقوا به وقدّروا حاله ، فأمدوه ببعض الأعوان يكل إليهم من الأمراء ما يريد ، وكان الفصل حينذاك فصل الشتاء حيث يطيب العمل ، ولا يقل الانقطاع والعكوف عليه »[١] .

ونحن لا اعتراض لنا على هذه الأوجه سوى الوجه الثالث ، ذلك لأن أبا تمام وان عرف عنه أنه كان يكره الشتاء فان كراهيته له لا تمنعه من السفر فيه ، وهو حين غادر خراسان إلى همذان إنما غادرها في وقت الشتاء ، فلو أنه كان يكره السفر في الشتاء لما غادر خراسان ، واذا قلنا إنه غادر خراسان مضطراً إذ لم تكن له حاجة في البقاء طويلاً بها ، فكيف نفسر أنه اغتم من نزول الثلج بهمذان لأنه سوف يمنعه السفر الى العراق ، مع علمنا بالحفاوة التي وجدها عند آل سلمة ، وكانت هذه الحفاوة حافزاً لأن ينوي السفر فيه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إننا نسلم بأنّ أبا تمام كان يتمتع بالألمعيّة الخاطفة التي تعينه على سرعة الاختيار ، ولكن إن صحّ هذا بالنسبة للحماسة والوحشيات واختيار الفحول، لماذكرناه من سعته في الحفظ التي تعينه على سرعة الاختيار فلا شك في أن اختيار القبائلي الأكبر الذي ذكر الآمدي أنه اختار فيه من كلّ قبيلة قصيدة ، والاختيار القبائلي الذي اختار فيه قطعاً من محاسن أشعار القبائل يقتضي جهداً أكبر وزمناً أطول في الوقوف على جلّ شعر القبائل إن لم يكن كله ، حتى لا يداخل اختياره في الكتابين فوات من الجيد الذي يختاره . ومن هنا كان ترجيحنا للرواية القائلة بأنه صنع في همذان ثلاثة كتب هي في رأينا : الحماسة والوحشيات واختيار شعراء الفحول ، لأن هذه الاختيارات الثلاثة لا تقتضي الوقوف على جل ما قاله الشعراء من شعر، فنحن نذهب بعيداً إذا قلنا إن

---

(١) دراسة في حماسة أبي تمام ص ١٠ ـ ١٣ .

الجيد الذي اختاره أبو تمام ليس هناك جيد غيره مما قالته العرب ، فلا شك أن هناك جيداً كثيراً لم تشمله هذه الاختيارات الثلاثة ، ولا يضير أبا تمام هذا لأنه توخى في اختياراته الجيد مما وقف عليه ، وأسعفته به حافظته ، أو المصادر التي قرأها عند آل سلمة .

أما بالنسبة لشعر القبائل فان الأمر يتطلب الوقوف الطويل المتأني على ما قالته القبائل من شعر حتى يختار منه القصيدة الواحدة على نحو ما فعل في اختيار القبائلي الأكبر أو يختار قطعاً من محاسن أشعار هذه القبائل على نحو ما فعل في الاختيار القبائلي كما أن أحداً لا يجزم بأن مكتبة آل سلمة كانت تضم كل ما قالته القبائل من شعر ، ربما حوت منه الكثير أما الكلّ فإن السبيل إلى تصويره أمر يحتاج إلى دليل مادي لا نملكه ، فنحن لا نستطيع أن نتصور أن آل سلمة كانوا يملكون جميع دواوين شعر القبائل التي صنعها العلماء في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . ومن هنا فان خلاصة ما يمكن أن يقال في هذا الخصوص أن أبا تمام حين خرج من مصر إلى العراق ومدح الخليفة المعتصم بالله الذي ولي الخلافة سنة ٢١٨هـ أخذ يطوف بالعمال ، يرحل هنا وهناك ، وأنه كان من خلال تطوافه هذا يقرأ شعر القبائل ويختار منه حتى انتهى به المقام أخيراً إلى الموصل حين ولاه الحسن بن وهب بريد الموصل فعمل فيه قرابة العامين ثم كانت وفاته سنة ٢٣١هـ .

إننا نرتضي القول بأن هذين الاختيارين اللذين لم يصلا إلينا قد كانا ثمرة جهد متصل وقراءات مستمرة في دواوين القبائل حتى تيسّر له القيام بصنع ما أراده فيهما ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون مثل هذا العمل وليد فترة زمنية محددة عاشها بهمذان ولأسباب فرضتها الطبيعة بظروفها المتحولة من حال إلى أخرى .

ولا نحسب أن أبا تمام اتجه إلى هذه الاختيارات والتأليف فيها لأن الثلج منعه من الوصول إلى العراق ، ولم يجد ما يفعله في فترة الشتاء سوى تأليف هذه الكتب ، لأن هذا يجعل عزمه على التأليف وليد حادث طارىء فرضته ظروف معينة لولاها لما كانت هذه الكتب ، وانما الذي في تصورنا أن أبا تمام كان قد عقد العزم على أن يصنع اختيارات في الشعر ، وكان هذا العزم يشغل تفكيره ، ويقلّب الرأي فيه ، وربما جالت بفكره الآراء التي تتصل بمنهجه فيها ، فحين حدث ما حدث من أمر الثلج

كانت البداية ثلاثة كتب على نحو ما رجّحنا ، ثم توالت بقيّة الاختيارات بعد رحيله من همذان ، ولو كان الأمر كما تصوره هذه الروايات وليد صدفة لما واصل أبو تمام عمله في صنع هذه الكتب ، ولاكتفى بما صنعه نتيجة للظروف التي عاشها في همذان ، ولكن الذي حدث كان غير هذا ، فقد واصل أبو تمام اختياراته من شعر العرب حتى بلغت ستة كتب ، ثم أضاف اليها ما صنعه من نقائض جرير والأخطل[1]

٢ - رواية أبي تمام للحماسة :

واذا كنا قد رجّحنا أن يكون أبو تمام قد صنع بهمذان ثلاثة اختيارات منها كتاب الحماسة ، فان هذا يدفعنا إلى البحث في الطريق الذي أخذ به العلماء كتاب الحماسة ، فلقد كان المألوف لدى العلماء في ذلك الزمن وقبله أن يأخذوا الكتب من أصحابها بالسماع أو القراءة عليهم أو الاجازة منهم في روايتها . غير أن الخبر الذي ساقه التبريزي في مقدمة شرحه يشير الى أن أبا تمام قد ترك كتاب الحماسة في خزائن آل سلمة ، حيث بقي عندهم ، يضنون به ، ولا يكادون يبرزونه لأحد حتى تغيّرت أحوالهم ، وورد همذان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل فظفر به وحمله الى أصبهان فأقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنّفة في معناه ، فشهر فيهم ثم فيمن يليهم[2] .

ولم ينقل أبو العواذل الكتب ذاتها التي وجدها عند آل سلمة ، وانما نسخها على نحو ما بينت الرواية التي وجدناها في مقدمة الشرح المرجح نسبته إلى زيد بن علي الفارسي ، غير أن ظاهر الروايتين معاً يفيد بأن أهل أصبهان لم يأخذوا كتاب الحماسة مسنداً إلى أبي تمام ، وانما أخذوه كتاباً منسوخاً من نسخة كتبها أبو تمام أو من نسخة نقلت مما خطه بيده على نحو ما سنوضحه فيما بعد .

وفي إدراكي أن هذه النتيجة التي خرجنا بها من هاتين الروايتين تحتاج إلى توجيه ،

(١) طبعت نقائض جرير والأخطل لأول مرة في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٢ ، وعني بتصحيحها الأب أنطون صالحاني اليسوعي .

(٢) ينظر شرح التبريزي ١ : ٤ .

وذلك لأنني وجدت في مقدمة شرح أبي الرضا الراوندي(١) ما نصه : « قال أبو الرضا فضل الله بن علي أخبرني بكتاب الحماسة الشيخ الامام بديع الزمان أبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد بن محمد البغدادي(٢) . رحمة الله عليه - قراءة عليه بأصبهان في رجب سنة تسع عشرة وخمسمائة قال : أخبرني أبو السعادات علي بن بختيار الواسطي(٣) قال : حدثنا أبو غالب محمد بن أحمد بن بشران(٤) قال : أخبرني علي بن محمد بن دينار(٥) عن الحسن بن بشر الآمدي(٦) قال ابن بشران وحدثنا به الحسين بن علي بن الوليد(٧) قال حدثنا أبو رياش أحمد بن هاشم قالا جميعاً : حدثنا أبو المطرف الأنطاكي أحمد ابن أوس الطائي(٨)» .

---

(١) هو أبو الرضا ضياء الدين فضل الله بن علي بن عبيد الله الحسيني الكاشاني الراوندي ، أحد شراح الحماسة . كان شاعراً أديباً خلّف ديوان شعر كما خلّف كتاب النوادر والكافي في العروض والقوافي ، توفي سنة ٥٤٩ ، ينظر كحالة في معجم المؤلفين ٨ : ٧٥ .

(٢) ورد ذكر أبي الفضل في وفيات الأعيان ١ : ٢٠٨ عند ترجمة منتخب الدين العجلي ، فقد أخذ عنه منتخب الدين الحديث ، وتوفي منتخب الدين هذا سنة ٦٠٠ هـ ، وهذا يدل على أن وفاة أبي الفضل كانت قبل هذا التاريخ .

(٣) لم نعثر له على ترجمة في المظان .

(٤) أبو غالب محمد بن أحمد بن سهل ، وبشران جده لأمه ، من أهل واسط ، وهو أحد الأئمة المعروفين والعلماء المشهورين ، كان صاحب نحو ولغة وحديث وأخبار ودين ، توفي سنة ٤٦٢هـ . ينظر ترجمته في معجم الأدباء ١٧ : ٢١٤ .

(٥) هو أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار الكاتب ، بصري الأصل واسطي المولد والمنشأ . كان شاعراً مجيداً ، شارك المتنبي في أكثر ممدوحيه ، توفي سنة ٤٠٩هـ . وترجمته في معجم الأدباء ١٤ : ٢٤٥ .

(٦) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي ، صاحب الموازنة بين الطائيين وأحد رواة الحماسة وشراحها ، توفي سنة ٣٧١ وترجمته في معشم الأدباء ٧ : ٧٥ وما بعدها ، وبغية الوعاة ١ : ٥٠٠ وما يليها ، وغيرها من كتب التراجم .

(٧) هو أبو عبدالله الحسين بن علي النمري صاحب « معاني أبيات الحماسة » وقد ترجمنا له في الكتاب الثاني في مقدمة شرح زيد بن علي الفارسي .

(٨) ينظر مقدمة الراوندي لشرحه المخطوط والموجود بالمتحف البريطاني بلندن تحت رقم ١٦٦٣ .

وبجانب هذا الذي ذكره الراوندي نجد أبا الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني[(١)] يقول في مقدمة شرحه للحماسة : « قرأت هذا الكتاب ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة على الشيخ أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري[(٢)] وقال لي : قرأته على أبي رياش أحمد بن هاشم بن شبل القيسي الربعي - رحمه الله - بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وقال : أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي قال : أنشدنا أبو تمام حبيب ابن أوس الطائي[(٣)] » .

ويدعم ما جاء في هاتين الروايتين ما ذكره القفطي في أنباه الرواة : أن القاضي أبا الفرج محمد بن عبدالله بن الحسن البصري اجتمع بواسط سنة ستين وأربعمائة بأبي غالب محمد بن أحمد بن بشران ، المتقدم ذكره ، وكان بصحبة القاضي أبي الفرج كتب تصلح للقراءة على ابن بشران منها كتاب الحماسة قال القاضي أبو الفرج : فبدأت بقراءته عليه يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى سنة ستين وأربعمائة وسألته عن إسناده فيها - أي الحماسة - فقال : قرأتها على أبي الحسين علي بن محمد بن عبد الرحيم بن دينار عن أبي القاسم الحسن بن بشر الكاتب عن أبي المطرف الأنطاكي . قال : وسمعتها أيضاً عن أبي عبدالله الحسين بن علي بن الوليد النحوي عن أبي رياش أحمد بن أبي هاشم[(٤)] عن أبي المطرف عن أبي تمام[(٥)] .

---

(١) هو أحد شراح الحماسة ، وشرحه مخطوط بمكتبة الاسكوريال باسبانيا . توفي سنة ٤٣١هـ . ترجمته في معجم الأدباء١٧ : ١٤٥ .

(٢) هو أحد رواة الحماسة ، سكن بغداد ، وكان مشرفاً على دار الكتب بها ، ذكره أبو العلاء في شرحه للحماسة ، ومدحه بقصيدة أرسلها اليه من المعرة . توفي سنة ٤٠٥هـ ترجمته في أنباه الرواة ٢ : ١٧٥ وما يليها ، وتلخيص ابن مكتوم ص ١٠٨ ، وله ذكر في كتب التاريخ والطبقات .

(٣) ينظر الورقة الأولى من مخطوطة شرح الجرجاني ، الاسكوريال رقم ٢٨٩ ، وفي قوله إن أحمد بن عبد السلام أخذ عن أبي رياش كتاب الحماسة سنة ٣٤٨هـ نظر .

(٤) تخطىء الكتب في اسم أبي رياش فمرة تذكره أحمد بن إبراهيم، ومرة أحمد بن هاشم، وثالثة أحمد بن أبي هاشم ، والصحيح ما ذكره ياقوت في معجم الأدباء ٢ : ١٢٣ أنه أحمد بن إبراهيم وأن « أبو هاشم » هي كنية أبيه ، وكنيته هو أبو رياش .

(٥) ينظر انباه الرواة ٣ : ٤٥ .

وبناء على هذه الروايات فان كتاب الحماسة بجانب النسخة التي حملها أبو العواذل من همذان الى أصبهان قد أخذه العلماء من طريقين أحدهما أبو رياش الذي رواه عن أبي المطرّف عن أبي تمام[1] ، والآخر الحسن بن بشر الآمدي الذي رواه أيضاً عن أبي المطرف عن أبي تمام ، وهذا يعني أنّ أبا تمام قد حمل معه من همذان نسخاً من الكتب التي صنعها في بيت أبي الوفاء بن سلمة ، والاّ كيف تفسرّ أن أبا المطرف أخذ عنه كتاب الحماسة ورواه لكل من أبي رياش والآمدي ، فنحن لا نستبعد أن يكون أبو الوفاء قد كلفّ أحد الكتبة بأن ينسخ له ما صنع أبو تمام من كتب ، وهي الكتب التي بقيت في بيته حتى جاء أبو العواذل فنسخها وحملها الى أصبهان . أما ما صنعه أبو تمام من كتب بخط يده ، فأغلب الظن أنه حملها معه حين غادر همذان ، ومنها نسخة الحماسة حيث أنشدها أبا المطرف ورواها أبو المطرف بدوره لأبي رياش وللآمدي .

٣ ـ أبواب الحماسة :

لم يكن هم أبي تمام في الحماسة أن يكون رواية جامع شعر ، وانما كان شاعراً يريد أن ينتخب الجيد مما قاله غيره في أغراض الشعر المختلفة ، ولهذا جاء صنيعه في الحماسة مختلفاً عمن سبقه من الذين صنعوا اختيارات في الشعر العربي مثل المفضّل الضبي ، وعبد الملك بن قريب الأصمعي وغيرهما ، فهؤلاء كان همهم أن يجمعوا ما قالت العرب من شعر وأن ينتخبوا منه القصائد ، دون النظر الى الأغراض التي اشتملت عليها ، وما اختاروه من قصائد يتفق مع ميولهم الى اللغة وما يتصل بها من دروس ، ومن أجل هذا جاء عمل أبي تمام في الحماسة ابتكاراً غير مسبوق ، لأنه جعل عماد اختياره أبواباً بلغت في الاختيار عشرة ، كان للحماسة النصيب الأكبر منها ، ولذا غلب هذا الغرض على اسم الكتاب ، فسمي بكتاب الحماسة ، أو ديوان الحماسة . والذي يفهم مما وصل الينا من المراجع أن أبا تمام هو الذي أطلق عليه هذا

---

(١) في مكتبة اسماعيل صائب ، التابعة لمكتبة كلية الجغرافيا والتاريخ بأنقرة نسخة من رواية أبي رياش للحماسة تحت رقم ١٤٣١ ، وهي بخط رجل يدعى أحمد بن بكر بن أحمد ، وقد فرغ منها سنة ٤٢٦ هـ ، وهي في ١٧٣ ورقة وبخط واضح مقروء .

الاسم ، حيث نجد الآمدي يذكر في ترجمته للمثلَّم بن عمرو التنوخي قوله : « أنشد له الطائي في اختياره الذي سمَّاه الحماسة »[1].

ولعل الدافع في هذه التسمية يرجع الى أن الحماسة أكثر الأبواب قطعاً في الاختيار أو لأنه الغرض الذي جاء أولاً في الاختيار ، فحملت بقية الأبواب عليه ، وقد ذهب الى هذا الأستاذ علي النجدي ناصف وناقشه مناقشة مستفيضة مفادها : ان الحماسة جزء عظيم من الكتاب له بين سائر الأجزاء منزلة وشأن ، وإنزالِ جزء الشيء لمزيّة فيه منزلة كله ، وإجراؤه في الحكم مجراه عمل معروف وسنة متبعة » وكذلك الشأن في تسمية الشيء بأوله فهو معروف مقرر مثل تسمية بعض السور بأولها ، والكتب والقصائد وغير ذلك[2].

أما لماذا استحق غرض الحماسة أن يكون أول الأغراض في الاختيار ، فهذا في رأينا راجع الى أن الحماسة أهم غرض دار حوله الشعراء في عصر ما قبل الاسلام ، وهو عصر كان له نصيب وافر في اختيار الحماسة . يقول الدكتور شوقي ضيف ، وهو يتحدث عن الجاهليين : « ولا نبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضع استنفد قصائدهم ، فقد سعّرتهم الحروب وأمدها شعراؤهم بوقود جزل من التغني ببطولاتهم ، وأنهم لا يهابون الموت ، يترامون نحوه تحت ظلال السيوف والرماح ، مدافعين عن شرف قبائلهم وحماها ، ويرتفع هذا الغناء بل هذا الصياح في كل مكان بحيث يخيّل الينا أنه لم يكن هنالك صوت سواه »[3].

هذا في عصر ما قبل الاسلام أما في عصر صدر الاسلام وهو عصر ضم اختيار الحماسة شعراً لشعرائه ، فانه أيضاً لم يخل من وجود الحماسة فيه ، وبخاصة في غزوات النبي ﷺ ـ وسراياه ، وما تلاها من فتوحات إسلامية . لهذا كله ، ولكون الحماسة ـ كما يقول التبريزي ـ شجاعة العرب والصفة الأولى من صفاتهم »[4] حمل

(١) المؤتلف والمختلف ط القدس ص ١٨ .

(٢) دراسة في حماسة أبي تمام ص ١٥ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ص ٢٠٢ .

(٤) ينظر مقدمة شرح التبريزي .

الكتاب اسم الحماسة .

وأبواب الحماسة كما أشرنا من قبل عشرة أبواب ، هذا ما نجده في ديوان الحماسة وفي الشروح التي وقفنا عليها عدا شرح المرزوقي الذي فصل بين الأضياف والمديح ، فجعل كلا منهما باباً مستقلاً ، ولذلك بلغت الأبواب في شرحه أحد عشر باباً ، وأغلب ظننا أن هذا ليس من عمل المرزوقي ، وانما هو من عمل نساخ شرحه ، لأن جملة من القطع وردت عنده في باب المديح هي من الأضياف ولا مسوّغ لها إلا إذا كان الأضياف والمديح باباً واحداً ، وكذلك الشأن في باب الأضياف فقد وردت فيه قطع من المديح لا يصلح موضعها إلا في باب المديح . هذا فضلاً عن أن المرزوقي كان يختم كل باب بعبارة تدل على الفراغ منه مثل قوله في نهاية باب الحماسة : « تمّ باب الحماسة بحمدالله الذي هو ولي الحمد » ، وقوله في نهاية باب الرثاء : « تمّ باب المراثي بحسن توفيق الله وجميل صنعه » ، ولم يقل ذلك في باب الأضياف الذي تلاه باب المديح ، ولم يكن المرزوقي ليفصل بين البابين وهو يعلم أن القطع متداخلة فيهما ، ولا ينوه لذلك في شرحه . على أن الثابت لدى الشراح الذين وقفنا على شروحهم أنهم يسمون هذا الباب بباب الأضياف والمديح ، كما هو الحال عند أبي عبدالله النمري في «معاني أبيات الحماسة» أو بباب الأضياف فقط كما ورد عند زيد بن علي الفارسي وغيره[١] . وفي كشف الظنون قال حاجي خليفة ـ وهو يتحدث عن أبي تمام وكتاب الحماسة ـ : « وجمع فيه ما اختاره من أشعار العرب العرباء مرتبة على أبواب عشرة : الحماسة ، والمراثي ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والاضافات ، والصفات ، والسير ، والملح ، ومذمة النساء .

ولقد تفاوتت القطع الشعريّة في هذه الأبواب فكان أكثر الأبواب قطعاً هو باب الحماسة ، وأقلها قطعاً باب الصفات الذي لم يتجاوز الأربع قطع في بعض الروايات ، وأغلب الروايات اتفقت على ثلاث قطع فقط .

---

(١) ينظر مختصر أبيات الحماسة ـ مخطوط بمكتبة اسماعيل صائب ، التابعة لمكتبة كلية التاريخ والجغرافيا بأنقرة رقم ١٤٣١ . وينظر تعليقنا على هامش باب الأضياف في الشرح الذي حققناه في الكتاب الثاني من هذه الدراسة .

ولا شك في أن هناك فروقاً في عدد القطع في شروح الشراح ، وفي روايات متن الحماسة ، ويمكن أن نتبين هذه الفروق من خلال ثلاثة شروح ، اثنان منها مطبوعان هما شرح المرزوقي وشرح التبريزي ، والثالث الشرح الذي حققناه في الكتاب الثاني من هذه الدراسة ، مضافاً اليها رواية أبي رياش للحماسة التي وجدناها في مخطوطة يرجع تاريخها الى سنة ٤٣٦ هـ ، والجدول الآتي يبيّن هذه الفروق :

فواضح من خلال هذا الجدول أنه لم يقع اتفاق بين الروايات الأربع إلا في باب السير والنعاس الذي جاء في الروايات جميعاً تسع قطع ، كما أن هناك اتفاقاً وقع بين ثلاث روايات هي رواية أبي رياش والمرزوقي وزيد بن علي حيث بلغ باب المراثي عندهم سبعاً وثلاثين ومائة قطعة ، وشذّ عنهم التبريزي حيث زاد عن الروايات الثلاث قطعتين ، وبرز كذلك اتفاق اثنتين من هذه الروايات في باب من الأبواب مثل اتفاق المرزوقي والتبريزي في عدد قطع أبواب الهجاء والصفات والملح ، واتفاق المرزوقي وزيد بن علي في قطع باب الحماسة ، واتفاق أبي رياش وزيد بن علي في باب الصفات ، والتبريزي وأبي رياش في باب مذمة النساء ، والمرزوقي وزيد بن علي في الباب نفسه ، أما بابا النسيب والأضياف فقد كان الاختلاف واضحاً بين الروايات الأربع ، إذ لم تتفق رواية مع أخرى فيهما .

ويمكن إرجاع هذه المفارقات في إيراد القطع وعددها إلى اختلاف نسخ الحماسة التي كانت بين أيدي الشراح ، ولقد أشار المرزوقي إلى هذا في أكثر من موضع في شرحه ، ففي بيت ابن زيّابة الذي يقول فيه :

آلَيْتُ لَا أَدْفِنُ قَتْلَاكُمُ فَدَخِّنُوا الْمَرْءَ وَسِرْبَالَهُ

قال المرزوقي : « هذا البيت لم أجده في نسخ كثيرة ، فيغلب ظني أنه ليس من الاختيار »[1] .

وفي حماسية حريث بن عنّاب التي يقول في مطلعها :

(١) ينظر شرحه ق ١ : ١٤٥ .

الأبواب	الحماسة	المراثي	الأدب	النسيب	الهجاء	الأضياف والمديح	الصفات	السير والنعاس	الملح	مذمة النساء
رواية أبي رياش	٢٦٤	١٣٧	٥٧	١٣٩	٧٨	١٤١	٤	٩	٣٧	١٨
رواية المرزوقي	٢٦١	١٣٧	٥٥	١٤١	٨٠	١٤٢	٣	٩	٣٨	١٩
رواية التبريزي	٢٥٧	١٣٩	٥٣	١٥٥	٨٠	١٤٣	٣	٩	٣٨	١٨
رواية زيد بن علي الفارسي	٢٦١	١٣٧	٥١	١٣٦	٧٦	١٣٩	٤	٩	٣٣	١٩

تَعالَوْا أُفَاخِرْكُمْ أَأَعْيَا وَفَقْعَسٌ إلى المَجْدِ أَدْنَى أم عَشِيرةُ خاتِمِ

أشار المرزوقي إلى رواية أخرى تقول : « أأعيار فقعس » ثم عقّب بقوله : « وقد رجعنا إلى نسخ مختلفات المصادر فوجدناها متوافقة في تحملها : أأعيا وفقعس »[1].

ولكن إذا كنا قد ذهبنا إلى أن الاختلاف في عدد القطع بين هذه الروايات نتج عن اختلاف النسخ التي اعتمد عليها الشراح فيجب أن نكون حذرين في أخذ هذا السبب بأن لا نعممه فنجعله سبباً في كل خلل وقع في هذه الأبواب وبخاصة حين نرى قطعاً وضعت في أبواب ليست في موضعها الذي وضعت فيه ، وهذا ما نحاول مناقشته فيما يلي :

٤ ـ وجود قطع في الأبواب ليست منها :

واذا كان أبو تمام قد صنّف اختياره على عشرة أبواب كما أوضحنا ، فمن المراعى أن تكون القطع الواردة في كل باب مجانسة له ، ولا تخرج من حيّزه إلى باب آخر . غير أن ما لاحظناه هذا الشأن أن خللاً ما وقع في بعض هذه الأبواب ، إذ روي شعر في بعض الأبواب لا ينبغي أن يكون فيها ، وقد ناقش الأستاذ علي النجدي ناصف هذا الجانب فأشار إلى أن أبا تمام « قد أدخل في الحماسة ما لا يبدو أنه منها إلا ببعض الحيلة والتكلّف ، فقد كان يدخل فيها وفي غيرها ما لا يبدو أنه منها ، ولا أعتقد أن الحيلة أو التكلف يمكن أن يجديا عليه في ذلك شيئاً »[2] .

ولقد قصد الأستاذ علي النجدي بالحيلة والتكلف ما كان يصنعه بعض الشراح في التعليل لوجود قطعة وردت في باب لا تجانسه ، وذلك مثل المرزوقي الذي قال في بيتي معدان بن جوّاس الواردين في باب الحماسة واللذين يقول فيهما :

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥٥ .

(٢) دراسة في حماسة أبي تمام ص ٢٩ .

إنْ كَانَ ما بُلِّغْتَ عَنِّي فَلامَني صَدِيقٌ وَشُلَّتْ مِنْ يَدَيَّ الأنَامِلُ
وَكَفَّنْتُ وَحْدِي مُنْذِراً بِرِدَائِهِ وَصَادَقَ حَوْطاً مِنْ أَعَادِيَّ قَاتِلُ

« ودخل هذان البيتان في الباب لما اشتملا عليه لفظاً ومعنى من الفظاظة والقسوة »[1]. وهي في رأينا علة بعيدة إذ ينبغي على هذا أن يدخل كل شعر فيه فظاظة وقسوة في هذا الباب .

ولقد حاول زيد بن علي الفارسي أن يوجد علة لوجود هذين البيتين في الحماسة فلجأ إلى تعليل قد يبدو مقبولاً في مثل هذه الحال قال : « فان قيل فما في البيتين من الحماسة؟ فالجواب أنه يعتذر عما نسب إليه من النكول في الحرب، وينتفي ذلك منه ، وهذا فعل الشجاع »[2]. فهي علة تبدو مقبولة ، ولكن ظاهر البيتين لا يدلّ على أنه يعتذر عن النكول في الحرب ، فربما كان يعتذر من شيء لاصلة له بهذا الذي ذكره زيد بن علي ، ويبدو أن الأمر كذلك ، لأن أبا محمد الأعرابي ذكر أن هذين البيتين ليسا لمعدان بن جوّاس ، وانما لحجيّة بن المضرّب قالهما في الاعتذار الى النعمان ابن المنذر حين اتهمه الأخير بأنه أنذر تميماً من غزوة كان النعمان قد أزمع القيام بها ضد بني تميم[3].

ومثل ذلك ما ذكره المرزوقي في أبيات شبرمة بن الطفيل التي يقول فيها :

وَيَوْمٍ شَدِيدِ الحَرِّ قصرَّ طُولَهُ دَمُ الزِقِ عَنَّا واصْطِفَاقُ المَزاهِرِ
لَدُنْ غُدْوَةً حَتَّى أَرُوحَ وَصُحْبَتي عُصَاةٌ عَلَى النَّاهِينَ شُمُّ المَنَاخِرِ
كَأَنَّ أَبَارِيقَ الشَّمُولِ لَدَيْهِمِ أَوَزٌّ بِأَعْلَى الطَّفِ عُوجُ الحَدَاجِرِ

فقد قال : « وأدخل هذه القطعة في باب النسيب لرقتها ودلالتها على اللهو والخسارة »[4]، وليست هذه بعلة وانما هو تكلف ظاهر ، إذ لو صح مثل هذا القول

---

(1) شرحه ق ١ : ١٥١ .
(٢) ينظر شرحه في الكتاب الثاني ، الحماسيّة ٢٧ .
(٣) ينظر مخطوطة « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله » الورقة ٤ .
(٤) ينظر شرحه ق ٣ : ١٢٧٠ .

لجاز أن يدخل في باب النسيب جل الشعر الذي قاله الشعراء في الخمر .

وإذا كان بعض الشراح وفي مقدمتهم المرزوقي قد حاولوا أن يوجدوا مبررات متكلفة لوجود بعض القطع في غير موضعها فانهم أيضاً قد نبّهوا إلى أن بعضها في غير موضعه دون أن يحاولوا إيجاد المبرر لوجودها ، وهو أمر يضع عمل أبي تمام في موضع النقص ، فالمرزوقي مثلاً علق على القطعتين الأخيرتين من باب مذمة النساء بقوله في ختام شرحه : « وهذه المقطوعة وما قبلها باب الصفات أولى بهما فاتفق وقوعهما هنا »[1] .

وأمين الدين الطبرسي وقف عند أبيات سنان بن الفحل الطائي التي يقول فيها :

وَقَالُوا قَدْ جُنِنْتَ فَقُلْتُ كَلاَّ ... وَرَبِّي مَا جُنِنْتُ وَلاَ انْتَشَيْتُ
وَلَكِنِّي ظُلِمْتُ فَكِدْتُ أَبْكِي ... مِنْ الظُّلْمِ المُبَيِّنِ أَوْ بَكَيْتُ

وعقب عليها بقوله : « قد عيب علي أبي تمام إيراده مثل هذه الأبيات في باب الحماسة ، والبكاء على الظلم ضعف وعجز ، والوجه فيه أن بكاءه كان لمطالبتهم ما ليس لهم ولا سبيل له على الاعتساف والمغالبة فعل أهل الجاهلية اذ لا يراقب دين ولا يرهب سلطان »[2] .

ولقد حاول الأستاذ عبد العزيز الميمني الدفاع عن أبي تمام حين رأى المرزوقي وأضرابه ينبهون على الخلل الذي وقع في الاختيار في هذا الجانب فقال : عندي أن أبا تمام غير مسؤول عن هذا النقص لسببين : الأول أن أبا تمام أقدر على تصنيف الشعر بحسب معانيه فيضع شعر المدح في باب المدح وشعر النسيب في باب النسيب وهكذا ، وليس الأمر على هذا نحو ما ذهب إليه المرزوقي في تعليل ما جاء من إخلال في التبويب ، والآخر أن الحماسة أصبحت مع الزمن قبل أن تصل إلى المرزوقي نسخاً عدة فقد ذكر أنه عند شرحها كان يرجع إلى نسخ مختلفات المصادر ، وهذا التعدد

---

(١) نفسه ق ٤ : ١٨٨٥ .

(٢) خزانة الأدب ٦ : ٣٥ .

يقف وراء اختلاف المرزوقي والتبريزي في روايتها وعدد أبياتها ، وفي ترتيب المختارات فيها وترتيب الأبيات في بعضها »[١]

وفي إدراكي أننا يمكن أن نرجع اختلاف عدد القطع وترتيبها في الباب الواحد ، وعدد الأبيات في القطعة الواحدة ، بل وترتيبها أيضاً إلى اختلاف نسخ الحماسة المتداولة بين الناس في ذلك الزمن ، أما أن نرجع وجود قطعة في غير موضعها لهذا السبب فهذا ما ينبغي أن نحذره ، وذلك لأننا قد نجد اتفاقاً يقع بين روايتين فأكثر في عدد القطع أو في الترتيب أو في عدد الأبيات وترتيبها ، ولكننا ـ وبوقوفنا على شروح عدة وفي عصور مختلفة ـ لم نجد قطعة واحدة من القطع التي رويت في غير موضعها من الأبواب قد رويت في شرح واحد من الشروح التي وقفنا عليها في موضعها الذي ينبغي أن تكون فيه ، وهذا وحده هو الذي يجعلنا لا ننفي مسؤولية ذلك عن أبي تمام ، ونحن لا نشكك في أن أبا تمام أقدر على تصنيف الشعر بحسب معانيه ، ولكنه كان رائداً في هذا المجال ، فلم يسبقه أحد في هذا الصنيع ، ومعلوم أن أي عمل يكون رائداً في باب لا يخلو من فوات ، والنظائر في هذا متعددة ، فالخليل بن أحمد مثلاً كان رائداً في عمله الذي صنعه في كتاب العين ، وريادته هذه جعلته يقع في فوات يتمثل في أنه رأى أن حرف العين هو أقصى حرف يخرج من الحلق ، فجاء من بعده من نبه إلى أن الهمزة لا العين هي التي تخرج من أقصى الحلق ، ولم يعب ذلك الخليل ولا كتاب العين في أنه مجهود لعالم قدم ما رآه صحيحاً في مجال العلم .

ولعل أصدق ما يقال في هذه الخصوص هو ما قاله الأستاذ علي النجدي ناصف : « إن فنون الشعر لذلك العهد لم تكن قد حددت تحديداً دقيقاً واضحاً يرتضيه جمهور الأدباء ، ويتفقون فيه على رأي جميع ، فتصرف أبو تمام فيها دون حكمة ظاهرة ولا سبب معلوم إلا ملاحظة الفروق اليسيرة والتزام النزول على مقتضاها في التقسيم والتصنيف »[٢] .

---

(١) ينظر مقدمة الميمني في الوحشيات ط دار المعارف الثانية ١٩٦٨ .

(٢) دراسة في حماسة أبي تمام ص ٢٨ .

على أنه إن كان ثمة تعليل يمكن أن نعلل به وجود قطع في غير موضعها فهو ما وجدناه في الشرح المرجح نسبته لزيد بن علي ، وذلك حين علق على بيتي بكير بن الأخنس اللذين وردا في باب الحماسة وهما :

نَــزَلْــتُ عَلَى آلِ المُهَلَّبِ شَــاتِيــاً غَريبــاً عَن الأَوْطَــانِ في زَمَــنٍ مَحْلِ
فَما زَالَ بِي إكْرَامُهُــمْ وَاقْتِفَاؤُهُمْ وأَلْطَافُهُــمْ حَتَّــى حَسِبْتُهُــمُ أَهْلي

قال : «ليس في هذين البيتين ذكر الحماسة إلا أن الأبيات قبلهما اشتملت على الحماسة واكرام الجار ، فأورد أبو تمام هذين البيتين لأنهما في مبالغة اكرام الجار »[٢] .

فكأنه بهذا القول يقرر مبدأ المشاكلة والنظير الذي يأخذ به أبو تمام في اختيار القطع داخل الباب الواحد ، ولقد رأينا أمثلة متعددة تدل على هذا المبدأ وتؤكده ، من ذلك ما جاء في الحماسيّة رقم (٣٧) فقد أورد أبو تمام أبياتاً ثلاثة للحارث بن هشام المخزومي قالها في يوم بدر ، يوم ترك أخاه أبا جهل وغيره من سادة قريش يقتلون ولاذ بالفرار وقال :

اللهُ يَعْلَــمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّــى عَلَــوْا فَرَسِي بِأَشْقَــرَ مُزْبِدِ
وَعَلِمْــتُ أَنِّــي إنْ أُقَاتِــلْ وَاحِداً أُقْتَــلْ ولاَ يَضْرُرْ عَدُوِّي مَشْهَدِي
فَصَــدَدْتُ عَنْهُمْ وَالأحِبَّة بَيْنَهُمْ طَمَعَــا لَهُــمْ بِعِقَــابِ يَوْمٍ سَرْمَدِ

فواضح أنه وإن فرّ وترك أحبّاءه يقتلون ، فإن البيت الثالث يدل على حرصه على أخذ الثأر لهم ، وهذا فعل الشجاع العاقل الذي يفر ليكر ، ومن هنا دخلت الأبيات في باب الحماسة ، ولكن أبا تمام روى بعد هذه القطعة قطعة للفرّار السلمي ليس فيها هذا الذي لحظناه في أبيات الحارث بن هشام ، وإنما فيها أنه قد أثار الحرب بين الكتائب حتى إذا ما اشتعلت الحرب ، وبدأت الرماح تنال من ظهور قومه تركهم وفرّ وعلم أنه لن ينفعه نوح نساء الحيّ عليه بقولهن لا تبعد . يقول الفرّار :

وكتيبــةٍ لَبَّسْتُهَــا بِكَتِيبَةٍ حَتـى إذا الْتَبَسَتْ نَفَضْــتُ لَهَــا يَدي

(١) ينظر شرحه الحماسيّة ٩٤ من الكتاب الثاني من هذا البحث .

فَتَرَكْتُهُــمْ تَقِصُ الرِمــاحُ ظُهُورَهُمْ مِنْ بَيْنِ مُنْعَفِـرٍ وآخَـرَ مُسْنَدِ
مَا كَانَ يَنْفَعُنــي مَقَــالُ نِسَائِهِمْ وَقُتِلْــتُ خَلْفَ رِجَالِهِـمْ: لاَ تَبعُدِ

فلولا مشاكلة هذه الأبيات لما قبلها في طرف من معانيها لما حُقَّ لها أن تروى في هذا الباب .

وكذلك روى أبو تمام في باب الحماسة أبيات عمرو بن شأس المشهورة في كتب الأدب التي قالها في ابنه عرار ، يحث زوجه علي أن ترفق به ، ويهددها بالمفارقة إن لم تحسن معاملته ، وهي الأبيات التي جاء في مطلعها :

أَرَادَتْ عَرَاراً بِالهَــوانِ وَمَــنْ يُرِدْ عَرَاراً لَعَمْــرِي بالهَــوَانِ فَقَــدْ ظَلَمْ

وهي أبيات نلمس فيها شيئاً من الشجاعة في القول لأن عمرو بن شأس رأى في معاملة زوجه لابنه ظلماً ، وهو يريد بهذه الأبيات أن يرفع الظلم عن ابنه ، والوقوف في وجه الظلم أياً كان مصدره يعد ضرباً من الشجاعة ، ومن هنا كان وجود الأبيات في باب الحماسة ، غير أن أبا تمام أردف قطعة عمرو بن شأس هذه بقطعتين أخريين ليستا من الحماسة في شيء سوى مشاكلتهما لقطعة عمرو بن شأس في بعض معانيها ، الأولى منهما لاسحاق بن خلف يقول في مطلعها :

لَوْلاَ أُمَيْمَــةُ لَمْ أَجْــزَعْ مِنَ العَدَمِ وَلَمْ أُقَاسِ الدُجَى في حِنْدِسِ الظُّلَمِ

وهي تمثل عاطفة أب رحيم على ابنته يخشى عليها الضياع والذلة من بعده ، والثانية لخطّاب بن المعلّى ذات ثلاثة أبيات يقول فيها :

لَوْلاَ بنيّاتٌ كَزُغْــبِ القَطَا رُدِدْنَ مِــنْ بَـعْضٍ إِلَـىٰ بَـعْـضِ
لَكَانَ لي مُضْطَــربٌ وَاسِعٌ في الأرضِ ذَاتِ الطُــولِ والعَرْضِ
وإنمّــا أَوْلاَدُنَــا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَــا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ

فواضح أن هذه الأبيات لا علاقة لها بباب الحماسة إِلاَّمن جهة أنها شاكلت أبيات إسحاق بن خلف وأبيات عمرو بن شأس في البر بالولد والشفقة عليه .

ويمكن أن تلحظ في الحماسيّات ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،٢٥٥ في رواية المرزوقي ،

فالحماسية ٢٥٣ ، وهي لمعبد بن علقمة يقول في مطلعها :

غُيِّبْتُ عَنْ قَتْلِ الحُتَاتِ وَلَيْتَني شَهِدْتُ حُتَاتاً يَوْمَ ضُرِّجَ بالدَّمِ

وهي لا تخلو من حماسة ، ولكنها اشتملت في معانيها على العقوق الذي ينشأ بين العشائر حين يدب الفساد بينها ، ويقع الشر ليخلف الإحن والعداوات ، ولهذا أردفها أبو تمام بأبيات أميّة بن أبي الصلت التي يصوّر فيها عقوق أحد أبنائه ويقول في مطلعها :

غَذَوْتُكَ مَوْلُوداً وَعُلْتُكَ يَافِعاً تُعَلُّ بِمَا أُدْنِي إِلَيْكَ وَتُنْهَلُ

وهي أبيات بقراءتنا لها لا نجد فيها أثراً للحماسة ، ولكنه أوردها لمشاكلتها أبيات معبد بن علقمة في العقوق ، ولم يكتف بذلك بل أورد قطعة ثالثة لأم ثواب الهزّانيّة تشكو فيها عقوق ابن لها وتقول في مطلعها :

رَبَّيْتُهُ وَهْوَ مِثْلُ الفَرْخِ أَعْظَمُهُ أُمُّ الطَّعَامِ تَرَى في جِلْدِهِ زَغَبَا

ولا شك في أن مشاكلتها لأبيات أمية بن أبي الصلت هي التي أوردتها في هذا الباب ، وقد تنبه الإمام المرزوقي إلى هذا حين عقب على قطعة أميّة بن أبي الصلت مشيراً إلى أبيات أم ثواب بعدها بقوله : « فإن قيل بماذا دخل هذه الأبيات وما يتلوها ـ وهو في معناها ـ في باب الحماسة قلت : دخل فيه بالمشاكلة التي بينها وبين ما تقدمها من الأبيات المنبئة عن المفاسدة بين العشائر، وما يتولد فيها من الإحن والضغائن المُنْسية للتواشج والتناسب ، المنشئة لهتك المحارم، المبيحة لسفك الدماء وقطع العصم، إذ كان عقوق البنين للآباء وتناسي الحرم فيه مثل ذلك ، وهو ظاهر بين»[(١)] .

وجملة القول في هذه القضية أن الخلل الذي وقع في أبواب اختيار الحماسة برواية بعض الشعر في باب لا يدخل في حده نتج في رأينا عن أمرين : أحدهما أن أغراض الشعر لم تكن قد تبلورت بعد في عصر أبي تمام بالصورة التي نراها اليوم . وأدل دليل على ذلك أن البحتري تلميذ أبي تمام قد بلغ بها أربعة وسبعين ومائة باب

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٧٥٦ .

في حماسته التي تنسب إليه ، والتي قيل إنه جارى فيها أستاذه ، فهذا وحده يدل على مدى الاضطراب البالغ في ذلك الزمن في رسم حدود الأغراض التي دار فيها الشعر العربي ، والآخر ما بيّناه بالأمثلة السابقة أن أبا تمام كان يراعي في الباب الواحد مشاكلة القطع في بعض المعاني وإن خرجت عن الحد الذي يقوم عليه الباب .

د ـ مقياس أبي تمام في اختيار الحماسة :

اختلف مقياس أبي تمام في اختيار الشعر في ديوان الحماسة عن الذين سبقوه في هذا السبيل أو الذين جاءوا بعده ، فالذي ينظر في المفضليات والأصمعيات وجمهرة أشعار العرب يجد أن المقياس الذي اتبعه أصحاب هذه الاختيارات كان مقياساً يقوم على الثقافة والعلم بهدف الاطلاع على ما قالت العرب من شعر ، وما وقفت عليه من ثقافة ومعرفة تتصل باللغة والأيام والعادات والأمثال ، والحيوان أليفه وغير أليفه ، وطبيعة العيش والمواقع الجغرافية ، والمجتمع وما كان فيه من ظواهر تتصل بحياته ، والمرأة وما عرف في حياتها من رفاهية يدل عليها لبس الحلي والتزين بالاوشحة والخمر ، وتعاطي ألوان الطيب المجلوبة من خارج شبه الجزيرة ، وكذلك عاداتهم في الحرب والسلم ، وشاراتهم في الحرب ، وتمائم الأطفال ، واتصالهم بالأمم الأخرى ومظاهر ذلك في وصف قصور الأعاجم وما فيها من تصاوير ورسوم وزخارف ، ووصف ما جاءت به البحارة من بلادهم ، وكذلك الديانات من يهودية ونصرانية ومعرفتهم بأخبار الأمم البائدة ، والكتابة وأنواع أدواتها . كل هذه الألوان الثقافية العلميّة دلّ عليها الشعر الذي اختاره هؤلاء السابقون ، وقد يكون للجودة مكان في هذا الذي اختاروه ، ولكنها لم تكن وحدها هي المطلب الذي توخّوه في اختياراتهم ، وهذا ما يفرق بينهم وبين أبي تمام ، فأبو تمام لم يتوخ الثقافة والعلم في اختياره بقدر ما اهتم بجودة ما يختار .

وكذلك اختلف مقياس أبي تمام عمن جاء بعده ، فالبحتري في الحماسة المنسوبة إليه كان مقياسه في الاختيار مقياساً أخلاقياً ، وهذا ما جعل الدكتور إحسان عباس يقول عنه : « وغلبت عليه النزعة الأخلاقيّة ، والأبواب التي انتظمت حماسته تؤكد

ذلك وتدل عليه »[1] ، ومن ثم فان حماسته ضمّت الجيد وغير الجيد .

والبصري في حماسته كان مقياسه في اختيارها مقياساً دينياً ، وتستطيع أن تدرك صدق ذلك بنظرة واحدة في حماسته ، ومن أجل هذا المقياس كان مثل البحتري في حماسته، جمع بين الجيد والرديء .

ولا شك أن اختيار الجيد عند أبي تمام يقوم على مقياس جمالي فني ، وهو الذي يجعله يختار من القصيدة الواحدة بعضاً ويترك بعضها الآخر ، ولكن ما طبيعة هذا المقياس الجمالي الفني . ؟

إنه مقياس يقوم على الأساس الذي حدده علماء الشعر في ذلك الزمن للجيد من الشعر ، وهو أساس يمكن أن نجده عند الجاحظ في قوله عن رواة الشعر « ورأيت عامتهم ـ فقد طالت مشاهدتي لهم ـ لا يقفون إلّا على الألفاظ المتخيّرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجية الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور غمرتها ، وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني ، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر »[2] .

وهذا الذي عرضه الجاحظ مجملاً لا يختلف كثيراً عما ذكره الإمام المرزوقي في نظريَّة عمود الشعر التي طرحها في مقدمة شرحه للحماسة ، ولكنه كان أكثر تفصيلاً وتقنيناً من الجاحظ حيث حدَّد سبعة أبواب هي قوام عمود الشعر عنده وهي : شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخير من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار

(١) تاريخ النقد الأدبي ص ٧٣ .

(٢) البيان والتبيين ط عطوي ، بيروت ٣ : ٥٦٩ .

منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينها[1] .

واذا كان أبو تمام قد توخى الجيد مما قالت العرب فان الغلبة الغالبة من اختياره لم تخرج عن مفهوم الجيد من الشعر الذي طرحه كل من الجاحظ والمرزوقي فيما سبق ، ولكنه برغم ذلك لم يسلم من انتقاد .

وكان من أوائل المنتقدين له أبو الفضل ابن العميد حين تعجب من إيراد أبي تمام بيت الربيع بن زياد الذي يقول فيه :

مَنْ كَانَ مَسْروراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

ورأى في قوله : « فليأت نسوتنا » لفظة شنيعة .

وانتقده كذلك في إيراده قول عروة بن الورد :

قُلْتُ لِقَومٍ في الكَنِيفِ تَروَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَاوَانَ رُزَّحِ

تَنَالُوا الغِنَى أوْ تَبْلغُوا بِنُفُوسِكُمْ إلى مُسْتَراحٍ مِنْ حِمَامٍ مُبَرِّح

وتعجب كيف جمع بين كنيف ومستراح في بيتين[2] .

وفي إدراكنا أن هذا يرجع إلى حرص أبي تمام على الرواية التي أمامه ، ولا أظنه لم يدرك أن في قول الربيع : « فليأت نسوتنا » من الإيحاء ما يدل على الشناعة ، ولكن الربيع أراد المعنى الظاهر من العبارة لا المعنى الموحى منها ، وأحسب أن أبا تمام ما نظر إلا إلى هذا عندما أثبت البيت في اختياره ، وما كان ليغيّر على الشاعر قوله . أما بيتا عروة فمدلول لفظة « كنيف » هو الحظيرة من الشجر ، ومدلول لفظة « مستراح » هو الرّاحة ، غير أن الكلمتين قد صار لهما مدلول آخر عند أهل الحضر ، وشاعر كأبي تمام كان يعيش بين الأمراء والوزراء والكتاب لم يغب عن باله هذا المدلول الحضري لكلتا اللفظتين ، ولكن إدراكه لهذا المدلول الشعري ما كان يبيح له أن يغير في قول

(١) ينظر شرحه ق ١ : ٩ .

(٢) المصدر السابق ق ٢ : ٩٩٦ .

الشاعر ، والكلمة لا تكون شنيعة إلا بالمعنى الذي أراده الشاعر ، ومراد عروة من استخدامه للفظتي كنيف ومستراح لا يدل على شناعة وقبح إلا إذا نظرنا إلى معناها الحضري ، ومن ثم لا يضير أبا تمام أن يضمّن البيتين اختياره ، ما داما لم يخرجا عن حيز المقياس الجمالي الفني الذي بنى عليه اختياره . وعروة قبل كل شيء شاعر بدوي يستخدم اللغة على سجيته ووفق البيئة التي يعيشها . واذا أخذنا على أبي تمام ما اختاره من شعر جاءت لغته على سجيّة قائله ووفق بيئته البدوية ، فمعنى هذا أننا نطلب من الشاعر عروة قبل أبي تمام أن يراعي مفاهيم أهل الحضر في لغته الشعرية ، وهذا أمر متهافت لا يقوم على شيء .

وغير ابن العميد نجد ضياء الدين بن الأثير يأخذ على أبي تمام مآخذ ، وذلك حين قال : « ولعمري إن الحماسة لدليل على أن أبا تمام كان عارفاً بأسرار الألفاظ والمعاني ، إلا أن فيها مواضع يسيرة لا أرضاها ، وأكثرها في باب الهجاء »[1] ، ثم مضى فأورد الألفاظ التي أخذها على الاختيار ، منها كلمتا « زبونات » و « تيحان » الواردتان في بيت سوار بن المضرّب وهو :

بِذَبِّي الذَّمَّ عَنْ حَسَبِي بِمَالِي وَزَبُّونَاتِ أَشْوَسَ تَيَّحَانِ

وعلق عليهما بقوله : « فان زبونات وتيحان لو وقعا في الفرات لصار ملحاً أجاجاً» . وكذلك أخذ على الاختيار لفظة « جحيشاً» الواردة في بيت تأبط شراً القائل :

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا جَحِيشاً وَيعْرَورِي ظُهُورَ المَسالِكِ

كما أخذ على الاختيار عبارة « على لحيتي » الواردة في بيت ابن هرم الكلابي الذي يقول فيه :

فَإِنْ ذُكِرَتْ فَاضَتْ لِعَيْنِيَ عَبْرَةٌ عَلَى لِحْيَتِي نَثْرَ الجُمَانِ مِنَ العِقْدِ

ومضى ابن الأثير يعدد مآخذه على الأبيات المختارة في الحماسة حتى بلغ بها نحو

---

(١) الاستدراك في الرد على ابن الدهان ص ١٨ .

خمسمائة بيت أغلبها في الهجاء ، رأى نفيها من الحماسة ضرورياً ، وحجته في ذلك أن هذه الأبيات ليست من الأبيات التي لا يتم المعنى فيها إلاَّ بها ، فيضطر حينئذ إلى إبداعها في جملة اختياره »[1] .

ومع وجاهة ما ذهب إليه ابن الأثير فاننا نرى أن جلّ مآخذه على أبي تمام جاءت في باب الهجاء،ومن هنا يمكن القول بأن طبيعة الباب ربما فرضت على أبي تمام أن يخرج عن الحيّز الذي رسمه لمقياس الجودة عنده ، كما أن بعض الأبيات التي رأى ابن الأثير نفيها هي في واقع الأمر متصلة بأبيات غيرها جيدة مثل بيت سوار بن المضرب السابق ذكره فانه متصل بما قبله اذا نفي لزم أن ينفى البيت الذي يسبقه ، هذا فضلاً عما قلناه سابقاً أن أبا تمام كان رائداً في عمله هذا ، وكل رائد لا يسلم من نقص أوفوات ،وهذا ما أكّده ابن الأثير نفسه حين قال بعدما عرض من مآخذ على أبي تمام: «وعلى ما ذكرته من أن في الحماسة مواضع غير مختارة ، فإن أبا تمام هو إمام الناس شعراً ومعرفة بالشعر ، وإن شذّ عنه شاذة في الاختيار الذي اختاره ، فمن الذي يسلم من ذلك»[1] .

واذا كان بعض القدماء قد أخذوا على أبي تمام بعض المآخذ في اختيار الحماسة فان بعض المعاصرين قد سلك السبيل نفسه ، فالاستاذ علي النجدي ناصف أخذ عليه أنه «أسقط الاعتذار من الفنون التي اختار لها ولم يذكره،ولم يختر له مفرداً ولا مع غيره ، كما صنع لسائر الفنون ، ولست أعرف لاسقاطه وجهاً ، فهو فن كريم من القول، جد لا هزل فيه ولا عبث ، يتصل في الباعث عليه ، والقول فيه بطبيعة الحياة وأدب السلوك »[3] .

وأخذ أيضاً عليه ما اختاره في باب الملح ، وتمنى لو أنه طرح هذا الباب وجاء بالاعتذار بدلاً منه ، وحجته في هذا كما وضح في السابق أن الاعتذار فن كريم من

---

(١) ينظر في هذا الاستدراك ص ١٩ ـ ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢ .

(٣) دراسة في حماسة أبي تمام ص ٢٣ .

القول وأن الملح فيها كثير من الخنا والتصريح بالعوراء ، والاسفاف في الفكرة والتفه في الموضوع »[1].

ويقيني أن هذه المآخذ كانت تصح لو أن مقياس أبي تمام كان مقياساً أخلاقياً ، أما وقد كان مقياسه جمالياً فنياً فلا وجه حينئذ للمفاضلة بين باب الاعتذار والملح ، أضف الى ذلك أن الاعتذار قد ارتبط منذ الجاهلية عند نابغة بني ذبيان بالمديح ، فلعل ارتباطه بالمديح هو الذي دفع أبا تمام إلى إسقاطه وبخاصة حين نراه قد عني بالمديح عناية تامة تغني عن اختيار قطع من الاعتذار يمتزج فيها الفنان معاً كما امتزج الأضياف بالمديح ، ولو فعل أبو تمام هذا لنجم شيء مس الازدواج في الاختيار يؤدي إلى خلل أو تكرار في معاني البابين .

ومهما أخذ على أبي تمام في اختياره فانه بحق كان منصفاً في الحماسة ، وانصافه إنما يتمثل في أنه خالف طريقته في الشعر التي أخذها على نفسه ، وهذا ما أكده الدكتور إحسان عباس حين قال : « من يقارن بين هذه المختارات التي تضمنتها دفتاديوان الحماسة وبين أشعار أبي تمام التي نظمها بنفسه يستطيع أن يلاحظ أنه استطاع أن يتجاوز طريقته الشعريّة ، وما تميزت به من طلب للصور ومن إغراب في توليد المعاني واستغلال الذكاء الواعي إلى شعر يتميز بالبساطة وشيء غير قليل من العفويّة ، والصدق العاطفي المباشر ، وهو في اختياراته هذه يعتمد على ذوقه الخاص ، وبذلك كان البون بعيداً حقاً بين اختيار أبي تمام في حماسته وبين طريقته الشعرية »[2] .

وهذا الذي قال به الدكتور إحسان عباس قد نوه له الامام المرزوقي في مقدمة شرحه للحماسة حين ذكر « أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لاغير ويقول ما يقول من الشعر بشهوته، والفرق بين ما يشتهى وبين ما يستجاد ظاهر بدلالة أن العارف بالبز قد يشتهي لبس ما لا يستجيده ، ويستجيد مالا يشتهي لبسه »[3] .

---

(١) نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) تاريخ النقد الأدبي ص ٧٢ .

(٣) ينظر شرح المرزوقي ق ١ : ١٣ .

وثمة أمر آخر ينبغي ملاحظته ـ ونحن نتحدث عن مقياس الجودة عند أبي تمام ، وما أخذ عليه فيه أو سجل له فيه من إنصاف ـ وهو أن الشعر العربي قد ضم بين طيّاته المستنكر الوحشي والمبتذل العامي ، واذا كنا قد قلنا اِنَّ أبا تمام كان منصفاً في اختياره فانه بجانب هذا الانصاف قد تجنب هذين اللونين في اختياره الاّ في الشاذ النادر الذي لا يعوّل عليه . وقد وضح الإمام الباقلاني هذا حين أفاد بأن الأعدل في الاختيار الشعري « ماسلكه أبو تمام من الجنس الذي جمعه في كتاب الحماسة وما اختاره من الوحشيات ، وذلك أنه تنكّب المستنكر الوحشي ، والمبتذل العامي ، وأتى بالواسطة ، وهذه طريقة من ينصف في الاختيار »[1] .

وصفوة القول في هذا الجانب أن مقياس أبي تمام في اختيار الحماسة كان مقياساً جمالياً فنياً ، وأن هذا المقياس قد ساد القطع الشعريّة التي اختارها إلاَّ في أبيات أخذ عليه بعض العلماء خروجها عن مقياس الجودة ، وأنه كان منصفاً في اختياره هذا لأنه خالف فيه طريقته في الشعر، بل حقق في هذا الاختيار نفي الوحشي المستنكر والمبتذل العامي إلا في ألفاظ قليلة تعد شاذة لا حكم لها إذا ما نظرنا إلى الكل الذي انتظم تماماً تحت مقياسه .

٦ ـ في شعراء الحماسة :

اهتم أبو تمام في اختياره بالشعراء المقلين والشعراء المجهولين،وغايته من هذا واضحة ، هي أن الشعراء المكثرين أو المعروفين قد تداول الناس دواوينهم قبل عصره ، واهتمت بهم كتب الاختيارات التي سبقته مثل اختيار القصائد السبع الطوال ودواوين القبائل وغيرها ، وربما كان أبو تمام متأثراً في اتجاهه هذا بما طلبه أبو جعفر المنصور من المفضّل الضبّي في تأديب ابنه المهدي حين قال له : « لو عمدت الى أشعار المقلين واخترت لفتاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صواباً »[2] فعمل المفضّل بنصيحة أبي جعفر فكانت المفضّليات .

(١) إعجاز القرآن ص ١١٧ .
(٢) ذيل الأمالي ط دار المعارف بيروت ص ١٣٢ .

غير أن أبا تمام وان كان مسبوقاً في الاختيار من شعر المقلين فانه قد تجاوز ذلك الى الشعراء المجهولين ، فاختار لهم قطعاً وافرة في الحماسة ، وهذا ما جعل للحماسة قيمة دون غيرها من الاختيارات فلولاها لما وقف الدارسون والعلماء على شعر هؤلاء المجهولين .

ومن الواضح لدى دارسي الحماسة أن أبا تمام قد اختار لشعراء من عصر ما قبل الاسلام ، وشعراء مخضرمين ، وشعراء من عصر بني أمية ، وعصر بني العباس ، غير أن الكثرة الكاثرة جاءت لشعراء ما قبل الاسلام وبعده ، ومن هذا كانت أهمية الحماسة لدى علماء اللغة الذين توخّوا في أعمالهم شعر عهود الاحتجاج . ولكننا اذا كنا قد لاحظنا اهتمام أبي تمام بالشعراء المقلين والمجهولين فان اختياره لم يخل من شعراء بارزين ، فمن شعراء عصر ما قبل الاسلام اختار أبو تمام للنابغة الذبياني وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعمرو بن كلثوم ، وهؤلاء الأربعة من أصحاب القصائد الطوال اذا جمعنا بين روايتي حماد الراوية والمفضّل الضبّي لهذه القصائد[(1)] . وبجانب هؤلاء اهتم أبو تمام بنفر من الشعراء الصعاليك مثل الشنفرى وتأبط شراً وعروة بن الورد . أمّا البارزون من الشعراء المخضرمين الذين اختار لهم فيأتي على رأسهم لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت ، والنابغة الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، وربيعة بن مقروم ، وعبدة بن الطبيب ، ومتمم بن نويرة ، والخنساء بنت عمرو بن الشريد .

واشتمل أيضاً اختياره على شعراء بارزين من عصر بني أميّة يتقدمهم الشاعران الكبيران الفرزدق وجرير، ويليهما ذو الرمة وعمر بن أبي ربيعة ، وجميل بن

(١) يتفق حماد والمفضّل في خمس قصائد ويختلفان في اثنتين ، يتفقان في قصائد امرىء القيس وزهير ، ولبيد ، وطرفة ، وعمرو بن كلثوم ، ويختلفان في أن حمادا يروي قصيدة الحارث ابن حلزة «آذنتنا بينها أسماء » وقصيدة عنترة بن شداد « هل غادر الشعراء » في حين أن المفضل يروي قصيدة النابغة « يا دار ميّة بالعلياء فالسند » وقصيدة الأعشي « ودّع هريرة ان الركب مرتحل » . وقد جمع أبو جعفر النحاس بين الروايتين في شرحه الذي أسماه شرح التسع المشهورات ، وزاد عليه الخطيب التبريزي طويلة عبيد بن الأبرص « أقفز من أهله ملحوب » فصارت عشراً في شرحه .

معمر ، وكثير بن عبد الرحمن ، وأعشى ربيعة ، والكميت بن زيد الأسدي . أما عصر بني العباس فكان أبرز شعرائه في اختيار الحماسة صريع الغواني مسلم بن الوليد ، ودعبل الخزاعي ، وأبو العتاهية ، ومطيع بن إياس، والحسين بن مطير الأسدي .

ولاحظ الدارسون في الحماسة اهتمام أبي تمام بجماعة من شعراء طيّىء، القبيلة التي ينتمي اليها ، قال عبد السلام هارون : « وعني عناية خاصة بشعراء طيّىء، فكان قسطهم في اختياره قسطاً كبيراً »[1] .

وعلل الأستاذ علي النجدي ناصف لعناية أبي تمام برواية شعر قبيلته بقوله : « ولا على أبي تمام أن يبرّ شعراء قومه ، ويفي لهم ، وينشر شعرهم ، ويختار منه ما دام حقيقاً بالنشر والاختيار ، ففيه حينئذ داعيان الجودة والقومية ، وفي شعر الآخرين من غير قومه داع واحد هو الجودة لا غير »[2] .

والحق أن الذي ينظر في الشعر الذي اختاره أبو تمام لشعراء طيىء يجد أنّه حري بالاختيار بل إن فيه ما يبلغ الدرجة العليا من بليغ القول وبديعه بحيث يمكن القول فيه بأن بعضه أبلغ ما ضمت بعض الأبواب ، ومن هذا لا تبدو عصبيّة في هذا الاختيار، فالجودة ظاهرة فيما اختاره من شعر طيىء كما أنه إذا كان قد اهتم بالمجهولين من شعراء قبيلته فان المجهولين من غير طيّىء قد كان لهم وجود في الاختيار.

وثمة قضية عرضها المرزباني في كتابه الموشح تتمثل في أن أبا تمام باهتمامه بالمجهولين والمقلين قد توخي طيّ أكثر إحسان الشعراء لأنه سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع إليها في وقت حاجته ، ورجاء أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها ويقنعوا باختياره لهم فتغبى عليهم سرقاته[3] .

وهذا الكلام باطل من وجهين أحدهما : أن الحماسة اشتملت على كثير من المعاني

---

(١) مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ٩ .

(٢) دراسة في حماسة أبي تمام ص ٣٢ .

(٣) الموشح ط السلفيّة ص ٣١٢.

التي استمد منها أبو تمام جملة من معاني شعره ، فلو كان في ذهنه - وهو يصنع الحماسة - أن يخفي الأشعار التي أخذ معانيه منها لكان الأولى أن يخفي هذه الأشعار التي جاءت في الحماسة دالة على أنه أفاد منها في معانيه ، والوجه الآخر أن أبا تمام ليس وحده الذي يمتلك أشعار المحسنين حتى يحجبها عن الناس بقصد إخفاء أخذِه منها ، أو بقصد الافادة منها عند الحاجة في تأليف الشعر ، فداواوين الشعراء المحسنين والاختيارات من شعرهم كانت قد انتشرت بين أيدي الناس ، وصحيح أن العلماء وطالبي الأدب قد اهتموا بالحماسة ولكن اهتمامهم هذا لم يصرفهم عن الاهتمام بغيرها من كتب الاختيارات أو الدواوين ، ومن ثم تبدو هذه الدعوى متهافتة لا تستند على شيء يعوّل عليه سوى النيل من الرجل في أمر لم يخطر بباله قط .

٧ - في دعوى تغيير أبي تمام لنصوص الحماسة :

وفي رأينا أن أهم قضيّة أثيرت حول ديوان الحماسة هي الدعوى التي قامت دالة على أن أبا تمام كان يغير في الشعر الذي يورده في الحماسة ، ويترتب على هذه الدعوى حكم على الحماسة بأنها لا تصلح أن تكون مصدراً من مصادر الشعر العربي الفصيح ، لأن أبا تمام يعد من الشعراء المحدثين ، ولا يدخل في عهود الاحتجاج ، واذا كان قد غير في نصوص الحماسة فان عمله هذا يلقي عليها ظلالاً من الحداثة تحجبها عن أن تكون مصدراً من مصادر القول الفصيح ، ولكن ما حقيقة هذه الدعوى ، وما مدى صدق هذا الحكم المرتب عليها، وما مواقف الباحثين قدماء ومعاصرين منها ، فلعلنا من مناقشة ذلك كله نخرج برأي واضح يضيف شيئاً في هذه القضية .

أن أول من وقفنا على كلامه في دعوى التغيير هو ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠هـ ، فقد ذكر المرزوقي عند مرثية الربيع بن زياد في مالك بن زهير العبسي ، وفي شرح بيت الربيع القائل :

مَنْ كَانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ فَلْيَأْتِ ساحَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

قال : يروى « فليأت نسوتنا » ورأيت الأستاذ الرئيس أبا الفضل ابن العميد يقول : « أني لأتعجب من أبي تمام مع تكلّفه رمّ جوانب ما يختاره من الأبيات ، وغسله من درن بشع الألفاظ كيف ترك تأمّل قوله : « فليأت نسوتنا » وهذه لفظة شنيعة»[١] .

وواضح من هذا النص أن المرزوقي كان يكبر ابن العميد ويأخذ أقواله مأخذ التسليم ، ولذا نراه يتبنى هذا القول في شرحه دون شراح الحماسة الآخرين فيذكر في مقدمته أن أبا تمام « ينتهي الى البيت الجيد فيه لفظة تشينه فيجبر نقيصته من عنده ، ويبدّل الكلمة بأختها في نقده ، وهذا بينّ لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها »[٢] .

وقال في حماسيّة تأبط شراً عند البيت القائل :

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ وَلَمْ أَكُ آئباً وَكَمْ مِثْلِها فارَقْتُها وَهْيَ تَصْفِرُ

اختار بعضهم (ابن جنى) فأبت إلى فهم وما كدت آيباً « وقال : كذا وجدته في أصل شعره . . . ولا أدري لم اختار هذه الرواية ألِأنَّ فيها ما هو مرفوض في الاستعمال شاذ أم لأنه غلب في نفسه أن الشاعر قاله في الأصل ، وكلاهما لا يوجب الاختيار ، على أني قد نظرت فوجدت أبا تمام قد غير كثيراً من ألفاظ البيوت التي اشتمل عليها هذا الكتاب ، ولعله لو أنشر الله الشعراء الذين قالوها لتبعوه وسلموا له »[٣] .

هذا ما وصل الينا من القدماء في هذه القضية ، وقبل أن نسجل مناقشتنا ومناقشة غيرنا لهذه الأقوال نود أن نسجل هنا ملحظاً مهماً هو أن ابن العميد والمرزوقي انفردا من بين العلماء والنقاد بهذه الدعوى ، فالكثيرون ممن اتصل بأبي تمام في حياته وبعد موته لم يذكروا هذه الدعوى بل لم يشيروا إليها مجرد إشارة ، فنحن لا نجدها عند

(١) ينظر شرح المرزوقي ق ٢ : ٩٩٦ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ١٤ .

(٣) نفسه ص ٨٣ وما يليها .

أنصاره المتعصبين له كأبي بكر الصولي مثلاً ، ولا عند خصومه أو من جعل نفسه حكماً في الخصومة التي نشبت بين مدرسته ومدرسة البحتري كالآمدي ، بل إنّ الشراح ـ غير المرزوقي ـ الذين وقفنا على شروحهم لم يشيروا الى هذه الدعوى من قريب أو بعيد ، فالتبريزي الذي كان عالة على المرزوقي في جلّ شرحه لم نجده يسجل أقواله المتقدمة بما يفيد أنه يذهب معه في هذا الاتجاه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نسجل أول ما نسجل أن كلا من ابن العميد والمرزوقي لم يأتيا لنا بمثال واحد يؤكد أن أبا تمام كان يغيّر في النصوص بما يخالف دواوين الشعراء الذين اختار لهم ، والمثال الوحيد الذي أورده المرزوقي هو بيت تأبط شراً :

فَأُبْتُ إلىٰ فَهْمٍ وَلَمْ أَكُ آئِباً وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهيَ تَصْفِرُ

فقد أورد أن ابن جني قال في روايته «وما كدت آيبا» وقال : كذا وجدته في أصل شعره ، ولكننا لاحظنا أن المرزوقي يعترض على ذلك ويقول : «ولا أدري لم اختار هذه الرواية ألأن فيها ما هو مرفوض في الاستعمال شاذ أم لأنه غلب في نفسه أن الشاعر قاله في الأصل وكلاهما لا يوجب الاختيار » فقوله : « لم اختار هذه الرواية » يدل على أن للبيت روايتين أو أكثر احداهما رواية الحماسة ، والأخرى الرواية التي أثبتها ابن جني ، وقوله : « غلب في نفسه أن الشاعر قاله في الأصل» يدل على أنه متشكك في أن يكون تأبط شراً قد قال البيت كما رواه ابن جني .

وأما ابن العميد فاننا نراه يتعجب من كون أبي تمام يتكلف رمّ جوانب ما يختاره من الأبيات وغسله من درن بشع الألفاظ ، ويترك ألفاظاً بشعة في الحماسة ، ولكنه لم يأت لنا بمثال يبيّن لنا فيه كيف كان أبو تمام يغسل درن بشع الألفاظ بالتغيير بل هو يورد نقيض ذلك ، ويثبت أن أبا تمام كان يترك الألفاظ البشعة كما هي دون أن يحدث فيها تغييراً ، فلقد أخذ عليه أنه ترك تأمّل قول الربيع بن زياد « فليأت نسوتنا » وهي في رأيه لفظة شنيعة ، وكذلك أخذ عليه ذلك في لفظتي « كنيف » و « مستراح » الواردتين في بيتين لعروة بن الورد ، وقد مرّ بنا ذكرهما من قبل .

والذي ينظر الى الأمر يجد أن ما ذكره ابن العميد حجة عليه لا له ، بل هو دليل على أن أبا تمام كان يروي الشعر كما يجده ، ولا يحدث فيه تغييراً من عنده .

وليس من دليل لما أورده المرزوقي من أقوال سوى قوله : « وهذا بين لمن رجع الى دواوينهم فقابل ما في اختياره بها » وهو دليل فيه نظر وقابل للمناقشة . وقد تصدى له الأستاذ علي النجدي ناصف حين قال : « فان لم تكن له بينة غيرها فلا أراها كافية ولا قاطعة لأن الخلاف في الرواية شائع مألوف ، وقلما يكون نص رواية واحدة في كل أصل ، فلم لا يكون الخلاف الذي يتحدث عنه المرزوقي من اختلاف الرواية لا من تغيير أبي تمام ، وهل الوجه الذي يدوّن عليه النص في ديوان الشاعر الاّ رواية لها ما للروايات وعليها ما عليها »[1] .

ونضيف الى هذا الذي ذكره الأستاذ النجدي ـ رحمه الله ـ أننا لو سلّمنا بالزعم الذي قال به المرزوقي للزم أن نسلّم بأمرين أحدهما أن دواوين الشعراء التي كانت في أيدي الناس في عهد المرزوقي كانت ذات رواية واحدة بغض النظر عن بعد المسافات واختلاف الأزمان ، ومن ثم تكون دواوين الشعراء وأشعار القبائل التي كانت عند آل سلمة وانتخب منها أبو تمام الحماسة ذات رواية واحدة . ولا تختلف في روايتها عما كان في أيدي الناس في ذلك الزمن وما تلاه حتى عهد المرزوقي ، وهذا أمر يتعذر القول به ، وبعيد عن الواقع الذي نلمسه في دواوين الشعراء من اختلاف في الرواية عند مضاهاتها بمصادر وردت الينا من عهود سبقت أبا تمام أو كانت بعده ، مثل طبقات الشعراء لابن سلام ، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغاني لأبي الفرج ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ، ومعجم الشعراء للمرزباني ، وهؤلاء جميعاً انما كانوا يعتمدون في كتبهم على مصادر قوامها دواوين الشعراء ودواوين القبائل ، الأمر الذي يؤكد اختلاف الروايات في الدواوين التي اعتمد عليها أصحاب هذه الكتب .

أما الأمر الثاني الذي يلزم التسليم به فهو أن يكون ديوان الحماسة الذي اعتمده

---

(١) دراسة في حماسة أبي تمام ص ٤٠ .

المرزوقي في شرحه غير متعدد النسخ والرواية حتى يصح القول بأن ما فيه من شعر مختلف عما جاء في دواوين الشعر ، وهو أمر يدحضه المرزوقي نفسه حين نراه يذكر في أكثر من موضع أنه كان يرجع الى نسخ كثيرة للحماسة (١) .

ولم يقف المرزوقي عند قوله إن أبا تمام كان يزيل بشاعة الألفاظ بالتغيير بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين زعم أن أبا تمام كان يغيّر في النص لا ليزيل ما فيه من بشاعة لفظ ، ولكن لينقل النص من غرض قيل فيه إلى غرض آخر لا يدخل في حيّزه ، ففي قطعة عارق الطائي الواردة في باب الهجاء ، والتي يقول فيها :

وَاللهِ لَوْ كَانَ ابـنُ جَفْنَـةَ جارَكُمْ لَكَسَا الوُجُوهَ غَضَاضَـةً وَهَوَانَا
وَسَلاَسِـلاً يُثْنَيْنَ في أَعْنَاقِكُمْ وَاذًا لَقَطَّـعَ مِنْـكُمُ الأَقْرانا
وَلَـكَانَ عَادَتُـهُ عَلى جاراتِهِ مِسْـكاً وَرَيْطـاً رَادِعـاً وَجِفَانَا

أورد المرزوقي خبراً مفاده أن هذه الأبيات كانت في الأصل على النحو التالي :

وَاللهِ لَوكَانَ ابْـنُ جَفْنَـةَ جارَكُمْ ما إنْ كَسَـاكُمْ غَضَّـةً وَهَوَانا
وَسَلاسِلاً يَبْـرُقْـنَ في أَعْنَاقِكُمْ وَإذاً لَقَطَّـعَ مِنْـكُمُ الأَقْرَانَا
وَلَـكَانَ عَادَتُـه عَلىَ جِيرَانِهِ ذَهَبـاً وَرَيْطـاً رَادِعـاً وَجِفَانَا

ثم قال : « ان هذه الأبيات ليست بهجو لابن جفنة وانما هو مدح له ، وقد عيرّ بذكره عمرو بن هند ، وانه لو تولى من طيىء ما تولاه عمرو بن هند كانت معاملته إياهم بخلاف ما عاملهم به هو فتصور ـ يعني أبا تمام ـ أنها لابن جفنة وجعل بدل « ما إن كساكم » « لكسا الوجوه » وبدل قوله « اذا لقطع تلكم الأقرانا» : « منكم الأقرانا » وبدل قوله : « لكان عادتـه على جيرانـه » : « على جاراتـه » ومـع هذه التغييرات ليس يخلص هجوا »(٢) .

---

(١) ينظر مثلاً أقواله في الصفحات : ١٤٥ ، ١٨٠ ، ١٥٥ من شرحه .
(٢) ينظر شرحه ق ٣ : ١٤٤٧ وما يليها .

والذي يفهم من هذا القول أن المرزوقي فهم أن أبا تمام قد أورد هذه الأبيات على أنها هجاء قيل في ابن جفنة ملك غسان ، وهذا الفهم هو الذي أوقعه في هذا التهافت البيّن الذي دفع به الى اتهام أبي تمام بالتغيير، وتجاوز ذلك الى اتهامه بالقصور في الفهم في أنه لم يفطن الى أن الأبيات حتى بعد ما أحدثه من تغيير فيها لا تخلص هجواً . ويتضح وهم المرزوقي بجلاء حين نذهب الى شرح التبريزي فنجده يصدّر هذه القطعة بقوله : « وقال عارق الطائي يهجو المناذرة » فالأبيات ليست في هجاء ابن جفنة كما ذهب المرزوقي ، وانما هي في هجاء عمرو بن هند الذي ذكر أبو رياش أنه أغار على طيّىء بعد أن جعل لهم عقداً، فقال عارق هذه الأبيات[١]، وملخصها أن ابن جفنة لو كان جارك واعتديت عليه كما اعتديت علينا لكسا وجهك سبة وهوانا ولقيدك بالسلاسل ، ومزّق قومك ولأصبحت نساؤك حظايا له بعطورهن وغلائلهنّ، يقمن على خدمته، وهي على هذا فيها مدح لابن جفنة، ولكن المدح لم ينشأ لأن عارقاً أراد أن يمدحه في الأصل وانما لأنه أراد أن يهجو ابن هند ويعيره بما يصير اليه حاله لو أن هذا العداوان الذي أجراه عليهم أجراه على خصومه المعهودين الغساسنةّ ، وهذا لعمري أقبح الهجاء لأن المناذرة كانوا يكرهون أن يذكر خصومهم الغساسنة بخير ، فحين يأتي شاعر ليقول لهم أنتم تغيرون على قبيلتنا وتنالون منها ولو أنكم فعلتم هذا مع الغساسنة لكانت حالكم هي هذه الحال التي صورتها في هذه الأبيات ، فأي هجاء ينال من عمرو بن هند ويثير حفيظته أبلغ من هذا القول ؟! .

أما الأبيات التي أوردها المرزوقي وظنّ أنها الأصل في الرواية فهي - كما أوضح أبو رياش في خبرها - ليست من قول عارق بل هي من قول ابن عم له يقال له ثرملة بن شعاث الأجىء ، وقد قال هذه الأبيات حين قال له عمرو بن هند : عن ابن عمّك يهجوني ويتوعدني فقال ثرملة : والله ما هجاكم ولكنه والله قال : لو كان ابن جفنة جاركم . . . الأبيات[٢] .

والذي يؤكد أن الأبيات في هجاء ابن هند أن هذه القطعة ليست الوحيدة التي

---

(١) ينظر شرح التبريزي ٤ : ١١ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .

قالها عارق في هجاء عمرو بن هند فله قطعتان أخريان رواهما أبو تمام إحداهما يقول في مطلعها :

« أَلاَ حَيِّ قَبْلَ البَيْنِ مَنْ أَنْتَ عَاشِقُهْ »

والأخرى : « مَنْ مُبْلِغٌ عَمْرو بْنَ هِنْدَ رِسالَةً »

وبناء على كل ما ذكرنا نجد أن ما قاله المرزوقي في شأن أبيات عارق لا يقوم على شيء ، وإنما نتج عن وهم وقع منه فبنى عليه هذا الحكم الذي يغمط أبا تمام حقه لا في كونه يبدّل فيما اختاره من شعر ليزيل بشاعته، بل في أنه قاصر الفهم يفوت عليه التمييز بين شعر في المديح وشعر في الهجاء، وهو أمر لم يقل به أحد حتى خصومه، ويجعل المرزوقي نفسه في تناقض واضح حين نراه يقول في مقدمته عن أبي تمام وعمله في الحماسة: «انه لم يتفق في اختيار المقطعات أنقى مما جمعه أبو تمام ولا في المقصدات أوفى مما دونه المفضل ونقده»[١] .

وحين نصل الى الباحثين المعاصرين ورأيهم في هذه القضية نجد أن جماعة منهم قد تصدّوا لما أورده المرزوقي في شرحه ، وكان في مقدمتهم الأستاذ علي النجدي ناصف في حديثه الذي أوردناه له من قبل وكذلك تصدى له الدكتور مصطفى حسين في بحثه الذي نشره في مجلة « شعر » بعنوان « أبو علي المرزوقي شارح ديوان الحماسة » وقد جاء فيه « أن القائلين بتدخل أبي تمام وقعوا في هذا الوهم لأنهم لاحظوا اختلاف الرواية بين اختيار أبي تمام وما هو محفوظ عند سواه فساقهم هذا الوهم الى أن أبا تمام قد بدّل وغيرّ ، والحقيقة أنه كان ينظر في الروايات ويطيل النظر ثم يوازن ويفاضل مستهدياً ذوقه وبصره بالشعر ، منتهياً ـ بعد نظر ومفاضلة ـ الى رواية تجمع بين أمانة الاختيار وجودته »[٢] .

وكذلك اعترض على قول المرزوقي الدكتور عبدالله عبد الرحيم عسيلان ، وبنى اعتراضه على أن المرزوقي لم يضع في اعتباره ما قد يطرأ من اختلاف في رواية

(١) ينظر مقدمته ص ٣ وما يليها .

(٢) مجلة « شعر » المصرية عدد سبتمبر ١٩٨٠ .

الشعر، وهو واضح ملموس في كتب الأدب ودواوين الشعراء، وعلى أن أبا تمام إذا كان يغيرّ بعض الألفاظ القبيحة بأخرى سلسة حسنة فاننا نجد ألفاظاً كثيرة في الحماسة من قبيل الوحشي والمستثقل والمستكره، دون أن يطرأ عليها أي تغيير. ودعم هذا بما أورده من خبر أبي تمام الذي رواه المرزباني عن علي بن العباس الرومي الذي قال: « دخلت على أبي تمام وقد عمل شعراً لم أسمع أحسن منه، وفي الأبيات بيت واحد ليس كسائرها، فعلم أني قد وقفت على البيت فقلت: لو أسقطت هذا البيت فضحك وقال: أتراك أعلم بهذا مني، وانما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل مقدم ومنهم واحد قبيح متخلف، فهو يعرف أمره ويرى مكانه، ولا يشتهي أن يموت، ولهذه العلة وقع مثل هذا في أشعار الناس » وبني على هذا الخبر قوله «ورجل هذا موقفه من شعره ومما يستقبح فيه من الألفاظ من المستبعد أن يعتدي على شعر غيره بالتصرف والتغيير في ألفاظه »(١).

وهذه بعض آراء من تصدوا لأقوال المرزوقي في شرحه، وهناك باحثون أخذوا بأقوال المرزوقي مأخذ التسليم ولم يعرضوها للمناقشة والتمحيص، يأتي في مقدمتهم الشيخ سيد علي المرصفي الذي قال في مقدمة كتابه « أسرار الحماسة »: « وقد قالت رواة الأدب إنه في اختياره أحسن منه في أشعاره، الا أنه سامحه الله كثيراً ما كان يعتمد على ذوقه فأحياناً يقدم ويؤخر في أبياته، وأحياناً يبدل بعض كلمات العرب بكلماته »(٢).

وهذا كلام لا يحتاج الى تعليق لأن ما قلناه في السابق يدحضه وينفيه، هذا فضلاً عما في هذه العبارات من تعميم في الحكم يحتاج الى بينة تؤكد لنا صدق هذه الدعوى حتى نطلب من الله تعالى أن يسامح أبا تمام عليها.

وبعد المرصفي جاء الدكتور ناصر الدين الأسد فنفى كتاب الحماسة من مصادر الشعر الجاهلي، معتمداً في ذلك على أمرين أحدهما يؤخذ من قوله: « ان الحماسة ليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام ولا رواية أخذت بها عن أبي تمام، وانما

---

(١) حماسة أبي تمام وشروحها ص ٤٢ وما يليها.

(٢) ينظر مقدمة كتاب أسرار الحماسة ١: ز.

أخذها أبو تمام من الكتب وانتقاها من الدواوين والمجاميع . . . ثم كتب أبو تمام ما اختاره وبقي كتابه دهراً مطوياً لم يقرأه عليه أحد ، كما لم يقرأه هو على أحد الى أن أتيح له أن ينشر ويظهر بعد وفاة أبي تمام ، فأخذ ما فيه من الصحف المكتوبة نفسها لا عن العلماء »[١].

والأمر الآخر يؤخذ من قوله : « وليس فقدان الرواية والاسناد هو الأمر الوحيد الذي يباعد بين الحماسة وبين بحثنا هذا بل إن ثم شيئاً آخر لا يقل عن سابقه ، يباعد بين هذا الكتاب وبحثنا ، وهو صنيع أبي تمام فيما اختاره من تغيير للنص الشعري مما أوضحه المرزوقي في مقدمته »[٢].

فأما الأمر الأول فقد سبق أن ناقشناه في أول هذا الفصل ، وأكدنا فيه أن الحماسة بجانب النسخة التي تركت في بيت آل سلمة بهمذان قد أخذها العلماء عن أبي تمام من طريقين أحدهما أبو رياش عن أبي المطرّف الأنطاكي عن أبي تمام ، والآخر الآمدي عن أبي المطرف عن أبي تمام ، وأما أن الحماسة ليست لها رواية انتقلت بها إلى أبي تمام فهذا صحيح لأن أبا تمام هو الذي اختارها ، ولكن السؤال من اين اختارها؟ أليست من الكتب والدواوين والمجاميع التي وصل إلينا بعضها، وعده الدكتور ناصر الدين الأسد من صميم مصادر الشعر الجاهلي . واذا كان الأمر على هذا النحو الذي ذهب اليه الدكتور ناصر الدين الأسد فكيف نفسرّ موقف علماء اللغة من الاستشهاد بما جاء في الحماسة من شعر يمثل عصر الفصاحة ، وأين نذهب بقول الزمخشري الذي أورده صاحب الخزانة ، وقد جاء فيه عن أبي تمام « وهو وان كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من علماء العربية ، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته واتقانه»[٣].

ونحن مع قولنا بأن اتقان الرواية لا يستلزم اتقان الدراية حتى نحتج بكلام أبي

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ٥٨٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٨٤ .

(٣) خزانة الأدب ١ : ٧ .

تمام في مجال اللغة ، فان الذي يهمنا من النص هو أن العلماء كانوا مطمئنين لما رواه أبو تمام في الحماسة واثقين منه كل الوثوق ، وهم لم يفعلوا ذلك اِلاَّ لأنهم ادركوا أن أبا تمام اذا كان قد أخذ اختياره من كتب ودواوين موثوق بها ، فان هذه الثقة تنسحب على ما اختاره منها ، ولهذا لا مكان للقول بأن الحماسة ليست لها رواية انتقلت بها الى أبي تمام .

وأما الأمر الثاني فهو يدعو الى الدهشة حقاً وبخاصة حين يصدر من باحث جعل همّه الأول في بحثه ألا يأخذ قولاً في التوثيق دون مناقشة . ولقد قام في هذا السبيل بجهود طيبة تشهد له المواضع المتعددة في بحثه القيم ، ونحن قد نجد له العذر فيما ذهب اليه في الأمر الأول ، لأنه لم يقف على المصادر التي دلت على أن الحماسة قد أخذت عن أبي تمام قراءة أو رواية ، فجل هذه المصادر مخطوط ولم يكن معروفاً في الزمن الذي اخرج فيه بحثه عام ١٩٥٦ م . ولكن لا عذر له أن يأخذ قول المرزوقي مأخذ التسليم دون مناقشة يصل فيها الى بينة من الأمر ، ودون أن يكلّف نفسه مضاهاة ما ورد في الحماسة بما جاء في الكتب التي عدّها من مصادر الشعر الجاهلي كالمفضليات والأصمعيات ، ولعمري لو فعل ذلك لما قال ما قال ولوضع الحماسة في الموضع الذي وضعه فيها علماء اللغة .

ونحن ليس تحت ايدينا كل الدواوين التي رآها المرزوقي وذهب الى أنها مخالفة في ألفاظها عما أورده أبو تمام في الحماسة ، ولكننا نستطيع أن نعرض بعض النماذج للنصوص التي وردت في الحماسة ورواها كلٌّ من المفضَّل الضبِّي والأصمعي ، لنرى إلى أي حد كان الاختلاف بين رواية الحماسة ، ورواية المفضليات والأصمعيات ، ولنأخذ لذلك أمثلة أربعة أولها حماسيّة عبدالله بن عنمة التي وردت في شرح المرزوقي رقم (١٩٠) ورواها المفضل كما رواها الأصمعي ، وهي في الروايات الثلاث ستة أبيات جاء في مطلعها :

مَا اِنْ تَرَى السِّيدُ زَيْداً في نُفُوسِهِم ... كَما تَرَاهُ بَنُـوكَوْزٍ وَمَرْهُوبُ

فحين نعارض رواية الحماسة برواية المفضَّل والأصمعي لا نجد اختلافاً في الألفاظ

إلا في البيت الثالث الذي رواه المفضّل والأصمعي على هذا النحو :

فَإِنْ أَبَيْتُــمْ فَإِنَّــا مَعْشَرٌ صُبُرٌ لاَ نَطْعَــمُ الــذُّلَّ إِنَّ السَّــمَّ مَشْرُوبُ

وروى في الحماسة « لا نطعم الخسف » ، ولا أظن أن في لفظـة « الـذل » من البشاعة والعوار ما يستحق التغيير من أبي تمام ، وانما هي الرواية لا غير .

وثمة اختلاف آخر هو أن البيت الخامس في رواية المفضّل والأصمعي جاء سادساً في رواية المرزوقي والتبريزي ، وأغلب ظنـي إنَّ اختـلاف التـرتيب هذا نتـج عن اختلاف نسخ الحماسة ولا شأن لأبي تمام به ، بدليل أن هذا البيت جاء آخراً في رواية المرزوقي والتبريزي ولا وجود له في رواية شرح زيد بن علي الفارسي ، فالقطعة عنده خمسة أبيات لا ستة[1] .

كذلك يمكن أن نعارض رواية الحماسة برواية الأصمعي في قصيدة عبـدالله بن عنمة التي رثى فيها بسطام بن قيس ، والتي يقول في مطلعها :

لِأُمِّ الأَرْضِ وَيْلٌ مَا أَجَنَّتْ غَدَاةَ أَضَرَّ بالحَسَـنِ السَّبِيلُ

وهي تبلغ في رواية الأصمعي أحد عشر بيتاً اختار منها أبو تمام ثمانية أبيات هي في رواية المرزوقي والتبريزي على الترتيب من البيت الأول الى الثامن في الأصمعيات والاختلاف في ألفاظ الروايتين الحماسة والأصمعيات لم يرد اِلاَّ في بيتين فقط ، أما بقية الألفاظ فقد جاءت مطابقة في الروايتين معاً . أما البيتـان اللـذان وقـع فيهما اختـلاف فهما البيت الرابـع والبيت السابـع ، ففـي البيت الرابـع جاءت رواية الأصمعي :

حَقِيبَــةُ رَحْلِــهِ بَدَنٌ وَسَرْجٌ تُعَارِضُــهُ مُرَبَّبَــةٌ ذَؤُولُ

وجـاءت روايـة الحماسـة « دؤول » بالـدال غـير المعجمـة[2] وقيل في معنـى

---

(١) ينظر المفضليات ص ٣٨٢ وما يليها ، والأصمعيات ص ٢٢٨ وشرح المرزوقي ق ٢ : ٥٨٥ وما بعدها ، وشرح التبريزي ٢ : ٧٠ وما بعدها ، وينظر الحماسيّة ١٨٩ في شرح زيد بن علي الذي حققناه في الكتاب الثاني من هذا البحث .

(٢) ينظر شرح المرزوقي ق ٣ : ١٠٢٦ ، والأصمعيات ص ٣٦ ، وشرح التبريزي ٣ : ٣٥ .

« الذؤول » من الذألان وهو مشي سريع فيه خفة ، وقال شراح الحماسة في معنى « الدؤول » من الدألان وهو ضرب من العدو ، وفي القاموس المحيط « دأل كمنع دألا ، ويحرك كجمزى وهو مشية فيها ضعف أو عدو متقارب أو مشي نشيط ، وذأل كمنع ذألانا أسرع أو مشى في خفة »(١).

وواضح أن الاختلاف هنا من فعل الرواية ، لا من أبي تمام ، ومن ضعف الرأي أن يقال إن أبا تمام أبدل الذال دالاً ليزيل عوار اللفظة إذ اللفظتان على حد سواء في الشناعة أو عدمها .

أما البيت السابع فقد ورد في رواية الأصمعيات هكذا :

لَقَدْ ضَمِنَتْ بَنُو بَدْرِ بن عَمْرٍو ... وَلاَ يُوفي بِبِسْطامٍ قَبيلُ

ورد في الحماسة « أفاتته بنو بدر بن عمرو » وما يقال في هذا الاختلاف هو ما قيل في « ذؤول » و « دؤول » هذا فضلاً عن أن المرزوقي نفسه قال في شرح الشطر الثاني من البيت : « وقوله : ولا يوفي ببسطام قبيل » بالباء يروى . . . وهذه الرواية أقرب الى مايدل عليه صدر البيت وأشبه »(٢).

وفي قصيدة عروة بن الورد التي رواها الأصمعي والتي مطلعها :

أَقلّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يا ابْنَةَ مُنْذِرِ ... وَنَامي فَانْ لَمْ تَشْتَهي النّومَ فَاسْهَرِي

نجد أن الأصمعي قد بلغ في روايتها سبعة وعشرين بيتاً ، واختلفت روايات الشراح فيما اختاره أبو تمام منها ، فالمختار منها في رواية المرزوقي سبعة أبيات ، وفي رواية التبريزي ثمانية أبيات ، وفي رواية زيد بن علي تسعة أبيات . ولقد سبق أن أوضحنا أن الاختلاف في عدد أبيات القطعة الواحدة في شروح الحماسة مرده الى اختلاف نسخ الحماسة التي اعتمد عليها الشرّاح في شروحهم .

وحين عارضنا روايات هذه الشروح برواية الأصمعي وجدنا اختلافاً في الألفاظ

---

(١) القاموس المحيط ٣ : ٣٧٣ ، ٣٧٨ .

(٢) ينظر شرح المرزوقي ص ١٠٢٦ .

وقع في ثلاثة مواضع فقط ، أحدها في مطلع القطعة من اختيار الحماسة وقد جاء هكذا :

لَحَا اللهُ صُعْلُوكاً إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ ... مُصَافِي المُشَاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ

وجاء في الأصمعيات « مضى في المشاش » .وثانيها في البيت الرابع في رواية زيد ابن علي وهو :

قَلِيلُ الْتِمَاسِ الزَّادِ إِلاَّ تَعِلَّةً ... إِذَا هو أَضْحَى كَالعَرِيشِ المَجَوَّرِ

رواه الأصمعي « قليل التماس المال الا لنفسه » .

والموضع الثالث جاء في البيت الرابع في رواية المرزوقي ، الخامس في رواية التبريزي ، السادس في رواية زيد بن علي ، وهو في الشروح الثلاثة هكذا :

وَلَكِنَّ صُعْلُوكاً صَفِيحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْءِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ

ورواه الأصمعي « ولله صعلوك »(١) .

ولا شك أن الألفاظ في رواية الأصمعي لبست من المستكره المستثقل حتى يقال إن أبا تمام عرضها على ذوقه بالتغيير .

ويمكن أن تلمس ذلك في حماسية سلمى بن ربيعة التي نسبها الأصمعي الى علباء ابن أرقم ، فهي قد وردت في الأصمعيات أحد عشر بيتاً ، ووردت كذلك في الحماسة ، وهذه الأبيات الأحد عشر وقع اختلاف بين الروايتين في ثلاثة مواضع منها ، في البيت الثاني وقد جاءت رواية الأصمعي فيه هكذا :

وَكَأَنَّمَا في العَيْنِ حَبُّ قَرَنْفُلٍ ... أَوْ سُنْبُلٌ كَحَلَتْ بهِ فَانْهَلَّتِ

وجاء في رواية الحماسة « وكأنّ في العينين حب قرنفل » ، وفي البيت الخامس الذي روي في الأصمعيات :

---

(١) ينظر الأصمعيات ص ٤٣ وما بعدها ، وشرح المرزوقي ق ١ : ٤٢١ وما بعدها ، وشرح التبريزي ١ : ٢١٧ وما بعدها ، وينظر الحماسيّة ١٤٥ من شرح زيد بن علي في الكتاب الثاني .

يَوْمــاً إِذَا ما النَّائِبَــاتُ طَرَقْنَنا   أَكْفَــى بِمُعْضِلَــةٍ وإِنْ هِيَ جَلَّتِ

وروي في الحماسة « رجلاً اذا ما النائبات » .

وفي البيت الثامن وقد ورد عند الأصمعي :

دَرَّتْ بِأَرزَاقِ العُفَــاةِ مَغَالِقٌ   بِيَدِيَّ مِنْ قَمَــعِ العِشَــارِ الجِلَّةِ

وورد في الحماسة « دارت بأرزاق العفاة »[1] .

والذي ينظر في هذه الاختلافات لا يجد فيها عطوراً في الألفاظ التي رواها الأصمعي حتى يغيّرها أبو تمام ، كما ينبغي أن نؤكد أن هذه الاختلافات التي عرضناها من خلال هذه النماذج الأربعة كانت طفيفة جداً لا تقاس بالأبيات التي حدث فيها توافق في الالفاظ .

ان الاختلاف في لفظة أو لفظتين أو ثلاث في قطعة تبلغ ستة أبيات ، كما في النموذج الأول أو ثمانية أبيات كما في النموذج الثاني ، أو تسعة أبيات كما في النموذج الثالث ، أو أحد عشر بيتاً كما في النموذج الرابع لا يستلزم القول بأن تغييراً قد وقع عن عمد من صاحب الرواية ذات التغيير ، اذ لو صحّ هذا القول لانطبق على سائر الاختلافات الملحوظة في القصائد السبع أو العشر الطوال حين نعارض بين روايات شروحها لدى أبي جعفر النحاس وابن الأنباري والزوزني والتبريزي . ولعل الدارس حين ينظر الى الاختلافات التي وردت لدى كل من المفضل الضبي وعبد الملك الأصمعي يدرك أنها لم تقع لأن أحداً منهما أجرى ذوقه بالتغيير في الألفاظ بل لأن كلاً منهما اعتمد على مصادر في روايته تختلف عن الآخر ، ونستطيع أن نسوق بعض الأمثلة لهذا .

فقد وقع اختلاف بين روايتيهما في بيت سنان بن أبي حارثة المري ، رواه المفضل :

وَبِضَرْغَــدٍ وَعَــلَى السَّــدِيرَةِ حَاضِرٌ   وَبِــذِي أَمَــرَّ حَرِيمُهُــمْ لَمْ يُقْسَمِ

---

(١) ينظر الأصمعيات ص ١٦١ وما يليها ، وشرح المرزوقي ق ٢ : ٥٤٦ وما بعدها .

ورواه الأصمعي « وَبِضرْغَدٍ وَعَلَى السَّدِيرِ وَحَاضِرِ »[1] .

وبيت زبان بن سيَّار رواه المفضل :

فَإِنْ تَسْأَلُوا عَنَّا فَوَارِسَ دَاحِسٍ يُنَبَّئْكَ عَنْهَا مِنْ رَوَاحَةَ عَالِمُ

ورواه الأصمعي « فوارس دارم »[2] .

وبيت معاوية بن مالك رواه المفضل :

فَإِنْ أَحْمَدْ بِهَا نَفْسِي فَإِنِّي أَتَيْتُ بِهَا غَدَاتَئِذٍ صَوَابَا

وواه الأصمعي « فإْن أحْمَدْتُها نَفْسي فإنّي»[3] .

وهكذا لو تتبعنا رواية كل من المفضل والأصمعي في القصائد التي اتفقا في اختيارها لوجدنا اختلافاً في الألفاظ على هذا النحو الذي أوردناه ، وهو اختلاف قد يغيرّ في معنى البيت مثل بيت زبان بن سيار « فان تسألوا عنا فوارس داحس » في رواية المفضل ، و « فوارس دارم » في رواية الأصمعي ، لأن فوارس داحس يعني عبس وذبيان ، وفوارس دارم يعني دارم بن تميم ، وعبس وذبيان من قبائل قيس عيلان ، وتميم من قبائل خندف ، ولكن هل هذه الاختلافات تجوّز لنا أن نتّهم أحداً منهما بأنه قد أحدث تغييراً في ألفاظ روايته ليزيل ما بها من شناعة أو استكراه .

وبناء على هذا النحو الذي ذكرناه ووفقاً لما أوردناه من اختلافات في الرواية لا في الحماسة فحسب بل في غيرها من مصادر الشعر ، نقرر أن التسليم بما قاله ابن العميد وتابعه فيه المرزوقي أمر لا ينبغي أن يقع فيه باحث معاصر ، وأن هذه السبيل التي سلكها الدكتور ناصر الدين الأسد في الحكم على حماسة أبي تمام أفضل منها ما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف حين ذكر الحماسة ضمن مصادر الدراسة في الشعر

---

(١) المفضليات ص ٣٤٩ ، والأصمعيات ص ٢٠٨ .

(٢) المفضليات ص ٣٥٤ ، الأصمعيات ٢١١ .

(٣) المفضليات ص ٣٥٩ ، الأصمعيات ص ٢١٤ .

الجاهلي ، ولكنه قيّد ذلك بالمضاهاة مع المصادر الموثوقة كالمفضليات والأصمعيات[1] وهو قول مع أفضليته بالنسبة لما ذهب اليه الدكتور ناصر الدين الأسد فان فيه نظراً لأن الكتب الموثقة بين أيدينا قليلة جداً ، وأبو تمام انما اختار الكثرة الكاثرة في حماسته لشعراء مجهولين قلّ أن نجد لهم ذكراً أو شعراً فيما وصل الينا من كتب موثقة ، فهل نضع هذه الأشعار موضع ثقتنا كما وضعها علماء اللغة أو نقف منها موقف المتشكك تبعاً لما أورده المرزوقي من أقوال لم يأت هو بدليل يدعمها ويقويها بل لم يتابعه فيها شارح من شرّاح الحماسة الذين جاءوا بعده سوى المرصفي الذي يتبع في الدرس الأدبي منهجاً يقوم على التسليم بما قاله القدماء حتى وان انفرد به واحد منهم .

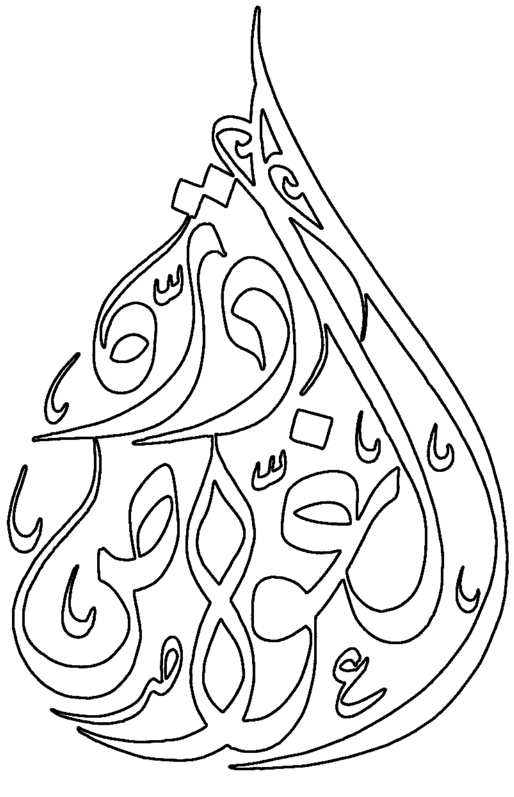

---

(١) تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي ص ١٧٩ .

الفصل الثاني

في شرح الشعر وتطوره حتى ظهور شروح الحماسة

١ ـ في شرح الشعر وتطوره

منذ أن وجد الشعر العربي كانت الحاجة إلى فهم ما استغلق منه ، غير أن هذه الحاجة تختلف من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة . ففي العصر الأول عصر ما قبل الاسلام لم تكن الحاجة ملحة إلى شرح ما غمض من الشعر ، بل لم تكن القبائل ترى فيما يقوله شعراؤها غامضاً ، ذلك لأن الشاعر كان يعيش بين قومه ، يشاركهم بيئة واحدة ، ولغة واحدة ، وثقافة واحدة ، كما كانوا يعيشون معه الظروف الاجتماعيّة والنفسيّة التي تدفعه الى قول الشعر ، فاذا قال شعراً لم يكن هناك حجاب زمني أو مكاني يستر عنهم ما يرمي إليه في هذا الشعر من غرض ومعنى ، أو ما يطل عليهم فيه من إيحاء ومبنى ، ومن ثم ندر أن يحتاج الشاعر بينهم إلى شرح شعره ، ومن هذا النادر ما روي عن العجاج أن عمة جده رأت امرأ القيس وهو يشرب طلاء له مع علقمة بن عبدة فسألته عن معنى استغلق عليها في قوله : « كرّك لأمين على نابل » من بيته :

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَهْلُوجَةً كَرَّكَ لأُمَيْنِ عَلَى نَابِلِ

فأجاب : « مررت بنابل وصاحبه يناوله الريش لؤاماً وظهاراً ، فما رأيت اسرع منه ولا أحسن فشهبت به »[١] .

---

(١) التنبيهات على أغاليط الرواة ، تحقيق : عبد العزيز الميمني ص ٨٩ ، وقال الأعلم الشنتمري في شرح هذا البيت ـ بتصرف ـ السلكي الطعنة المستقيمة حيال الوجه ، والمخلوجة الطعنة غير المستقيمة ، واللأمان سهمان ، يقول : نرد عليهم الطعن ونعيده كما

ومن ذلك أيضاً ما أورده ابن قتيبة عن الرياش عن رواته أن عبيداً راوية الأعشى سأل الأعشى عن معنى استغلق عليه في قصيدته « رحلت سمية غدوة اجمالها » وهو قوله:

وَمُدَامَـةٍ مِـمَّا تُعَتِّقُ بَابِلٌ كَدَمِ الَّـذبِيحِ سَلبتهـا جِرْيالَهَا

فأجابه: « شربتها حمراء وبلتها بيضاء »(١) .

والأمثلة في الحاجة الى شرح الشعر تعد ضئيلة في عصر ما قبل الاسلام ، ذلك لأن النـاس لم يكونـوا في عوز من ذلك ، بل إن النسـاء في هذا العصر ـ نـاهيك عن الرجال ـ كن يفهمن الشعر ويدلين فيه برأي ، فابن قتيبة يحدثنا عن أن امرأ القيس وعلقمة بن عبدة احتكما إلى أم جندب زوج امرئ القيس فقالت لهما: قولا شعراً تصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة فقال امرؤ القيس:

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدُبٍ لِنَقْـضِيَ حَاجَـاتِ الفُـؤَادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة:

ذَهَبْتِ مِنَ الهِجْرَانِ في كُلِّ مَذْهَبِ وَلَمْ يَكُ حَقّـاً كُلُّ هَذَا التَجَنُّبِ

ثم أنشـداها جميعاً فقالت لامرىء القيس: علقمة أشعر منك ، قال: وكيف ذاك ؟ قالت: لأنك قلت:

فَلِلسَّـوْطِ أُلْهُـوبٌ وَلِلسَّـاقِ دِرَّةٌ وَلِلـزَّجْـرِ مِنْـه وَقْـعُ أَخْـرَجَ مُهْذِبِ

فجهدت فرسك بسطوتك ومريته بساقك وقال علقمة:

فَأَدْرَكَهُـنَّ ثَانِياً مِنْ عِنَانِهِ يَمُـرّ كَمَـرِّ الرَّائِـحِ المُتَحَلِّبِ

ترد سهمين على صاحب نبل يرمي بسهمين ثم يعادان عليه . ديوان امرىء القيس تحقيق: محمد أبي الفضل ابراهيم ص ١٢١ .

(١) الشعر والشعراء ط دار الثقافة بيروت ١: ١٨١ .

فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه ، لم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولا زجره[١].

هكذا كان الحال في شرح الشعر ، يتمثل في شرح كلمة أو صورة طريفة أبدع فيها الشاعر فأتى بجديد غير مألوف . فلما جاء الاسلام كانت الحاجة إلى شرح الشعر مثل سابقتها لم تتجاوز في مطلبها سوى تفسير كلمة أو وقوف على خبر يتصل بالشعر ذاته أو قائله ، ومن ذلك ما روي عن النبي -ﷺ- أنه سمع في يوم بدر عدي بن أبي الزغباء وهو يرتجز:

أَنَـا عَدِيٌّ والسَّحَلْ أَمْشِي بِهَـا مَشْـيَ الفَحَلْ

فلما انجلت الغزوة بانتصار المسلمين ناداه الرسول الكريم وسأله « وما السَّحَلُ ؟ » قال : الدرع ، فقال ﷺ : « نعم العدي عدي أبي الزغباء »[٢].

غير أننا يجب أن نسجل هنا أنه منذ أن اكتمل نزول القرآن الكريم والتحام المسلمين به عرباً وغير عرب ، احتاج الناس الى معرفة معاني آياته وتبيان ألفاظه ودلالاتها ، وكان في هذا الاحتياج مؤشر ضخم للعناية بالشعر والافادة منه في تفسير

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٥ وما يليها ، ومعنى بيت امرىء القيس أنه إذا ضربه بالسوط ألهب الجري واذا حركه بساقه درّ الجري ، واذا زجره طار كأنه ظليم سريع في الطير ، ومعنى بيت علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو عليه ثان من عنانه يمضي في سيره كأنه سحاب رائح يتساقط مطره متتابعاً ، وللدكتور محمد نجيب البيهبتي رأي طيب في هذين البيتين وهو أنهما لا يتعارضان ولو كانا في وصف فرس واحد ، فامرؤ القيس يصفه في أول طراده الصيد وملاحقته وحثه أسرع حث حتى اذا بلغ الطريدة في حميته تلك التي بلغ اليها ، وفي منتهى نشاطه كان لا بدّ من ردّه من الاندفاع وامساكه حتى لا يفوت الصيد وراكبه إذ ذاك لا بدّ أن يثني من عنانه ، وهذا يصدق وصف علقمة على فرس امرىء القيس ، كما يصدق وصف امرىء القيس على فرس علقمة « ينظر الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ص ٧٢ » . هذا وفي نسبة هذا النقد الى أم جندب نظر لأننا نذهب الى أنه من نقد أحد المتأخرين أجراه على لسانها ، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون للنساء من عصر ما قبل الاسلام رأي في الشعر .

(٢) مغازي الواقدي ص ٦٠ .

لغة القرآن ومعانيه ، وهذا واضح من قول رأس المفسرين عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الذي جاء فيه : «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب »[١] ، وكان ـ رضي الله عنه ـ عارفاً بالشعر وما يتصل به من أخبار يفسره في دقة متناهية واحاطة تامة ، سأله أعرابي ذات يوم عن ذي الحلم الوارد في بيت المتلمس :

لِذِي الحِلْمِ قَبْلَ اليَوْمِ مَا تُقْـرَعُ العَصا   وَمَـا علِّـم الانسـانُ اِلاَّ ليعْلما

فأجابه : «ذاك عمرو بن حممة الدوسي ، قضى على العرب ثلاثمائة سنة فكبر فألزموه السابع من ولده ، فكان معه ، فكان الشيخ إذا غفل كانت بينه وبينه أن تقرع العصا حتى يعاوده عقله ، وذلك قول المتلمس اليشكري من بكر بن وائل : «لذي الحلم قبل اليوم ما تقرع العصا»[٢] .

وصحبت هذه العناية الناتجة عن الحاجة الى فهم القرآن عناية أخرى من القبائل بعد الفتوحات واستقرار بعضها في الأمصار الجديدة، قال ابن سلام : « فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم »[٣] .

ولا يهمنا هنا ما أثاره ابن سلام من قضية تتصل بوضع الشعر ونحله ، ولكن الذي يهمنا أن حركة مراجعة للشعر قد قامت من هذه العشائر ، وأنه من الطبيعي أن تصحب هذه المراجعة حركة لشرح الوقائع التي قيل فيها الشعر والأخبار التي تتصل به والشخصيات التي تدور حوله ، بل وشرح ألفاظ لغته ومعانيه .

ومما لا شك فيه أنه كان في هذه القبائل رجال عالمون بالشعر ، مدركون لمعانيه ، حافظون لأخباره والوقائع التي قيل فيها،فهذا شيخ رواة البصرة أبو عمرو ابن العلاء يقول عن بيت امرىء القيس الذي مر بنا في موضع سابق :

---

(١) العمدة لابن رشيق ١ : ٣٠ .

(٢) المعمرين من العرب للسجستاني ط الخانجي ص ٤٥ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٣٩ .

نَطْعَنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكَ لأمَيْنِ عَلَى نَابِلِ

« كنت أسمع منذ ثلاثين عاماً هذا البيت ، فلم أجد أحداً يعلمه حتى رأيت أعرابياً بالبادية فسألته عنه ففسره لي »[1] .

وفي الأغاني يذكر أبو الفرج أن عبد الملك بن مروان لما دخل الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير جلس لعرض أحياء القبائل ، فلما أقبل عليه وفد جديلة التي تعد عدوان بطناً منها سأل معبد بن خالد الجدلي عن ذي الاصبع العدواني فأجابه بحديث واف عنه وعن أشعاره فأعجب عبد الملك بإلمامه وعنايته بأخبار قومه ، فزاد في عطائه »[2] .

وبجانب هاتين العنايتين لشرح الشعر اللتين لم تكونا مقصودتين لذاتهما نشأت حركة للشرح في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي ، وذلك حين بدأ عصر تسجيل الشعر على أيدي علماء تخصصوا في جمع الشعر وتدوينه ، كانوا من رواد مدرستي البصرة والكوفة ، يأتي على رأسهم في البصرة أبو عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ ، وأبو الخطاب الأخفش المتوفى سنة ١٧٧هـ ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٨٠هـ ، ويونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٢هـ . وعلى رأسهم في الكوفة حماد الراوية ، المتوفى سنة ١٥١هـ ، والمفضل الضبي المتوفى سنة ١٧١هـ[3] .

وصحيح أن رواية الشعر وتدوينه كانت الغاية لدى هؤلاء العلماء ، ولم يكن شرح الشعر من غايتهم ، غير أن من المؤكد أن رواية الشعر قد ارتبطت بشرحه ، ذلك لأن شرح الشعر كان جزءاً من الرواية مفسراً ومكملاً . وهذا ما أكده الدكتور أحمد جمال العمري حين أشار الى أن صلة الشعر برواته لم تنقطع ، وكذلك صلة

---

(١) ينظر هامش ص ١٢١ من ديوان امرىء القيس ، ط دار المعارف بمصر ، فقد أورد هذا الخبر محمد أبو الفضل ابراهيم نقلاً عن نسخة البطليوسي لديوان امرىء القيس .

(٢) الأغاني ط ساسي ٣ : ٣ .

(٣) اختلف في سنة وفاة المفضل فقيل سنة ١٦٨هـ ، وقيل سنة ١٧٠هـ وقيل ١٧٨هـ ، ولقد ذهبنا مع الدكتور احسان عباس في مقدمة كتاب الأمثال للمفضل الضبي حيث ذهب الى أن الأقرب الى الصواب في سنة وفاته ١٧١هـ .

الشعر بشراحه لم تنقطع أيضاً ثم قال : « كان الشرح في بدايته جزءاً لا يتجزأ من عصب الرواية فلم يكن حتى هذا العهد - عهد هؤلاء العلماء الأوائل - قد استقل فن الشرح ووضحت سماته ، وأصبح علماً قائماً لذاته له مقوماته وخصائصه الفنيّة والعلميّة ، وانما كان الشرح غير مقصود لذاته بل يأتي عرضاً ، تأييداً لرواية ، وتسجيلاً لحدث وتوضيحاً لغرض ، وتفسيراً للفظ وكل ذلك في نطاق الرواية الأدبية الخالصة ، وكأن هذا الشرح من صميمها وجزء متمم لها لا تستقيم إلا به »[١] .

ولكن إن كان الشرح غير مقصود لذاته لدى هؤلاء العلماء فانه بحق قد خطا على أيديهم خطوة أدت الى توسع في عناصره ، فقد رأيناه قبل الاسلام وبعده يقف عند تفسير الألفاظ أو توضيح صورة من صوره ، أو إيراد خبر يتصل به ، فهو عند هؤلاء لم يقف عند الألفاظ ، وانما تجاوز ذلك إلى مجمل المعنى للبيت ، كما برز فيه ذكر مناسبات الشعر التاريخية وأخبار أصحابه ، بل تجاوز ذلك كله إلى البحث في عيوبه والحكم على الشعراء والمفاضلة بينهم .

والأمثلة على جميع ذلك كثيرة متعددة ، ففي تفسير معنى البيت وايراد مجمل معناه نجد أبا عمرو بن العلاء يقول في بيتي الحارث بن حلزة :

إِنَّ إِخْوانَنا الأَراقِمَ يَغْلُو نَ عَلَيْنا وفي قَوْلِهِم إِحْفَاءُ
زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْـ ـرَ مَوالٍ لَنا وأَنَّا الوَلَاءُ

« إن اخواننا يضيفون إلينا أذنب من اذنب إليهم ممن نزل الصحراء وضرب عيراً ، ويجعلونهم موالي لنا »[٢] . كما نجد المفضل الضبي يقول في بيت شداد بن معاوية العبسي :

قَتَلْتُ سَرَاتَكُمْ وَحَسَلْتُ مِنْهُمْ حَسِيلاً مِثْلَ ما حُسِلَ الوَبارُ

« الحسيل الرديء ، يقول : أنفيت شراركم وقتلت خياركم وأبقيت رذالكم »[٣] ،

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٢٠٧ .

(٢) المعاني الكبير ص ٨٥٥ .

(٣) أمثال العرب ص ٩٧ .

ويقول في بيت شييم بن خويلد الفزاري :

إنِّـي وَحِصْنَـاً كَذِي الأنْفِ المَقُـولِ لَهُ   مَا مِنْـكَ أنْفُـكَ إنْ أعْضَضْتَـهُ الجَلَبَا

« أي لا أستغني أنا عن حصن كما لا يستغني عن الأنف »[1].

وفي مناسبات الشعر وأخبار الشعراء المتصلة به نجد أمثلة مختلفة في كتاب أمثال العرب للمفضل الضبي ، فمن ذلك ما رواه من خبر أبيات لقيط بن زرارة الداليّة قال : « كان بين لقيط بن زرارة وبين رجل من أهل بيته يقال له : زيد بن مالك ملاحاة ، فعيرّه زيد بتركه النكاح وقال : إن أكفاء أهل بيتك يرغبون عنك ، ومن غيرهم من العرب عنك أرغب ، فلما زوّجه قيس قال :

أَلَـمْ يَأْتِ زَيْداً حَيْثُ أَصْبَـحَ أَنَّني   تَزَوَّجْتُهَـا إِحْـدَى النِّسَـاءِ المَوَاجِدِ

عَقِيلَـةُ شَيْخٍ لَمْ يَكُنْ لِينَالَهَا   سِوَى عُدُسيٍّ مِنْ زُرَارَةَ مَاجِدِ

إذَا اتَّصَلَـتْ يَوْمـاً بِنِسْبَتِهَـا انْتَهَتْ   إلى آلِ مَسْعُـودِ بن قَيْسِ بن خَالِدِ[2]

كذلك نجد هؤلاء العلماء يخوضون في تقويم الشعر ويحاولون إبراز أنواع عيوبه ، ويفاضلون بين الشعراء ، وأحياناً بين القصائد ، فابن سلام يذكر قول يونس أن « عيوب الشعر أربعة : الزحاف والسناد والايطاء والإكفاء وهو الاقواء ، والزحاف أهونها ، وهو أن ينقص الجزء من سائر الأجزاء فينكره السامع ، ويثقل على اللسان ، وهو في ذلك جائز والأجزاء مختلفة ، فمنها ما نقصانه أخف ، ومنها ما نقصانه أشبع »[3].

وابن قتيبة يذكر لنا قول أبي عمرو بن العلاء في نابغة بني ذبيان وبشر بن أبي خازم الأسدي ، وقد جاء فيه : « فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغني بشعره ففطن فلم يعد للاقواء ، وأما بشر

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٧ .

(٢) نفسه ص ٧٤ .

(٣) طبقات الشعراء ص ٤٥ .

فقال له أخوه سوادة : إنك تقوي ، قال : وما الاقواء ؟ قال قولك :

أَلَـمْ تَرَ أَنَّ طُولَ الدَّهْـرِ يُسْلِي ... وَيُنْسَى مِثْـلَ مَا نُسِيَتْ جُذَامُ

ثم قلت :

وَكَانُـوا قَوْمَنَـا فَبَغَـوْا عَلَيْنَا ... فَسُقْنَاهُـمْ اِلَى البَلَـدِ الشَّآمِ

فلم يعد للاقواء »[١] .

وأما الحكم على الشعراء والمفاضلة بينهم أو بين قصائدهم فقد ضمت المصادر الكثير من آرائهم في هذا الشأن ، فأبو عمرو بن العلاء كان يرى في شعر الأعشي العلو والانحدار ، ولذا قال عنه : « مثله مثل البازي يضرب كبير الطير وصغيره » ويرى أن نظيره في الاسلام جرير ، ونظير النابغة الأخطل ، ونظير زهير الفرزدق »[٢] .

ويسأل خلف الأحمر عن أشعر الناس فيقول : « ما ينتهى الى واحد يجتمع عليه ، كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب الناس وأجمل الناس ، ولكنه مع ذلك كان يعجب بالأعشى ويرى أنه « كان أجمعهم »[٣] . والمفضل ينقل قول الفرزدق ويعتد به وذلك حين يقول : « امرؤ القيس أشعر الناس »[٤] ، ويذكر ابن سلام أن أبا عمرو بن العلاء كان يفضّل خداش بن زهير على لبيد بن ربيعة ويقول في ذلك : « هو أشعر في قريحة الشعر من لبيد ، وأبى الناس إلاّ تقدمة لبيد »[٥] .

وخلف الأحمر الذي وصفه ابن سلاّم بأنه أفرس الناس ببيت شعر كان يفضل قصيدة مروان بن أبي حفصة « طرقتك زائرة فحيّ خيالها » على قصيدة الأعشى « رحلت سميّة غدوة أجمالها» وذلك لأن الأعشى قال في قصيدته :

---

(١) الشعر والشعراء ١ : ١٩٠ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٤٥ .

(٣) المصدر عينه والصفحة ذاتها .

(٤) العمدة لابن رشيق ١ : ٩٧ .

(٥) طبقات الشعراء ص ٦١ .

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالَهَا

والطحال كما يرى خلف « ما دخل في شيء إلّا أفسده »[1].

وهكذا نرى أن هؤلاء الرواة العلماء الأوائل قد حققوا في عنايتهم بجمع الشعر وروايته وتدوينه عناصر مختلفة تتصل بشرح الشعر ونقده ، فكان ما حققوه مرتكزاً صلباًاعتمد عليه تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم في المضي بشرح الشعر الى ميدان أرحب ومجال أوسع مما كان عليه في زمن هؤلاء الأوائل .

والحق أن الطبقة الثانية من العلماء من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى ، وعبد الملك الأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، وابن الأعرابي ، وأبي عمرو الشيباني ، وكذلك الطبقة الثالثة من أمثال الرياشي ومحمد بن حبيب وأبي حاتم السجستاني وابن السكيت والمازني ، قد استطاعت ان تخطو بشرح الشعر خطوات بعيدة شملت مختلف عناصره من رواية ولغة ونحو ونقد ، ويمكن أن نحدد عملهم في شرح الشعر في الجوانب التالية : أولها : أن الدارس يلاحظ اعتمادهم على أعمال شيوخهم ، ينقلون آراءهم في الشعر وروايته وتفسيره ، فأهل الطبقة الثانية ينقلون ما أخذوه عن أساتذتهم من رجال الطبقة الأولى الرواد ، وأهل الطبقة الثالثة ينقلون أعمال شيوخهم من الطبقة الثانية ويزيدون عليه ما أخذه هؤلاء الشيوخ عن الطبقة الأولى ، غير أن كلا من رجال الطبقتين الثانية والثالثة كانوا لا يقفون عند حد النقل فقط ، بل كانوا يدلون برأيهم في أقوال شيوخهم ويسدون ما فاتهم من نقص ، سواء كان ذلك في رواية الشعر أو تفسيره أو نقده ، والأمثلة على ذلك كثيرة . ففي مجال الرواية نجد على سبيل المثال أن أبا عمرو بن العلاء كان يروي من قصيدة زهير التي مطلعها « صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله » سبعة وثلاثين بيتاً ، فجاء كل من الأصمعي وأبي عبيدة فأضافا الى روايته سبعة أبيات[2]، والأصمعي أخذ من شيوخه في الرواية أبيات امرىء القيس الأربعة التي يقول في أولها :

---

(١) الأغاني ط ساسي ٩ : ٣٩ .

(٢) شرح ديوان زهير للأعلام الشنتمري ص ١٤٢ .

أَلاَ اِنْ لاَ تَكُنْ إبلٌ فَمِعْزَى كَأَنَّ قُرُونَ جِلَّتِهـا العِصِيُّ

ورواها حسب رواية الطوسي عنـه ، ولكنـه كان ينـكر نسبتهـا الى امـرئ القيس ويقول : « امرؤ القيس ملك ولا أراه يقول هذا »[1] ، وبيت امرئ القيس الذي يقول فيه :

تأَوَّبَـني دَائِـي القَـدِيمُ فَغَلَّسـا أُحَـاذِرُ أَنْ يَرْتَـدَّ دَائِـي فَأُنْكَسَـا

وهي رواية أبي عمرو ، جاء أبو زيد وقال عنها : « هذا تصحيف لأن المتأوّب لا يكون مغلساً في حال واحدة لأن غلّس انما هو أتى في آخر الليل ، وتأوّب جاء في آخر النهار وانما هو » فَعَلَّسا « أي اشتد وبرح »[2] .

هذا في مجال الرواية ، أما في مجال تفسير اللغة ، فقد رأينا للتلاميذ اضافات على الشيوخ ، بل وخلافات لما فسروه ، فأبو عمرو بن العلاء فسرّ لفظة « أحذ » الواردة في بيت طرفة :

وَأَرْوَعُ نَبَّـاضٌ أَحَـذُّ مُلَمْلَمٌ كَمِـرْدَاةِ صَخْـرٍ فِي صَفِيحٍ مُصَمَّدِ

قال : « الأحذ هو الخفيف » فجاء ابن الأعرابي فقال : « هو الذكي الخفيف »[3] .

وكان الأصمعي كثير الاعتداد بشيخه أبي عمرو بن العلاء ، يحتج به في الرواية ، ويجعل من لغة خطابه مجالاً في الاحتجاج ، وذلك في مثل بيت لبيد الوارد في طويلته وروايته الشائعة هي :

تجْتَـافُ أَصْـلاً قَالِصـاً مُتَنَبِّذاً بِعُجُـوبِ أَنْقَـاءٍ يمِيلُ هَيَامُهَا

نجد الأصمعي يرويه « تجتاف آصل قالص متبدد »ويقول : « سمعت أبا عمرو بن العلاء وقد اشترى غرساً فقال للذي اشتراه : أريد منك عشرة آصل ، يريد جماعة

---

(١) ديوان امرىء القيس شرح الأعلام ص ١٣٧ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف ص ١٠٩ .

(٣) شرح القصائد العشر للتبريزي ، تحقيق : فخر الدين قباوة ص ١١٨ .

أصل وآصل كما تقول : حبل وأحبل[1] ، ولكنه مع ذلك كان يخالفه في تفسير الشعر حين يرى أنه قد جانب الصواب . ففي بيت أوس بن حجر :

لَعَمْـرُكَ مَا ضَيَّعْتُهَـا غَيْـرَ أَنَّهَـا   أَتَتْنِي فَوارِي عَرَيْة فالمُجَلَّلِ

كان أبو عمرو بن العلاء قد قال في تفسير عرية بعيدة يقول : جاءت من بعد والمجلل اسم رجل ، فجاء الأصمعي وخالفه فقال : عريها ما عري منها لسنة ، والمجلل ما ألبس جلاً »[2] .

وكما اعتمد علماء الطبقة الثانية على شيوخهم من علماء الطبقة الأولى وأفادوا من علمهم في الرواية وتفسير الشعر ، اعتمد علماء الطبقة الثالثة على أساتذتهم من علماء الطبقة الثانية ، فابن السكيت وأبو حاتم السجستاني والرياشي كثيراً ما كانوا يعتمدون على الأصمعي في تفسير اللغة والشعر والرواية ، ولكنهم كانوا مثل أساتذتهم يضيفون ويناقشون ويخالفون ما أخذوه عن سابقيهم .

وثاني هذه الجوانب أنه اذا كان علماء الطبقة الثانية ومن بعدهم تلاميذهم قد حققوا في شرح الشعر خطوات واسعة ، فانهم أيضاً قد اتصفوا في هذا الشأن بشيء من التخصص ، وذلك لأن كل واحد منهم كانت له اهتمامات خاصة في ناحية من نواحي علم الشعر ، فمنهم من كان يميل الى الغريب ويقصر عليه جلّ اهتمامه ، وذلك مثل الأصمعي ، ومنهم من كان يهتم بقضايا النحو ومشكلاته مثل الأخفش ، أو من كان يستغرق جهده في الأخبار والأيام والأنساب مثل أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ولم يكن فيهم من كان يعالج النص معالجة أدبيّة أو يشرحه شرحاً أدبياً لأنهم كانوا يجعلون من النص مجالاً لخدمة العلوم المختلفة من لغة ونحو وأخبار وأيام وأنساب ، وهذا ما عناه بجلاء أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٦هـ حين قال : « طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن اِلاَّ غريبه ، فرجعت الى الأخفش فوجدته لا يحسن اِلاَّ إعرابه فعطفت على أبي عبيدة فوجدته لا ينقل اِلاَّ ما

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر الأنباري ص ٥٥٩ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف ص ١٤٧ .

اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، فلم أظفر بما أردت إلاّ عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيَّات »[1] .

وهذا الكلام الذي قاله الجاحظ وأثنى عليه الصاحب بن عبَّاد فيما بعد يمكن ان نلحظ غايته في كلام جرى بين أحمد بن يحيى البلاذري وابن الأعرابي أحد علماء الطبقة الثانية فقد قال أحمد بن يحيى : «قرأت على ابن الأعرابي شعر الأعشى ، فلما بلغت قوله :

لاَتَشَكَّى اِليَّ مِنْ أَلَمِ النِّسْـ ع وَلاَ مِنْ حَفىً وَلاَ مِنْ كَلاَلِ
نَقَبَ الخُفُّ للسُّرى . . .

قال ابن الأعرابي : « نقَبَ الخُفُّ للسُّرى » ، فقلت : أصلحك الله إن تضمين بيتين عيب في الشعر شديد أفيضمن الأعشى مع حذفه وتقدمه ثلاثة أبيات فيقول :

لاَتَشَكَّى اِليَّ مِنْ أَلَمِ النِّسْـ عِ وَلاَ مِنْ حَفىً وَلاَ مِنْ كَلاَلِ
نَقَبَ الخُفِّ للسُّرىٰ وَتَرَىٰ الأَنْسـ ـاعَ مِـنْ كلِّ سَاعَةٍ وارْتِحالِ
أَثَّـرتْ فِي جَنَاجِـنٍ كَإِرَانِ الـ ـمَيْتِ عُولِـينَ فَوْقَ عُوجٍ طِوَالِ

فقال ابن الأعرابي : أنت شاعر ، فقلت : شاعر كاتب ، فقال : منهما علمت ، اروه كما رويت نَقَبَ الخُفُّ »[2] .

وفي ادراكنا أن في هذا النص وما سبق من كلام الجاحظ ما يدلّ على قيام جماعة من الأدباء باتجاه مغاير في شرح الشعر لما سار عليه علماء الطبقة الأولى والثانية وتلاميذهم ، وهو اتجاه يمكن أن نسميه بالشرح الأدبي الذي يعالج المعاني ومقاصد الشاعر فيها ، ويجعل جلّ همه في هذا المدار لا يتجاوزه الى اللغة وما فيها من اشتقاقات أو النحو وما يثار فيه من مشكلات ، ولعل أوضح مثل لذلك ما نجده عند

(١) العمدة لابن رشيق ٢ : ١٠٥ .
(٢) المصون في الأدب لابي أحمد العسكري ص ٩ وما يليها .

أبي أحمد العسكري ، وهو أديب كاتب ، في شرحه لبيتي نابغة بني ذبيان في قصيدته المسماة بالمتجردة وهما :

تَجْلُو بِقَادِمَتَيْ حَمَامَةِ أَيْكَةٍ بَرَدَاً أُسِفَّ لِثَاتُهُ بالإِثْمِدِ
كالأُقْحُوانِ غَدَاةَ غِبِّ سَمَائِهِ جَفَّتْ أَعَالِيه وَأَسْفَلُه نَدِ

فقد قال : أراد تجلو بشفتيها إذا تكلمت أو ضحكت ، وشبه شفتيها بقادمتي حمامة لرقتها و « أسف لثاته بالاثمد » كانوا يجعلون الكحل في أصول الأسنان ليشرق السواد مع البياض ، وكان ذلك مما يستحسنونه ، ولا سيما اذا كانت اللثة بيضاء غير حمراء ، فكرهوا أن تكون اللثة بيضاء كالأسنان فغيّروها بذلك ، ثم قال « كالاقحوان » رجع الى وصف الثغر ،فوصفه بالأقحوان لبياض نوره وطيبه « جفّت أعاليه وأسفله ند »شبهه بالأقحوان في هذه الحال ، وذلك أن الأقحوان اذا كان في غبّ مطر ، ولم تطلع عليه الشمس ، فهو ملتف مجتمع غير منبسط ، وكذلك كلّ الأنوار يكره أن يشبه الثغر به في هذه الحال ، فيكون كالمتراكب بعضه على بعض ، فشبهه بالأقحوان اذا أصابته الشمس فقال : « جفت أعاليه » يريد انبسطت وذهب تجعدها ، وقال : « وأسفله ند » فاحترز من أن يكون جف وذوي كله »[1] .

فواضح من هذا الشرح أن صاحبه يجعل ابراز المعاني همه ويبين مقصد الشاعر في كل معنى صاغه ، وينظر الى الواقع الذي عاشه الشاعر ، وصوّره كما رآه ، وهو بهذا شرح يعد أدبياً بحتاً ، يبعد عن الاغراق في اللغة وجزئياتها والنحو وقضاياه .

وثالث هذه الجوانب في شرح الشعر وتطوره أنه كان قد بدأ عند علماء الطبقة الأولى والثانية وتلاميذهم ذا مقصد تثقيفي ، ثم تحول عند الاجيال التي تلت هؤلاء وقبيل بدء شروح الحماسة من مقصده هذا الى مقصد تعليمي ، وبذلك توسعت دائرته كثيراً فأصبح يدل على شيء غير قليل من التعمق في دراسة اللغة وتحليلها تحليلاً يشمل جميع أجزائها، مع مناقشة معانيها المختلفة في تعابيرها المختلفة ، وكذلك دراسة مستقصية للنحو ومشكلاته ، وطرح آراء العلماء فيه ومناقشتها من خلال

---

(١) المصدر السابق ص ٧٦ وما يليها .

النظرة المذهبيّة التي تتحكم في مسار الشارح . هذا فضلاً عن شرحهم للمعاني وما فيها من تأويلات قال بها من سبقهم من العلماء أو تأويلات مبتدعة اجتهدوا فيها ، محاولين في كل ذلك أن يدعموا ما يرونه في المعاني وتأويلاتها بالقرآن الكريم أو الحديث الشريف أو المثل السائر أو الشعر الموروث ، ومن ثم بدأنا نرى أن شرح البيت الواحد قد صار يضم مادة وفيرة من العلم في فروعه المختلفة .

هذه الجوانب الثلاثة هي أهم ما يخرج به الباحث في تتبعه لشرح الشعر وتطوره عند العلماء الأوائل ومن جاء بعدهم ، ولا شك أن شروح الحماسة عندما ظهرت إلى الوجود كانت متأثرة بجميع ما طرأ على شرح الشعر بعامة لأن هؤلاء الشراح الذين تصدوا لشرح متن حماسة أبي تمام لم يكونوا بمعزل عن حركة شرح الشعر وتطوره ، فكما كانت أجيال العلماء التي توالت بعد الجيل الأول جيل أبي عمروبن العلاء وحماد الراوية تتأثر بأساتذتها وتنقل آراءهم وتضيف إليها ما يتحقق باجتهادها ، كان شراح حماسة أبي تمام متأثرين بما سمعوه من شيوخهم في دروس النحو واللغة والرواية والنقد ، ينقلون أقوالهم وأقوال سابقيهم في تسليم حيناً ومناقشة أحياناً أخرى ، وسوف نرى من خلال الفصول التالية كيف أن هؤلاء الذين تصدّوا لشرح حماسة أبي تمام قد شغلوا حيزاً غير قليل من شروحهم بآراء السابقين من أمثال الأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي والأخفش والرياشي والمازني وغيرهم من علماء الطبقة الثانية والثالثة .

كذلك يمكن أن نلحظ أنَّ شرَّاح الحماسة قد كانوا مثل الشيوخ السابقين حيث انصب اهتمام بعضهم في ناحية من النواحي التي تشكل عناصر شرح الشعر ، فمنهم من اهتم بالغريب ومناقشته كأبي العلاءالمعرّي ، ومنهم من قصر جهده على النحو وعويصاته كأبي الفتح ابن جنى ، ومنهم من وقف عند الأخبار كأبي رياش ، ومنهم من توخي المعاني لا يتجاوزها كأبي عبدالله النمري ، ثم كان منهم من حاول أن يجمع بين هذه العناصر جميعاً في تفاوت واضح مثل أبي علي المرزوقي .

ومن الملاحظ ايضاً أن هؤلاء الشراح الذين تصدوا لشرح الحماسة قد ساروا في طريق التحول الذي رأيناه عند شراح الشعر بعامة ، وهو التحول الذي لاحظناه في

نقل شرح الشعر من مقصده التثقيفي إلى مقصده التعليمي ، ومن ثم كانت مناهج شراح الحماسة في جملتها مناهج تعليمية تشمل دروس النحو واللغة والبلاغة والنقد والأخبار والأيام والأنساب ، على تفاوت في جميع ذلك ،وهو تفاوت ينجم في المقام الأول عن مقدرة الشارح وحذقه في عنصر من هذه العناصر .

وفوق ما وضحناه يمكن القول بأن الثقافة المكونة لشرح الشعر وفهمه ونقده حين بدأت شروح الحماسة قد توسعت كثيراً ، ففي النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهو الزمن الذي نرجحه لبدء شروح الحماسة كانت أعمال العلماء قد تعددت عبر أجيال عدة ، وهي أعمال شملت الكثير من علوم العربيّة من لغة ونحو وبلاغة ورواية وأخبار تاريخية ، وكان من الطبيعي أن تسهم هذه الأعمال المتشبعة في علو ثقافة هؤلاء الشراح وارتقائها ، كما أن هذه الثقافة ظلت تنمو وتتطور في خلال تواتر شروح الحماسة ، وتتابعها عبر القرون الرابع والخامس والسادس ، وقد أعان هذا على التطور الملحوظ الذي برز بجلاء عند بعض هؤلاء الشراح .

تلك هي حركة شرح الشعر وتطوره حتى ظهور شروح حماسة أبي تمام ، حاولنا أن نعرض لها في إيجاز وتركيز ممهدين بذلك لما نعقده من فصول تمثل صلب هذا البحث وموضوعه ، متوخين من ذلك أن نؤكد أن شروح الحماسة تعد جزءاً من شرح الشعر عامة ، فهي صورة منه ، وممثلة له ، بل إن جلّ الذين تصدوا لشرح ديوان الحماسة لم يكتفوا بما شرحوه منها ، وانما أسهموا إسهامات طيبة في شرح كثير من الدواوين والمختارات سواء في ذلك دواوين شعر الجاهلية والاسلام ومختاراتهما أو دواوين الشعر في العصور التي تلتهما .

ولما كان عملنا مقصوراً على شروح الحماسة الى نهاية القرن السادس الهجري ، فان هذا يقتضي أن نعطي صورة عامة عن هذه الشروح منذ أن بدأت والى عصرنا هذا الحديث ، حتى نقف على مدى الجهود التي بذلت من قبل العلماء في خدمة هذا الاختيار الفذ الذي خلفه أبو تمام . كما ينبغي أن نوضح ما يتصل بعملنا من هذه الشروح ، وهذا بطبيعة الحال لا يتضح الا من خلال ثبت نقدمه لهذه الشروح ، وذلك على النحو التالي :

٢ ـ في ثبت شروح الحماسة وما يتصل بدراستنا منها .

ما أن وقف العلماء على حماسة أبي تمام حتى أدركوا قيمة ما اختاره من أشعار العرب فيها ، ومن ثم بدأت رحلة شروحها منذ ذلك العهد وحتى عصرنا هذا الحديث .

وليس تحت أيدينا ما يدل على سنة معيّنة لبدء هذه الرحلة ، ولا أول شارح كان له فضل السبق بشرف الاضطلاع بتفسير معاني الحماسة ، ذلك لأن أول عالم بلغنا خبره في صناعة شرح للحماسة هو أبو محمد القاسم بن محمد الديمرتي المتوفى سنة ٢٨٧هـ . غير أني وجدت في مقدمة مختصر « معاني أبيات الحماسة » لأبي عبدالله الحسين بن علي النمري المتوفى سنة ٣٨٥هـ ما نصه : « ونظرت في الكتاب المعروف بالعارض في الحماسة المنسوب الى الديمرتي ، وهو كتاب شرط فيه تفسير ما يعرض من لفظ ومعنى ، فخبط خبط عشواء فيها متبعاً ومبتدعاً ، وقد ذكرت طرفاً من خطئه وصوابه »[١] ، فقوله : « متبعاً » يدل على أن هناك من سبق الديمرتي في شرح الحماسة ولكن لم يصل الينا خبر عنه ، وعلى هذا فان أقدم من وصل إلينا أنه شرح الحماسة هو القاسم الديمرتي ، وهذا بخلاف ما ذكره البغدادي في خزانة الأدب أن أول من شرح الحماسة هو أبو عبدالله النمري[٢] ، وكذلك بخلاف ما تصوّره عبد السلام هارون وعبدالله عبد الرحيم عسيلان أن أول شارح لها هو أبو رياش أحمد بن ابراهيم أستاذ النمري المتوفى سنة ٣٣٩هـ[٣] .

وكان كل من عبد السلام هارون وعبدالله عسيلان قد أوردا ثبتاً لشروح الحماسة، وضعا في مقدمته شرح أبي رياش، غير أننا ـ والأمر كما أوضحت ـ نضع شرح الديمرتي في مقدمة هذه الشروح باعتباره أقدم شرح وصل الينا خبره ، مع غلبة ظننا التي تذهب الى أن هناك من سبقه في هذا الشأن .

---

(١) ينظر الورقة ١٧٥ من مخطوطة مختصر « معاني أبيات الحماسة » .

(٢) خزانة الأدب تحقيق هارون ، ط الخانجي الثانية ٧ : ٤٤٢ .

(٣) مقدمة شرح المرزوقي ط دار المعارف مصر ق ١ : ١٤ ، وحماسة أبي تمام وشروحها ط البابي الحلبي ص ٢١٢ .

ولقد اعتمد عبدالسلام هارون في ثبته الذي أورده على ما أورده صاحب كشف الظنون من شروح للحماسة وأضاف اليه ما وقف عليه من شروح لم ترد في كشف الظنون وكذلك فعل عبدالله عسيلان حيث اعتمد فيما أورده على ثبت عبد السلام هارون في مقدمة شرح المرزوقي ،وأضاف اليه ما وقف عليه من شروح فات على عبدالسلام هارون ذكرها ، ولقد وقفنا على ثبتيهما لهذه الشروح وعرضناهما على ما وقفنا عليه من شروح في الكتب والمصادر ، فاتضح لنا انه ـ مع الجهد الطيب الذي قاما به في هذا الشأن ـ فقد فاتهما جملة من الشروح ، كما أن هناك بعض الأوهام التي وقع فيها عبدالله عسيلان في شأن هذه الشروح لزم التنبيه عليها من خلال هذا الثبت الذي نورده كالآتي :

(١) أبو محمد القاسم بن محمد الديمرتي الأصفهاني المتوفى سنة ٢٨٧هـ ، وشرحه يسمى العارض ، ولم يهتد إليه حتى الآن ، وقد أفاد منه النمري كما ذكرنا ، وأفاد منه زيد بن علي الفارسي في الشرح الذي رجحنا نسبته اليه ، ونقل منه في مواضع مختلفة ، كما أشارت اليه بعض المراجع التي ترجمت للديمرتي[١] .

(٢) أبو بكر محمد بن يحيى الصولي المتوفى سنة ٣٣٥هـ ، وهو الذي جمع ديوان أبي تمام، وشرحه مفقود لا يعرف مكانه سوى ما دلّت عليه المراجع[٢] .

(٣) أبو رياش أحمد بن إبراهيم الشيباني المتوفى سنة ٣٣٩هـ ، وشرحه أيضاً لم يهتد اليه[٣] ، غير أن أبا عبدالله الحسين النمري قد ذكر في مقدمة شرحه أنه يعوّل

---

(١) ينظر معجم الأدباء ١٦ : ٣١٩ ،وأنباه الرواة٣ : ٣٠ ، وبغية الوعاة٢ :٢٦٣ ،وينظر تحقيقنا للشرح المرجح نسبته لزيد بن علي الفارسي في الكتاب الثاني من هذا البحث .

(٢) ينظر نزهة الألباء ص٣٧٣ وما يليها ، ومعجم الأدباء١٩ : ١٠٩ ، وانباه الرواة ٣ :٢٣٣ وما بعدها ، وتاريخ بغداد٣ :٤٣١ ، ووفيات الأعيان ٥ :٣٥٦ وما بعدها ، وكشف الظنون١ :٦٩٢ ، ومقدمة شرح المرزوقي لعبد السلام هارون ق١ :١١ .

(٣) ينظر في ذكر هذا الشرح وصاحبه معجم الأدباء٢ :١٢٣ وانباه الرواة١ :٢٥ وص ٣٦٤ ،ويتيمة الدهر٢ :٣٥٢ ، وكشف الظنون لحاجي خليفة ١ :٦٩٣ ، ومقدمة عبد السلام هارون لشرح المرزوقي ق١ :١٣ .

عليه في « معاني أبيات الحماسة »[1] ، كما نجد من شرحه نقولات متعددة في مواضع مختلفة من شرح الخطيب التبريزي ، وكذلك الحال في خزانة الأدب للبغدادي[2] وبنى عليه أبو العلاء شرحه الذي صنعه لمصطنع الدولة وسماه « الرياشي المصطنعي »[3] .

(٤) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي المتوفى سنة ٣٧٠هـ ، وشرحه لم يصل إلينا ، وقد أفادت عنه بعض المراجع التي ترجمت له[4] .

(٥) أبو عبدالله الحسين بن علي النمري البصري المتوفي سنة ٣٨٥هـ وشرحه يسمى « معاني أبيات الحماسة » وقد وضع أبو محمد الأعرابي الغندجاني رسالة في نقد هذا الشرح ، سيأتي ذكرها إن شاء الله تعالى ، ويوجد لهذا الشرح مختصر بعنوان « كتاب معاني أبيات الحماسة » صنعه لنفسه رجل يدعى أحمد بن بكر بن أحمد ، وهو مخطوط كما أشرنا من قبل ، وقد ذهب الدكتور عبدالله عسيلان الى أن هذا المختصر هو شرح النمري الذي لم يهتد إليه حتى الآن ، قال في بحثه : « وقد يسرّ الله لي العثور على هذا الكتاب النفيس خلال رحلتي العلميّة إلى تركيا وبريطانيا بحثاً عن مخطوطات الحماسة وشروحها ، وكان المعتقد أن هذا الكتاب من الكتب المفقودة التي نقرأ أسماءها في تراجم العلماء وفهارس الكتب دون أن يكون لها أثر »[5] .

ونحن نقول بعد أن قرأنا هذا الكتاب إنه ليس بشرح النمري وان شرح النمري لا

(١) ينظر الورقة ١٧٥ من مخطوطة مختصر معاني أبيات الحماسة بمكتبة اسماعيل صائب التابعة لكلية الجغرافيا والتاريخ بأنقرة.

(٢) نقولات التبريزي عن أبي رياش شملت كلّ أجزاء كتابه ، وينظر مثلاً نقولات البغدادي٢ : ١٤٥ ، ٣ : ٦٢ .

(٣) معجم الأدباء ٣ : ١٥٧ .

(٤) ينظر انباه الرواة ١ : ٢٨٥ وما بعدها ، وبغية الوعاة ١ : ٥٠٠ وما يليها ، وكشف الظنون ١ : ٦٩٢ ، وينظر محمد مندور في النقد المنهجي عند العرب ص ٨٦ ، ٩٥ ، ١١٢ ، ومقدمة عبد السلام هارون لشرح المرزوقي ق ١ : ١١ .

(٥) حماسة أبي تمام وشروحها ص ٦٩ .

يزال مفقوداً ، يدلّ على ذلك ان أبا محمد الأعرابي قد تناول في رسالته « اصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » الأخطاء التي رأى أن النمري قد وقع فيها وقد ناقشه في شرح أول بيت في الحماسة وهو:

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا

وهو لأحد شعراء بلعنبر في رأس قطعة يبلغ عدد أبياتها ثمانية ، وليس في هذا المختصر شرح هذا البيت بل ليس فيه سوى شرح البيت الثاني من القطعة كلها ، وغير ذلك كثير مما خطأه فيه أبو محمد الأعرابي ،وليس في هذا المختصر ، الذي نعتقد أنه قد صنعه من الشرح الأصل أحمد بن بكر بن أحمد الحاكم ، إذْ جاء في أول ورقة فيه « كتاب معاني أبيات الحماسة لأحمد بن بكر بن أحمد الحاكم متّعه الله به » .

وقد تعمد الدكتور عسيلان إغفال هذا لينسب إلى نفسه وبأسلوب دعائي كشفاً لا يقوم على شيء ، والذي يرجع إلى نقولات التبريزي في شرحه والبغدادي في خزانة الأدب من شرح أبي عبدالله النمري ، ويوازن بينها وبين هذا المختصر يدرك تماماً أن هذا الذي زعمه الدكتور عسيلان ليس بصحيح ، والمختصر ـ كما رأيناه ـ يضم ٨٧ بيتاً من باب الحماسة و ١٤ بيتاً من باب الأدب و ٣٧ بيتاً من باب المراثى و ٢٣ بيتاً من باب النسيب و١٩ بيتاً من باب الهجاء و٣٣ بيتاً من باب الملح ، وبيتاً واحداً من من كل من بابي الصفات والسير والنعاس ، وبيتين من باب الملح ، وبيتاً واحداً من باب مذمة النساء ، ولا أدري لماذا اتجه الدكتور عسيلان ببحثه هذه الوجهة ، وهو يعلم أن المعلومات عن المخطوطات ينبغي أن تكون صحيحة ، إذ ليس من المتيسر أن يقف عليها كل الباحثين ، وفي هذه الحال يأخذون ما ذكره مأخذ الصدق ويعتمدونه في أعمالهم هذا فضلاً عن أن هذا المختصر قد حققه ودرسه الدكتور علي شاكر أرخين ، ونال به درجة الدكتوراة عام ١٩٧٣ من كلية اللغة والتاريخ والجغرافية بجامعة انقرة بتركيا، وتوجد مخطوطة دراسته بمكتبة الكليّة السالفة الذكر ، وقد أغفل أيضاً الدكتور عسيلان ذكر هذا ، مع علمي من مسؤولي المكتبة بوقوفه على هذه الدراسة .

(٦) أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ ، وجهوده في شرح الحماسة تتمثل في كتابين أحدهما : المبهج في شرح أسماء شعراء الحماسة ، وقد طبع في دمشق سنة ١٣٤٨هـ ، والآخر كتاب « التنبيه على شرح مشكلات الحماسة » وتوجد منه نسخة كتبت سنة ٦٨٢هـ بدار الكتب المصريّة تحت رقم ٤٤ أدب في ٢٠٥ ورقة ، ونسخة أخرى كتبت سنة ٥٩٤هـ في ٢٥٢ ورقة ، وتوجد في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بالقاهرة صورتان لهما الأولى تحت رقم ١٥٦ أدب ، والثانية تحت رقم ١٥٧ ، وقد حققت هذا الشرح ودرسته يسرى قاسم ، ونالت به درجة الماجستير من جامعة القاهرة عام ١٩٧١م ، وتوجد مخطوطة دراستها بمكتبة كلية الآداب بالجيزة .

(٧) أبو هلال الحسن بن عبدالله العسكري ، المتوفى سنة ٣٩٥هـ(١) ، وجهوده في الحماسة تتمثل في عملين احدهما شرحه للحماسة الذي لا يعرف مكانه ، وقد أفادمنه التبريزي في مواضع متعددة من شرحه(٢) ، والآخر رسالة صنعها وضبط فيها مواضع من الحماسة ، وقد ورد في مقدمتها قوله : « مرّبي في نسخة الحماسة بخط بعض أجلاء الشيوخ ، وذكر أنه قرأها على أبي بكر الخياط وأبي الحسين المهرباني مواضع لم تضبط حق الضبط ، ولم تجر على سنن العدل فرأيت الابانة عن مواقع الزلل منها لئلا أنسب الى الخطأ اذا رويت خلافها»(٣) .

(٨) أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، وتوجد نسخة من شرحه مصدرة بعنوان « الجزء الأول من كتاب الحماسة اختيار أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وتفسير الشيخ أبي الحسين أحمد بن فارس ـ رحمه الله ـ »(٤) . وقد تناول

---

(١) ينظر معجم الأدباء ٧ : ٢٦٣ ، وبغية الوعاة ١ : ٥٠٦ ، وخزانة الأدب ١ : ٢٣٠ .

(٢) ينظر مثلاً نقولاته من شرح أبي هلال في ١ :١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٦٣ ، ١٨٦ ، ١٩٧ ، ١٩٩ و٢ : ١٠ ، ٤٥ ، ٧٢ ، ٧٧ ، ٧٨ ، وهذه النقولات لا أثر لها في رسالته التي صنعها لضبط مواضع من الحماسة .

(٣) من هذه الرسالة نسخة ، مخطوطة بمكتبة لاه لي بتركيا تحت رقم ١٧١١ وهي من ٢٧ ورقة ، وبخط نسخي نفيس غاية النفاسة .

(٤) أشار الى هذا الشرح بلاشير في تاريخ الأدب العربي ١ : ١٦١ ، وفؤاد سيد في فهرست

الدكتور عسيلان هذا الشرح فأنكر نسبته لابن فارس ، واعتمد في ذلك على ثلاثة أدلة أحدها أن هذا الكتاب يشير الى أن صاحبه قد اطلع على شرح المرزوقي في حين أن المرزوقي توفي سنة ٤٢١هـ ، وابن فارس توفي سنة ٣٩٥ ، والثاني أن ابن فارس كان يهوّن من شأن الحماسة وصاحبها ، والثالث أن الذين ترجموا لابن فارس لم يذكروا بين مصنفاته شرحاً لحماسة أبي تمّام ، ولم نجد أحداً من شراح الحماسة أشار إلى شيء من ذلك حتى صاحب كشف الظنون لم يذكر شرحاً لابن فارس في الثبت الذي أورده لشروح الحماسة[١] .

وفي هذه الأدلة نظر لأن المرزوقي كان منافساً للصاحب بن عباد في بلاط بني بويه ، وكان المرزوقي وقتها مؤدباً لأبناء بويه ، ذكر السيوطي في بغية الوعاة « ان الصاحب بن عباد دخل على المرزوقي يوماً فلم يقم له ، فلما أفضت الوزارة الى الصاحب جفاه »[٢] ، ومعروف أن الصاحب توفي سنة ٣٨٥هـ ، وأنه تولى الوزارة سنة ٣٦٦هـ ، وظلّ بها حتى سنة وفاته . واذا كان المرزوقي عالماً له مكانته ومنافساً للصاحب عباد ، ومؤدباً لأبناء بويه فمن المرجح أن يكون قد صنع شرحه لغاية تعليمية ، وذلك حوالي هذا الزمن ، ربما قبل تولي الصاحب الوزارة وربما إبّانها، وعلى هذا فليس ببعيد أن يكون ابن فارس قد رأى شرحه وأفاد منه وان سبق المرزوقي في الوفاة ،يدعم هذا أن كلا الرجلين المرزوقي وابن فارس كانا من فارس وفي عصر واحد، وهو عصر عرف بذيوع الكتاب وانتشاره. يقول الدكتور جمال العمري عن عصر المرزوقي : «وما أظننا نغالي إذا قلنا إن الكتب في هذا العصر كانت تنافس الشيوخ خاصة بعد أن ضعف القوم ـ علماء وغير علماء ـ على الرواية ، وصارت الرواية الشفوية مستحيلة ، والأخذ عن العلماء يستوجب التسجيل والتدوين لسهولة الرجوع الى ما كتب وسجل . لهذا زاد اهتمام الناس بالكتب وتركز اهتمامهم

المخطوطات المصورة ٥١٥ أدب ، ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة بمكتبة لاه لي بتركيا تحت رقم ١٧١٦ ، وقد صورها معهد المخطوطات بالقاهرة ؛ وهي في ١٣٥ ورقة .

(١) ينظر حماسة أبي تمام وشروحها ص ٩١ وما بعدها .

(٢) ينظر البغية ١ : ١٥٩ .

على التسجيل »[1].

وإذا كان هذا حال الكتب في عصر المرزوقي وابن فارس ، فليس ببعيد أن ينتقل شرح المرزوقي حال فراغه منه الى الري حيث يعيش ابن فارس ، وأن يقرأه ابن فارس ويفيد منه ما دام يدخل في دائرة اهتمامه . وكان ابن فارس اماماً في اللغة ، وكان ديوان الحماسة مشغل علماء اللغة منذ ابن جني إلى عصر العكبري وما تلاه .

وأما أن ابن فارس كان يهوّن من شأن الحماسة وصاحبها فلا أظن أن الأمر كذلك ، ولقد استنبط الدكتور عسيلان هذا الحكم من رسالة كان ابن فارس قد أرسلها الى محمد بن سعيد الكاتب ، حين أنكر على أبي الحسن محمد بن علي العجلي تأليفه كتاباً في الحماسة بعد حماسة أبي تمام ، وهو في رأيي استنباط غير سليم لأن الرسالة ليست تهويناً من شأن الحماسة وأبي تمام بقدر ما هي اعتراض على إعجاب مفرط صدر من محمد بن سعيد الكاتب بحماسة أبي تمام وانكاره على الآخرين التأليف في الاختيار الشعري على نحو أبي تمام ، وابن فارس يريد من صاحبه ألا يغالي هذه المغالاة . ومن ثم يصبح من المجحف حقاً حين نقرأ الرسالة أن نقول : إن ابن فارس كان يهون من شأن أبي تمام وحماسته .

أمَّا أنَّ الذين ترجموا لابن فارس لم يذكروا له شرحاً في الحماسة ، فما أكثر الكتب التي لم يوردها أصحاب التراجم لمن ترجموا لهم . وربما كان إهمالهم لذكر شرح ابن فارس ناتجاً عن أنه لم تكن له أهمية تذكر . وقد أكد هذا الدكتور عسيلان نفسه حين وصفه بأنه مجرد تعليقات على الحماسة . وأما أن صاحب كشف الظنون لم يذكره في ثبته فليس هو الشرح الوحيد الذي غفل عنه صاحب كشف الظنون ، فهو قد أورد ٢٢ شرحاً فقط ، وفاتت عليه جملة من الشروح ذكرتها المراجع الأخرى مثل شرح النمري وأبي العلاء والطبرسي وسبط بن الجوزي وغيرهم ممن لا يوجد لهم ذكر في ثبت حاجي خليفة ، ولو وقف الدكتور عسيلان على الورقة (٩٣) من مخطوطة الشرح المرجّح نسبته لزيد بن علي الفارسي لما أنكر أن لابن فارس شرحاً في الحماسة ،

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١١٥ .

ففي هامش هذه الورقة من الشرح المذكور ، الذي زعم أنه قد درسه ، نقل عن ابن فارس في رواية بيت اياس بن الارت :

وَحَـانَ فِرَاقٌ مِنْ أَخٍ لَكَ صَالِحٍ   وَكَانَ كَثِـيرَ الشَّرِّ لِلْخَـيْرِ تَـوْأَمَا

فقد رواه ابن فارس « وكان كنين الشر » .

(٩) أبو أحمد عبد السلام بن الحسين بن طيفور البصري ، اللغوي المتوفى سنة ٤٠٥هـ وشرحه من الشروح المفقودة[١] .

(١٠) أبو المظفّر محمد بن آدم الهروي النحوي المتوفى سنة ٤١٤هـ ، وشرحه مفقود[٢] .

(١١) أبو سعيد علي بن محمد الكاتب ، المتوفى سنة ٤١٤هـ ، وسمي شرحه « منثور البهائي » صنعه لبهاء الدولة بن بويه ، وهو مفقود كذلك[٣].

(١٢) أبو عبدالله محمد بن عبدالله الكاتب الاسكافي ، المتوفى سنة ٤٢١هـ ، وشرحه مفقود[٤] .

(١٣) أبو علي أحمد بن محمد المرزوقي ، المتوفى سنة ٤٢١هـ ، وشرحه مطبوع في أربعة أجزاء بتحقيق أحمد أمين وعبدالسلام هارون ، وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(١٤) أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني ، المتوفى سنة ٤٣١ هـ، وتوجد من شرحه نسخة في مكتبة الاسكوريال بمدريد تحت رقم ٢٨٩ ، ومنه نسخة مصورة

(١) ينظر نزهة الألباء لكمال الدين الأنباري ص ٣٣٨ ، والفهرست لابن النديم ١ : ٦١٠ ، وتاريخ بغداد ١١ : ٥٧ ، وينظر الورقة ٢ من مخطوطة شرح الأعلم الشنتمري .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١٧ : ١١٦ وما يليها ، وانباه الرواة ٣ : ١٢٦ ، وبغية الوعاة ١ : ٧ ، وعبد السلام هارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٥ .

(٣) كشف الظنون لحاجي خليفة ١ : ٦٩٢ وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٥ .

(٤) كشف الظنون ١ : ٦٩١ ، وكحالة في معجم المؤلفين ج ٢٠ : ٢١١ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١١ .

بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٥١٧ أدب[١].

(١٥) أبو الندى محمد بن أحمد الغندجاني، وتاريخ وفاته مجهول، غير أن أبا محمد الأعرابي المتوفى سنة ٤٣٦ نقل عنه بالسماع كثيراً في كتابه «إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري»[٢].

(١٦) أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد، المعروف بأبي محمد الأعرابي الغندجاني الأسود، المتوفى سنة ٤٣٦هـ[٣]، وشرحه يتمثل في الرد على بعض ما فسّره أبو عبدالله الحسين بن علي النمري وهو بعنوان «إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري» كما أسلفنا، وتوجد نسخة منه في دار الكتب المصرية تحت رقم ٨٠ أدب، وأخرى بخط الشنقيطي تحت رقم ١٤٨١، ومن هذه النسخة نسخة مصوّرة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٣٣ أدب.

(١٧) أبو علي الحسن بن أحمد الاستراباذي[٤]، وتاريخ وفاته مجهول، وقد أخطأ حاجي خليفة حين ذكر أن وفاته كانت في سنة ٧١٧هـ، وليس هذا بصحيح لأن ياقوتاً ترجم له في معجم الأدباء، وياقوت توفي سنة ٦٢٦هـ، وورد ذكره في شرح زيد بن علي المتوفى سنة ٤٦٧هـ، والمرجّح أنه كان من علماء أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري[٥].

---

(١) معجم الأدباء ١٧ :١٤٥، وبغية الوعاة ج ١ : ٤٨٢، وبروكلمان في تاريخ الأدب العربي ١ :٧٩.

(٢) وردت ترجمة أبي الندى في معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ وما بعدها، وأنباه الرواة ٤ : ١٨١، وبغية الوعاة ١ :٥٢، ولم تشر هذه المراجع الى أنه شرح الحماسة غير ما ذكره عنه أبو محمد الأعرابي، وقد نقل عنه أبو الرضا الراوندي في شرحه الذي سوف يرد ذكره، غير أنه في ظننا قد اعتمد في نقله هذا على كتاب أبي محمد الأعرابي.

(٣) ينظر معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ وانباه الرواة ٤ : ١٨١ وبغية الوعاة ١ :٥٢.

(٤) أشار الى شرحه ياقوت في معجم الأدباء ٨ :٥، والسيوطي في بغية الوعاة ١ :٤٩٩، وصاحب كشف الظنون ١ : ٦٩٢، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ :١٣.

(٥) ينظر دراستنا لهذا الموضوع في الفصل الأول من الكتاب الثاني لهذا البحث.

(١٨) أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري ، المتوفى سنة ٤٤٩هـ ، وشرحه يسمى « الرياشي المصطنعي » ذكر ياقوت أنه عمله لرجل يقال له مصطنع الدولة ، وأنه يقع في أربعين كراسة ، وقد بناه على شرح أبي رياش المتقدم ذكره[١] ، وهو شرح مفقود أفاد منه تلميذه التبريزي في مواضع كثيرة من شرحه المطبوع ، وفي دار الكتب المصريّة مخطوطة لشرح منسوب بالخطأ لأبي العلاء المعري تحت رقم ٣٠٨ أدب ، ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة تحت رقم ١٥٦ أدب ، وقد قمنا بدراسة هذا الشرح فاتضح لنا أنه ليس لأبي العلاء ، وذلك لأسباب أولها أن نسبة هذا الشرح ، وقعت عن طريق الوهم من مالك الكتاب الذي أورد عنوانه في الورقة الأولى هكذا : «كتاب الحماسة لملك الشعراء أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وشرحها لأبي العلاء أحمد بن سليمان التنوخي سامحهما الله ، ملكه بالشراء الشرعي الفقير محمد بن محمد بن داود القدسي الشافعي من مدينة قسطنطينية في سنة ٩٨٩ » ، وتبع ذلك تعريف لأبي تمام وأبي العلاء والخطيب التبريزي الذي روى الكتاب عن أبي العلاء على حد زعم مالك الشرح محمد بن بن محمد بن داود ، وهذه التعريفات نقلها ابن داود هذا من تاريخ بغداد للبغدادي ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وبعد هذه التعريفات يأتي الشرح ، وهو بخط مغاير لخط ابن داود مالك الكتاب ، وجاء في خاتمته « تمت الحماسة بحمدالله ومنه وحسن توفيقه ، واجتهد في نقلها وضبطها بحسب الجهد والطاقة ، وكذلك في مقابلتها ، وفرغ منه في سابع عشر صفر سنة أربع وخمسين وستمائة ، والحمدلله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد النبي وأهله الطاهرين وسلامه » والذي يقف على الشرح يجد الفرق واضحاً بين خط ابن داود مالك الكتاب الذي نسب الشرح الى أبي العلاء ، وبين ناسخ الشرح الذي فرغ من نسخه سنة ٦٥٤هـ ، وذلك من خلال رسم الحروف وطريقة الكتابة .

وثاني هذه الأسباب أن التبريزي في شرحه المطبوع نقل نقولات كثيرة عن شيخه أبي العلاء وقد ضاهينا هذه النقولات بهذا الشرح ، فلم نجد لها أثراً .

وثالثها أن صاحب هذا الشرح ينقل عن أبي منصور الجواليقي ، والجواليقي ،

---

(١) ينظر معجم الأدباء ٣ : ١٥٧ .

كما ورد في انباه الرواة ووفيات الأعيان ، ولد سنة ٤٦٦ ، وتوفي سنة ٥٣٩هـ أي ولد بعد وفاة أبي العلاء (٤٤٩) بسبع عشرة سنة[١] .

ورابعها أن في هذا الشرح جملة من الأخطاء لا يمكن لعالم جليل مثل أبي العلاء ـ ليس مثله في فهم الشعر واللغة ـ أن يقع فيها ، ففي شرح تأبط شراً الوارد في الحماسة الذي يقول :

يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْنَهُ ... وَيُصْبِحُ لاَ يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

قال في شرحه : « أي لا يكون بالليل في الموضع الذي يبيت فيه الوحش ، ولا يحمي لا يكف الأذى عن الوحش » وهذا شرح لا يخفى ضعفه وتهافته ، وأبو العلاء فوق هذا الضعف والتهافت .

وبناء على ما ذكرنا نظن أن هذا الشرح لأحد تلاميذ المدرسة النظاميّة الذين درسوا على أبي منصور الجواليقي في القرن السادس . هذا وقد نفى الدكتور عبدالله عسيلان نسبة هذا الشرح لبعض ما أوردناه[٢] ، وقد وهم كل من بروكلمان[٣] وأحمد جمال العمري حين ظنا أن هذا الشرح لأبي العلاء ، وكان وهم العمري فادحاً حين كان يشير الى هذا الشرح في هوامشه ، وهو ينقل كلاماً لأبي العلاء أورده التبريزي في شرحه ، ولا يوجد هذا الكلام في نسخه الميكروفيلم التي أشار اليها . الأمر الذي يؤكد أنه لم يقرأ النسخة ولا وقف عليها[٤] .

(١٩) أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة ، اللغوي المشهور ، المتوفى سنة ٤٥٨ ، وهو شرح كبير في ستة أجزاء سماه الأنيق ، ولا يعرف مكانه[٥] .

---

(١) انباه الرواة ٣ : ٣٣٥ ، ووفيات الأعيان ٥ ٣٤٤ .

(٢) حماسة أبي تمام وشروحها ص ١٣٨ وما بعدها .

(٣) تاريخ الأدب العربي ١ : ٧٩ .

(٤) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٥) ينظر القفطي في انباه الرواة ٢ : ٢٥٥ ، وما بعدها ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٣ : ٣٣٠ ، وابن سعيد في المغرب في حلى المغرب ٣٢ : ٢٥٩ ، وابن بشكوال في الصلة

(٢٠) أبو القاسم زيد بن علي الفارسي الفسوي ، المتوفى سنة ٤٦٧هـ[١] ، وقد قمنا بتحقيق شرحه ودراسته في الكتاب الثاني من هذا البحث .

(٢١) أبو الفضل عبدالله بن أحمد الميكالي ، المتوفى سنة ٤٧٥هـ ، وشرحه ايضاً مفقود لم يصل إلينا[٢] .

(٢٢) أبو الحسين عبدالله بن أحمد بن الحسين الشاماتي ، المتوفى سنة ٤٧٥هـ ، وشرحه أيضاً مفقود[٣] .

(٢٣) أبو حكيم عبدالله بن حكيم الخيري ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، وشرحه كذلك مفقود[٤] .

(٢٤) أبو الحجاج يوسف بن سليمان ، المعروف بالأعلم الشنتمري ، المتوفى سنة ٤٧٦هـ[٥] ، وهو في الواقع ليس شرحاً لحماسة أبي تمام ، ولكنه شرح لحماسة صنعها هو وضمّ فيها مختارات من حماسة أبي تمام ، وأضاف إليها من الحماسات الأخرى ثم

---

٢ : ٣٩٧ ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١ : ٦٩١ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١١ .

(١) ذكر هذا الشرح ياقوت في معجم الأدباء ١١ : ١٧٦ ، والقفطي في انباه الرواة ٢ : ١٧ ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١ : ٦٩١ . ومنه نسخة محفوظة في معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة تحت رقم ٥١٨ أدب ، وهي مصورة عن الأصل الموجود بمكتبة لاه لى بتركيا تحت رقم ١٨١٣ .

(٢) ينظر ذكره في فوات الوفيات ٢ : ٢٥ وما بعدها ، وكشف الظنون ١ : ٦٩٢ ومعجم المؤلفين ٢ : ٢٧٣ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٢ .

(٣) ينظر بغية الوعاة ٢ : ٣٢ ، وكشف الظنون ١ : ٦٩١ ، ومعجم المؤلفين ٢ : ٢٣ وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٢ .

(٤) معجم الأدباء ١٢ : ٤٦ وما يليها ، وانباه الرواة ٢ : ٩٨ ، ومقدمة هارون لشرح المرزوقي ق ١ : ١٢ .

(٥) ذكره ياقوت في معجم الأدباء ٢٠ : ٦٠ وما يليها والقفطي في انباه الرواة ٤ : ٩وما بعدها ، وابن خلكان في وفيات الأعيان ٧ : ٨١ وما بعدها ، والبغدادي في خزانة الأدب ١ : ٢٢ ، وابن خير في فهرسته ص ٣٨٨ ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ١ : ٦٩٢ .

شرحها ، وقد أسمى هذا الشرح ،« تحلي غرر المعاني » . وتوجد منه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأحمديّة بتونس ، الأولى تحت رقم ٤٥٣٦ وتقع في ١٧٤ ورقة ، والثانية تحت رقم ٤٥٣٧ وتقع في ١٥٦ ورقة ، وكلتاهما مصورتان في معهد المخطوطات بالقاهرة الأولى تحت رقم ٦٢٢ ، والثانية تحت رقم ٦٢٤ ، وقد حقق هذا الشرح ودرسه الدكتور هاشم الشريف ونال به درجة الدكتوراة من جامعة لندن ، وتوجد مخطوطة دراسته بمكتبة الجامعة المذكورة .

(٢٥) أبو الحسن علي بن محمد بن الحارث البياري ، وتاريخ وفاته مجهول غير أنه من علماء القرن الخامس الهجري لأن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧هـ قد ترجم له في دمية القصر وعصرة أهل العصر(١) ، ويوجد الجزء الاول من شرحه في مكتبة دبلن بانجلترا تحت رقم ٣٨٧٠ ، وتوجد نسخة منه بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، مصورة بالتصوير الشمسي في ٣٧٥ لوحة ، وتحت رقم ٧٤٠٩ أدب ، كما توجد صورة أخرى تحت رقم ١٦٨٣١ز ، وقد وهم الدكتور عبالله عسيلان حين ذكر أن شرحه مفقود ودرسه على هذا الأساس(٢) .

(٢٦) أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ، وقد شرح الحماسة ثلاثة شروح : صغير ومتوسط وكبير ، والشرح المتوسط طبع عدة طبعات(٣) ، وهو المتداول بين الناس ، أما الشرح الصغير والشرح الكبير فالظن أنهما مفقودان ، وفي دار الكتب المصريّة يوجد جزء من شرح منسوب الى التبريزي تحت رقم ١١٩٥ أدب ، وقد ظنّ عبد السلام هارون أنه جزء من شرحه الصغير فحدث بذلك ، ولا أظن هذا الشرح من عمل التبريزي ، اذ ليس فيه ما يؤكد نسبته الى التبريزي سوى هوامش مأخوذة من شرحه المتوسط يشار فيها إلى اسمه ، والذي

---

(١) ينظر دمية القصر ص ٣٠٢ وانباه الرواة ٢ : ٢٧٤ ٤ : ١٨١ ، وأفاد منه أبو الرضا الراوندي في شرحه الوارد ذكره فيما بعد . وكذلك أمين الدين الطبرسي .

(٢) حماسة أبي تمام وشروحها ص ٢٢٥ .

(٣) طبع هذا الشرح المتوسط ثلاث مرات أولاها في مدينة « بن » سنة ١٨٢٨م ، بتحقيق المستشرق غيورنج وهلم فريتغ، وطبع في بولاق بتصحيح الشيخ محمد قاسم ، وطبع مرة ثالثة بتحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد في سنة ١٣٥٧هـ .

ينظر في هذا الشرح ويقابله بالشرح المتوسط لا يحس بالتقاء في الشرحين ، وهذا مما يرجّح عدم نسبته الى التبريزي[١] .

(٢٧) أبو نصر منصور بن مسلم الحلبي ، المعروف بابن الدّميك المتوفى سنة ٥١٠هـ ، وشرحه بعنوان « تتمة ما قصرّ فيه ابن جنى في شرح أبيات الحماسة »[٢] ، وهو مفقود لا يعرف مكانه .

(٢٨) فخر الزمان أبو المحاسن مسعود بن علي بن أحمد بن العباس الصوّاني الباجي البيهقي ، المتوفى سنة ٥٤٤هـ ، وشرحه كذلك مفقود[٣] .

(٢٩) أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي أمين الدين المتوفى سنة ٥٤٨هـ ، وشرحه بعنوان « الباهرفي الحماسة »[٤] وهو موجود ، توجد نسخة منه بمكتبة فيض الله بتركيا التي ادرجت ضمن مكتبة مللت بتركيا تحت رقم ١٤٦٢ ، ومن هذه النسخة نسخة مصوّرة محفوظة بمعهد المخطوطات بالقاهرة تحت رقم ٧٧ أدب ، وتوجد نسخة أخرى من هذا الشرح بالمكتبة الظاهرية في دمشق تحت رقم ١٤٢٥ .

(٣٠) أبو الرضا ضياء الدين فضل الله بن علي الراوندي المتوفى بعد سنة ٥٤٩هـ ، وشرحه موجود ، توجد نسخة منه في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم ١٦٦٣[٥] .

---

(١) ينظر عبد السلام هارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٢ ، وينظر أيضاً حماسة أبي تمام وشروحها ص ١٦٨ ، فقد شكك صاحبه في صحة نسبة هذا الشرح الى التبريزي .

(٢) ينظر معجم الأدباء ١٩ : ١٩٤ وانباه الرواة ٣ : ٣٢٦ ، وفوات الوفيات ١ : ٣٣٥ ، وكشف الظنون ١ : ٦٩٢ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٣ .

(٣) معجم الأدباء ١٩ : ١٤٧ ، وبغية الوعاة ٢ : ٢٨٤ ، وكشف الظنون ١ : ٦٩٢ ، ومعجم المؤلفين ١٢ : ٢٢٧ .

(٤) أشار الى هذا الشرح البغدادي في خزانة الأدب ونقل منه في عدة مواضع ، وترجم له القفطي في انباه الرواة ٣ : ٦ وما يليها ، وذكر شرحه بروكلمان ١ : ٧٩ وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٢ ، وكحالة في معجم المؤلفين ٧ : ٦٦ .

(٥) ينظر بروكلمان في ١ : ٧٩ وكحالة في معجم المؤلفين ٨ : ٧٥ .

(٣١) أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري ، المتوفى سنة ٥٣٧هـ[١] وشرحه مفقود .

(٣٢) عبدالله بن إبراهيم الشيرازي المتوفى سنة ٥٨٤هـ ، وشرحه أيضاً مفقود[٢] .

(٣٣) أبو إسحاق ابراهيم بن محمد بن ملكون الحضرمي الاشبيلي المتوفى سنة ٥٨٤هـ[٣] وكتابه بعنوان « ايضاح المنهج في الجمع بين كتابي التنبيه والمبهج لأبي الفتح عثمان بن جني » ، وتوجد نسخة منه بمكتبة الاسكوريال بمدريد تحت رقم ٣١٢ وهي بقلم أندلسي في ١٢٥ ورقة منها نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ١٠٥١ ، وفي المعهد أيضاً نسخة أخرى مصورة يبلغ عدد أوراقها ١٦٣ ورقة وهي تحت رقم ١٠٥٠ .

(٣٤) علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت المعروف بشميم الحلي، المتوفى سنة ٦٠١هـ ، وشرحه يسمى « الماسة في شرح الحماسة »[٤]وهو مفقود .

(٣٥) أبو البقاء عبدالله الحسين العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ ، وشرحه بعنوان « إعراب الحماسة »[٥]وهو موجود ، توجد منه نسخة في مكتبة كوبريلي بتركيا تحت

---

(١) ينظر انباه الرواة ٢ : ١٦٩ وما يليها وفوات الوفيات ٢ : ٢٩٤ ، وبغية الوعاة ٢ :٨٦ وما يليها ، وروضات الجنات ص ٤٢٥ وما يليها .

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١ :٦٩١ .

(٣) كشف الظنون ١ :٦٩٢ وبروكلمان ١ :٢٧٩ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ :١٣ .

(٤) يذهب ظننا الى أن شرحه هذا ليس شرحاً لحماسة أبي تمام ، وانما شرح لحماسة صنعها هو من بنات أفكاره ، وقد ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ١٣ : ٥٠ وما بعدها ، ونقل منها نقولات عديدة ، وأشار السيوطي في بغية الوعاة ٢ : ١٥٦ الى أن من تصانيفه الحماسة ، ولعله أراد بذلك حماسته .

(٥) أشار اليه القفطي في انباه الرواة ٢ :١١٧ وابن خلكان في ٣ : ١٠٠ ، وذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ١ :٦٩٢ ، وبروكلمان في ١ : ٨٠ ، وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ :١٣ ، والدقاق في مصادر التراث العربي ص ٥٥ .

رقم ١٣٠٧ ونسخة أخرى في مكتبة السليمانية باستانبول تحت رقم ٩٣٤ .

(٣٦) يحيى بن حميد بن ظافر بن النجار بن علي بن عبدالله المعروف بابن أبي طي المتوفى سنة ٦٣٠ هـ[١]، وشرحه مفقود .

(٣٧) أبو علي عمر بن محمد بن محمد الاشبيلي الأزدي ، المعروف بالشلوبيني المتوفى سنة ٦٤٥هـ[٢] ، وشرحه كذلك مفقود .

(٣٨) يوسف بن قزاوغلي ، المعروف بسبط بن الجوزي ، المتوفى سنة ٦٥٤ ، وشرحه يسمى « مقتضى السياسة في شرح نكت الحماسة » وهو موجود ، توجد نسخة منه في المتحف البريطاني بلندن تحت رقم ١١٠٨ و ٣٧٤١ ، وتوجد نسخة أخرى كتبت بخط المؤلف في مكتبة جامعة استانبول بتركيا تحت رقم ٧٧٨ ، ومن هذه النسخة نسخة مصوّرة بمعهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة تحت رقم ٧١٠ أدب[٣] .

(٣٩) علي بن مؤمن بن محمد بن علي ، العلاّمة ابن عصفور الحضرمي الإشبيلي المتوفى سنة ٦٩٦ قال صاحب الفوات إنه شرح ديوان المتنبي والأشعار الستة وشرح الحماسة ، وهذه الشروح لم يكملها[٤].

(٤٠) محمد بن قاسم بم محمد بن زاكور المغربي ، المتوفي سنة ١١٢٠هـ ، وشرحه بعنوان « النفاسة في شرح الحماسة »وتوجد مته نسختان بالمكتبة الأحمديّة خزانة جامع الزيتونة بتونس إحداهما في ١٦٦ ورقة تحت رقم ٤٥٣٥ أدب ، والأخرى في ٤٨ ورقة وتحت رقم ٤٥٤٠ أدب ، وتوجد نسخة أخرى للنفاسة في

---

(١) أشار اليه ابن شاكر في فوات الوفيات ٤ : ٢٧٠ .

(٢) ينظر القفطي في انباه الرواة ٢ : ٣٣٢ وابن خلكان في وفيات الأعيان ٣ : ٤٥١ وابن عبير في التكملة في كتاب الصلة ٢ : ٦٥٨ ، وابن سعيد في المغرب في حلى المغرب ٢ : ١٢٩ ،وكحالة في معجم المؤلفين ٣ : ٣١٦ .

(٣) ينظر بروكلمان ١ : ٨٠ ، وحماسة أبي تمام وشروحها ص ١٩٥ .

(٤) ينظر فوات الوفيات ٣ : ١١٠ .

المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم ٨٦٨٩ ، منها نسخة مصورة محفوظة بمركز جهاد الليبيين بطرابلس الغرب .

(٤١) بهاء الدين عبد القادر بن لقمان ، وقد سمى شرحه « الرصافة القادريّة » وطبع بالهند سنة ١٢٩٩ ، وآخره تفسير لبعض الكلمات اللغويّة باللغة الانجليزية ومن هذا الشرح نسخة بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة(١).

(٤٢) سيد بن علي المرصفي ، أحد شيوخ الأزهر الشريف في مطلع هذا القرن العشرين ، وقد طبع الجزء الأول من شرحه سنة ١٣٣٠هـ ١٩١٢م ، وقد رتّب الشعر فيه ترتيباً يختلف عن المألوف الذي درج عليه شراح الحماسة ، حيث رتب الشعراء فيه بحسب أزمانهم بادئاً بالجاهليين فالاسلاميين فالأمويين فالعباسيين(٢).

(٤٣) شرح منسوب لمحمد سعيد الرافعي ، قال عبد السلام هارون : إنه للشيخ ابراهيم الدلجموني ، وقد طبع هذا الشرح عدة طبعات بالقاهرة(٣).

(٤٤) الشيخ الامام محمد الطاهر بن عاشور ، وشرحه مخطوط بالمكتبة العاشوريّة بتونس ، وقد ذكر هذا الشرح البشير العريبي في بحث بعنوان « ثقافة الشيخ ابن عاشور من خلال تفسيره » وأشار فيه الى الثبت الذي أعده الحبيب شيبوب لمؤلفات الشيخ محمد الطاهر ، وفيه شرح ديوان الحماسة للشيخ(٤).

هذه هي الشروح التي وقفنا عليها في المراجع والمكتبات ، وقد سبق أن ذكرنا أن

---

(١) ينظر عبد السلام هارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٤ .

(٢) أشار الى هذا الشرح بروكلمان ١ : ٨٠ وهارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٤ ، وطبع هذا الشرح في مطبعة أبي الهول في القاهرة .

(٣) ينظر في هذا عبدالسلام هارون في مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٤ .

(٤) ينظر مجلة جواهر الاسلام ، عدد خاص بالشيخ الطاهر بن عاشور ، العددان ٣ ، ٤ سنة ١٩٧٨م . وقد حاولنا أن نصل الى هذا الشرح فلم نتمكن لأن هذه المكتبة أعني العاشوريّة لم تصنف محتوياتها ولم توضع أرقام لها ولأن الشيخ ـ رحمه الله ـ كان قد أوصى أن تنقل مكتبته الى جامعة القرويين بفاس بالمغرب ، ولم يتم شيء في نقلها حتى الآن ، ومن ثم ظلت غير معدة الاعداد الذي يسمح لطلاب المعرفة الافادة منها .

ثبتها عند صاحب كشف الظنون يبلغ ٢٢ شرحاً، وهي في ثبت عبد السلام هارون تبلغ ثلاثين شرحاً ، وفي ثبت عبدالله عبد الرحيم عسيلان بلغت خمسة وثلاثين شرحاً ، وبهذا نكون قد استدركنا على ما ذكروه تسعة شروح لم ترد عندهم ، ولا أظن أن ما أوردته هو كل ما صنع من شروح في الحماسة فلا شك في أن جملة من الشروح لم نقف على ذكرها بعد فنحن لا نستطيع أن نتصور أن سنوات القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر مرت دون أن يتصدى فيها عالم لحماسة أبي تمام بالشرح ، ولعل قابل الأيام يكشف لنا عن أمر جديد في هذا الشأن .

شروح مجهولة :

وبجانب هذه الشروح الموجودة منها والمفقودة توجد شروح مجهولة النسبة لأصحابها ، وهي حسب ما وقفنا عليه أو وقع تحت أيدينا أربعة شروح هي :

(١) شرح لمجهول ذكره بروكلمان وأفاد بأن نسخته موجودة في مكتبة ميونخ بألمانيا تحت رقم ٨٨٩[١] .

(٢) ورأيت في مكتبة السليمانية بتركيا شرحاً آخر لمجهول تحت رقم ١٨١٤ « لا له لي » عدد أوراقه ١٥٦ ورقة في كل ورقة ١٤ سطراً ، وهو بخط واضح مقروء، ولكنه ليس بكامل إذ ينتهي بباب المراثي ، وقال صاحبه في آخره : « تم باب المراثي من كتاب الحماسة ويتلوه المجلد الثاني باب الأدب»، ولقد وجدت صاحب هذا الشرح ينقل من المرزوقي والتبريزي والواحدي المتوفى سنة ٤٦٨ ، كما ينقل كثيراً من ضياء الدين بن الأثير صاحب كتاب المثل السائر ، المتوفى سنة ٦٣٧هـ ، وبعض هذا النقل بالسماع مما يدل على أنه كان تلميذاً له ، ومن ثم فان صاحب هذا الشرح من علماء القرن السابع الهجري .

(٣) ويوجد أيضاً بالسليمانية شرح آخر مجهول المؤلف تحت رقم ٢٧٧٦ ، يقع في ٩٧ ورقة ، في كل ورقة ١٩ سطراً ، والخط فيه واضح ، وهو جزء من شرح لأنه يبدأ

---

(١) ينظر تاريخ الأدب العربي ١ : ٨٠ .

من قطعة يزيد بن الحكم التي هي رقم ٣٩ من باب الأدب ، وينتهي في قطعة زياد الأعجم التي هي رقم ٦٨ من باب الهجاء[١] . وصاحبه ينقل عن أبي رياش وابن جني وأبي العلاء ، مما يدل على أنه من علماء القرن الخامس أو السادس الهجريين .

(٤) وثمة شرح ثالث رأيته بالسليمانية لمجهول تحت رقم ٢٧٧٥ « أسعد أفندي » وهو يكاد يكونَ تاماً، ليس فيه نقص سوى جزء من مقدمته، التي يوجد بعضها، ويتكلم صاحب الشرح فيها عن مكانة الشعر من النثر ، وقلة البلغاء وكثرة الشعراء ، ويعدد الأسباب والعوامل لذلك ، ويبدو فيها أنه متأثر بما أورده المرزوقي في المقدّمة الأدبيّة لشرحه . والشرح يقع في ٢١٧ ورقة ، في كل ورقة ٢٦ سطراً ، والخط في النسخة دقيق ولكنه جيد ، وصاحب هذا الشرح من علماء القرن الثاني عشر لأني وجدت في خاتمة الشرح عبارة تقول : « تم الشرح على الحماسة بعون الله تعالى سنة ١١٣٥ ، ربيع الأول » .

إن ما يهمنا من هذه الشروح التي أوردناها في هذا الثبت هو الشروح التي صدرت إلى نهاية القرن السادس الهجري ، وهي الفترة التي حددناها لهذه الدراسة ، ومن وقوفنا على الشروح التي صدرت في هذه الفترة ، ومن خلال المعلومات التي طرحناها في هذا الثبت يتبين لنا أن شروح الفترة التي يتناولها البحث تتدرج تحت ثلاثة أنواع :

شروح مفقودة لا يعرف عنها شيء سوى معلومات ضئيلة دلّت عليها المراجع التي توفرت لدينا ، وشروح وصلت الينا ، منها شرحان مطبوعان هما شرح الامام المرزوقي وشرح الخطيب التبريزي ، وبقيتها لا تزال مخطوطة جمعناها من مكتبات مختلفة ، وشروح ثالثة لم تصل إلينا غير أننا وجدنا نقولات كثيرة منها في الشروح المطبوعة والمخطوطة التي وصلت الينا ، وهي نقولات تسمح بالعمل فيها .

فأما النوع الأول من هذه الشروح فلا حيلة لنا فيه ، وأما النوعان الثاني والثالث

---

(١) أرقام هذه القطع وفق ترتيب الشرح المرّجح نسبته لزيد بن علي الذي حققناه في الكتاب الثاني من هذا البحث .

فهما يشكّلان مدار الدراسة في هذا البحث ، ويتكونان من خمسة عشر شرحاً هي على النحو التالي :

(١) شرح أبي رياش الذي نقل منه التبريزي كثيراً ، ونقل منه زيد بن علي في مواضع مختلفة من شرحه واعتمد عليه النمري في شرحه الذي وصل الينا مختصر عنه .

(٢) شرح أبي عبدالله الحسين النمري الذي وصل الينا مختصر منه على نحو ما أوضحنا في هذا الثبت .

(٣) كتابا أبي الفتح بن جني، التنبيه على شرح مشكلات الحماسة ، والمبهج في شرح أسماء شعراء الحماسة .

(٤) شرح أبي هلال العسكري ، الذي تقل منه التبريزي كثيراً ، فضلاً عن رسالته التي وصلت الينا مخطوطة والتي ضبط فيها مواضع من ديوان الحماسة .

(٥) شرح ابن فارس ، وقد وصل منه الجزء الأول فقط ، وهو كاف للدلالة على طريقة الشرح وما تقوم عليه من عناصر .

(٦) شرح أبي علي المرزوقي ، وهو من أهم الشروح التي يقوم عليها العبء الأكبر في هذه الدراسة .

(٧) شرح أبي الفتوح الجرجاني الذي وصل إلينا مخطوطاً بين أيدينا .

(٨) شرح أبي العلاء المعري ، وهو لم يصل إلينا ولكن تلميذه الخطيب التبريزي نقل منه نقولات متعددة كافية للدراسة وابراز عمل أبي العلاء في شرح الشعر .

(٩) شرح أبي القاسم زيد بن علي الفارسي الفسوي ، وهو الشرح الذي حققناه في الشق الثاني من هذا البحث .

(١٠) شرح الأعلم الشمنتري في النصوص التي اختارها من حماسة أبي تمام .

(١١) كتاب « إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري » لأبي محمد الأعرابي الغندجاني ، وهو مخطوط بين أيدينا .

(١٢) شرح أبي الحسن البياري الذي وصل الينا مخطوطاً ، فضلاً عن أن الطبرسي والراوندي نقلا منه نقولات متعددة في شرحيهما الوارد ذكرهما .

(١٣) شرح الخطيب للتبريزي وهو يضاهي شرح المرزوقي في كونه يقوم عليه عبء الدراسة بل يفوقه في ذلك ، لنقولاته المتعددة ، من الشروح التي لم تصل الينا .

(١٤) شرح أمين الدين الطبرسي ، وهو من الشروح المخطوطة بين أيدينا.

(١٥) وأخيراً شرح أبي الرضا الراوندي الذي هو أيضاً لا يزال مخطوطاً ، ولكنه بين أيدينا .

(١٦) الشرح المنسوب خطأإلى أبي العلاء وصاحبه من علماء القرن السادس .

ولقد أبعدنا من هذه الدراسة كتاب « ايضاح المنهج » بالرغم من حصولنا على مخطوطته لأنه وان كان يدخل في الفترة التي حددناها لهذه الدراسة فان عمله لا يعد ذا قيمة إذ جمع فيه بين كتابي التنبيه والمبهج لأبي الفتح بن جني اللذين يدخلان في دائرة عملنا . كما أن الجمع بين هذين الكتابين في كتاب واحد يعد خطأ في حد ذاته ، على نحو ما سنوضحه في موضع آت إن شاء الله .

وهذه الشروح التي يدور حولها البحث تأتي ستة منها في القرن الرابع الهجري هي شروح أبي رياش ، وأبي عبدالله النمري ، وأبي الفتح بن جني ، وأبي هلال العسكري ، وأبي الحسين بن فارس ، وأبي علي المرزوقي . وتأتي سبعة منها في القرن الخامس الهجري هي شروح : أبي الفتوح الجرجاني ، وأبي محمد الأعرابي ، وأبي العلاء المعري ، وأبي القاسم الفسوي ، والأعلم الشمنتري ، وأبي الحسن البياري ، والخطيب التبريزي ، وأما القرن السادس فمنه ثلاثة شروح هي : شرح أمين الدين الطبرسي ، وشرح أبي الرضا الراوندي ، والشرح المنسوب خطأ الى أبي العلاء المعري الذي رجّحنا أن صاحبه من شراح القرن السادس الهجري .

القسم الثاني

في المناهج وتطبيقها

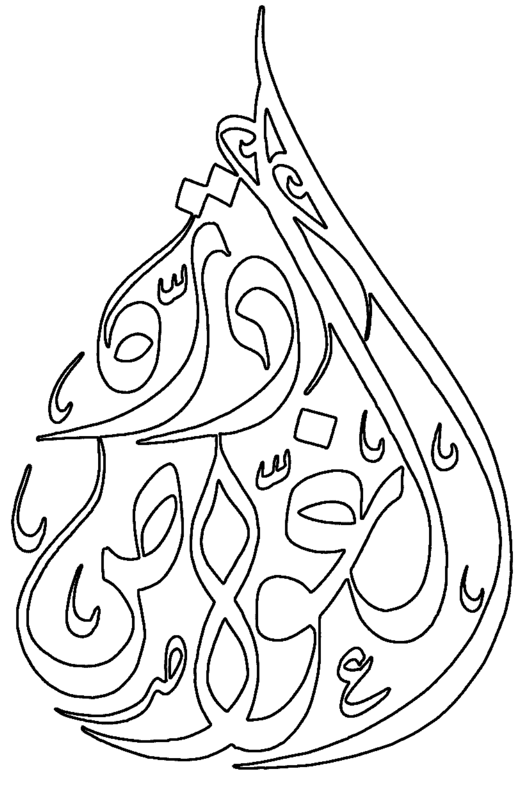

الفصل الأول

في مناهج الشراح

رأينا فيما سبق أن شرح الشعر بعامة قد تحول من غاية تثقيفية إلى غاية تعليمية هدفها مدّ التلاميذ - من خلال النص المشروح - بمعلومات جمّة تتصل بعلوم اللغة والنحو والصرف والبلاغة والرواية والأخبار التاريخية وتفسير الأعلام . ورأينا أيضاً أن شرّاح الشعر كانوا وثيقي الصلة بما خلّفه شيوخهم أو شيوخ شيوخهم من مادة علميّة شملت العناصر المختلفة التي يقوم عليها الشرح ، ثمّ رأينا أن هؤلاء الشرّاح لم يقفوا عند حد النقل من شيوخهم بل كانت لهم جهودهم في الشرح بالاضافة والتعديل والتوجيه أحياناً ، وبالنقد والاعتراض أحياناً أخرى ، وأخيراً رأينا أن شروح الحماسة عندما بدأت في الظهور تأثرت بكل هذا الذي ذكرناه ، كما تحكّمت فيها نزعات الشراح المتباينة وقدراتهم المتفاوتة في معالجة عناصر الشرح ، كلٌ حسب ميوله وباعه الذي يجعل عنصراً من عناصر الشرح يطغى على سائر العناصر الأخرى .

وطبيعي - والحال كما ذكرنا - أن تختلف مناهج شرّاح الحماسة وطرائقهم في الشرح وان كانت في غلبتها ذات غاية واحدة هي تلك الغاية التعليميّة التي تحوّل إليها شرح الشعر كما وضحنا .

إنّ الدكتور أحمد جمال العمري قد حدد في بحثه « شروح الشعر الجاهلي » ثلاثة مناهج متوالية لشراح الشعر الجاهلي أولها المنهج الالتزامي النقلي وقد شرحه بأنه منهج يلتزم فيه صاحبه بآراء السلف وأقوالهم معتمداً رواياتهم وتفسيراتهم في جميع النواحي ، ويقوم أساساً على السماع والرواية والنقل ، يجمع أقوال السابقين على

اختلاف اهتماماتهم ويرصها جنباً الى جنب ، ما توافق منها وما تعارض ، دون المساس بجوهر الأقوال والآراء . كما أنه منهج يقوم على التوثيق ونسب كل قول الى صاحبه مهما تعددت الأقوال والآراء أو تضاربت أو جانبت الحقيقة والصواب ، ما دام صاحب الرأي مذكوراً في صدر كلامه[1] .

وثانيها المنهج الابداعي الفني ، وقد حدده بأنه منهج يقوم على دعامات فنية ومقوّمات أدبية وعلميّة تتآزر فيما بينها لتخدم النص الشعري وتضيء جوانبه وتبرز سماته ومعانيه في أجمل صورة وعلى أكمل وجه ، ويقوم أيضاً على إعمال العقل وكد الفكر واستنطاق النصوص بما فيها وما وراءها ، ويستند الى المحصول الثقافي الواسع في علوم اللغة والأدب ، ويظهر في إطار فني بديع يعكس ملكة صاحبه الخلّاقة لواعية الذّواقة الفاهمة لأغراض الشعر ومراميه ، كما يقوم على استغلال امكانات اللغة والتفنن في استخراج مكامن علوم البلاغة لاظهار ما يؤديه من جمال التصوير وروعة التعبير في اطار من حسن العرض وكمال التحليل وجودة التعليل . وبجانب هذا هو منهج يستعرض الروايات ويقارنها ويختار أفضلها وأجودها وأقربها الى مذهب الشاعر ومقصده ، وفوق هذا أنه منهج تظهر فيه ذاتية الشارح وشخصيته وملكته الادبيّة وقدرته على بلورة الأفكار وتقديم التصورات الممكنة والمحتملة والجائزة في غلاف من الأسلوب الأدبي المؤثر[2] .

وثالثها المنهج الانتخابي التهذيبي التكميلي وهو ـ كما رآه ـ منهج يعتمد على جمع الشروح السابقة ثم الانتخاب منها والتنسيق بين العناصر المنتخبة بما يكمل شرحاً من مجموعها يفي بغرضها ويغني عن جمعها لاشتماله على جميع العناصر التفسيريّة المتاحة التي يتطلبها القوم ، وهو بهذا منهج لا يظهر فيه مجهود عالم واحد بل ينطق بمجهودات علماء كثيرين متعددي المناهج مختلفي العصور ، متنوعي التخصصات والاهتمامات ، كما أنه منهج يجمع بين التزام الملتزمين وابداع المبدعين ، ويظهر فيه عنصر النقل للتراث الموروث وعنصر النقل لاجتهاد المجتهدين ، وهو بجانب ما

(١) ينظر شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٥٣ .

(٢) نفسه ٢ : ١٢٩ .

ذكرنا منهج تحصيلي لا يدل على تخصص صاحبه ، وانما يدل على سعة ثقافته وكثرة اطلاعه وجمعه ، ثم انتخابه وتنسيقه ، فهو يجمع من كلّ علم بطرف ، ومن كل فن بلمحة ، ومن كلّ تخصص بنبذة ، ويوفق بين الجميع توفيقاً تاماً ، وينسّق بين أجزاء الشرح بانسجام يشعر بالتكامل والترابط ، وهو أيضاً منهج تتعادل فيه عناصر الشرح وتتآزر بحيث لا يطغى عنصر على آخر ، وانما توضع هذه العناصر جنباً الى جنب ، وفي مستوى واحد يكمل بعضها بعضاً(١) .

هذه هي مناهج شراح الشعر الجاهلي ، والأسس التي قامت عليها ، والصفات التي اتصفت بها ، حرصنا على أن نوردها كما جاءت في بحث الدكتور العمري ذي المجهود الطيّب ولا يعني هذا أننا نوافقه في كل ما جاء فيها ، ولكننا أوردناها للاستنارة من جهة ، ولندلل من جهة أخرى أنه اذا كان شراح الشعر الجاهلي قد ساروا في أعمالهم وفق هذه المناهج الثلاثة فان هذه المناهج ليست بالضرورة أن تنطبق على جميع أعمال الشرّاح في ديوان الحماسة ، ذلك لأن الدارس في شرح الحماسة يجب عليه وهو يبحث في مناهج الشرّاح أن يضع في اعتباره أموراً عدة أهمها : الغاية التعليميّة التي كانت وراء الغلبة المطلقة في شروح الحماسة ، وهذه الغاية كما رأيناها من خلال التتبع والدراسة - تعد شيئاً أصيلاً في شروح الحماسة لا يمكن تجاهله أو التغافل عنه بأية حال من الأحوال ، ولقد سبق أن أوضحنا في دراساتنا الممهدة لهذه البحث أنه منذ أن وقع الناس على ديوان الحماسة أصبح قبلة العلماء والمتأدبين(٢) ، يتخذه العلماء محوراً في الدرس الأدبي ، ويتخذه التلاميذ أساساً في تعلم الأدب ، بل أن ديوان الحماسة ، بتتبعنا له في مجال الدرس الأدبي ، كان المحور الثابت الذي لا يتغير في مختلف العصور حتى عصرنا هذا الحديث .

والذي يتتبع أخبار العلماء أصحاب التخصص في اللغة والأدب يجد ديوان الحماسة ماثلاً لدى أغلبهم في عمليّة الدرس والتعليم ، ففي المدرسة النظاميّة ببغداد

---

(١) نفسه ٢ : ٢٧١ .

(٢) قال التبريزي في مقدمة شرحه : « ان ديوان الحماسة حين حمل من اصبهان أقبل أدباؤها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه » ينظر شرحه ١ : ٤ .

كان الخطيب التبريزي يدرسه لتلاميذه ويجتهد في عمل الشروح له حتى بلغ بها ثلاثة[١] ، ودرّسه من بعده أبو منصور الجواليقي[٢] ، ومن بعدهما أبو البركات كمال الدين الأنباري[٣] ، ودرسه زيد بن علي الفارسي لتلاميذه في حلب ودمشق[٤] ، وكذلك فعل ذلك سبط ابن الجوزي في القرن السابع الهجري حيث كان يدرسه بدمشق[٥] ، وفي الأندلس كان لديوان الحماسة وجود في حلقات العلماء والتلاميذ ، لاسيما الشلوبيني وابن عصفور ، وكلاهما من شراح الحماسة[٦] .

وفي عصرنا هذا الحديث أخبرنا الدكتور طه حسين بأن ديوان الحماسة كان في مطلع هذا القرن العشرين أحد مقررات الأدب في الأزهر الشريف[٧] ، وفي تونس مرّ بنا أن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كان يدرس لتلاميذه في جامع الزيتونة ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ثم عدل عن ذلك فاصطنع له شرحاً لا يزال مخطوطاً الى اليوم[٨] . وأخبرني من أثق بكلامه أن كليّة غبدون التذكارية[٩] عندما أنشئت بالخرطوم في العقد الثاني من هذا القرن كان طلابها يدرسون ديوان الحماسة في مادة الأدب العربي ، بل لماذا أذهب بعيداً وقد رأيت قبل ربع قرن أستاذنا الدكتور محمد زكي العشماوي ـ مدّ الله في عمره ـ يتخذ من قطع شعريّة اختارها من ديوان الحماسة

---

(١) نزهة الألباء ص ٣٧٢ .

(٢) نفسه ص ٣٩٦ .

(٣) انباه الرواة ٢ : ١٦٩ . وهو من شراح الحماسة ، كما ورد في الثبت الذي صنعناه للشروح .

(٤) انباه الرواة ٢ : ١٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٩ .

(٦) ينظر ثبت شروح الحماسة الذي أوردناه في القسم الأول من هذا البحث .

(٧) ينظر كتاب الأيام ط دار المعارف مصر ١٩٥٣ ٢ : ١٥٨ وما يليها .

(٨) ينظر ثبت الشروح في القسم الأول .

(٩) هي كلية أنشأها الانجليز في السودان لتخريج طلاب يقومون بوظائف الحكومة ثم تطورت حتى أصبحت جامعة الخرطوم الآن . وغردون هو غردون باشا الذي كان حاكماً عاماً للسودان ، وقتل في زحف الثورة المهدية على الخرطوم عام ١٨٨٥ .

مجالاً لتدريس مادة « نصوص أدبيّة » التي كانت مقررة علينا نحن طلاب السنة الأولى في قسم اللغة العربيّة بكلية آداب جامعة القاهرة فرع الخرطوم .

من أجل هذا كله كان للغاية التعليميّة دور كبير في بلورة مناهج شرّاح الحماسة وتشكيلها ، ومن أجل هذاأيضاً كان على الباحث في شروح الحماسة أن يضع هذه الغاية نصب عينيه ، وهو يبحث في مناهج هذه الشروح وبالرغم من أن الدكتور العمري قد نوّه بهذه الغاية عندما تحدث عن تطور شرح الشعر الجاهلي عبر أجيال العلماء[1] فانه قد أغفلها حين حدد مناهج الشراح ، ولم يضعها في اعتباره حين أورد الصفات التي يتصف بها كل منهج من المناهج السالفة الذكر . ومن أجل ذلك كان تحفظنا على جملة من الصفات التي حددها الدكتور العمري لهذه المناهج لأنها بدت عند التطبيق في شروح الحماسة نظريّة بحتة وتحتاج الى توجيه ، وبخاصة في منهجي المرزوقي والتبريزي في شرحيهما للحماسة . أضف الى ذلك أن أول هذه المناهج وهو المنهج الالتزامي النقلي قد كان له حضور بصورة أو بأخرى في جل شروح الحماسة التي وقفنا عليها ، حتى عند أصحاب المنهج الابداعي الفني الذي تبرز فيه ذاتية الشارح وشخصيته بروزاً واضحاً ملموساً .

وأمر ثان ينبغي التنبه له وهو أن هذه المناهج الثلاثة التي حددها الدكتور العمري قامت من أجل خدمة الشعر الجاهلي وديوان الحماسة ـ الذي هو محور شروحه ، بجانب ما ضمّه من شعر جاهلي ـ ضم شعراً إسلامياً وأموياً وعباسياً . وصحيح أن منهج الشارح قد يأخذ ـ بالغلبة ـ سمتا واحداً وهو يشرح قطعاً شعريّة مختلفة العصور غير أن اللغة تشكل العبء الأكبر من عمل الشراح ، واللغة الشعريّة عند الشعراء تختلف من عصر الى عصر ، فهي عند الجاهليين غيرها عند الاسلاميين ، وعند الأمويين غيرها عند العباسيين . ثم إن هناك تراثاً ضخماً في شرح لغة الشعر يعين الشارح في شرح الشعر الجاهلي وبعض الشعر الاسلامي والأموي ، أما بعضه الآخر وشعر بني العباس فان العبء فيهما يقوم على الشارح وحده وبخاصة حين

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٢٨١ .

نجد بعض شعراء بني أميّة وبني العباس يستخدمون في لغتهم الشعريّة ألفاظاً غير عربية دفعهم الى استخدامها التطور الهائل الذي حدث في المجتمع العربي الاسلامي نتيجة للامتزاج الاجتماعي والحضاري والفكري بين العرب وغيرهم من الأجناس الأخرى ، وهو امتزاج ـ بلا شك ـ قد حقق آثاراً بالغة الخطورة لا في اللغة الشعريّة فحسب بل في موضوعات الشعر ومضامينه وما يقوم عليه من مبان وأشكال . ومن هنا كان عمل الشارح الذي يشرح شعراً جاهلياً غير عمل الشارح الذي يشرح شعراً قيل في عصر بني أميّة أو عصر بني العباس أو بعبارة أخرى الذي يشرح شعراً محدثاً ، لأن شرح الشعر المحدث لا يتطلب معرفة دقيقة باللغة وأسرارها ، والنحو ومشكلاته ، والصرف واشتقاقاته ، والأخبار التاريخيّة وعلاقتها بالنص ، والبيئة وما فيها من مواضع وطبيعة صامتة ومتحركة . إنه يتطلب فوق ذلك الذوق الأدبي العالي والاحساس الرفيع بالجمال الفني ، والالمام التام بأساليب الشعراء وطرائقهم في التعبير ، وتوليدهم للمعاني ممن سبقهم ، ثم ربط ذلك كله بثقافة عالية تجعل صاحبها يدرك ما طرأ على الناس من جديد حضارةونشوء فكر ، ورقي اجتماع ، الى غير ذلك من الأمور التي كان لها تأثير واضح في ثقافة الشاعر المحدث وأفكاره ووجدانه بل ولغته الشعريّة .

ومن أجل هذا الاختلاف بين أدوات عمل شارح الشعر الجاهلي عن غيرها رأينا ابن جني ، وهو من نعلم في فهم اللغة وأسرارها والقدرة على شرح الشعر غير المحدث، يقصّر قصوراً واضحاً حين شرح ديوان أبي الطيب المتنبي، قصوراً يجعلنا نصاب بالدهشة حين نراه يعجز عن إدراك مراد أبي الطيب في قوله :

تَبُـلُّ خَدَّيَّ كُلَّما ابْتَسَمَتْ مِنْ مَطَـرٍ بَرْقُـهُ ثَنَايَاهَا

فيفسر هذا المطر بريق الحبيبة الذي يتطاير من فمها اذا ضحكت[1] .

---

(١) ينظر ما أخذه يوهان فك في كتابه العربيّة ص ١٧٨ على ابن جنى في عدم إدراكه للأسلوب التصويري المألوف في شعر الغزل عن مطر الدموع الذي يسكبه المحب المغرم اذا أظهرت الحسناء المدللة المتجافية أسنانها البّراقة عند الابتسام .

ثم هناك أمر ثالث لابد ان ينظر إليه الدارس لشروح الحماسة الباحث عن مناهج شراحها ، وهو النظر إلى متلقي هذه الشروح لأن تلاميذ الشراح - كما اتضح لنا - كانوا متفاوتي القدرات ، متبايني الثقافة ، متعددي الأهواء والمنازع . منهم من كانت تستهويه قضايا اللغة وأسرارها والنحو ومعضلاته كالخطيب التبريزي الذي حمل على كتفه كتاب التهذيب للأزهري من تبريز الى المعرة ليقرأه على شيخها أبي العلاء المعري ، ويدرس عليه علوم اللغة والأدب[١] فكان مما أخذه عنه شرح الحماسة الذي أصبح معلماً بارزاً في شروحه فيما بعد . ومنهم الأمراء الذين كانوا يعدون أنفسهم للسيادة والسلطة كأمراء بني بويه الذين كان يؤدبهم الامام المرزوقي[٢] يدرسون عليه الحماسة ، ويأخذون منه الثقافة العالية في اللغة والأدب ، ومنهم طلاب الأدب المحض الذين لا تشغلهم قضايا اللغة واشتقاقات الصرف وعويصات النحو ، والأخبار التاريخية الموغلة في سرد القبائل وأنسابها وأيامها وأمثالها ، وانما حسبهم من هذا كله ما يعينهم على إدراك معاني الشعر ومرامي الشعراء بأقرب سبيل وأسهل تناول . ومنهم طلاب منتظمون في مدارس ، يريدون أن يأخذوا من كل علم قدراً يؤهلهم للحياة ، وينير لهم السبيل الى تحصيل العلم حتى يخلفوا أساتذتهم في حلقات الدرس والتعليم مثل طلاب المدرسة النظامية ببغداد الذين توالت عليهم شروح الحماسة جيلاً بعد جيل[٣] .

وثمة أمر رابع ينبغي وضعه في الحسبان ، وهو أن بعض شراح الحماسة كان ينأى عن سبيل التأليف من أجل الدرس والتعليم الى سبيل تقويمي نقدي ، يقرأ شروح من سبقه في الحماسة أو رواياته لها فيجد فيها - الشروح والروايات - مواطن خلل ونقص ، فتدفعه روح العلم والحرص على سلامته وكماله إلى التصدي - بالتأليف -

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ٥ : ٣٥ .

(٣) من هؤلاء أبو منصور الجواليقي الذي درس الأدب على الخطيب التبريزي مدرس الأدب بالنظاميّة آنذاك . ثم درس على الجواليقي أبو البركات الأنباري الذي تخرج هو أيضاً أستاذاً في النظاميّة . ينظر نزهة الألباء ص ٣٧٢ ترجمة التبريزي وص ٣٩٦ ترجمة الجواليقي ، وينظر ترجمة الأنباري في انباه الرواة ٢ : ١٦٩ .

لهذه المواطن يحاول إصلاحها وضبطها ، وذلك على نحو ما نجد عند أبي هلال العسكري في « ضبط مواضع من الحماسة » وأبي محمد الأعرابي في كتابه « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » وأبي نصر بن الدميك في كتابه « تتمّة ما قصرّ فيه ابن جنى في شرح أبيات الحماسة »[1] ، وهو أمر يمكن أن نلاحظ لمحات منه في شروح الشراح الآخرين الذين لم يسلكوا في التأليف هذه السبيل مثل تعرض أبي عبدالله النمري للقاسم الديمرتي ، والمرزوقي لأبي الفتح بن جنى ، والتبريزي للمرزوقي .

ونحن إذا أدركنا هذه الأمور ثم نظرنا في المناهج الثلاثة التي عرضها الدكتور العمري وصفات كل منهج منها وجدنا أن المنهج الالتزامي النقلي بصفاته تلك لم يتخذ سبيلاً للشرح من قبل شراح الحماسة الذين وصلت الينا شروحهم ، وهذا بطبيعة الحال يرجع إلى أن هذا المنهج كان أول المناهج التي التزمها العلماء في شرح الشعر الجاهلي ، ثم توالت بعده مناهج أخرى متأثرة به ولكنها مختلفة عنه ، واختلافها هذا كان بتأثير من التطور الذي طرأ على حركة شرح الشعر ، وهذا ما أوضحه الدكتور العمري حين تكلّم عن تغيرّ موجّهات الحياة العلميّة والثقافيّة نتيجة لامتزاج الشعوب والثقافات وتنوع العلوم ، والتأثر بالفلسفات والمعارف الوافدة على الفكر العربي الاسلامي . الأمر الذي أدى الى خروج علماء الأجيال اللاحقة عن الخط التقليدي الذي تمسك به علماء الالتزام والنقل ثم قال : « فكان أن انطلق العلماء بلا قيود ولا حدود ، تفننوا وأبدعوا واجتهدوا وانتقلوا بحركة الشروح من مرحلة الابداع والاجتهاد القائم على العقل والدراية »[2] .

واذا كنا قد ذهبنا من قبل الى أن شروح الحماسة قد بدأت تظهر في عقود النصف الثاني من القرن الثالث ولم يصل إلينا شيء منها سوى شروح من القرن الرابع وما تلاه من قرون فان من الطبيعي ألاّ نجد فيما وصل الينا من الشروح شرحاً ذا منهج نقلي التزامي لأنّ مرحلة الالتزام بهذا المنهج كانت قد بدأت تتلاشى ، ولم يبق منها

(١) ينظر ثبت الشروح في القسم الأول من هذا البحث .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٠٤ .

سوى آثار متفاوتة في شروح الشراح .

إننا يمكن أن نجد لدى شراح الحماسة منهجين من المناهج التي حددها الدكتور العمري هما : المنهج الابداعي الفني ، والمنهج التجميعي الانتخابي ، غير أننا - ونحن نتكلم عن شروح الحماسة - يجب أن نكون حذرين من تلك الصفات التي أسبغها الدكتور العمري على هذين المنهجين ، ذلك لأن الدكتور العمري - كما بدا لنا من بحثه - يستغلُّ أسلوباً فضفاضاً يُصوِّرُ به الأمور تصويراً لا تحتمله أو فوق ما تحتمله،وسوف يتضح لنا ذلك من خلال دراستنا لهذين المنهجين وتطبيقهما على شروح الحماسة .

ولقد اتضح لنا أن شراح الحماسة - بجانب هذين المنهجين - قد سلكوا مناهج أخرى ، فيها شيء من الابداع وشيء من النقل ، ولكنها شكَّلت مساراً في الشرح يمكن أن يكون طريقاً تتبع أو منهاجاً يحتذى في شرح الشعر ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن شراح الحماسة وفق تلك الأمور التي أوضحناها ، ووفق رؤيتنا لشروحهم ودراستنا لها قد سلكوا مناهج متعددة بلغت من حيث التقنين والتطبيق خمسة مناهج وهي :

١ - المنهج الأدبي الابداعي الفني .
٢ - المنهج العلمي التخصصي .
٣ - المنهج التتبعي التقويمي .
٤ - المنهج التجميعي الانتخابي .
٥ - المنهج الاختصاري التسهيلي .

وسوف نعرض مقومات هذه المناهج وصفاتها وفق رؤيتنا لها في شروح الحماسة رؤية تطبيقية تقوم على القراءة والاستخلاص للمعايير والمقومات لا رؤية نظرية تقوم على وضع المعايير والمقومات ثم تحاول التطبيق فيعوزها ذلك الى تغليب القليل على الكثير وتصوير الأمور في غير وضعها الصحيح ، ويمكن وفق هذا أن نعرض صفات هذه المناهج الخمسة على النحو التالي :

١ ـ المنهج الادبي الابداعي الفني :

هو أحد المناهج التي حددها الدكتور العمري وطبقه على شروح الامام المرزوقي وبخاصة شرحه للحماسة مركزاً في ذلك على النصوص الشعرية التي هي مدار بحثه ، ولقد رأينا فيما سبق مقومات هذا المنهج وصفاته كما عرضها الدكتور العمري ، ونحن نتفق معه فيما جاء فيها من حيث هي صفات يمكن أن نجدها في شرح المرزوقي للحماسة ، ولكننا نعترض على الأسلوب الذي عرض به هذه الصفات وبخاصة في قوله وهو يحدد مصير هذا المنهج بأنه منهج « يتفنن في استخراج مكامن علوم البلاغة لاظهار ما يؤديه جمال التصوير وروعة التعبير في اطار من حسن العرض وكمال التحليل وجودة التعليل »[1] .

فالمرزوقي ـ والحق يقال ـ يعد أكثر الشرّاح تناولاً لعلوم البلاغة في شرحه ولكن تناوله لها لم يكن في درجة واحدة ، فهو قد يحلل ويعلل ما يثيره من نواح بلاغيّة ، غير أنه في جانب مقابل كثيراً ما نراه يعرض هذه النواحي في عبارات موجزة متشابهة لا تتصف بحسن العرض وكمال التحليل وجودة التعليل[2] بل انه في أحيان أخرى نراه يتجاوز ابراز النكات البلاغيّة في الأبيات التي يشرحها مهتماً بعناصر أخرى غيرها ، وأدل دليل على ذلك أننا حين قمنا باحصاء لعمله في هذا الخصوص في القطع المائة الأولى من باب الحماسة ، ويبلغ عدد أبياتها ٤٤٢ بيتاً وجدناه قد عالج نواحي مختلفة من البلاغة التي كانت تستدعي الوقوف ولم يقف عندها . وهذا القول لا ينطبق على القطع المائة الأولى فحسب بل يشمل سائر قطع الاختيار على مختلف أبوابه . انظر على سبيل المثال هذا التصوير الاستعاري الذي جاء في حماسيّة هلال بن رزين وهو يصوّر كتيبة كثيفة العدد تطل على أعدائها بالموت الكثير :

أَجَـادَتْ وَبْـلَ مُدْجِنَـةٍ فَدَرَّتْ عَلَيْهِـمْ صَوْبَ سَارِيَةٍ دَرُورُ

---

(١) شرح الشعر الجاهلي ٢ : ١٢٩ .

(٢) ينظر مثلاً معالجته للنواحي البلاغيّة في الصفحات ٧٥، ١٤٢ ، ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٤٠ ، ٢٨٠ من القسم الأول من شرحه .

فَوَلَّــوْا تَحْــتَ قِطْقِطِهَــا سِرَاعاً تَكُبُّهُــمُ المُهَنَّــدَةُ الذُّكُورُ

فلا شكّ أنك تلحظ كيف استغل الشاعر الاستعارة استغلالاً حسناً في ابراز ما اراده من معنى ، ومع ذلك فان الامام المرزوقي قد تجاوز الوقوف عند هذا مكتفياً بشرح الألفاظ وعرض المعنى والحديث عن مقابلة صدر البيت الأول وعجزه[(١)] .

اننا لا نريد أن نغمط الرجل حقه ، فهو بالرغم مما رأينا منه في هذا الجانب ، فان شرحه ـ كما قال القفطي ـ يعد « الغاية في بابه »[(٢)] ، ولكننا مع ذلك لا نريد أن نقف عند الجوانب الإيجابية في شرحه دون التعرض الى الجوانب السلبيّة فيه ، كما لا نريد أن نصوّر الأمور في غير موضعها الحقيقي أو نضفي عليها أسلوباً بغلب قلتها على كثرتها .

وثمة أمر آخر ذهب اليه الدكتور العمري ـ وهو يطبق هذا المنهج على شرح المرزوقي للحماسة ـ وهو أنه تكلم عن مسار الشراح في شرح النص الشعري فوضح أنهم يسيرون فيه في مسالك ثلاثةمتوالية أولها : شرح الألفاظ الغريبة ، وثانيها : شرح العبارات المشكلة ، وثالثها : توضيح المعنى الكلي نتيجة لتوضيح العنصرين السابقين ، ثم مضى فقال : « فاذا نظرنا الى شروح الشعر عند المرزوقي نجد أن منهجه مغاير لكل من سبقوه أو عاصروه . ان أول ما يثير اهتمام المرزوقي هو المعنى يريد أن يقدمه أولاً قبل كل شيء »[(٣)]. وقال في موضع آخر ـ والحديث عن المرزوقي ـ : « المعنى هو ديدنه وهو شغله الشاغل وهو كل اهتمامه وكل هدفه ، المعنى له الصدارة ، وله الأوليّة في الشرح دون أن يطغى عليه أي عامل مساعد آخر »[(٤)] . ثم عرض أمثلة اقتطعها من شرح الحماسة ليبرهن بها على صحة ما ذهب اليه ، موازناً بين عمل المرزوقي في هذا الجانب وعمل ابن جنى في « التنبيه »لينتهي الى قوله : « فاذا أنعمنا النظر في هذا الشرح ـ يريد شرح الحماسة ـ وجدنا أن

---

(١) ينظر الحماسيّة ١١٤ في شرحه ق ١ : ٣٤١ وما يليها .

(٢) انباه الرواة ١ : ١٠٦ .

(٣) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٣٢ .

(٤) نفسه الصفحة ذاتها .

المرزوقي ينهج نهجاً عكسياً يختلف كثيراً عما ألفناه لدى معظم الشراح ينتهج نهجاً تنازلياً ، يبدأ من أعلى إلى أسفل ، يبدأ بالكل ويتدرج إلى أن يصل إلى الجزء »[1] .

فلا شك أن هذه النظرة في منهج الرجل تحتاج إلى توجيه،ذلك ـ لأنه ـ كما رأينا في شرحه للحماسة ـ لم يكن ذا خطوة ثابتة في بدء عمليّة الشرح بل ان عمله في ذلك لم يكن مطرداً على هذا النحو الذي ذهب اليه الدكتور العمري ، ويمكن أن نوضح ذلك في الآتي :

أولاً : ان شراح الحماسة جميعاً عدا أصحاب المنهج العلمي التخصصي ، الذي سوف نوضحه فيما بعد ـ كان المعنى همهم الأول والأخير ، وليس المرزوقي وحده هو الموصوف بهذا ، أما كيف يصلون اليه وبأية طريق فتلك تتحكم فيها طبيعة الشارح ونفسيته واهتماماته ، كما تتحكم فيها الغاية التعليميّة التي يرمي اليها الشراح ويلجؤون ـ غالباً ـ في تحقيقها إلى التدرج من الجزء إلى الكل أو من البسيط إلى المركب لأنهم رأوا أن هذه السبيل هي الأجدى والأنفع لطلاب المعرفة والتحصيل .

ثانياً : اختلف المرزوقي عن معظم الشراح الذين وقفنا على شروحهم في الحماسة لا لأنه كان يبدأ من الكل إلى الجزء ، كما ذهب الدكتور العمري ، ولكنه كان أديباً ذوّاقاً للفن الشعري ، وهو مع كونه موصوفاً بهذه الصفة التي غلبت عليه في شرحه كان أيضاً عالماً ملماً بشتى العلوم التي تتصل بشرح الشعر والتي تثير عقله ووجدانه وتلعب دوراً رئيسياً في شرحه .

وفي ادراكنا أن المرزوقي وهو الأديب الذوّاقة العالم المتبحر في علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد كان عند تعامله مع النص الشعري رهين احساسه الذاتي ، تثيره ـ وهو يشرح ـ الخطرة الأولى التي تشع في عقله ووجدانه ، حال قراءته للنص ، قد تتمثل هذه الخطرة في المعنى فيعرضه أولاً ، وقد تتمثل في لفظة فيسبق اليها بالشرح والايضاح وقد تكون هذه الخطرة صورة بلاغية فيسجلها قبل المضي في الشرح ، وقد تكون رواية فيبدأ بعرضها ومناقشتها ، بل ربما تتمثل الخطرة في غرض الشاعر

---

(١) نفسه ص ١٣٩ .

ومراميه في الكلام فيعمد اليه أولاً أو في تركيب نحوي فيعرضه قبل ايضاح المعنى وشرح الألفاظ ، كل هذه العناصر كان المرزوقي يبدأ بها شرحِه للنص . ولقد رأيناه بالاحصاء يعالج المائة قطعة الأولى من باب الحماسة ، فكانت النتيجة لا تتفق مع ما ذهب اليه الدكتور العمري ، فهو قد بدأ بالمعنى في ثلاثة وسبعين ومائة بيت ، وبشرح الألفاظ في ثلاثة ومائة بيت ، وبالنحو في واحد وسبعين بيتاً ، وبشرح العبارات الغامضة في ستة وثلاثين بيتاً ، وبمناقشة الرواية في تسعة عشر بيتاً . ومن ثم فان مجموع العناصر الأخرى غير المعنى قد بلغ ثلاثة وتسعين ومائتي بيت من مجموع قدره اثنان وأربعون وأربعمائة بيت ، هذا فضلاً عن أنه كان يكتفي بايراد المعنى فقط في جملة من الأبيات التي بدأ فيها بالمعنى ، دون مناقشة لعنصر من العناصر الأخرى ، وربما عالج معه عنصراً أو عنصرين .

ثالثاً : ان ابراز عمل المرزوقي في المعنى واهتمامه به لا يظهر بالموازنة بينه وبين ابن جني ، فالمرزوقي منهجه أدبي إبداعي فني ، وابن جنى منهجه علمي تخصصي ، وشتان ما بين المذهبين في المقومات والصفات على نحو ما سنرى فيما بعد ، ولو أن الدكتور العمري قد وازن بين عمل المرزوقي في المعنى وشارح آخر يسير على منهجه كأبي أحمد العسكري مثلاً لاتضح لنا قيمة عمل المرزوقي في المعاني ، ولتبينّ لنا الصواب أو عدمه فيما ذهب إليه من اقوال .

اننا لا نقول بأن المرزوقي لم يهتم بالمعنى في شرحه ، فالمعنى همّ كلّ شارح لم يسلك سبيل العلم المتخصص ولكنه لم يكن في شرحه بهذا التقنين الذي وضعه فيه الدكتور العمري يبدأ بالمعنى متدرجاً منه الى العبارة ثم الى الألفاظ أو على حد تعبيره يبدأ بالكل ويتدرج الى أن يصل الى الجزء « وانما كان في ذلك محكوماً بما يثيره النص فيه من اهتمام حال قراءته ، فهذه الاثارة هي التي تتحكم في معالجة النص عنده وطريقة سيره في الشرح .

ولعلنا من خلال كل ما ذكرناه يتضح لنا أن هذا المنهج « الأدبي الإبداعي الفني » الذي سبق إلى مصطلحه الدكتور العمري يقوم على معايير وصفات نتبع منه ، فهو ـ بلا تزيد وانشاء ـ يعد منهجاً أدبياً لأن صاحبه يجعلنا نحس ـ ونحن نقرأ شرحه ـ

بمتعتين : متعة النص الشعري المعالج ومتعة الأسلوب الذي يعرض فيه شرحه ، ويعد إبداعياً لأن الشارح لا يعتمد فيه على النقل والرواية وانما على العقل والدراية ، وان كنا لا نعدم لمحات أثر للنقل والرواية في عمل صاحبه ، غير أنه أثر طفيف لا يمس إبداعه في شيء . وهو منهج فني لأن صاحبه يوظّف علوم العربيّة من لغة ونحو وبلاغة ورواية ونقد لخدمة النصوص التي يعالجها محاولاً أن يبرز من خلال ذلك ثقافتهالتي يضطلع بها وذاتيته الدالة عليه ، كما يستغل مكنته في معالجة عناصر الشرح بصورة تدل على فنيّة واضحة .

٢ ـ المنهج العلمي التخصصي :

أما المنهج العلمي التخصصي فانه يقوم على صفات ومعايير تختلف في غلبتها عن المنهج الأدبي الابداعي الذي رأيناه ، قد يلتقي صاحبه مع أصحاب المنهج الابداعي في أنه مثلهم يعتمد على عقليته ودرايته أكثر من اعتماده على نقله وروايته ، ولكننا لا نعدم عنده من أثر النقل والرواية ، فهو من حيث هذا الأثر مثل أصحاب المنهج الابداعي ، ولكنه في درجة أعلى منهم .

ان جوهر الاختلاف بين المنهجين يكمن في عدة أمور أحدها : أن أصحاب المنهج العلمي يتعاملون مع النص الشعري وفق اهتماماتهم العلميّة المحضة ، يثيرون من خلاله قضايا اللغة وما فيها من اشتقاقات وتصاريف ومعضلات النحو والاعراب ، ولهذا لا يتخذون الأسلوب الأدبي الذي نجده عند أصحاب المنهج الابداعي الفني ، بل يتخذون في قضاياهم اللغوية والنحويّة أسلوباً علمياً لا يمس الوجدان ليثير فينا متعة عند قراءته بل يخاطب العقل والعقل وحده . وثانيها : اذا كان أصحاب المنهج الابداعي يعملون العقل ويكدون الفكر من أجل ابراز أغراض الشعر وما فيه من مضامين وأشكال ، فان صاحب هذا المنهج يعمل أيضاً عقله ويكد فكره ، ولكن في مجال العلم وحده ، يستعرض فيه قوة ذهنه وفكره وقدرته على الاستنباط والتعليل في مجالات علوم اللغة والنحو والصرف واثارة ما فيها من قضايا ومعضلات . وثالث هذه الأمور أننا رأينا أصحاب المنهج الابداعي يهتمون

بالرواية ، يعالجونها معالجة دقيقة ، يفاضلون بينها ، يختارون أفصحها أو أبلغها أو أسلمها أو أشهرها أو أوفقها للذوق ، ويفحصونها بالنقد والتصويب معتمدين في ذلك على الألفاظ ومدى موافقتها للسياق ، أو على المعنى ومدى ماله من أهميّة وقيمة ، أو على الحس الموسيقي اذا كان في الرواية ما يؤدي الى ضعف في موسيقى الشعر دون ضرورة . أما أصحاب هذا المنهج فانهم يهتمون بالرواية ولكن ليس من هذه الوجهة التي نجدها عند الابداعيين ، وانما من وجهة علميّة بحتة ، ينظرون اليها من خلال اللغة والاعراب ، يستعرضونها محاولين اعرابها في أوجهها المختلفة أو تفسيرها لغوياً وما يتبع ذلك من تصريف واشتقاق ووزن .

ورابع هذه الأمور أنه اذا كان الابداعيون يهتمون بالمعنى كثيراً ، ويبتكرون له أكثر من وجه ويعرضون ذلك في أسلوب أدبي فيه فنّيّة وجمال يثيران المتعة فان أصحاب هذا المنهج العلمي لا يهتمون بالمعنى كثيراً ، واذا بدر منهم شيء من اهتمام فانما ينصب على ربطه بالاعراب وفق تصورهم النحوي في شيء من التعليلات النحوية والمنطقية فالمعنى عند أصحاب هذا المنهج لا وجود له الا اذا كان له صلة بالاعراب ، فان لم تكن هذه الصلة تأت شروحهم خالية من ايراده ، مكتفين في ذلك بما أثاروه من قضايا نحويّة ولغويّة ، وطبيعي اذا كان هذا دأبهم أن تأتي شروحهم خالية من النواحي البلاغيّة التي تبرز المعاني وتكشفها، فهم في هذا على النقيض من أصحاب المنهج الإبداعي الذين نجد في شروحهم معالجات متفاوتة للبلاغة وفنونها المختلفة وفق اهتمامهم بالمعاني وتوضيحها .

هذه هي معايير المنهج العلمي وصفاته عرضناها من خلال هذه الموازنة بصفات المنهج الابداعي ومعاييره قصداً الى كشفها وايضاحها ، لما للمنهجين من تباين واختلاف . ولعل أظهر شارح من شراح الحماسة يمكن أن ينطبق عليه هذا المنهج بجميع الصفات والمعايير التي أوضحناها هو أبو الفتح عثمان بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢هـ ، وذلك في كتابية « التنبيه على شرح مشكلات الحماسة » و« المبهج في شرح أسماء شعراء الحماسة» ويشاركه في هذا المنهج أبو البقاء العكبري المتوفى سنة ٦١٦هـ في كتابه « إعراب الحماسة » غير أنه لا يدخل في الفترة التي حددناها لدراسة

شروح الحماسة ولهذا فان عملنا في تطبيق هذا المنهج سوف يكون مقصوراً على ابن جني وحده .

٣ ـ المنهج التتبعي التقويمي :

وأما المنهج التتبعي التقويمي فهو منهج برز عند علماء القرن الرابع وما تلاه من قرون . ويمكن أن نجد ملامح منه لدى أصحاب المناهج الأخرى . ذلك لانه يقوم على أعمال السابقين ، يتتبع هذه الأعمال ، يقف على ما فيها من أخطاء وأوهام يعرضها ويفندها ويبيّن الوجه الصحيح فيها . ومن ثم فان أعمال أصحاب هذا المنهج لا تقوم من تلقاء ذاتها ، كما هو الحال عند أصحاب المنهجين السابقين ، وانما قيامها في التأليف رهين بأعمال السابقين ، وهي بهذا تشكل منهجين مزدوجين : منهج في انشاء الكتب وتصنيفها ،ومنهج في طريقة معالجة هذه الكتب ، اذ أن الذي يتتبع شروح الآخرين ليكشف ما فيها من أخطاء ، ويصنع في ذلك كتاباً يعد صاحب طريقة في التأليف ثم انه وهو يتتبع هذه الأخطاء ويعالجها يحتاج الى طريقة أخرى يقوم عليها عمله ومن هنا كانت أعمال هؤلاء مختلفة عن غيرهم من الشراح ، ومن هنا كان اتجاههم هذا منهجاً قائماً لذاته مع ادراكنا التام بأن عملهم وهم يتتبعون أعمال غيرهم ويقومونها قد يكون متأثراً بالمناهج الأخرى ، نجد فيه آثاراً من المنهج النقلي وآثاراً من المنهج الابداعي ، وقد يكون مزيجاً من المنهجين معاً .

ولا شك في أن أصحاب هذا المنهج ذوو ثقافة واسعة ملمون بسائر العلوم التي تتصل بشرح الشعر ،فهم ـ كما رأيناهم في أعمال الحماسة ـ مطلعون على الرواية وما فيها من اختلافات ، قادرون على مناقشتها بوسائل مختلفة ، وهم بجانب هذا عالمون بالأخبار التاريخية واقفون على أحوال الشعراء والمناسبات التي نظموا فيها شعرهم مستوعبون لوسائل الأداء الشعري ، مدركون للغة وأسرارها ، مجيدون لكل ما من شأنه أن يعينهم على النقد والتقويم .

واذا علمنا أن من الذين اتجهوا نحو هذا المنهج عالمين معروفين أحدهما من علماء القرن الرابع هو أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، والآخر من علماء القرن

الخامس هو أبو محمد الأعرابي الغندجاني المتوفى سنة ٤٣٦هـ ، أدركنا حقيقة ما ذكرناه من اضطلاع أصحاب هذا المنهج بسائر أصناف العلم التي يحتاج اليها كل من يسلك سبيل هذا المنهج ويتصدى لأعمال غيره من الشراح بالنقد والتقويم ، فأبو هلال من خلال مؤلفاته التي وصلت إلينا بعد موسوعة في علوم اللغة والأدب والبلاغة والنقد(١) . وأبو محمد الأعرابي كان علاّمة نسّابة عارفاً بأيام العرب وأشعارها وأحوالها ، وكان مثيل شيخه أبي الندى يجوب بوادي العرب ليأخذ منها ما يزيد معرفته في هذه العلوم(٢) .

إنَّ تطبيقنا لهذا المنهج سوف يكون في عملين لهذين العالمين أحدهما « ضبط مواضع من حماسة أبي تمام » لأبي هلال العسكري ، والآخر « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » لأبي محمد الأعرابي .

٤ ـ المنهج التجميعي الانتخابي التكميلي :

واذا كان المنهج التتبعي التقويمي يقوم على أعمال السابقين من أجل تقويمها ونقدها وتصحيح ما فيها من أخطاء ، فان المنهج التجميعي الانتخابي التكميلي يقوم أيضاً على أعمال السابقين ولكن من وجهة أخرى غير النقد والتقويم والتصحيح . انه المنهج الذي يتجه فيه صاحبه الى تجميع أعمال السابقين بغية أن ينتخب منها شرحاً يحاول فيه استيفاء جميع عناصر الشرح .

ولقد رأينا فيما سبق أن هذا المنهج من المناهج التي حددها الدكتور العمري في شروح الشعر الجاهلي ، ورأينا صفاته ومعاييره كما عرضها في بحثه ، ولكن اذا كانت تلك رؤيته لمقومات هذا المنهج من خلال شروح الشعر الجاهلي فإنَّ رؤيتنا لها من

---

(١) من أهم كتب أبي هلال التي وصلت الينا كتاب الصناعتين وكتاب جمهرة الأمثال ، وكتاب ديوان المعاني، وجميعها مطبوع،وهو في هذه الكتب يبدو واسع الاطلاع على أعمال سابقيه ومعاصريه أمثال ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والآمدي والقاضي الجرجاني .

(٢) ينظر ترجمته في معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ ، وانباه الرواة ٤ : ١٨٠ ، وبغية الوعاة ١ : ٥٢ .

خلال شروح الحماسة تتسم ببعض المخالفة فيما ذهب اليه ، وبخاصة حين نحاول تطبيق هذا المنهج على الخطيب التبريزي في شرحه للحماسة لا في شروحه للشعر الجاهلي ، فالتبريزي وان كان في شرحه للحماسة تجميعياً انتخابياً تكميلياً فانّ جملة من الأقوال التي عرضها الدكتور العمري لصفات هذا المنهج لا تنطبق عليه بل تبدو ـ كما أسلفنا ـ نظريّة بحتة يصعب تطبيقها عملياً الا عن طريق تصيّد الأمثلة القليلة النادرة التي تخطر بين تضاعف هذا الشرح ، فمن الأقوال التي طرحها الدكتور العمري في صفات هذا المنهج « أنه منهج يجمع من كل علم بطرف ، ومن كل فن بلمحة ، ومن كل تخصص بنبذة ، ويوفق بين الجميع توفيقاً تاماً ، وينسق بين أجزاء الشرح بانسجام يشعر بالتكامل والترابط » ، ومنها ايضاً « أنه منهج تتعادل فيه عناصر الشرح وتتآزر بحيث لا يطغى عنصر على آخر ، وانما توضع العناصر كلها جنباً الى جنب وفي مستوى واحد يكمل بعضها بعضاً »(١) .

فهذه الأقوال عندما عرضناها على شرح التبريزي في الحماسة وجدنا أنها تحتاج الى توجيه وتمحيص ، فنحن لا ننكر أن التبريزي قد حاول في شرحه أن يجمع من كل علم بطرف ، ومن كل فن بلمحة ، ومن كل تخصص بنبذة . أما انه كان يوفق بين الجميع توفيقاً تاماً وينسق بين أجزاء الشرح بانسجام يشعر بالتكامل والترابط ، فهذا ما لم نحسه الاّ في القليل النادر ، ولو كان الأمر كما صوّره الدكتور العمري لما رأينا الدكتور أحمد أمين ـ رحمه الله ـ يسجل انطباعه عن قراءته لشرح التبريزي فيقول : « قرأت أول عهدي بالأدب ديوان الحماسة هذا للتبريزي فلم يعجبني لأن التبريزي نحوي لغوي أكثر منه أديباً وناقداً فكنت أقرأ الشرح أحياناً وأنا متعطّش جداً لأفهم معنى بيت فلا أجده لأن الشارح انصرف إلى شيء آخر »(٢) .

وهذا الذي أحسه الدكتور أحمد أمين وهو يقرأ شرح التبريزي يحسه كل قارىء لهذا الشرح فالتبريزي جمّاع منتخب ولكن تجميعه وانتخابه لا يبدو فيهما الانسجام والترابط الا في جوانب قليلة من شرحه ، أما في جمهور شرحه فان اللغة والنحو

(١) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٢٧١ .

(٢) مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ٤ .

يطغيانٍ عليه طغياناً واضحاً ، بل انه كثيراً ما نراه يكتفـي في شرح البيت الواحـد بالنحو فقط أو باللغة والنحو غير عابئ بالمعنى ولا مهتماً بايراده وتستطيع أن تجد برهان هذا القول في مواضع كثيرة شملت سائر أجزاء الشرح ، وهو - كما رأيناه ورآه عبد السلام هارون -[1] كان في غلبة شرحه عالة على المرزوقي ، ومع ذلك كثيراً ما يسقط المعنى الذي أورده المرزوقي مكتفياً من ذلك بالنحو فقط . انظر مثلاً كيف كان عمله في شرح بيت حفص العليمي الوارد في باب النسيب والذي يقول فيه :

فَيَا رَبِّ اِنْ لَمْ تَقْضِهَـا لي فَلاَتَدَعْ   قَذُور لَهُـمْ وَاقْبِضْ قَذُورَ كَما هِيَا

نقل التبريزي من المرزوقي هذا القول : « موضع «كما هيا « نصب على الحال ، ومامن قوله «كما» يجوز أن تكون بمعنى الذي ، وتكون هي خبراً لمبتدأ محذوف كأنه قال : كالذي هو هي ، ويجوز أن تكون ما كافة الكاف عن عمل الجر ويكون هي في موضع المبتدأ والخبر محذوف والمعنى اقبضها كما هي »[2] .

هذا ما نقله التبريزي عن المرزوقي لم يتصرف فيه بشيء ولم يضف إليه شيئاً ، ولكن انظر ماذا قال المرزوقي في شرحه قبل أن يورد هذا الكلام في النحو والاعراب قال : « دلّ بالبيت على ضيق صدره بحاله ، وشدّة ضنّه بصاحبته ، فدعا ربّه أن يقبض قذور إليه إن لم يقدّر بينهما مرافأة والتحاماً ، ويتوفاها بالموت ليأمن أن يملك أمرها غيره ، وهذا يدل على شدة غيرة فيه ، ومضايقة للناس كافة في شيء يتمناه ، ثم يقصرّ عنه »[3] .

فهل مثل هذا العمل في الشرح يمكن أن يوصف صاحبه بأنه يوفق بين أجزاءَ من العلم والفن والتخصص توفيقاً تاماً ، وينسق بـين أجـزاء الشرح بانسجـام يشعـر بالتكامل والترابط؟! .

كذلك لا نجد عند التطبيق ما يدعم قول الدكتور العمري الذي جاء فيه ان هذا المنهج تتعادل فيه عناصر الشرح ، وتتآزر بحيث لا يطغي عنصر على آخر ، وانمـا

---

(١) ينظر مقدمته لشرح المرزوقي ق ١ : ١٦ .

(٢) ينظر شرحه ٣ : ١٥٥ .

(٣) شرحه ق ٣ : ١٣٣٧ .

توضع العناصر كلها جنباً الى جنب وفي مستوى واحد يكمل بعضها بعضاً « فالتبريزي ـ كما أشرنا من قبل ـ كان معلماً في النظاميّة يدرس الأدب بها ، وكان يدرسه من خلال مختارات شعريّة منها المعلقات والمفضليات ، ومنها ديوان الحماسة وكانت لديه حصيلة من الشروح جمعها لتكونَ عدة له في عمله شأن كلّ معلم في أي زمان يدرس الأدب القديم ، كان لديه من شروح المعلقات شرح أبي جعفر النحاس وشرح أبي بكرَ بـن الأنباري فانتخب من هذين الشرحين شرحه للقصائد العشر ، وكان لديه من شروح المفضليات شرح الأنباري وشرح المرزوقي فانتخب منهما شرحه للمفضليات . أما في ديوان الحماسة فقد كانت لديه شروح عدة ـ بدت لنا من شرحه ـ هي شروح القاسم الديمري وأبي رياش ، وأبي بكر الصولي ، وأبي عبدالله النمري ، وأبي علي المرزوقي ، وأبي هلال العسكري ، وأبي العلاء المعري ، وأبي القاسم الفسوي ، وكان لديه كتابا التنبيه والمبهج لأبي الفتح بـن جنى ، وكتاب « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » لأبي محمد الأعرابي ، هذا فضلاً عن سماعاته من الشيوخ وقراءاته في كتب علماء اللغة والنحو أمثال الخليل وسيبويه والمبرد وغيرهم ، وكانت عناصر الشرح ، كما تبلورت في ذلك الزمن تتمثل في الآتي :

(١) شرح أسماء الشعراء . (٢) ذكر مناسبة الشعر . (٣) تحديد بحر الشعر وضربه وقافيته . (٤) اختلاف الروايات ومناقشتها واختيار الأجود منها . (٥) شرح لغة الشعر وما فيها من تصريف واشتقاق وأوزان . (٦) ذكر ما يتصل بالشعر من قضايا الإعراب والنحو . (٧) إيراد المعنى وما فيه من تأويلات . (٨) رواية الأحداث التي تتصل بالنص وما قيل فيها من أشعار وأمثال وأخبار . (٩) التعريف بالأعلام الواردة في النص الشعري . (١٠) إيراد اختلافات الشراح في عناصر الشرح وما وجهه بعضهم لبعض من نقد واعتراض . (١١) نقد الشعر المختار في الحماسة وايراد آراء السابقين في هذا الخصوص . (١٢) معالجة النواحي البلاغيّة التي اشتمل عليها النص .

هذه هي عناصر الشرح كما تبلورت في ذهن التبريزي في ذلك الزمن فماذا يصنع حتى يقدّم لتلاميذه شرحاً يشمل جميع هذه العناصر ، وهو الرجل ذو المنهج

التجميعي الانتخابي . نظر في الشروح التي أمامه فوجدها كما صوّرها في مقدمة شرحه حين تكلم عن ديوان الحماسة وشرّاحه قال : « فمنهم من قصرّ فيه ، ومنهم من عني بذكر إعراب مواضع منه دون ايراد المعاني ، ومنهم من أورد الأخبار التي تتعلق به وأعرض عن ذكر المعاني ، ومنهم من ذكر المعاني دون الاعراب والأخبار »(١) .

وكان من الطبيعي - والحال كما صوّره في هذه الشروح - أن ينتخب ما يوفر لشرحه جميع العناصر السالفة فهي - مجموعة لا منفردة - قد تشتمل على ذلك ، فما عليه إذن إلّا أن يأخذ من كل شرح ما تقتضيه الحاجة إلى استيفاء هذه العناصر ، ثم ينسقها ويرتبها ترتيباً يحقق لها التعادل والتآزر بحيث لا يطغى أحدها على الآخر ، ويضعها كلها جنباً إلى جنب وفي مستوى واحد يكمل بعضها بعضاً ، هذا ما رمى إليه الدكتور العمري ، وما يرمي اليه كلّ متصوّر للمنهج التجميعي الانتخابي ، ولكن هل حقق التبريزي هنا في شرحه للحماسة ؟ .

اننابعد دراسة مضنية لشرحه ومضاهاة مجهدة لعمله بما جاء في شرح المرزوقي واستخراج جميع ما أخذه منه اكتشفنا الحقيقة الآتية : انه جعل شرح المرزوقي أصلاً لشرحه في جمهور النصوص الشعرية الواردة في ديوان الحماسة ، ثم لجأ الى الشروح الأخرى يحاول أن يكمل منها ما ينقص شرح المرزوقي من عناصر ، فأخذ شرح أسماء شعراء الحماسة والأعلام الواردة في الشعر من ابن جنى وأبي العلاء وأبي رياش وأبي هلال وأخذ ما يتصل بالنصوص من مناسبات وأخبار وأحداث من أبي رياش وأبي هلال وأبي محمد الأعرابي ، وأخذ اللغة والنحو من المرزوقي أولاً ثم من أبي العلاء وابن جنى ، وأخذ بعض ما أورده النمري منمعان وبخاصة في المواطن التي كان أبو محمد الأعرابي يعترض عليه فيها ، كما أخذ بعض المعاني الأخرى من شرح زيد بن علي الفارسي الفسوي ، وأخذ في مواضع قليلة بعض ما أورده أبو هلال في نقد الشعر المختار في الحماسة ، وسجل لنا بعض اعتراضات المرزوقي على ابن جنى مبيناً رأيه في ذلك ، كما سجل لنا بعضاً من مناقشات أبي العلاء لأبي رياش وأبي

(١) ينظر مقدمة شرحه ١ : ٤ .

عبدالله النمري فضلاً عن ردود أبي محمد الأعرابي على أبي عبدالله النمري ، كذلك أخذ أوزانه وأضربه وأنواع قوافيه من أبي العلاء ، كما أخذ بعض النواحي البلاغية التي أثارها أبو علي المرزوقي في شرحه .

ولمّا كان الشرّاح يعتمدون في شروحهم على نسخ مختلفات لمتن الحماسة ، كان من الطبيعي ألاّ تفي هذه المآخذ جميع عناصر الشعر الوارد في متنه الذي اعتمده ، اذ أن اختلاف روايات الشرّاح في متن الحماسة يؤدي إلى أن تكون جملة من أبيات القطعة الواحدة أو جملة من القطع متفاوتة في متون هذه الشروح التي جمعها لينتخب منها شرحه ، وكان عليه في هذه الحال أن يجتهد في تكملة العناصر ، لما لم يجده من شعر في هذه الشروح ، ولكنه لم يفعل بل وجدناه في أحيان مختلفة يأتي بالبيت أو البيتين أو الثلاثة دون أدنى شرح ، ففي متنه ـ بعد الاحصاء والتتبع ـ ثمانية وتسعون بيتاً بلا شرح جلها مما لم يرد في رواية المرزوقي الذي كان عالة عليه ، وكذلك اثنتان وستون قطعة لم تحدد أوزانها وأضربها وقوافيها أغلب ظننا أنها لم ترد في رواية أبي العلاء المعري ، أو فات على أبي العلاء توضيح بحورها وأضربها وقوافيها . هذا فضلاً عن اكتفائه في كثير من المواضع بشرح لفظة أو لفظتين من البيت والواحد وأحياناً من البيتين أو الثلاثة[1] .

أضف إلى ذلك أنه كثيراً ما ينساق وراء شيخه أبي العلاء باستطراداته في شرح عبارة أو لفظة وردت في أحد الأبيات[2] أو شرح اسم شاعر له قطعة في الحماسة ، أو علم ورد في بيت فيها[3] ، كما ينساق وراء أبي رياش فيسود العديد من صفحات

---

(١) ينظر مثلاً لذلك الصفحات ٧٧ ، ١٠٠ ، ١٢٤ ، ١٦٣ من الجزء الثاني والصفحات : ١٧ ، ٣٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٧٥ من الجزء الثالث ، والصفحات ٥٤ ، ٦٣ ، ٨١ ، ١٢٤ من الجزء الرابع .

(٢) ينظر مثلاً ج ١ الصفحات ٧٥ ، ١١٥ ، ١٤٣ ، وج ٣ ص ٦٢ ، وج٤ الصفحات ١٠٥ ، ١٥٢ ، ١٧٦ .

(٣) ينظر مثلاً شرحه لأسماء حندج ١ : ١٤٣ وحطان ١ : ١٥١ وأبو النشناش ١ : ١٦٦ وموسى ١ : ١٨٩ وجوين ١ : ٢٣٣ وأباغ ٢ : ١٨٩ ، وسلمان ٣ : ١٢ وهمّاش ٣ : ١٨٩ .

شرحه بالحوادث والأخبار التي تتصل بالنص وما يتبع ذلك من أسماء وأشعار وأمثال [1].

وبناء على جميع ما تقدم نرى أن هذه الصفة التي ذكرها الدكتور العمري من صفات المنهج التجميعي الانتخابي لا تنطبق على التبريزي في شرحه للحماسة ، ربما تنطبق عليه في شرحه للمعلقات أو المفضليات . أما في الحماسة فيمكن القول بأن ما شرحناه لا ينفي أن التبريزي كان جامعاً لشروح سبقته ، وأنه كان يحاول جهده أن يأخذ منها ما يحقق به استيفاء عناصر الشرح في تناسق بينها تارات ، وفي عدم منه تارات أخرى ، ولا عيب في هذا لأن الرجل انتخب ما وجده في الشروح لخدمة هذه العناصر ، ولم يكن مبدعاً ليكمل ما وجده من نقص في مجموعها ، كما كانت تتحكم فيه اهتماماته النحويّة واللغويّة ، ويتحكم فيه التأثر الواضح بشيخه أبي العلاء في الاستطرادات المتشعبة ، الأمر الذي جعلنا نحس في كثير من الأحيان بعدم تعادل العناصر وتآزرها في شرح النصوص ، ومع ذلك فقد كانت للرجل خطوات عمليّة ، ولمحات طيّبة ، وجوانب مشرقة في تحقيق هذا المنهج تدل على سعة علمه وكثرة قراءاته ودقة صوابه فيما ينتخب ، الى غير ذلك مما سنعرض له عند الحديث عن تطبيق هذه المناهج في شروح الشرّاح .

هذا ما رأيناه في بعض الصفات التي أوردها الدكتور العمري لتحديد معايير هذا المنهج ، ويمكن أن نضيف اليه ملاحظة وردت في قوله : « ان هذا المنهج لا يظهر علم الشارح ولا سمة تخصصه ولا تتحدد طبيعة فهمه أو عمق فكره »[2]، فهذا القول لا ينطبق أيضاً على جميع عمل التبريزي في شرحه للحماسة ، لأنه وان بدا في بعض الأحيان مختفي العلم والتخصص ، مستتراً في فهمه وعمق فكره وراء نقولاته المتتالية من شروح غيره فانه في أحيان أخرى يظهر علمه وتتضح سمات تخصصه

---

(١) ينظر ١ :١٨ وما بعدها ، وص ٢٠٣ وما بعدها وص ٢٢٣ وما بعدها ، وج٢ :٨ وما بعدها ، وص١٢ وما بعدها وص٢٠ وما بعدها وص١٤٩ وما بعدها ، وينظر ٣ : ٢٧ وما بعدها .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٢٧٢ .

وتتحدد طبيعة فهمه وعمق فكره ، والأمثلة على ذلك متعددة وافرة سوف نعرضها عند التطبيق .

ان الشيء الوحيد الذي يختفي في شرحه هو الابداع ولكنّه قد عوّض هذا الابداع بسعة ثقافته وضخامة جمعه وغزارة تحصيله ، وبالمحاولة الجادة في الانتخاب ، وكل هذه أمور تفيد طلاب العلم من تلاميذه وقرائه ، وتحقق الغاية التعليميّة التي سلك من أجلها هذا المنهج في شرحه .

٥ ـ المنهج الاختصاري التسهيلي :

هو منهج اتجهت إليه فئة من العلماء لعوامل مختلفة أحدها : اقتناع هذه الفئة بأن الغاية من شرح الشعر هي الوصول إلى معنى الشاعر ومقصده ، وما دام الأمر كذلك فليكن الوصول إليه من أسهل الطرق وأيسر السبل .

وثانيها : اقتناعهم التام بأن الشروح التي صنعها العلماء لديوان الحماسة قد جاءت مسهبة في تناول عناصر الشرح بل إن بعضها قد جاء دالاً على ميول أصحابها نحو تخصص معين في العلوم التي تخدم الشرح حيث جاءت شروحهم في غلبتها موقوفة على هذا التخصص ، مما أدى إلى طغيان عنصر ما على سائر العناصر الأخرى . كما رأت هذه الفئة أن جملة من الشروح قد عجّت بالآراء النحويّة وما فيها من خلافات ، وباللغة وقضاياها واشتقاقاتها وتصاريفها وأوزانها ، وامتلأت كذلك بتأويلات المعاني القريبة منها والبعيدة ، وبالخلافات في الرواية وما يتبعها من قبول أو رفض وفق تعليلات منطقية أو نحويّة أو لغويّة أو بلاغيّة أو موسيقيّة ، إلى غير ذلك من وسائل اختيار الرواية أو رفضها ، كما زخرت بمناسبات الشعر وأحداثه وما يتصل بذلك من أنساب وأعلام وأشعار وأمثال وأخبار ، الأمر الذي دفعها إلى الاتجاه نحو تصفية هذا الفيض الغزير وتنقيته وتقديمه في ثوب جديد موشى بالاختصار والايجاز بدلاً من ثوبه القديم الموشى بالاسهاب والاطناب .

وثالثها : إدراك هذه الفئة بأن قراء الشروح يمثلون فئات متفاوتة في القدرة على التحصيل والعلم ، متباينة في الطباع والأهواء ، منها فئة يصعب عليها استيعاب

هذه الشروح المتخمة بالمعارف والعلوم ، تريد أن تلم بها ولكن بوسيلة تنهض لها قواها الذهنية وقدراتها الاستيعابيّة وأذواقها الفطريّة وغير الفطريّة ، ومنها فئة أخرى يهمها من الشعر أن تفهمه ، أن تتذوقه ، أن تصل الى مواطن الجمال فيه لا تريد أن تشغل بالنحو وما فيه من خلافات ، ولا باللغة وما فيها من اشتقاقات وتصاريف وأوزان ، ولا بأحداث الشعر وأخبار الشعراء وما يتبع ذلك من أنساب وأشعار وأمثال ، حسبها من النحو الشيء اليسير الذي يعين على فهم النص ، ومن اللغة ما يعين على فهم ألفاظ الشاعر وصولاً إلى معانيه ومراميه ، ومن المناسبات ما يحقق فهم الغرض ودواعي القول فيه والجو النفسي والاجتماعي الذي صدر فيه الشعر .

ورابعها : إدراك هذه الفئة بسنن التطور في الحياة وما يعتري الأجيال من علو أو انحدار في المعرفة والتحصيل ، وإدراكها أيضاً بأنه اذا كانت الشروح ذات التوسع في العناصر الممتلئة بالاستطرادات العلميّة قد استطاعت أن تحوز اعجاب العلماء ذوي التخصصات العلميّة ، والطبقة العليا من المتعلمين التي تتطلع إلى مرتبة أصحاب التخصصات فانها بلا شك لن تستطيع أن تحقق ذلك حيال المتعلمين المتوسطي الفهم والاستيعاب أو طالبي الأدب البحت ، وبخاصة حين النظر الى الأجيال وتعددها والقرون وتلاحقها وتغيّر الحياة العلميّة مدّاً وجزراً عبر هذه الأجيال والقرون .

لهذه العوامل مجتمعة قام هذا المنهج الذي اعتمد اختصار المعلومات في الشرح مسلكاً ، والتسهيل في عرضها سبيلاً ، ومن أجل هذا أطلقنا عليه هذا المصطلح وهو بحسب ما أوضحنا من عوامل منهج يقوم على مقومات وصفات تختلف من حيث المادة والعرض عن سائر المناهج الأخرى ، إنه بايجاز منهج يقوم على مراعاة المتلقين وقدراتهم واختلاف مشاربهم وأهوائهم ، يقدم لهم عناصر الشرح سهلة ميسرة خالية من الاستطراد ، بعيدة عن التشعيب والاغراب ، منهج تجد فيه اللغة ولكن بقدر محدود ، والنحو ولكن بصورة تحقق إدراك المعنى فحسب ، وتجد فيه الرواية ولكن في لمحات تفي بالغرض وتعين على نيل المطلوب ، والأخبار والمناسبات ولكن في اختصار للأسانيد وإسقاط لكل ما من شأنه أن يؤدي إلى التطويل ، ونجد فيه البلاغة

والنقد ولكن في غير مغالاة أو إسراف . منهـج اعتمـد أصحابـه فيه أسلوبـاً ليس بالعلمي البحت ، كما هو الحال عند أصحـاب المنهـج العلمـي التخصصي ، ولا بالأدبي الذي يقوم على اختيار الألفاظ والتجويد في صوغ العبارة واحكامها ، على النحو الذي نجده عند أصحاب المنهج الابداعي الفني ، وانما هو أسلوب يختار من الألفاظ أوضحها وأبينها ، ويصوغ العبارات بصورة يحوطهـا الايجـاز ، وتحكمهـا السهولة ، ويقيّدها الوضوح .

ولعلّ خير ما يُطَبَّقُ عليه هذا المنهج من شروح الحماسة شرحان أحدهما الشرح الذي رجحنا نسبته إلى زيد بن علي الفارسي[1] المتوفى سنة ٤٦٧هـ ، والآخر الشرح المنسوب خطأ إلى أبي العلاء المعري ، والذي رجحنا أن يكون صاحبـه من علماء القرن السادس الهجري[2] .

هـذه هي مناهـج شراح الحماسـة كما رأيناهـا في الشروح التـي وقفنـا عليهـا واستخرجناها من قراءتنا لها وبحثنا فيها ، ولعل من المفيدونحن نريد أن نطبق كل منهج منها على نموذج أو اثنين من شروح الحماسة المطبوعة والمخطوطة أن نشير إلى أن هناك شروحاً غير واضحة المعالم في مناهجها ، لأنها لم تصل إلينا كاملـة ، وانمـا وصلت إلينا في صورة نقولات متفاوتة في الشروح المطبوعة والمخطوطة التي وصلت إلينا ، ومن أجل هذا سوف نعرض لها بعد التطبيق محاولين الكشف عن هذه المعالم وتحديدها حتى نحقق بذلك الدراسة الشاملة للشروح التي تدخل في الفترة التـي حددناها لمسار هذا البحث .

(١) ينظر كتابنا الثاني من هذه الدراسة ، فقد خصصناه لدراسة هذا الشرح وتحقيقه .

(٢) ينظر ثبت الشروح في القسم الأول من هذا الكتاب ، فقد أوضحنا فيه حقيقة نسبة هذا الشرح إلى أبي العلاء ، ووهم بعض العلماء والباحثين فيه .

الفصل الثاني

المنهج الأدبي الابداعي وتطبيقه في شرح المرزوقي

قلنا إن هذا المنهج يقوم على تعابير أدبيّة إبداعيّة علميّة فنيّة تبرز فيه شخصية صاحبه بروزاً واضحاً . لاعتماده في الغلبة المطلقة من شرحه على العقل والدراية أكثر من اعتماده على النقل والرواية ، وقلنا إنه منهج توظف فيه العلوم المعينة على شرح الشعر من رواية ولغة ونحو وبلاغة ونقد توظيفاً يخدم المعنى في جلاء وايضاح ، وهو منهج يعتمد على ثقافات صاحبه الموروثة ورؤياته المبتكرة حيث تصبّ هذه الثقافات وهذه الابتكارات في عمليّة فنيّة للشرح ، تظهر مقدرة الشارح العقليّة والابداعية ، وتدلّ على علوه الأدبي وتساميه العلمي في التعامل مع النص الشعري .

ولعلّ خير من نُطَبِّق عليه هذا المنهج فيمن وصل الينا شرحه للحماسة هو أبو علي المرزوقي (١) ، غير أن من المفيد ونحن نريد تطبيق هذا المنهج على المرزوقي أن

(١) هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي ، أحد أعلام اللغة والأدب بأصبهان ، كان مؤدباً لأمراء بني بويه . تلقى علم اللغة والنحو على أبي علي الفارسي حيث درس عليه كتاب سيبويه ، وخلّف تصانيف تدل على علمه وفضله أهمها : شرح الحماسة هذا ، وشرح المفضليات ، وشرح المشكل من شعر أبي تمام ، وكتاب الأزمنة والأمكنة ، وكتاب أمالي المرزوقي، وشرح الموجز في النحو ، وكتاب عنوان الأديب ، والانتصار من ظلمة أبي تمام ، وتصانيفه هذه منها المفقود والمخطوط والمطبوع ، فمن المطبوع شرحه للحماسة الذي طبع بتحقيق من أحمد أمين وعبد السلام هارون ،والأزمنة والأمكنة الذي طبع بحيدر أباد بالهند ، ومن المخطوط شرح المفضليات وأمالي المرزوقي ، الأول موجود بليدن تحت رقم ٧٤٤٦ والثاني بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٣٠٠ ، ومن المفقود شرح الموجز في النحو وعنوان الأديب ، وتوفي المرزوقي باجماع المصادر سنة ٤٢١ هـ . ينظر ترجمته في معجم الأدباء ٥ : ٣٤ وما يليها ، وانباه الرواة ١ : ١٠٦ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٩٦ وما يليها ، وينظر دراسة عبد السلام هارون لتصانيفه في مقدمة شرحه للحماسة ، القسم الأول ص ٢٠ .

نسلط الضؤ على أمرين يتصلان بشرحه ، أحدهما شخصيته والآخر مصادره ، ففي رأينا أن شخصية المرزوقي لم تلعب دورها في الشرح من حيث المنهج والمسار فحسب بل كان لها دورها البارز في المصادر التي اعتمدها في شرحه ، وهي شخصيّة ـ كما رأيناها في شرحه ـ أدبيّة علميّة لها في دنيا الأدب باع كبير ، وفي مجال العلم سطوة عظمى ، ولكنها بجانب هذا كانت شخصيّة موصوفة بالاعتداد والتعالي . نلمس ذلك من خلال ما أوردته المصادر عنه ، ومن خلال تصانيفه التي وصلت الينا ، فقد ذكرت المصادر أن الصاحب بن عبّاد ذا المكانة العالية في بلاط بني بويه دخل عليه ذات يوم وهو يعلم أبناء بويه فلم يقم له مما أدى إلى جفاء الصاحب له حين تولى الوزارة(١)، وهذا الاعتداد في تكوينه النفسي والتعالي في غرائز طبعه كان لهما أثر كبير في شرحه حيث برزت لديه صفات التفرد بالآراء والاستقلال في التفكير والتعبير ، وهذا بطبيعة الحال أدى إلى أن يكون قليل الافادة من شراح الحماسة الذين سبقوه ، فهو على الرغم من أنه كان يشير إلى رجوعه إلى نسخ مختلفات للحماسة في الرواية(٢) فإنه نادراً ما يذكر الذين سبقوه بالعمل في الحماسة، بل إننا باستقرائنا له في هذا الجانب وجدناه لم يذكر سوى البرقي الذي نقل منه في خمسة مواضع فقط، ثلاثة منها في توضيح شاعر من شعراء الحماسة(٣) واثنان من رواية لم يعتمدها في شرحه(٤).

وفي إدراكنا أن الاعتداد والتعالي جعلاه يعتمد إهمال العلماء السابقين والمعاصرين له ممن كانت لهم صلة بعمله في الحماسة ، وذلك مثل أبي الفتح بن جني ـ وهو من لا يجهل مكانه ـ كان إذا نقل عنه لم يسمه باسمه وانما يشير إليه بعبارات من مثل «وقال بعضهم» أو «واختار بعضهم» أو «بعض المتأخرين»(٥) ولولا أن وصل إلينا كتاب «التنبيه» لابن جني ولولا اعتراضات التبريزي له

(١) ينظر معجم الأدباء ٥ : ٣٥ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٩٦ .
(٢) شرحه الصفحات ١٤٥ ، ١٧٩ ، ٢٥٦ .
(٣) شرحه الصفحات ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٠ .
(٤) ينظر الصفحتان ١٢٨٠ ، ١٥٠٥ .
(٥) ينظر شرحه ق ١ : ٨٣ ، ٩٣ .

في هذا الخصوص[1] لما أدركنا أنه قرأ التنبيه، وكان أحد مصادره في شرحه، هذا بجانب أنه كان ينقل من شروح سبقته ولا يدل على أصحابها، وانما يذكرهم بعبارات مبهمة مثلما يفعل مع ابن جني مثل «وروى بعضهم» «وقال بعض الناس» «وسمعت بعض أصحاب المعاني»[2]، ولا شك في أن هؤلاء كانوا من الذين لهم أعمال في الحماسة، وليس الأمر كما تصوّره الدكتور العمري أنه كان يشير بعباراته هذه إلى اعتماده على ما أثر عن العلماء الكبار مثل الأصمعي وابن الأعرابي وأبي عبيدة وغيرهم[3] فهؤلاء الكبار كان يسميهم باسمهم. أما أصحاب الشروح السابقة فهم الذين يحظون منه بهذه العبارات، ولا أدلّ على ذلك من نقولاته التي تسبقها هذه العبارات، ففي بيت الأحوص بن محمد الوارد في باب الحماسة والذي جاء فيه:

إنّي عَلى مَا قَدْ عَلِمْتُ مُحسَّدٌ أنْمي عَلى البَغْضَاءِ والشَّنَآنِ

قال المرزوقي بعد أن شرحه: «وقال بعض الناس الشنآن بغض يختلط به عداوة وسوء خلق، فلهذا جمع بينه وبين البغضاء، وقال غيره: بل هي بمعنى واحد واللفظان إذا اختلفا على معناهما جاز الجمع بينهما تأكيداً، واحتج بقوله «وهند أتى من دونها النأي والبعد»[4]، وقال في بيت آخر من باب الحماسة هو:

ونُطَاعِنُ الأبْطَالَ عَنْ أبْنَائِنَا وَعَلى بَصَائِرِنَا وَان لَمْ نُبْصِرِ

«وسمعت بعض اصحاب المعاني يقول: إنا نقاتل الأبطال على عادة الناس عند نظرهم لدنياهم ودينهم في الذب عن الحرم والعشيرة والشرف، وعلى الأديان والاعتقادات والبصائر، وان لم نبصر وجهاً واحداً من هذه الوجوه نقاتل أيضا لأن همنا القتل والقتال. قال: فحذف مفعول وان لم نبصر لأن المراد مفهوم وكذلك

---

(١) شرح التبريزي ١: ٤١.

(٢) ينظر مثلاً الصفحات ٥٩، ١٢٦، ١٥٨، ١٦٤، ١٠٠٨.

(٣) شروح الشعر الجاهلي ٢: ١٥٣.

(٤) ينظر شرحه ق ١: ٢٢٢، والبيت للخطبة وصدره:

ألا حبذا هند وأرض بها هند

حذف جواب إن لأنّ فيما تقدّم دليلاً عليه »[1].

فلا شكّ أن مثل هذه النقولات ليست من المأثور عن الأصمعي وابن الأعرابي وأبي عبيدة وإنما هي نقولات من رجال لهم صلة عمل بالحماسة يهملهم المرزوقي تهويناً لشأنهم تبعاً لما تركبت عليه نفسيته من اعتداد وتعال .

وبجانب هاتين الصفتين اللتين برزتا في شخصيته كانت هناك صفة الأستاذ المعلم التي بدت هي الأخرى بارزة في شرحه ، فكانت وراء أسلوبه وصوغ عباراته ، ففي جوانب كثيرة من شرحه نجد عبارات المعلمين تندّ عن أسلوبه مثل « ألا ترى » فاعرف فرق ما بين الموضعين» « وهذا كما تقول » «فاعلمه إن شاء الله »[2] ، «وليس بشيء فلا تعرّج عليه»[3] أو بقوله : «وإذا كان الأمر على هذا فما ذكره القائل غير صحيح لأني قد أريتكه فاعلمه»[4] .

واذا كانت صفتا الاعتداد والتعالي في شخصيّة المرزوقي قد حجبتا عنا الوقوف على شروح الحماسة التي أفاد منها فانهما من جهة أخرى قد كان لهما دور في عمله الذي يتصل باللغة والنحو إذ جاء عمله فيهما دالا على شخصيته مع اعتماده على النقل ، ولكنه نقل يختلف عن نقل أصحاب المنهج الالتزامي النقلي . انه نقل المستوعب لما قال العلماء الأوائل ، الذي له رأي فيما ينقل ويختار ، وهذا يجعلنا ندخل في مصادر شرحه التي جاءت في غلبتها في مجال اللغة والنحو فهو ـ بالاحصاء ـ نقل عن الخليل بن أحمد في ثلاثين ومائة موضع ، وعن الأصمعي في واحد وخمسين موضعاً، وعن سيبويه في ستة وأربعين موضعاً ، وعن ابن دريد في أربعة وثلاثين موضعاً، وعن أبي عبيدة في واحد وعشرين موضعاً ، وعن أبي العباس المبرد في

---

(١) نفسه ق ١ : ١٣٥ .

(٢) ينظر مثلاً الصفحات ٥٥ ، ٦١ ، ١٥٨ .

(٣) شرحه ق ١ : ٣٩٣ .

(٤) شرحه ق ١ : ٤٥٨ .

أربعة عشر موضعاً ، وعن أبي عثمان المازني في خمسة مواضع وعن ابـن السكيت في أربعة مواضع ، ونقل عن أبي عمرو الشيباني في ثلاثة مواضع ، ومثلها عن أبـي العباس ثعلب ، ونقل عن أبي عمرو ابن العلاء في موضعـين ، ومثلهما عن أبـي الحسن الأخفش وأبي سعيد الضريـر(١) ورأيناه ينقل عن كتاب العققة للمدائني في موضع واحـد(٢) ، ومثله كتاب الترجمـان لأبي عبدالله المفجّـع(٣) ، وكذلـك رأيناه ينقل عن شيخه أبي علي الفارسي في ثمانية مواضـع(٤) ، وعن أبي عبدالله حمزة بن الحسن في موضع واحد(٥) ، عن ابن العميد في موضـع واحد(٦) .

والحق أنَّ شخصيَّة المرزوقي وما تركبت عليه من طباع غالبة لم تكن ذات أثر في مصادره فحسب بل كانت ذات أثر في جلّ عناصر الشرح التي عالجها في شرحه وهي كما رأيناها في شرحه على النحو التالي :

١ ـ مناسبات الشعر والأخبار التاريخيّة :

لم يبد المرزوقي اهتماماً ملحوظاً بهذا العنصر ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه لم

(١) راجع تراجم هؤلاء في الكتاب الثاني من هذا البحث . فقد ترجمنا لهم في مواضع متفرقة منه .

(٢) شرحه ق ٤ : ١٨٢٥ ، والمدائني ترجمنا له في الكتاب الثاني .

(٣) شرحه ق ٣ : ١٢٨١ . والمفجّع هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبدالله الكاتب ، كاتب شاعر معروف لقي ثعلباً وأخذ عنه ، وكان معاصراً لابن دريد ، وكانـت له فيه أهـاج ، خلّف من المصنفات كتاب الترجمان المذكور ، وكتاب غريب شعر زيد الخيل الطائي وكتاب **أشعـار الجواري قـال ياقـوت: لم يتم. توفي سنـة ٣٢٧هـ. ترجمتـه في معجم الأدباء ١٧ : ١٩٠ وما بعدها .**

(٤) ينظر شرحه الصفحات : ٣٦٤ ، ٣٩٩ ، ٧٦٩ ، ٨١٤ ، ١٤٠١ ، ١٧٠٢ ، ١٧٨٤ ، ١٨١٦ .

(٥) شرحه ق ١ : ٤٠٦ . وأبو عبدالله حمزة بن الحسن كان أحد علماء أصبهان البارزين المؤدبين قال عنه القفطي : له تصانيف في الأدب جميلة ، ألّف كتاب الموازنة بين العربي والعجمي وأهداه الى عضد الدولة بن بويه ، وله كتاب تاريخ أصبهان وهـو مشهـور ، ولـم يذكر القفطي تاريخ وفاته . انباه الرواة ١ : ٣٣٥ .

(٦) ينظر شرحه ق ٣ : ٩٩٦ .

يقف على شرح أبي رياش كما ذكر عبد السلام هارون[1] فشرح أبي رياش قد عني عناية تامة بهذا الجانب من عناصر الشرح ، وقد أفادت منه سائر الشروح التي وقف أصحابها عليه مثل شروح أبي العلاء المعري وزيد بن علي والخطيب التبريزي . على أن شرح المرزوقي لم يخل من ذكر لبعض المناسبات التي كان يقدم بها شرحه لقطع الحماسة ، ولكن الملاحظ فيه أنه كان يعرض المناسبة بايجاز دقيق ، ودون تفصيل ولعله في هذا كان مقيّداً بما وجده في شرح البرقي ، ففي الحماسيّة الرابعة عشرة المنسوبة للشميذر الحارثي نراه ينقل عن البرقي فتقول : « قال البرقي : الشعر لسويد بن صميع المرثدي من بني الحارث ، وكان قتل أخوه غيلة فقتل قاتل أخيه نهاراً ، في الأسواق من الحضر»[2] .

وفي حماسيّة قيس بن زهير العبسي التي مطلعها :

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بنِ بَدْرٍ   وَسَيْفِي مِنْ حُذَيْفَةَ قَدْ شَفَانِي

نراه يصدّرها بقوله : « كان حمل بن بدر قتل مالك بن زهير أخا قيس فظفر به وبأخيه حذيفة فقتلهما[3] .

وفي الحماسيّة التي نسبها أبو تمام لبعض اللصوص من طيء والتي مطلعها :

ولَمَّا أَنْ رَأَيْتُ ابنَيْ شُمَيْط   بِسِكَّةِ طَيِّءٍ والبَابُ دُونِي

نراه يفتتح شرحه لها بقوله : « الشعر لبعض المتلصصة ، وكان أنهي حاله إلى أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ وهو بالكوفة فوجه في طلبه ابني شميط ، فأحس بذلك ، فركب فرسه العصا ، فنجا بها ، وذكر قصته في هذه الأبيات»[4] .

والذي يلاحظ في هذه الأخبار وغيرها أنها ذات صلة وثيقة بالنص الشعري المشروح ، وتعين على فهمه ، ومن ثم يمكن القول بأن المرزوقي كان يهتم بذكر

(١) مقدمة شرح المرزوقي ص ١٦ .
(٢) شرحه ق ١ : ١٢٤ .
(٣) نفسه ق ١ : ٢٠٣ .
(٤) نفسه ق ٢ : ٦٢٩ .

المناسبة اذا كانت تعين على فهم النص ، وانه كان يذكر ذلك في ايجاز خال من التفاصيل والاستطرادات المتشعبة التي نراها في شرح التبريزي ، منقولة عن أبي رياش .

٢ ـ تفسير أسماء شعراء الحماسة والأعلام :

واذا كنا رأينا المرزوقي يذكر بعضاً من أخبار الشعر والمناسبات الداعية إلى قوله من قبل الشعراء فان شرحه قد افتقر إلى تفسير أسماء الشعراء والأعلام الواردين في اختيار الحماسة ، وقد فسّر عبد السلام هارون هذا الافتقار بأن المرزوقي لم يقف على كتاب «المبهج » لابن جني(١) في حين أن الدكتور العمري قد عاب عليه تجاهله ابن جنى احتقاراً واستضعافاً وقال : « انه لو ترك مثل هذه النقائص وتعمق في النظر في مصنفات ابن جنى وآرائه لاستفاد منها استفادة كبيرة خاصة في تحديد الأعلام واشتقاق أسمائهم»(٢).

ومعنى هذا أنه يرى أن المرزوقي قد وقف على كتب ابن جنى ولكن في غير تعمق استهانة بصاحبها وربما كان هذا صحيحاً ، ولكن الأخذ بأنه لم يقرأ « المبهج » أفضل ،بدليل أنه قرأ « التنبيه » الكتاب الثاني لابن جني ونقل منه في شرحه منتقداً وغير منتقد ، وهذا يدحض النظرية التي أيدها الدكتور العمري والتي تقول: بأن كتابي المبهج والتنبيه كانا في الأصل كتاباً واحداً(٣). إذ لو كانا كذلك لوقف المرزوقي عليهما معاً . على أن الأمر فيما يبدو لنا مبني على شيء مختلف عن هذا ، فتفسير أسماء الشعراء والأعلام يقوم في الغالب على فن الاشتقاق ، وهو فن لا نحس بأن المرزوقي كان من أصحابه ، وانما فارساه في عمل الحماسة رجلان أحدهما ابن جني الذي وصفه بروكلمان بأنه «إمام المذهب الاشتقاقي»(٤) والآخر أبو العلاء

---

(١) ٩٠ينظر مقدمته لشرح المرزوقي ص ١٦ .
(٢) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٢٤٦ وما يليها .
(٣) ينظر قوله هذا في هامش ص ٣٠٠ من الجزء الأول من كتابه .
(٤) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢ : ٢٤٤ .

المعري الذي دلت نقولات التبريزي عنه أن له باعاً متسعاً فيه(١).

٣ ـ تحديد بحور الشعر وأضربه وقوافيه :

لم يعالج المرزوقي هذا العنصر في شرحه ، ولا يعني هذا أنه لم يكن ذا المام بعلمي العروض والقوافي ، ففي شرحه ما يدل على أنه كان ملماً بهذين العلمين وما يقومان به من قواعد ، وقد استخدم احدى قواعد القافية في رد رواية جاءت في بيت عبد الشارق بن عبد العزى الذي يقول فيه :

فَجَاءُوا عَارِضاً بَرَداً وَجِئْنَا كَمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا

فقد قال فيه : « ولا يجوز أن يروى وازعينا بكسر العين لما يحصل من العيب بالسناد مع ارتفاع الضرورة»(٢).

ويبدو لنا أن تحديد بحور الشعر وأضربه وقوافيه عنصراً من عناصر الشرح قد بدأ يظهر في الشروح التي تلت المرزوقي بدليل أننا لا نجد له أثراً في الشروح السابقة لشرحه أو المعاصرة مثل شروح أبي رياش ٣٣٩هـ ، وأبي عبد الله النمري ٣٨٥هـ ، وأبي هلال العسكري ٣٩٥هـ ، وانما وجدناه في شروح جاءت بعد ذلك مثل شروح أبي العلاء ٤٤٩هـ ، وزيد بن علي ٤٦٧هـ ، والتبريزي ٥٠٢هـ . ومن ثم يمكن أن نلاحظ انه إلى زمن المرزوقي لم يكن الشراح يعتبرون تحديد وزن الشعر وضربه وقافيته من عناصر الشرح ، ولا أدل على ذلك من المرزوقي نفسه ، فقد كان يرى أن لا مجال للحديث في وزن الشعر أثناء عمليّة الشرح . قال في قطعة سلم بن ربيعة التي مطلعها :

اِنَّ شِوَاءً وَنَشْوَةً وَخَبَبَ البَازِلِ الأَمُونِ

« هذه المقطوعة خارجة عن البحور التي وضعها الخليل بن أحمد ، وأقرب ما يقال

(١) ينظر مثلاً نقولاته في تفسير أسماء كندة وزفرة وحطّان . الصفحات ٧٧ ، ٧٩ ، ١٥١ من الجزء الأول من شرحه .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٤٤٥ .

فيها : انها تجيء على السادس من البسيط ،وليس هذا موضعاً لبسط الكلام فيه»[1]

٤ ـ الرواية :

واذا كانت هذه العناصر الثلاثة السابقة لم تجد عناية من قبل المرزوقي في شرحه فان عنصر الرواية قد حظي لديه باهتمام واضح ، فهو من العناصر التي تشكّل دعامة أساسيّة في منهجه الأدبي الابداعي الفني . فقد رأيناه في مواضع مختلفة يبدأ به شرحه ، والبدءبشيء دليل على الاهتمام به . أما معالجته له فتتمثل في جانبين : جانب يتصل بالمفاضلة بين الروايات الواردة في البيت الواحد ، وجانب يتصل بنقد هذه الروايات وردّها ، ولكل من الجانبين معايير يعتمدها في عمله ، ففي جانب المفاضلة نراه يعتمد معايير الفصاحة والبلاغة والسلامة والشهرة والجودة ، ولكنه وهو يفضّل الرواية وفقاً لهذه المعايير كان أحياناً يعلل حكمه الذي يصدره فيها ، وأحياناً أخرى يصدر الحكم دون تعليل ، فمن أحكامه التي أصدرها دون تعليل قوله في بيت المتلمس وقد أثبت روايته على النحو التالي :

فَلاَ تَقْبَلَن ضَيْماً مَخافَةَ مِيتَةٍ وَمُوتَنْ بِهَا حُرًّا وجِلْدُكَ أَمْلَسُ

« ويروى وَأَحْيَنْ بِهَا حُرًّاً وَجِلْدُكَ أَمْلَسُ ، والرواية الأولى أحسن »[2] ، ولم يعلل وجه الحسن فيها ، ولعله قصد بذلك أن الضمير في « بها » عائد إلى مخافة المنيّة والأمر بالموت مع مخافته يتناسب وما دعا إليه من عدم قبول الضيم أكثر من تناسب الأمر بالحياة . ومثل ذلك ما أورده في بيت أبي الغول الطهوي القائل:

وَلاَ يَرْعَوْنَ أَكْنَافَ الهُوَيْنَى إِذَا حَلُّوا وَلاَ أَرْضَ الهُدُونِ

وهي الرواية التي اعتمدها في متنه ثم قال: «يروى « ولا روض الهدون» وهو أفصح »[3]. ولم يعلل عامل الفصاحة في استخدام « روض » موضع « أرض » ،

(١) نفسه ق ٣ : ١١٣٧ .

(٢) ينظر شرحه ق ٢ : ٦٢٨ .

(٣) نفسه ق ١ : ٤١ .

وربما قصد بالفصاحة هنا أن الشاعر قال : « ولا يرعون » ، فالرعي يتسق في الحقيقة مع الروض ، ولا يتسق الرعي مع الارض إلاّ على سبيل المجاز ، والبيت كله تصوير بالكناية ، فأكناف الهويني وروض الهدون كناية عن أن هؤلاء القوم لا يرعون جوانب الخصال السهلة والأمور الهينة ، ولا ينزلون منازل الأمن والراحة . واذا كان البيت مبنياً على التصوير بالكناية لزم أن تكون جمله من حيث الفصاحة مبنية على التعبير بالحقيقة لا المجاز حتى لا تتداخل الصور وتتراكب .

على أن المرزوقي في مواضع أخرى كان يعلل وجه تفضيله للرواية وفق المعيار الذي يراه . ومن أمثلة ذلك ما أورده في بيت الربيع بن زياد ، وقد رواه على النحو التالي :

مِنْ مِثْلِهِ تُمْسِي النِّسَاءُ حَوَاسِراً وَتَقُومُ مُعْوِلَةً مَعَ الأَسْحَارِ

ثم أشار إلى رواية أخرى فقال : « وروى بعضهم «تمشي النساء » أي يمشين متبرّزاتٍ لا يدفعهن عن ذلك حشمة ولا يحجزهن رقبة، والأول أجود حتى يكون المساء في مقابلة الصباح، ويكون الشاعر قد ذكر طرفي النهار من أوقاتهن»(١) وهو بهذا يرى أن عامل الجودة في رواية « تمسي » يرجع إلى مقابلة الشطرتين في المعنى ، مع أن رواية « تمشي » تتفق مع الواقع الذي تعيشه النساء في مأتم الرجل العزيز ، فهنّ يمشين في الحيّ حارسات يذهلهنّ الفقد عن الاحتشام وتغطية رؤوسهن ، وهو أمر مألوف مشاهد ، نراه في زمننا هذا ، وفي أقطار مختلفة من عالمنا العربي .

وقد يرجع المرزوقي عامل الجودة إلى سلامة اللغة في التعبير وفق الضوابط المعمول بها عند علماء اللغة ، فبيت الصمة بن عبد الله القشيري أثبت روايته على النحو التالي :

أقُولُ لِصَاحِبِي والعِيسُ تَهْوِي بِنَا بَيْنَ المُنِيفَةِ فالضِّمَارِ

ثم قال : «وقوله «بين المنيفة فالضمار» أجود الروايتين : «بين المنيفة والضمار» ثم

(١) نفسه ق ٢ : ٩٩١ .

علل فقال : « لأن بين لا يدخل لشيئين يتباين أحدهما عن الآخر فصاعداً ، واذا كان كذلك لا يكتفى بقوله المنيفة فيرتِّب عليه الضمار بالفاء العاطفة اللهم اِلاَّ أن تجعل بين الأجزاء «المنيفة» فتصير المنيفة كاسم الجمع نحو القوم والعشيرة وما أشبههما، وعلى هذا حمل قول امرىء القيس :

بَيْنَ الـدَّخُــولِ فَحَوْمَــلِ

ولم يكتف المرزوقي بهذا التعليل في عامل الجودة بل دعمه بعمل عالم لغـوي معتد به هو الأصمعي حيث قال مشيراً إلى قول امرىء القيس « وكان الأصمعي يرده ويرويه بالواو »[1]

والمرزوقي بجانب هذه المفاضلة التي كان يقيمها في الرواية ويبنيها على المعايير التي ذكرناها ، كان إذا تساوت لديه الروايات لا يكتفي بايرادها فحسب كما يفعل أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي بل يشرحها ويجلـو ما فيهـا من غمـوض في اللغة ، والأمثلة على ذلك كثيرة شملت سائر أجزاء شرحه ، فبيت أبي كبير الهذلي الوارد في الحماسيّة الثانية عشرة جاءت روايته عنده هكذا :

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الفِجَـاجَ رَأَيْتَهُ يَهْـوِي غَوَارِبَهَـا هُوِيَّ الأَجْدَلِ

ثم قال بعد أن شرح البيت: «ويروى: مخارمها، والمخارم جمع المخـرم وهو منقطع أنف الجبل، والخرم أنف الجبل وجمعه خروم »[2] .

وفي بيت حجر بن خالد الوارد في الحماسيّة (١٧١) نجده يرويه هكذا :

وَلَكِنَّـا نَأَيْنَـا واكْتَفَيْتُمْ وَلاَيَنْـأَى الحَفِـيُّ عَنِ السُّؤَالِ

ثم بدأ شرحه بقوله : « ويروى واكتفينا » ثم مضى فشرح البيت على الرواية التي أثبتها قال : « يقول بعدنا عنكم فاستقللتم بأنفسكم ، واستغنيتم عمن يعاضدكم في كل ما يدهمكم ، فلم تدعكم حاجة إلى مجاورتنا ولا ألجأتكم الضرورة إلى التكثر

---

(١) نفسه ق ٣ : ١٢٤١ .

(٢) نفسه ق ١ : ٩١.

بنا» ثم رجع الـى الرواية التي أشار إليها فشرحها بقوله : «ومن روى : واكتفينا، كان المعنى : اكتفينا في البعد عنكم فلم نحتج إليكم» ثم بيّن قصد الشاعر في الروايتين معاً فقال : « والقصد في الروايتين أنه لم يكن باحدى الجنبتين افتقار إلى الأخرى ، فصار ذلك سبباً في التنائي ، وعذراً بيناً في التأخر عن المعاونة والمكانفة »[1] .

إن عمل المرزوقي حين تتساوى الـروايات لديه يعـد عملاً طيبـاً تظهـر فيه شخصيته بوضوح ، ويدل على دقة وفهم تام لمعاني الشعر ، ومعرفة واسعة باللغة وأسرارها ، فبيت سعد بن ناشب في الحماسيّة العاشرة رواه هكذا :

أَخِـي عَزَمَـاتٍ لاَ يُرِيدُ عَلَى الذي   يَهُـمُّ بهِ مِنْ مَقْطَـعِ الأَمْـرِ صَاحِبَا

ثم قال : « ويروى أخي غمرات » وفسرهـا بالشدائـد ، ثم مضى قائـلاً : « ويروى من مفظع الأمر » وهو من فظع الأمر وأفظع فظاعة وهو فظيع ومفظع ؛ أو من أفظعني الأمر ففظعت به أي أعياني فضقت به ذرعاً »[2] .

وفي إدراكنا أن ظهور شخصية المرزوقي في شرح الـروايات المتسـاوية لديه يصبح أكثر اطراداً وبروزاً في الجانب الثاني من عمله في الرواية ، ونعني به جانب نقد الرواية وردها ، ففي هذا الجانب تتجلى لدينا أمور عدة ، منها حسه اللغوي ومعرفته بأساليب العرب وتثبته وتمحيصه ونظرته العقليّة المنطقية ، إلى غير ذلك من اللمحات التي أحسسْنا بها ونحن ندرس عمله في نقد الروايات وردها ، وهو في هذا النقد يعتمد على جملة من المقومات . منها النظر إلى لفظ الـرواية ومـدى مطابقتـه للاستعمال الفصيح ، ومنها صلة الرواية بالمعنى الذي يقـرره ، والـذي يتضـح به مقصد الشاعر ومرماه ، ومنها توافق الرواية مع روايات آخرين كان يجدها في نسخ مختلفات للحماسة ، ومنها توافق الرواية مع المألوف من كلام العرب وما درج عليه الشعراء في نظمهم . ولقد رأيناه وهو يعتمد على هذه المقوِّمات في نقد الـرواية لا يكتفي بها فحسب بل يحاول دعمها بالتحليل وبالشواهد التي يأخذها من القـرآن الكريم أو أشعار العرب الفصحاء .

---

(١) نفسه ق ٢ : ٥١٩ .

(٢) نفسه ق ١ : ٧١ .

فمن أمثلة النظر الى لفظ الرواية ومطابقته للاستعمال الفصيح نقده رواية بيت أبي كبير الهذلي التي أثبتها في متنه وهي :

مِمَّنْ حَمَلْنَ بِهِ وَهُنَّ عَوَاقِدٌ حُبُكَ النِّطَاقِ فَشَبَّ غَيْرَ مُهَبَّلِ

ولكنه قال بعد أن شرح البيت : «والرواية حبك الثياب ، لأن النطاق قد جاء من بعد في صفة أم المغشم - يشير بذلك إلى قول أبي كبير في بيت تال «كرهاً وعقد نطاقها لم يحلل» - ولأن النطاق لا يكون له حبك وطرائق» فكأنه يريد بذلك أن العرب لم تعرف في استعمالها اللغوي وصف النطاق بأنه حبيك ، وانما الثياب هي التي لها حبك عندهم ، ويدعم ذلك بقول الباهلي : إنَّ الحبكة والحباك الإزار ، وقد احتبكت المرأة »[1] ، يريد لبست ازارها .

ومثل ذلك اعتراضه على ابن جني في قوله الوارد في بيت ربيعة بن مقروم :

أَرْجَيْتُـهُ عَنِّـي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُـهُ فَوْقَ النَّوَاظِـرِ مِنْ عَلِ

فقد قال ابن جني : «وأكثر من ترى يروي هذا البيت أرجيته بالراء فإذا تعالى شيئاً رواه أوجأته ، وكلاهما تصحيف وانما هو « أوجيته » بالواو أي أذللته وقهرته ، وهو أفعلته من الوجى وهو رزوح الفرس لألم قوائمه»[2] ، فاعترض عليه المرزوقي بقوله : « إنه لا يقال أوجيت الدابة عني ويراد الاحفاء ، ولم يسمع في التذليل ذكر الحفى والوجى مستعاراً كما سمع الكي والوسم فيه ، والرواية الصحيحة أرجأته وأرجيته ، وهما لغتان والهمز أفصح »[3] .

ومن أمثلته نظرته إلى صلة الرواية بالمعنى وما يفيد مقصد الشاعر ومرماه ، وقفته التي وقفها في بيت عامر بن الطفيل وروايته هي :

أَكُرُّ عَلَيْهِمْ دَعْلَجاً وَلَبَانُهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقْعَ الرِّمَاحِ تَحَمْحَمَا

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ٨٦ ، والباهلي هو أبو الكبش الباهلي أحد الأعراب الذين دخلوا الحاضرة وأخذت عنهم اللغة . ينظر انباه الرواة ٤ : ١١٦ .

(٢) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٨ .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٦٥ .

فقد شرحه بقوله : « أعطف فرسي دعلجا عليهم حالاً بعد حال ، وكراً بعد فر ، واذا اشتكى من كثرة وقوع الطعن بصدره حمحم » ثم مضى فقال : هذا اذا رويت « لبانه » بالرفع لأن بعض الناس روى « ولبانه » بالنصب كأنّه فـرّمن أن يكون الاشتكاء والتحمحم للبان على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة ، فوقع فيما هو أقبح لأنّ المراد أكرّ عليهم فرسي ،فلا معنى لعطف اللبان عليه ، ثم دعم ما قرره من معنى بقول عنترة في المعنى ذاته مشيراً إلى إحسانه فيه وهو :

فَازْوَرَّ مِنْ وَقْـعِ القَنَـا بِلَبَانِهِ   وَشَـكَا إليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ[١]

ومن أمثلة اعتماده على اتّفاق ما لديه من نسخ للحماسة على رواية واحدة عمله في مناقشة رواية بيت للحريث بن عناب وهو :

نَعَالَـوْا أُفاخِرْكُـمْ أَأَعْيَا وَفَقْعَسٌ   إلى المَجْـدِ أَدْنَـى أَمْ عَشِـيرَةُ حَاتِمِ

فقد روى بعضهم « أأعيار فقعس » يريد رؤساء فقعس ، وزعمَ أن أعيا لا يعرفه اسم قبيلة ، وان رواية « أأعيا وفقعس » تصحيف استدركه فوقف المرزوقي معترضاً على هذا القول من أوجه ثلاثة : أحدها أن بني أعيا من قبائل سعد بن قيس[٢]، وهو مشهور ذكره النسابون وغيرهم ، وثانيها : أن طريقة النظم تقتضي أن تكون القبيلة مقابلة بمثلها ومذكورة في المنافرة معها أحسن من أن يقابل الأفراد بالقبيلة ، وأعيار إشارة إلى الأفراد لأنه يراد بها الرؤساء ، وثالثها : أنه رجع الى نسخ مختلفات المصادر فوجدها متوافقة في تحملها «أأعيا وفقعس» ، «وإذا كان كذلك لا يجوز العدول عما قاله الشاعر إلى ما لم يقله»[٣]

ومن أمثلة اعتماده على المألوف في كلام العرب وما درج عليه الشعراء في نظمهم

---

(١) نفسه ق ١ : ١٥٤ .

(٢) هذا كلامه ، وفي جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ١٩٤ ما يفيد بأن أعيا وفقعس تفرعا من طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن داودان بن أسـد بن خزيمـة وهـو الصحيح ، ويتفق مع ما جاء في الشعر لأن الشاعر ينافر قبيلتين من أصـل واحـد لا من أصلين مختلفين ، فالمقصود بأعيا هنا أعيا طريف لا أعيا سعد بن قيس .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٢٥٥ وما يليها .

ما جاء عنه في بيت دريد بن الصمة القائل :

فَطَاعَنْتُ عَنْهُ اَلخَيْلَ حَتَّى تَبَدَّدتْ   وَحَتَّى عَلاَنِي حَالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدُ

هكذا أثبته في متنه بالإقواء - إذ أن حرف الرويّ مكسور في سائر أبيات القصيدة ومطلعها « أرث جديد الحبل من أم معبد » غير أننا نراه يقف عند الرواية التي أثبتها فيقول : « وقوله حتى علاني حالك اللون أسود فيه اقواء ، وكثير من العلماء يهونون الأمر في الاقواء ، ولا يعدونه عيباً قبيحاً . وحكي عن الأخفش انه قال : ما أنشدني العرب قصيدة سلمت من الاقواء طالت أو قصرت ، ثم انتقل مشيراً إلى رواية أخرى هي «وحتى علاني حالكُ لونُ أسودِ» فقال راداً هذه الرواية : « والضعف فيه ظاهر ، ألا ترى أنه قال : حالك وهو الشديد السواد ثم قال : لون أسود، وفي إضافة لون إلى أسود ما لا يرتضى» فكأنه بذلك يقرر أنه ليس من المألوف في كلام العرب اضافة اللون الى صنفه ، فلا يقال لون أبيض ولا لون أصفر ، وينتقل المرزوقي الى رواية ثالثة يراها أجود من هذه التي اعترض عليها قال: «وأجود من هذا أن يروى: حالك اللون أسودي ، وهو يريد أسوديّ ، كما قيل في الأحمر أحمري ، وفي الدَوّار دَوّاريّ ثم خففت ياء النسبة بحذف أحدهما وهو الأول وجعل الثاني صلة »[1] . وهو ان كان قد استجاد هذه الرواية فانما استجادته قائمة على المفاضلة بينها وبين الرواية الثانية التي اعترض عليها وأبطلها بما درج عليه العرب في كلامهم . أما الرواية التي أثبتها فهي عنده هي التي صدرت عن الشاعر لشيوع الاقواء بين الشعراء وفقاً لما قاله الأخفش .

وهكذا نخلص من خلال ما عرضناه ، الى أن عمل المرزوقي في الروايات سواء في جانب المفاضلة بينها أو جانب نقدها وردّها قد دلّ على ذاتيته من جهة ، وعلى إبداعه وفنيته من جهة أخرى ، وعلى استيعاب اللغة وفهمها وادراكه كلام العرب وأساليب الشعراء من جهة ثالثة ، غير أن هذا لا يمنع من القول بأننا قد لاحظنا في رده الروايات التي اعتمدها ابن جني بعض التحامل ، وهذا يرجعنا إلى ما قررناه سابقاً من اتصافه بصفتي الاعتداد والتعالي اللتين جعلتاه يستهين بمعاصريه

(١) المصدر نفسه ق ٢ : ٨١٨ .

ولا يعبأ بآرائهم في المجال الذي يدور فيه عمله ، فابن جني ـ مثلاً ـ قال في رواية « أوجيته » السالفة الذكر : « كذلك رويناه وكذلك وجدته في شعر القبيلة »[1]. فقوله « كذلك رويناه » يعني نفسه وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم ، وقوله : «وكذلك وجدته في شعر القبيلة» يدل على رجوعه إلى الأصول التي بنى عليها أبو تمام اختياره في الحماسة وكلا الأمرين يوجب النظر والاعتبار ، فكان حق المرزوقي أن ينظر إلى هذا ، لا أن تشتطّ به نوازع النفس في الاستهانة بغيره فيصرف النظر عما قرره أبو الفتح إلى التعقيب بقوله : « ولقد قضيت العجب من هذا المستدرك ومن ضلاله عن طريق الرشاد فيما قصده من معنى»[2].

ولقد رأينا منه مثل هذا في معالجته لرواية بيت تأبط شراً وهو :

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ وَلَمْ أَكُ آيباً وَكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُها وَهي تَصْفِرُ

فقد قال ابن جني فيه : « هكذا يرويه أكثر من ترى « ولم أك » ، ومنهم من يقول : « وما كنت آيباً» وصواب الرواية فيه « وما كدت آيباً » أي وما كدت أؤوب ، فاستعمل الاسم الذي هو الأصل المرفوض الاستعمال موضع الفعل الذي هو فرع ، وذلك أن قولك كدت أقوم أصله كدت قائماً ، ولذلك ارتفع المضارع لوقوعه موقع الاسم فأخرجه تأبط شراً على أصله المرفوض كما يضطر الشاعر الى مراجعة الأصول عن مستعمل الفروع نحو صرف ما لا ينصرف واظهار التضعيف وتصحيح المعتل وما جرى مجرى ذلك ، ونحو ذلك ما جاء عنهم من استعمال مفعول عسى على أصله ، وذلك ما أنشدناه من قول الراجز :

أَكْثَرْتَ في العَذْلِ مُلِحّاً دائما لاَ تُكْثِرنْ إنِّي عَسِيتُ صَائِما

فهذه هي الرواية الصحيحة في هذا البيت ـ أعني قوله : « وما كدت آيباً» ـ وكذلك وجدتها في شعر هذا الرجل بالخط القديم وهو عندي عتيد الى الآن ، وبعد فالمعنى عليه البتة لا منصرف به عنه ، ألا ترى أن معناه «وأبت وما كدت أؤوب» كقولك : « سلمت وما كدت أسلم » وكذلك كل ما يلي هذا الحرف ، من قبله ومن

---

(١) ينظر مخطوطة التنبيه ، الورقة ١٨ .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٦٤ .

بعده يدل على ما قلناه ولا معنى هنا لقولك « وما كنت » ولا للم أك، وهذا واضح »[1] .

هذا كلام ابن جني فيما اختاره من رواية ، فيه منطقية واضحة ، واستدلال بخروج الشعراء في الاضطرار الى استعمال الأصول مستعمل الفروع ، واستعراض للأشباه والنظائر في هذا ، ورجوع الى أصل ديوان الشاعر ، وغير ذلك من الأدلة التي يمكن أن تستنبط من هذا الكلام . ومع ذلك فان المرزوقي وقد تسلّطت عليه نوازع الاستعلاء نراه يعترض عليه فيقول : « ولا أدري لم اختار هذه الرواية ألأن فيها ما هو مرفوض في الاستعمال شاذ ، أم لأنه غلب في نفسه أن الشاعر كذا قاله في الأصل وكلاهما لا يوجب الاختيار »[2] ، وابن جني لم يغلب في نفسه ان الشاعر كذا قاله في الأصل ، وانما أكّد أنه رآه هكذا في شعره بالخط القديم ، يعني عن الرواة الأوائل ، كما أنه لم يختر هذه الرواية لمجرد أنها مرفوضة الاستعمال شاذة ، وهذا ما دفع الخطيب التبريزي - وقد أشار إلى رواية « وما كدت آيباً» ونقل عن أبي محمد الأعرابي وشيخه أبي الندى أنها الرواية الصحيحة - إلى أن يعقب على كلام المرزوقي هذا بقوله : « وتكلم المرزوقي على اختيار أبي الفتح هذه الرواية راداً عليه ولم ينصفه »[3] .

٥ - اللغة والنحو :

اللغة والنحو علمان يستعين بهما الشارح في تفسير الألفاظ والتراكيب التي يشتمل عليها النص الشعري المشروح ، ولهذا فانهما يشكلان دوراً خطيراً في شرح المرزوقي من حيث انهما - وبخاصة اللغة - يمثلان المرتكز الأول الذي يعتمد عليه في فهم الشعر وتوضيح معانيه ، ولقد سبق أن أشرنا إلى أن جلّ مصادر الرجل في شرحه كانت في مجالي اللغة والنحو لأن موادهما موروثة عن السلف متداولة عبر أجيال العلماء ، ومن ثم تبرز ظاهرة النقل فيهما أكثر من غيرهما من العناصر الأخرى ،

(١) ينظر مخطوطة التنبيه ، الورقة رقم ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٨٣ .

(٣) ينظر شرحه ١ : ٤١ .

وهذا أمر سبقت الاشارة إليه عندما أوضحنا أن المنهج الالتزامي النقلي الذي بدأ به العلماء شرح الشعر قد يطلّ بين شروحهم الاستقلالية القائمة على العقل والدراية وهما محك الابداع والفنيّة في شروحهم .

أ ـ اللغة :

ولقد عالج المرزوقي اللغة وأفاد منها في شرح الألفاظ والتراكيب ، وكان تأثره بمن سبقوه في هذا الجانب واضحاً ، فهو قد وظّف ثقافته الموروثة من العلماء في أجيال مختلفة توظيفاً جيداً ، حيث كان يستعين بهم في توضيح كلّ غامض ضمه النص المشروح أو أثاره الشرح . ان للخليل والأصمعي وابن الأعرابي وابن دريد وغيرهم وجوداً متفاوتاً في عمل اللغة لدى المرزوقي ، فما خلفوه دائماً معه يستعين به متى شاء . ولقد سبق أن أوضحنا مواضع نقولاته منهم ، ولكننا نريد هنا أن نوضح طريقة عمله في اللغة من خلال إفادته منهم ، وهي طريقة تدل على أنه كان واسع الاطلاع في علم اللغة بمختلف مواده ، قادراً على استدعاء معلوماته المستقاة من العلماء بصورة تغذي المادة التي يتكلم فيها بالوضوح والابانة ، فهو مثلاً ينقل لنا آراء ثلاثة علماء في لفظة « المنيح » التي وردت في بيت عروة بن الورد القائل :

مُطِـلاً عَلى أَعْدَائِـهِ يَزْجُرُونَه بساحَتِهِـمْ زَجْـرَ المَنِيحِ المُشَهَّرِ

قال : « المنيح قال الخليل هو الثامن من القداح ، وقال أبو عمرو : المنيح والسنيح والوغد قداح لا أنصباء لها ، وانم تكثّر بها القداح ، فهي تجال أبداً . وقال الأصمعي : المنيح الذي لا يعتد به »[1] . وينقل لنا آراء أربعة منهم في معنى « دهر » الواردة في بيت قتادة بن مسلمة الحنفي الذي جاء فيه :

مَا كُنْـتُ أوَّلَ مَنْ أَصَـابَ بِنَكْبَةٍ دَهْـرٌ وَحَـيٌّ بَاسِلُـونَ صَمِيمُ

قال : « فأما تنكيره للدهر فقد حكي عن أبي زيد وأبي عبيدة ويونس أن الدهر والزمان والزمن والحين يقع على محدود وغير محدود ، وعلى عمر الدنيا من أوله إلى آخره ، وقال الخليل : الأبد الدهر المحدود ، ويجعل اسماً للنازلة ويقال دهر من

(١) نفسه ق ١ : ٤٢٣ .

الدهر لبعضه كما يقال حين من الدهر ، وقد اشتق منه فقيل انها لـداهرة الـطول أي طويلة العنق »[١] .

وفي بيت حسيل بن سجيح القائل :

بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَــاحٍ كُعُوبُهُ وَذِي رَوْنَــقٍ عَضْــبٍ يَقُــدُّ القَوَانِسَا

ينقل لنا تفسير أبي عبيدة والأصمعي لقونس الفرس قال بعد أن شرح لفظة القوانس الواردة في البيت بأنها أعلى البيض : « وقونس الفرس منه ، وهو العظم الذي تحته العصفوران، هكذا قال أبو عبيدة ، قال الأصمعي : هو والعصفوران سواء »[٢] .

والحق أن المرزوقي في هذا الجانب يبدو نقلياً بحتاً ، ذلك لأن الأمر في معالجة اللغة يبدو كما صوّره الدكتور العمري بقوله : «إن الشروح اللغويّة موادّ تقريريّة متفق عليها ليس فيها إعمال للعقل أو اختراع، وإنما هي شروح موضوعة موروثة، منقولة عن السلف»[٣] . على أننا يمكن أن نلاحظ ونحن نقرأ شرح المرزوقي في هذا الجانب أنه كان يتناول اللغة في نواحيها المختلفة : الاشتقاق، والصرف، والمعرّب، والاضداد ، واستعمال اللفظ حقيقة ومجازاً ، واستعمال المرفوض من كلام العرب ، ولغات القبائل ، وهي نواح تكاد تغطي نشاطات علم اللغة ، غير أن المرزوقي وهو يعالجها في شرحه كان يهدف إلى إيضاح المعنى أكثر من أن يهدف إلى الاستقصاء والاطالة ، وهو في هذا يختلف عن أصحاب المنهج العلمي التخصصي الـذين يستقصون ويطيلون في تناولهم المادة اللغويّة . والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة ، ففي الاشتقاق مثلاً نراه يقف عند لفظة « زرافات » الواردة في القطعة الأولى من باب الحماسة وذلك في البيت القائل :

قَوْمٌ اِذَا الشرُّ أَبْــدَى نَاجِــذيهِ لَهُمْ طَارُوا اِلَيهِ زَرَافَــاتٍ وَوُحْدَانَا

قال : « والزرافـات الجماعـات ، واشتقاقـه من الـزرف وهـو الـزيادة على

---

(١) نفسه ق ٢ : ٧٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ق ٢ : ٥٦٩ .

(٣) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٦٩ .

الشيء ، ويقال زرّفت القوم قدامي أي قدمتهم فرقاً »[1] . وفي الصرف نراه مثلاً يتكىء قليلاً على لفظة « تيحان » التي جاءت في بيت سوّار بن المضرّب السعدي القائل :

بِذَبِّي الذَّمَّ عَنْ حَسَبِي بِمَالِي وَزَبُّونَاتِ أَشْوَسَ تَيَّحَانِ

قال : « التيّحان العريض المقدام ، ثم مضى يتكلم عن تصريفها فقال : « وهو فيعلان بفتح العين ، ولا يجوز كسرها لأن فيعلان لم يجىء في الصحيح فيبنى المعتل عليه قياساً » ثمّ استرسل ففصّل الحديث قال : « وفيعل كسيّد من الأبنية المختصة بالمعتل ، ومثل تيّحان هيّبان ، وهما صفتان حكاهما سيبويه بالفتح ، ومثالهما من الصحيح قيقبان وسيسبان » ثم ختم حديثه بالرجوع إلى تيحان واشتقاقها واستخدام فعلها في التعبير فقال : « وتيّحان من تاح له يتوح ويتيح لغتان اذا أشرف وتهيأ ورجل متيح ، ويقال قلب متيح أيضاً ، وأتيح له كذا »[2] .

وفي المعرّب نجد له مثل وقفته عند لفظة « المنجنيق » الواردة في بيت جاء في باب مذمة النساء وهو :

أَوْ تَأَمَّلْتَ رَأْسَهُ قُلْتَ هَذَا حَجَرٌ مِنْ حِجَارَةِ الْمِنْجَنِيقِ

قال : « والمنجنيق معربة ، وقد اختلف في الفعل منه فقال بعضهم : الميم زائدة واحتج بما حكاه التوزي[3] عن أبي عبيدة قال : سألت أعرابياً عن حروب كانت بينهم فقال : كانت بيننا حروب عون تفقأ فيها العيون مرة نجنق ، ومرة نرشق . قال : فقوله : نجنق دال على أن الميم زائدة ، ولو كانت أصلية لقال :

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ٢٧ .

(٢) نفسه ق ١ : ٦٣٢ .

(٣) التوزي هو أبو محمد عبدالله بن محمد بن هارون ، قرأ كتاب سيبويه على أبي عمر الجرمي ، وقرأ على الأصمعي وغيره . من تصانيفه كتاب الأمثال وكتاب الأضداد وكتاب الخيل . توفي سنة ٢٣٠هـ . ترجمته في أخبار النحويين البصريين ص ٨٥ وما يليها ، ونزهة الألباء ص ١٧٢ وما يليها ، وانباه الرواة ٢ : ١٢٦ ، وبغية الوعاة ٢ : ٦١ .

« نمجنق » ، وإلى هذا ذهب الدريدي »[1] .

ووقف عند لفظة « زنمردة » الواردة في قول أبي الغطمش « منيت بزنمردة كالعصا» فقال : «يروى زنمردة ـ بفتح الزاي وكسر الميم ـ ويكون مما عرّب ولا نظير له في أبنية العرب »[2] .

ومن أمثلة وقفاته في الاضداد وقفته في لفظة « مأتم » التي وردت في بيت أحد شعراء تيم في الرثاء وهو :

فَالنَّاسُ مَأْتَمُهُمْ عَلَيْهِ وَاحِدٌ فِي كُلِّ دَارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيرُ

قال : « أصل المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر ، وجعله هاهنا المصيبة نفسها »[3] ، ووقف أيضاً عند لفظة « جلل » في بيت الحارث بن وعلة الزهري القائل :

فَلَئِنْ عَفَوْتُ لأَعْفُوَنْ جَلَلاً وَلَئِنْ سَطَوْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

قال : « والجلل يزعم أهل اللغة انه من الأضداد ، يقع على الصغير والكبير ، وهو هنا يراد به الكبير »[4] .

وأكثر المرزوقي في شرحه اللغوي من الحديث عن الألفاظ واستعمالها في الحقيقة والمجاز ، ففي بيت سعد بن ناشب وهو :

فَإِنْ تَهْدِمُوا بالغَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا تُرَاثُ كَرِيمٍ لاَيُبَالِي اَلعَوَاقِبَا

وقف عند قوله « تهدموا » قال : « الهدم القلع والتخريب ويسمى المهدّم هدما . . . وتوسعوا فيه فقيل للثوب الخلق هدم وجمعه أهدام ، وقيل : عجوز متهدّمة أي هرمة فانية ، وتهدّم عليه من الغضب كما يقال تهجّم »[5] .

(١) ينظر شرحه ق ٤ : ١٨٧٩ . وأراد بالدريدي أبا بكر بن دريد .
(٢) المصدر نفسه ق ٤ : ١٨٨٢ .
(٣) نفسه ق ٢ : ٩٥٢ .
(٤) نفسه ق ١ : ٢٠٤ .
(٥) المصدر نفسه ق ١ : ٧٠ .

وفي قول تأبط شراً : « فَرَشْتُ لَهَا صَدْرِي » قال : « الفرش البسط ثم توسعوا فيه فقالوا : فرشت أمري وافترش لسانه فتكلم كيف شاء »[١]، ونراه يشرح « العضب » وقد ورد لفظه في أحد الأبيات قال : هو القطع وتوسعوا فيه فقالوا : عضبه عن حاجته أي حبسه ، وامرأة معضوبة أي معضولة ، وسيف عضب أي قاطع كأنه وصف بالمصدر »[٢].

ونلاحظ أنه في شرحه اللغوي يتتبع استعمال الشعراء اللغة فيبينّ بالشرح والتحليل استخدامهم المرفوض في الاستعمال ، فهو يقف عند بيت عبدالله بن الدمينة في الغزل وهو :

لَئِنْ كَانَ يُهْدَى بَرْدُ أَنْيَابِهَا العُلى لأَفْقَرَ مِنِّي إِنَّنِي لَفَقِيرُ

فيقول : « أفقر كأنه بني على فقر المرفوض في الاستعمال » ثم يشرح ذلك بقوله : « وانما قلت هذا لأن فقيراً كان حكمه أن يكون فعله على فقر ، ولم يجيء منه إلا افتقر ، وشرط فعل التعجب وما يتبعه من بناء التفضيل أن لا يجيء إلاّ من الثلاثي في الأكثر ، وما كان على أفعل خاصة ، واذا كان كذلك فأفقر لا يصح أن يكون مبنياً على افتقر ولكن على فقر »[٣].

كما يلاحظ أيضاً أنه كان يهتم بتبيان لغات القبائل حين يجد شعراءها يستخدمون بعض الألفاظ الخاصة بهم ، وذلك في مثل بيت القوال الطائي الذي يقول فيه :

قُولاَ لِهَـذَا المَرْءِ ذُو جَاء سَاعِياً هَلُـمَّ فَإنَّ المَشرفيَّ الفَرَائِضُ

قال المرزوقي : « ذو بمعنى الذي وهي لفظة طائية تجيء بهذه الصورة في كل حال ولا تغير » ثم انتقل إلى « هلّم » فبينّ طريقة استعمالها عند أهل الحجاز وغيرهم قال : « وقوله : هلّم ، فيه طريقان منهم من يجعله اسماً للفعل فلا يغيرّ عن حاله في المؤنث والتثنية والجمع وهم أهل الحجاز، وفي القرآن « والقائلين لإخوانهم هلمّ

(١) نفسه ق ١ : ٨١ .

(٢) نفسه ق ١ : ٦ .

(٣) نفسه ق ٣ : ١٣٠٥ .

إلينا»[1] ، ومنهم من يجعله هاء التنبيه وقد ركّب مع لمّ ، وهو فعل فيثنيه ويجمعه ويؤنثه»[2] .

وهكذا نلمس من خلال ما عرضناه من نماذج في شرحه اللغوي انه وان بدا في بعض تناوله اللغة نقلياً بحتاً فانه بتطرقه لنواحٍ مختلفة في علم اللغة قد أضفى على شرحه الأدبي قيمة علميّة يحسها القارىء من خلال الفوائد الجمة التي يخرج بها في هذا الجانب .

ب ـ النحو:

واذا كان المرزوقي قد اهتم باللغة لغاية تتمثل في شرح ألفاظ النص المشروح وايضاحها فان اهتمامه بالنحو كانت الغاية منه شرح التراكيب ليصل بالاثنين معاً اللغة والنحو إلى إيضاح معاني النصوص واظهار مضامينها ، غير أن الدارس للنحو في شرحه يلاحظ جملة من الأمور أهمها ثلاثة : أحدها : أننا إن كنا قد لاحظنا قلة إسهابه في تناول المادة اللغويّة ، فاننا قد لمسنا لديه بعض الاسهاب فيما كان يثيره من شرح نحوي ، ومن أمثلته تلك الوقفة التي رأيناها منه في تركيب « هواي » من بيت جعفر بن علبة الذي يقول فيه :

هَوَايَ مَعَ الـرَّكْبِ اليَمَانِـينَ مُصْعِدُ ... جَنِيبٌ وَجُثْماني بِمَكَّـةَ مُوثَـقُ

فقد قال : « هواي ياء الاضافة فتحت منه على الأصل ، وذلك أن هذه الياء لما كانت ضمير اسم على حرف واحد متطرف كرهوا أن تسكن فتختل فجعلوا من أصله التحريك » وكان حقه أن يكتفي بهذا القدر في شرح اضافة الاسم الثلاثي المقصور الى ياء المتكلم من حيث جعل ياء المتكلم فيه مفتوحة على الأصل ، ولكنه استرسل قائلاً : « فاذا كان ما قبله متحركاً كغلامي وداري كان لك فيه وجوه : تحريك الياء وهو الأصل ، وتسكينه تخفيفاً ، وحذفه من النداء اذا قلت : يا غلام ، وابدال الألف منها مع انفتاح ما قبلها كقولك : وابأباها ويا غلاماً أقبل. واذا سكّن ما قبله فمتى كان واواً أو ياء أدغم فيه ولم يكن بد من تحريكه لئلا يلتقي ساكنان ،

(١) سورة الأحزاب ، الآية ١٨ .

(٢) ينظر شرحه ق ٢ : ٦٤٠ .

تقول : مسلميّ في الجميع ومسلميّ في التثنية ، واذا كان ما قبله ألفاً كعصاي وقفاي وهواي لم يكن بد من الاتيان به على الأصل ، وهوتحريكه لئلا يلتقي ساكنان أيضاً ، ولا يجوز الادغام هاهنا كما جاز مع الواو والياء لأن الألف لا تدغم في شيء ولا يدغم فيها غيرها لكونها هوائية لا معتمد لها في المخرج الاّ في لغة هذيل لأنهم يبدلون من الألف الياء ويدغمون ، وعلى هذا قوله[1] :

سَبَقُوا هُوِيَّ وَأَعْنَقُوا لهوَاهُمُ فَتُخُرِّمُوا وَلِكُلِ جَنْبٍ مَصْرَعُ[2]

فأنت تراه قد نقل الحديث من حكم إضافة ياء المتكلم إلى الثلاثي المقصور إلى أحكام ياء المتكلم في مختلف الحالات التي تضاف فيها ، وهو بلا شك إسهاب واستطراد ، غير أنه يحسنه في شرح المرزوقي أنه كان يعرض معه اللغة والبلاغة والمعاني وأحياناً النقد ولذا لا يحس القارىء بأنه شرح علمي بحت ، فهو ليس مثل ابن جني في « التنبيه » الذي يصرف كلّ همّه إلى العلم البحت ، ولا كالتبريزي الذي كان في مواضع مختلفة ينقل النحو واللغة من المرزوقي دون العناصر الأخرى ، ولذا رأينا الدكتور أحمد أمين يصفه بأنه نحوي لغوي ، ويفضل على شرحه شرح المرزوقي ، مع أن الغلبة المطلقة من اللغة والنحو الموجودين في شرح التبريزي منقولة من شرح المرْزوقي بتعديل وبغير تعديل .

وثاني هذه الأمور أن النحو في شرح المرزوقي يتمثل في جانبين أحدهما ايراد القواعد النحويّة التي قنّنها علماء النحو ، والآخر تطبيق هذه القواعد من خلال الاعراب . وفي الجانب الأول نراه يتعرض لجملة من قواعد النحو التي يرد الحديث فيها من خلال التراكيب الواردة في أبيات الحماسة . ومن أمثلة ذلك قاعدة الاستغناء بالمفعول عن الخبر في تركيب « ليت شعري » الوارد في بيت أبي الأبيض العبسي وهو :

---

(١) يريد أبا ذؤيب الهذلي والبيت من عينيته المشهورة « أمن المنون وريبها تتوجع » وهي أولى قصائد ديوان الهذليين ١ : ١ .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٥١ وما يليها ، وينظر الصفحات ٦٢٤ ، ٨٠١ ، ١٠٨١ ، ١٢١٦ ففيها مثل هذاالاسهاب في شرح قواعد النحو .

أَلاَ لَيْتَ شِعْــرِي هَلْ يَقُــولَنْ فَوَارِسٌ وَقَــدْ حَانَ مِنْهُــمْ يَوْمَ ذَاكَ رَحِيلُ

قال : « شعري اسم ليت وخبره مضمر استغنى عنه بمفعول شعري ، وليت شعري لا يجيء إلا هكذا كما أن لولا يجيء أبداً محذوف خبر المبتدأ الذي بعده ، وقد استغنى عنه بجوابه »[1] .

وكذلك قاعدة تركيب « أجِدَّك » من حيث نصبه على فعل مضمر ولزومه الاضافة دائماً ، وكذلك في قول أحد الشعراء في باب الملح وهو ؛

أَجِــدَّكُما لَمْ تَعْلَما أَنَّ جَارَنَا أَبَــا الحِسْــلِ بـالصَّحْـرَاءِ لاَ يَتَنَوَّرُ

قال : « أجدكما انتصب على المصدر من فعل مضمر كأنه قال : « أتجدان جِدَّكُمَا، ثم مضى يدعم هذا القول بما جاء عن سيبويه في الكتاب فقال : « وذكر سيبويه في باب ما ينتصب من المصادر توكيداً لما قبله كقولك : هذا زيد حقاً لا باطلاً ، وهذا القول لا قولك وهذا لزيد غير ما تقول ، والتقدير هذا القول لا أقول قولك ، قال سيبويه : أجدّك لا تفعل كذا ، ولا يستعمل الا مضافاً ، والتقدير أجداً منك ، وجرى هذا مجرى ما لزمته الاضافة نحو لبيك وما أشبهه ومعاذ الله»[2] .

وأما في جانب التطبيق القائم على إعراب التراكيب فان الظاهرة التي تسود غلبة شرحه أنه كان يربط الاعراب بالمعنى ربطاً محكماً ، وهنا تبرز شخصيته بوضوح لأنه كان ينظر الى الاعراب وسيلة توصله إلى المعنى أو قل كان يرى المعنى من خلال الاعراب . ومن ذلك ما جاء عنه في بيت الأشجع السلمي الذي يقول فيه :

فَأَصْبَــحَ في لَحْــدٍ مِنَ الأَرْضِ مَيِّتاً وَكَانَــت بِهِ حَيّاً تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ

فقد قال : « في لحد موضعه نصب على أنه خبر أصبح وانتصب » ميتاً على الحال ، وكذلك قوله « حيا » انتصب على الحال . ولا يجوز أن يكون في لحد » في موضع الحال ، وميتاً خبر أصبح لأن « ميتاً » من الصدر في مقابلة « حياً » من

(١) المصدر نفسه ق ١ : ٤٦٦ .
(٢) نفسه ق ٤ : ١٨٥٩ .

العجز ، ولا يكون ذلك إلا حالاً ، فكذلك يجب أن يكون ميتاً و إلا اختلفا وفسد المعنى »[١] . ومثل ذلك أيضاً عمله في إعراب « جانباً » الوارد في بيت سعد بن ناشب وهو :

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ هَمَّهُ   وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ العَوَاقِبِ جَانِبَاً

قال : « وانتصب جانباً على أنه ظرف ، ونكّب يكون بمعنى تنكب ، والمعنى : انه اذا همّ بالشيء جعله نصب عينيه الى أن ينفذ فيه ويخرج منه ويصير في جانب من الفكر والعواقب . ويجوز أن ينتصب « جانباً » على المفعول ويكون نكّب بمعنى حرّف ، والمراد انحرف عن ذكر العواقب وطوى كشحه دونه »[٢] .

وهو بجانب ربطه الاعراب بالمعنى نراه ينظر الى غرض الشاعر وما يتصل به من ايحاءات ، وذلك حين يكون للتركيب أكثر من وجه في الاعراب ، مثل عمله في بيت بشامة النهشلي الذي يقول فيه :

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لاَ نَدَّعِي لأَبٍ   عَنْهُ وَلاَ هُوَ بالأَبْنَاءِ يَشْرِينَا

فقد بين وجه الاعراب في قوله « بني » قال : « وانتصاب بني على إضمار فعل كأنه قال أذكر بني نهشل ، وهذا على الاختصاص والمدح ، وخبراء « لا ندعي » ثم انتقل الى وجه آخر فقال : « ولو رفع فقال : بنو نهشل على أن يكون خبر انّ لكان لا ندعي في موضع الحال » . ثم وضح الفرق بين الوجهين بالنظر الى غرض الشاعر ومضمون الشعر قال : « والفصل بين أن يكون اختصاصاً وبين أن يكون خبراً صراحاً هو أنه لو جعله خبراً لكان قصده الى تعريف نفسه عند المخاطب ، وكان لا يخلو فعله لذلك من خمول فيهم أو جهل من المخاطب بشأنهم ، فاذا جعل اختصاصاً فقد أمن هو الأمرين معاً»[٣] .

---

(١) نفسه ق ٢ : ٨٥٧ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ٧٢ .

(٣) نفسه ق ١ : ١٠٢ وما يليها .

وثالث هذه الأمور هو مذهبه النحوي في معالجته للقضايا النحوية سواء في جانبها التقعيدي أو التطبيقي، وقد تكلّم في هذا كل من الدكتور عبد الرحيم عسيلان والدكتور أحمد العمرى، فذهب الأول الى أنه كان بصري المذهب، ورجّح الثاني أنه كان بغدادي المذهب، واعتمد الدكتور عسيلان في رأيه على أنه كثيراً ما يأخذ بآراء البصريين، وأنه من خلال شرحه لأبيات الحماسة يصرح في أكثر من موضع بأنه منهم[٢]، واعتمد العمري على أنه «على نحو ما كان ينتخب من آراء البصريّين كان ينتخب من الآراء الكوفية ما صح لديه قياسه[٣]، كما اعتمد على أنه كان تلميذاً مخلصاً لأبي علي الفارسي، أميناً على مبادئه، والفارسي حسب ما ذهب اليه الدكتور شوقي ضيف - أحد العلماء الذين مزجوا بين المنهجين البصري والكوفي، وأحد المؤسسين للمذهب البغدادي الجديد الذي ينتخب من المدرستَيْن ما يراه أولى بالاتباع، وان غلب عليه النزوع إلى المذهب البصري[٣]، فعلى هذا فهو - أي العمري - يرى « أن ليس ببعيد أن يكون المرزوقي قد اعتنق مذهب أستاذه ايماناً منه بمنهجه وتأثراً واقتداءً[٤]، وفي كل ما ذهب إليه الباحثان نظر، فقول الدكتور عسيلان بأنه كثيراً ما يأخذ بآراء البصريين لا يؤكد بصريته لأن أستاذه أبا علي الفارسي كان كثيراً ما يأخذ بآراء البصريين ومع ذلك عده الدكتور أحمد أمين أحد أعمدة مدرسة القياس التي نشأت معتمدة على أصول بصريّة »[٥]، وعده الدكتور شوقي ضيف أحد أئمة المدرسة البغدادية الجديدة[٦].

وأما قوله بأنه كان في خلال شرحه لأبيات الحماسة يصرح في أكثر من موضع بأنه منهم فهو قول مبني على العبارات التي ترددت في شرحه من مثل « هو المختار عند

(١) ينظر حماسة أبي تمام وشروحها ص ١٠٤ .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٧٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ ، وينظر المدارس النحويّة لشوقي ضيف ص ٢٥٧ .

(٤) نفسه والصفحة ذاتها .

(٥) مجلة مجمع اللغة العربيّة م ٧ : ٣٥١ .

(٦) المدارس النحوية ص ٢٧٦ .

أصحابنا البصريين »[1] و « طريقة جل أصحابنا البصريين »[2] و « هـذا يبيّـن ما يسلـكه أصحابنـا البصريون »[3] و « الآل عنـد أصحابنـا البصريين والأهـل واحد »[4] ، وهي عبارات لا تدل على التصريح بأنه من البصريين لأنها شبيهة بعبارات ابن جني التي رأيناه يرددها في كتابيه « الخصائص والتنبيه » ففي الخصائص مثلاً قوله : « لم يثبت أصحابنا قنيت »[5] ، وفي التنبيه قوله : « موسى لا يصرفها الكوفيون ، وهي عندنا نحن مفعل ويحكي أصحابنا أوسيت رأسه أي حلقته ويصرفونها »[6] ، وقال في موضع آخر : والذي قال أبو علي أجري على مقاييس أصحابنا »[7] ، وهو يعني بقوله أصحابنا البصريين مثلما يعني المرزوقي ، ولكن هذا لم يمنع كلا من الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقي ضيف عن أن يذهبا إلى عدم بصريته ، فقد وضعه الأول بين أصحاب مدرسة القياس كأستاذه أبي علي ، ووضعه الثاني في مصاف أئمة المدرسة البغداديّة الجديدة[8]. ولو تأملت قوله في «موسى لا يصرفها الكوفيون وهي عندنا نحن مفعل ويحكي أصحابنا أوسيت رأسه» لأدركت أنه صرّح أنه من مدرسة لا بصرية ولا كوفية أو على الأقل ذو منهج يختلف عن منهج البصريين والكوفيين .

وأما قول الدكتور العمري بأن المرزوقي على نحو ما كان ينتخب من آراء البصريين كان ينتخب من الآراء الكوفية فهو قول عندما تجريه على شرحه للحماسة تجد صعوبة في اثباته لأن ما أورده للكوفيين من آراء في هذا الشرح لا يبلغ في مواضعه

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ٩٣ .

(٢) نفسه ص ١٥٩ .

(٣) نفسه ق ٢ : ٨٤٨ .

(٤) نفسه ص ٦٩١ .

(٥) ينظر الخصائص ١ : ١٣٧ .

(٦) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ٢١١ .

(٧) المخطوطة ذاتها الورقة ٢٤٨ .

(٨) مجلة المجمع اللغوي م ٧ : ٢٥١ ، والمدارس النحوية ص ٢٧٦ .

أصابع اليدين ، ولا يقاس بالكثرة الكاثرة من الآراء البصريّة التي قام عليها نحوه في الشرح .

هذا فضلاً عن أنها لا تدل على أنه يختار رأياً كوفياً فيما يعرضه وانما مجرد عرض آراء لا أكثر ولا أقل ، ولو نظرنا إلى الأمثلة الأربعة التي أوردها الدكتور العمري ليبرهن بها على انتخابه آراء الكوفيين لوجدناه يقف في ثلاثة منها مع البصريين ضمناً أو صراحة[1] ، ففي المثال الأول الخاص ببيت الفند الزماني :

وَلَوْلاَ نَبْلُ عَوْضٍ في خَضُمّاتي وَأَوْصَالي

نجد المرزوقي يروي «عوض» في البيت بالبناء على الفتح وهو مذهب البصريين ثم قال : « عوض اسم للدهر معرفة مبني وكما يبنى على الفتح يبنى على الضم ، والضم فيه حكاه الكوفيون ، ويقال : لا أفعله عوض العائضين »[2] فهو في روايته وما ضربه من مثال لا يبنيه على الضم كما يفعل الكوفيون وانما يبنيه على الفتح الذي هو مذهب البصريين .

وفي المثال الثاني الخاص ببيت لا مرأة من بني أسد هو :

أَنْعَى فَتَىً لَمْ تَذُرَّ الشَّمْسُ طَالِعَةً يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ اِلاَّ ضَرَّ أَوْ نَفَعَا

قال المرزوقي : « انتصب طالعة على الحال المؤكدة لما قبله » وهذا رأي البصريين ثم قال : « والكوفيون يقولون في مثله : انتصب على القطع » ثم اعتمد على الرأي البصري ومضى مقرراً قوله : « وكما أن الحال يجيء مؤكداً لما قبله تجيء الصفة مؤكدة لما قبلها ، ومثال الحال رأيته في الحمام عريانا ، فعريان حال مؤكدة ، ومثاله في الصفة أن تقول : فعلت كذا أمس الدابر»[3] .

فهذا عمل لا يقال عن صاحبه إنه « كان لا يسجل انتصاراً لهؤلاء أو هؤلاء بل

(١) ينظر شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٧٨ وما يليها .
(٢) ينظر شرحه ق ٢ : ٥٣٨ .
(٣) المصدر نفسه ق ٢ : ٩٧٦ .

يكتفي بعرض الآراء جنباً الى جنب مبيناً وجهات النظر المذهبية كلاً على حدة دون تعصب »[1].

وفي المثال الثالث الخاص ببيتي عمرو بن معدي كرب وهما :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ زُوراً كَأَنَّهَا جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فاسْبَطَرَّتِ
فَجاشَتْ اِلَيَّ النَّفْسُ أَولَّ مَرَّةٍ وَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فاسْتَقَرَّتِ

وقد أورد الدكتور العمري هذا المثال مبتوراً ، وهو كما جاء في شرح المرزوقي على النحو التالي : يجوز أن يكون الفاء في « فجاشت » زائدة في قول الكوفيين وأبي الحسن الأخفش ، ويكون جاشت جواباً للمّا، والمعنى : لما رأيت الخيل هكذا خافت نفسي وثارت ، وطريقة جلّ أصحابنا البصريين في مثله أن يكون الجواب محذوفاً كأنه قال : لما رأيت الخيل هكذا فجاشت نفسي وردت على ما كرهته فقّرت طعنت أو أبليت .

ويدل على ذلك قوله في البيت التالي « علام تقول الرمح يثقل ساعدي اذا أنا لم أطعن » فحذف طعنت أو أبليت لأن المراد مفهوم ، وهذا كما حذفوا جواب لو رأيت زيداً وفي يده السيف » ثم أورد نظيرين من الأمثلة من القرآن والشعر لحذف الجواب وقال : « وحذف الجواب في مثل هذه المواضع أبلغ وأدل على المراد وأحسن بدلالة أن المولى اذا قال لعبده : والله لئن قمت اليك، وسكت، تزاحمت عليه من الظنون المعترضة للوعيد ما لا يتزاحم لو نص عن مؤاخذته على ضرب من العذاب »[2] فأنت ترى المرزوقي في هذا المثال يحاول عن طريق ضرب الأمثلة والشواهد واللجوء إلى الأثر النفسي الناتج عن مواقع الكلام إثبات رأي البصريين في قولهم بحذف الجواب في مثل هذه المواضع .

ان المثال الوحيد الذي يبدو فيه عرض لرأي بصري وآخر كوفي دون انحياز ضمناً أو صراحة هو المثال الذي جال حول لفظة « الآل » في بيت سليمان بن قتة الغنوي وهو :

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ١٧٨ .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ١٥٩ .

مَرَرْتُ عَلَى أَبْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ   فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَالَهَا يَوْمَ حُلَّتِ

فقد بدأ الحديث فيه بايراد رأي البصريين قال : « الآل عند أصحابنا البصريين والأهل واحد ، ويدل على ذلك أن تصغير الآل أهيل كما أن تصغير الأهل أهيل » ثم عرض رأي الكوفيين فقال : « وأخبرنا الفراء عن الكسائي أنه قال : سمعت أعرابياً فصيحاً يقول أهل وأهيل وآل وأويل . قال أبو العباس ثعلب : فقد صار أصلين لمعنيين لا كما قال أهل البصرة ، وحكى أبو عمر الزاهد[1] عن ثعلب أن الأهل القرابة كان لها تابع أو لم يكن والآل القرابة بتابعها . قال : ولهذا أجود الصلوات على النبي ﷺ وأفضلها اللهمّ صلّ على محمد وعلى آل محمد»[2] .

فنحن في هذا المثال نراه يعرض الرأيين معاً دون تحيزّ بل ربما يكون أميل للكوفيين لاطالة ما نقله عنهم في هذا الخصوص . ولكن هل مثال واحد يكفي لأن نرجح القول بأن الرجل كان بغدادي المذهب ؟ . أضف الى هذا أن الدكتور العمري أهمل ايراد مثالين آخرين وردا في الشرح وأشار إليهما في هوامشه كان المرزوقي ظاهر الوقوف فيهما إلى جانب المذهب البصري[3] .

وأما قوله : بأن ليس ببعيد أن يكون المرزوقي قد اعتنق مذهب أستاذه أبي علي الفارسي ايماناً منه بمنهجه وتأثراً واقتداءً فقد يكون صحيحاً اذا ما طبق على كتب المرزوقي الأخرى ، أما في شرح الحماسة فقد مرّ بنا أنه نقل عن شيخه أبي علي مشافهة في ثمانية مواضع فقط ، وهي مواضع لا تقاس بنقولاته العديدة من الخليل

(١) هو أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم المعروف بالمطرز الباوردي الزاهد غلام ثعلب ، أحد أئمة اللغة المشاهير المكثرين صحب أبا العباس ثعلباً زماناً فعرف به ونسب اليه ، واستدرك على كتابه الفصيح جزءاً سماه « فائت الفصيح » كما له شرح الفصيح وتصانيف أخرى . توفي سنة خمس وأربعين أو أربع وأربعين وثلاثمائة . ترجمته في معجم الأدباء ١٨ : ٢٢١ وما بعدها وانباه الرواة ٣ : ١٧١ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ٤ : ٣٢٩ وما بعدها .

(٢) ينظر شرحه ق ٢ : ٩٦١ .

(٣) ينظر هذان المثالان في ص ٩٩٠ وص ١٠٥٠ .

وسيبويه والأصمعي وغيرهم من علماء المذهب البصري ، ولقد قرأنا عمل المرزوقي في الحماسة وقرأنا عمل ابن جني فيها فوجدنا ابن جني في عمله أكثر التحاماً بأبي علي الفارسي ، وأوضح اقتداء من المرزوقي في عمله .

إن ما نريد قوله في هذا المقام هو أن المرزوقي من خلال شرحه للحماسة لا يبدو بصرياً مطلقاً كما لا يبدو قياسياً أو بغدادياً مطلقاً، لا يبدو بصرياً مطلقاً لأنه كان إذا تكلم عن أهل البصرة ذكرهم كما يذكرهم أصحاب مدرسة القياس أبو علي وابن جني ومن تبعهما ، ولا يبدو بغدادياً مطلقاً لأن المذهب البغدادي يقوم على خصائص معينة تتمثل في الاستقلال الفكري ، والاتساع في القياس ، والاستعانة بالمنطق ، وهي أمور لا نستطيع اثباتها من خلال عمل المرزوقي النحوي في الحماسة ، قد يكون ذلك ممكناً عن طريق دراسة كتبه الأخرى وبخاصة كتبه في النحو ، أما في الحماسة فانه غير واضح المسلك ، فهو في غلبة شرحه يبدو واضح التأثر بالمدرسة البصريّة ولكنه بالمقابل يستخدم عبارات أصحاب مدرسة القياس أو المدرسة البغدادية الجديدة ، ربما كان هذا بتأثير من شيخه أبي علي الفارسي ، ولكننا رأيناه في موضع من شرحه يختار رأياً كوفياً ضعيفاً ليرد به على ابن جني صنوه في التلمذة لأبي علي وأحد دعائم مدرسة القياس وذلك في بيت غلاّق بن مروان الذي يقول فيه :

فَأَضْحَتْ زُهَيْرٌ في السِّنِين التي مَضَتْ وَمَا بَعْدُ لاَ يُدْعَوْنَ اِلاَّ الأَشَائِما

فقد قال ابن جني في التنبيه : « ينبغي أن تكون ما من قوله «وما بعد» زائدة وتقديره : وبعد ، ولا يحسن أن تجعل ما بمنزله الذي أي الزمان الذي بعده وذلك أن قبل وبعد اذا حذف منهما ما أضيفا اليه لم يبنيا على شيء لنقصانهما ولحاقهما بالحرف لأجل الحذف ، فاذا كانا لا يبنيان على شيء كان الامتناع من الوصل بهما أوجب ، وذلك أن الصلة إلى الايضاح والتمام أحوج من الخبر، ألا ترى إلى استمرار حذف الخبر وعرة حذف الصلة ، فاذا امتنع الاخبار بهما كان الوصل بهما أعر وأقبح »[1] .

---

(١) ينظر مخطوطة التنبيه ، الورقة ٧٩ .

هذا ما أورده ابن جني في التنبيه فنقله المرزوقي في شرحه مصدراً إياه ـ كعادته بعبارة « وذكر بعضهم » ثم رد عليه بقوله : « وليس الأمر على ما قاله ألا ترى أن قوله عز وجل : « قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف : « قال[1] معناه ومن قبل الذي فرطتم في يوسف أي قدمتم ، ويجوز أن يراد به ومن قبل تفريطكم ، فيكون ما مع الفعل في تقدير مصدر وعلى الوجهين جميعاً ما في موضع رفع ومن قبل خبره ، وذكر أبو اسحاق الزجاج[2] في « ما » من الآية ثلاثة أوجه ما ذكرنا أحدها ، واذا كان الأمر على هذا فما ذكره هذا القائل غير صحيح »[3] .

فعلّق الخطيب التبريزي في شرحه على قول المرزوقي هذا بعد أن أورده قائلاً : « هذا رد المرزوقي على ابن جني وقد أنحى عليه ولم ينصفه بقوله وما ذكره هذا القائل غير صحيح ، لأن الذي ذهب إليه ابن جني أحسن من الذي ذهب اليه المرزوقي ، وأما قوله وذكر الزجاج في « ما » من الآية ثلاثة أوجه ما ذكرناه أحدها ، فهو كما ذكره ، غير أن الذي ذكره ابن جني هو أجود الوجوه ، وكتابه يدل عليه ، وغير الزجاج من النحويين ذكر في الآية الوجه الذي ذكره المرزوقي وقال : فيه قبح للتفرقة بين حرف العطف والمعطوف بمن قبل ثم قال : وهو عند الكوفيين حسن ، وليس للمرزوقي أن يترك المختار من قول البصريين ويعدل الى قول الكوفيين راداً على ابن جني ـ رحمه الله »[4] .

---

(١) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

(٢) هو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الري بن سهل الزجاج النحوي ، صاحب كتاب « معاني القرآن » تلقى العلم عن المبرد وثعلب وعمل معلماً للقاسم بن عبيد الله الذي صار وزيراً للمعتضد ، فلما صارت اليه الوزارة أكرمه وأجله توفي في سنة ٣١٠ وقيل ٣١١ وقيل ٦١٣هـ . ترجمته في مراتب النحويين ص ١٣٦ ، ونزهة الالباء ص ٢٤٤ وما بعدها ، ومعجم الأدباء ١ : ١٣٠ وما بعدها ، وأنباه الرواة ١ : ١٥٩ وما بعدها ، ووفيات الاعيان ١ : ٤٩ وما يليها ، وله ذكر في كتب الطبقات .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٤٥٧ وما يليها .

(٤) ينظر شرحه ٢ : ٤ وما يليها .

فكأن التبريزي بعبارته الأخيرة يرى أن المرزوقي بصري المذهب تعمد العدول عن مذهبه الى مذهب الكوفيين ليرد على ابن جني تبعاً لموقف سبق أن عرضنا له عندما تكلمنا عن اعتراضاته لابن جني في الرواية .

وصفوة القول أننا لا يمكن أن نحدد للمرزوقي مذهباً في شرحه للحماسة فنهجه في معالجة القضايا النحويّة فيه شيء من الاضطراب ، كما أن دراسة مذهب الرجل لا تتم من خلال كتاب واحد هو فيه أديب أكثر من كونه عالم نحو ، والذي ينبغي عمله في هذا الخصوص هو دراسة جميع أعمال الرجل التي تتصل باللغة والنحو وهذا عمل لا يتسع له بحثنا هذا ولا هو من صميمه ولولا أن كلا من الدكتور عسيلان والدكتور العمري قد أقحماه في تناولهما شرح المرزوقي للحماسة الذي تهمنا دراسته في المقام الأول لما خضنا فيه على هذا النحو .

٦ ـ تحليل المعنى :

اهتم المرزوقي بتحليل معنى النص اهتماماً ملحوظاً ، يتضح هذا الاهتمام في نواح شتى لاحظناها في تتبعنا له وهو يقوم بعمليّة تحليل المعاني ، ولقد رأيناه في العنصر السابق كيف كان يستعين باللغة والنحو في تفسير الألفاظ والتراكيب وصولاً الى المعاني وايضاحها ، أما هنا فقد رأيناه ينظر في تحليل معاني النص الى نواح مختلفة أهمها نظرته الى وحدة النص ومحاولته الربط بين أبيات القطعة الواحدة بصورة تجعلنا نحس بادراكه كليّة النص لا جزئيته ، وثانيها أنه كان ينظر الى مقاصد الشعراء ومراميهم فيسجلها أحياناً قبل الشروع في ايراد المعاني ، وثالثها أنه يستقصي المعنى ويورده في أكثر من وجه ويقيم الجدل والحوار بينه وبين نفسه أو قارئه بغية تأكيده واقراره ، ويستحضر الشواهد من القرآن والشعر التي تلتقي في معانيها بمعاني النص خدمة لما قرره فيها من قول وقصداً لاظهاره . ورابعها أنه كان يتعقب أقوال السابقين في المعاني لابراز جوانب القصور فيها ، وخامستها تخيّره في عرض المعنى العبارات الأدبية والجمل الايحائية التي تؤدي المعنى في صورة تبعث المتعة في نفس قارئه وتجعله يستشعر بعقله ووجدانه شرف المعنى وقيمة المضمون .

ان الأمثلة في هذه النواحي تكاد تشمل سائر أجزاء شرحه ، وسوف نحاول أن نعرض نماذج لها حتى تتضح لنا طريقته المتنوعة في تناول المعنى .

أ ـ نظرته إلى كليّة النص :

ففي كلية النص كانت طريقته تتلخص في رؤيته لوحدة البيت من جهة والى ارتباطه بغيره من جهة أخرى ، فاذا كان البيت قائماً بذاته دالاً بمفرده على المعنى قام بشرحه وتحليل معناه منفرداً والا ربط بينه وبين غيره من الأبيات التي تلتقي معه في الفكرة التي رمي اليها الشاعر ، ولهذا جاءت معالجته للنص متفاوتة فتارة يشرح النص بيتاً بيتاً وتارة يجمع بين البيتين أو الثلاثة أو الأربعة فصاعداً ، وتارة ثالثة يورد القطعة كاملة ثم يتناولها بالشرح والتحليل ، ولقد رأيناه بالاحصاء يشرح خمساً وسبعين ومائة قطعة ، جميعها من ذوات الثلاثة أبيات فصاعداً دون أن يجزئها الى أبيات ، كما رأيناه يجمع بين الثلاثة أبيات داخل القطعة الواحدة في واحد ومائة موضع ، وبين الأربعة أبيات فصاعداً في أربعة وثلاثين موضعاً ، أما أن يجمع بين البيتين في القطعة الواحدة أو أن القطعة نفسها من ذوات البيتين في الاختيار فان ذلك في شرحه كثير لا طائل لحصره ، هذا فضلاً عن أنه كان اذا حلل النص بيتاً بيتاً ورأى أن صلة ما في المعنى بين البيت وسابقه أو الذي يليه دلّ على ذلك وبينّه ، فمثلاً بيت بشامة النهشلي الذي يقول فيه :

وَإِنْ دَعَوْتِ إِلى جُلَّى وَمَكْرُمةٍ يَوْماً سَرَاةَ كِرامِ النَّاس فادْعِينَا

نظر المرزوقي الى صلته بما يليه فقال : « هذا الكلام ظاهره استعطاف لها والقصد به التوصل الى بيان شرفه واستحقاقه ما يستحقه الأفاضل والأشراف ، والأماثل الكرام . . . ألا ترى كيف اشتغل بمقصوده من الافتخار فيما يتلو هذا البيت ، وهم كما يتخلصون من التشبيهات وغيرها الى أغراضهم على اختلافها فانهم قد يتوصلون بمبادىء كلامهم الى أمثالها ، فتقل المؤونة وتخف الكلفة ، ولهذا نظائر وأشباه تجيء فيما بعد »[1] .

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ١٠١ وما يليها .

وفي بيت العباس بن مرداس الذي يقول فيه :

وَلاَ تَطْعَمَــنْ مَا يَعْلِفُونَــكَ إنَّهُمْ   أَتَــوْكَ عَلَى قُرْبَاهُــمُ بالمُثَمَّلِ

قال المرزوقي : « أخرج ما قدمه من التمثيل لكيدهم وسوء دخلتهم وما يجب عليه من الأخذ بالتحرز معهم ، وترك الاستناخة في المبرك الذي اختاره ، والمبوأ الذي أعدوه في معرض آخر . والمعنى : وما يعد قرى لك فتجنبه ولا تتناوله فانهم هيئوا لك سماً قاتلاً فلا تطعمه . وكان العباس قد سبق بيته هذا بقوله :

وَإنْ بوَّءُوكَ مبْــرَكاً غَــيْــرَ طَائِلٍ   غَلِيــظاً فَــلاَ تَنْــزِلْ بِــهِ وَتَحَــوَّلِ (١)

فانظر كيف استطاع المرزوقي أن يربط بين البيتين مراعياً أسلوب الشاعر في إخراج الكلام .

ب ـ نظره الى مقاصد الشعراء :

وهو بجانب نظرته الكلية للنص يعمد كثيراً الى ايراد مقصد الشاعر ومرماه من الكلام ، وقد يسبق به إيراد المعنى وتقريره . مثال ذلك ما جاء عنه في بيت جميل بن معمر الذي يقول فيه :

يَقُولُــونَ لِي أَهْــلاً وَسَهْــلاً وَمَرْحَباً   وَلَــوْ ظَفِــرُوا بِي سَاعَــةً قَتَلُوني

فقد بدأ القول فيه شارحاً مقصد الشاعر قال : « نبه بهذا الكلام على تملقهم واظهارهم النفاق مالا يوافق باطنهم عجزاً وضعف كيد » ثم أورد المعنى فقال : « والمعنى يستقبلونني بالتأهيل ويتلقّوني بالترحيب عند الالتقاء ، ولو أعطوا الظفر لأتوا عليّ وما أبقوا » (٢).

وفي بيت سعد بن ناشب الذي جاء في :

إذَا هَمَّ أَلْقَــى بَيْــنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ   وَصَمَّــمَ تَصْــمِيم السُّرَيْجِيّ ذِي الأَثْرِ

---

(١) المصدر نفسه ق ١ : ٤٣٤ .

(٢) نفسه ق ١ : ٣٢٥ .

قال : « يذكر من نفسه الصرامة والنفاذ وفصل الأمور ، والصبر على ممارسة الخطوب » ثم شرح المعنى فقال : « يقول : اذا عزم على الأمر كان جميع الرأي ، يجعل المهموم به نصب عينيه حتى يخرج منه ، ونفذ نفاذ السيف الخذم لا يتوقف في الضريبة ولا يكهم »(١).

ج - ايراد المعنى في أكثر من وجه :

على أن السمة السائدة في معالجته للمعاني تكمن في ايراده المعنى في أكثر من وجه ، فهو يستقصيه ويذكر وجوهه ، وأحياناً يفاضل بين وجه ووجه ، وأحياناً يورد الوجوه دون مفاضلة ، ومن أمثلة ذلك عمله في بيت عنترة بن الأخرس المعنّى الذي يقول فيه :

أَلَـمْ تَرَ أَنَّ شِعْـرَكَ سَارَ عَنِّي ... وَشِعْـرِي حَوْلَ بَيْتِـكَ مَا يَسِيرُ

فقد أورد معناه في وجهين دون مفاضلة بينهما قال : « يقول ألم تعلم أن شعرك الذي قلته في لم يعلق بي ذمه لأنه كان كذباً وزوراً ، وشعري الذي قلته فيك يطوف حول دارك وبيتك ولا يفارقك لأنه كان صادقاً » . ثم أورد معنى آخر فقال : « ويجوز أن يكون المعنى : ألم تر أن شعري الذي قلته فيك سار عني لأن الرواة احتملوه استجادة له واستلذاذاً ، وشعرك الذي قلته في ملازم لك لزهد الناس فيه لما كان سفسافاً » وساغ الوجهان جميعاً لأن المصدر يضاف الى المفعول كما يضاف الى الفاعل ، فعلى ذلك جاز أن يقول شعرك ويريد شعري المقول فيك »(٢).

ونراه يفاضل بين وجهين في بيت من قطعة لبعض بني فقعس يشير فيها الى مهاجاة قبيلة سنبس له ، والبيت هو :

إِنِّـي امـرؤٌ مُكْرِمٌ نَفْسِي وَمُتَّئِدٌ ... مِنْ أن أُقَاذِعَهَـا حـتّى أُجَازِيَهَا

قال في الوجه الأول : « يقول : اني رجل أربأ بقدري عن مكايلتهم وأترفع

---

(١) نفسه ق ٢ : ٦٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ٢٢٢ .

عن موازنتهم وأتوقف عن ملاحاتهم طلباً لمجازاتهم ، والتقدير لا أقاذعها لكي أجازيها » ثم قال في الوجه الثاني : ويجوز أن يكون المعنى : لا أقاذعها إلى أن أجازيها ، أي أولاً أجازيها فعلاً لأرى القدرة عليها ثم حينئذ أجازيها بالكلام » ثمّ فضّل فقال : « والأول أحسن »[٢] .

على أننا رأيناه في هذا الجانب يذهب إلى أبعد من ذلك حيث كان يشرح المعاني من حيث الغرض فيصور المعنى في غرض مرة ، وفي غرض آخر مرة أخرى ، وذلك في مثل قوله في بيت الحماسة :

إنِّـي رَأَيْتُـكَ تَقْضِي الـدَّيْـنَ طالِبَهُ ... وَقَطْـرةُ الـدَّمِ مكْرُوهٌ تَقَاضِيهَا

قال : « هذا البيت يصلح أن يكون مدحاً فيكون المعنى : إني رأيتك تخرج الى المدينين سريعاً من دينهم عليك غير مدافع بما في ذمتك لهم ولا مماطل ، فاذا طولبت بدم أو نوزعت في ذحل شق تقاضيك به ، وتصعب نيله من جهتك وتعذر . ويصلح أن يكون ذماً فيكون المعنى : إني رأيتك بأهون سعي وأقرب طلب تخرج من الأوتار والدماء الى طلابها فلا كلفة في نيلها وادراكها من جهتك ، والتقاضي بالدم عسر صعب إلا إذا كان عندك وقبلك ، فما ذلك إلا لضعف كيدك ومهانة نفسك ، وقصور آبائك ، والدين في هذا الوجه يراد به الوتر والدم »[١] .

ومن البديهي أن يعد مثل هذا العمل مبالغة في التأويل لأن الشاعر عادة يكون ذا مقصد واحد في كلامه ، فهو اما يهجو أو يمدح ، غير أن النص اذا لم يكن فيه ما يدل على المقصد فان ذلك يؤدي إلى أن يتجه الشراح في تفسيره كيفما اتفق لديهم من استنطاق للألفاظ والتعابير التي يقوم بها البيت ، وربما كان إسقاط أبي تمام لبعض الأبيات من النص الذي يختاره سبباً في أن يتجه الشراح هذه الوجهة غير المنطقية في الشرح والتأويل .

ان المرزوقي بجانب هذا كان يستقصي المعنى ويورد له الشواهد من كل وجه

---

(١) نفسه ق ١ : ٢٦٧ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ٤٠٨ وما يليها .

حتى يدعم ما قرره فيه ، ففي بيت حريث بن جابر الذي يقول فيه :

إِذَا ظُلِمَ المَولى فَزِعْتُ لِظُلْمِهِ   فَحَرَّكَ أَحْشَائِي وَهَرَّتْ كِلَابِيَا

نراه يشرحه ويوضح معناه ثم يقول مستقصياً وجوهه : « يجوز أن يكون تحركت أحشاؤه لوجيب قلبه وخفقانه ، ونبحت كلابه لتهيئه للانتقام وتدججه في السلاح له ، وتجمع أصحابه واعدادهم الخيل والرجل لاغاثته ، والكلب ينكر أصحابه اذا رآهم بهذه الأحوال فينبح ، أنشد الأصمعي في مثله :

أُنَاسٌ إِذَا مَا أَنْكَرَ الكَلْبُ أَهْلَهُ   حَمَوْا جَارَهُمْ مِنْ كُلِ شَنْعَاءَ مُظْلِمِ[1]

ووجه آخر وهو أن يكون تحركت أحشاؤه لاضطرابه في جمع من يجمع واعداد ما يعد ، والمتسرع في الشيء يلحقه ذلك ومثله :

أَشَارَتْ لَهُ الحَرْبُ العَوانُ فَجاءَها   يُقَعْقِعُ بالأَقْرَابِ أَوَّلَ مَنْ أَتى

فقعقعة الأقراب كتحرك الأحشاء وأكثر ، ويكون معنى فزعت أغثت على هذا ومثله قوله :   حَلَلْنَا الكَثِيبَ مِنْ زَرُودَ لَنفزَعا[2]

أي لنغيث »[3].

هذا الاستقصاء في تناول المعنى وايراد الشواهد لابرازه وايضاحه نلاحظه في مواضع مختلفة من شرحه ، وهو يؤكد ما أوردناه في صفات منهجه الذي سلكه من حيث ذاتيته واعمال عقله وكد فكره من جهة ، وثقافته واطلاعه الواسع من جهة أخرى .

واذا كان استقصاؤه للمعاني سمة بارزة في شرحه فان طريقته الجدلية القائمة على الحوار تعد هي الأخرى خصيصة من خصائص عمله في المعاني ، فهو يقرر

---

(١) البيت لطفيل الغنوي كما في أمالي القالي ١ : ٥٥ .

(٢) البيت في المفضليات من قصيدة ذات سبعة أبيات للكلحبة العُرَني ، وصدره « وقلت لكأس ألجميها فإنما » ينظر المفضليات تحقيق شاكر وهارون ص ٣٢ . وكأس اسم بنته وزرود موضع بعينه .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٣٧٦ وما يليها .

المعنى وفق الرؤية التي ارتآها من قراءته للنص ثم يقيم الجدل حوله بغية تأكيد صحته ، وذلك في مثل عمله في بيتي أبي الطمحان القيني وهما :

أَلاَ عَلِّلانِـي قَبْـلَ صَدْحِ النَّوائِحِ ... وَقَبْـلَ ارتقـاءِ النَّفْسِ فَوْقَ الجَوَانِحِ
وَقَبْـلَ غَدٍ يالَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ ... إِذَا رَاحَ أَصْحَابِـي وَلَسْـتُ بِرَائِحِ

فقد أورد معناهما بقوله : « يقول : عللاني بالمقترح عليكما قبل أن أموت فتقدم النوائح عليّ يندبنني ، وقبل ميقات أجلي وأوان تخلفي عن أصحابي وقد راحوا عني لنزول القدر الغدور بي » ثم بنى جدلاً فقال : فان قيل : كيف قدّم ذكر صدح النوائح على ذكر الموت وانما يكون بعده ؟ قلت : ان العطف بالواو لا يوجب ترتيباً ألا ترى أن الله تعالى قال: « واسجدي واركعي »(١) والركوع قبل السجود في ترتيب أفعال الصلاة»(٢).

د ـ تعقّبه الآخرين في شرح المعاني :

وهو بجانب ما ذكرنا لا يكتفي بمعالجته للمعنى وابرازه من خلال هذه السبل التي وضحناها بل يزيد على ذلك، أنه كان يتعرض لشرح من سبقه في المعاني ، ولكنه كان لا يفعل ذلك الا في مجال التعقيب والانتقاد ، وهو في هذا يختلف عن أبي العلاء الذي يأتي القول فيه فيما بعد ، والذي كان يورد شروح الآخرين في المعاني ويبيّن وجه الحسن فيها مضيفاً اليها ما يراه من جديد معنى(٣) . أما المرزوقي فان صفة الاستعلاء التي تركبت عليها نفسه والتي نوهنا لها في أكثر من موضع تجعله دائماً يقف من سابقيه المشاركين له في عمل الحماسة موقف المتجاوز عما أحسنوا فيه المتعقب لما قصرّوا فيه . قال في بيت قبيصة بن جابر الذي يقول فيه :

فَلَسْنَـا مِنْ بَنِـي جَدَّاءَ بِكْرٍ ... وَلَكِنَّـا بَنُـو جدِ النِّقَالِ

---

(١) الآية ٤٣ من سورة آل عمران وتمامها « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .
(٢) ينظر شرحه ق ٣ : ١٢٦٦ .
(٣) ينظر أمثلة من عمله في شرح التبريزي ١ : ١١٥ وص ١٩٢ .

« يقول : لسنا أبناء الحرب القليلة الدر اليسيرة الأذى والشر التي لم يكتثر موقدها ، ولم يتشمّر لها خطابها ومولّدوها، ولكننا بنو المناقلات الشديدة الهياج والوقعات الصعبة المراس » وهذا تفسير جيد لمعنى البيت انتقل المرزوقي بعده ليقول : « وقد اضطرب بعض المفسرين في هذا البيت فأتى بما يحجبه السمع ولا يعيه القلب فقال : المعنى لسنا بعقم لم يكثر أولادنا بل فينا الكثرة والعز وقوله : « بنو جد النقال » يعني به المناقلة في الكلام ، يريد أنهم خطباء قال : فالمصراع الثاني ليس من الأول في شيء ، واذا كان كذلك فكأن أبا تمام ذكر البيت على رداءته ليتجنب قول مثله ولينبّه على المترذل منه كما نبّه على المختار المستحسن بغيره « ثم عقب على العبارة الأخيرة بقوله : « هذا القائل لم يرض بذهابه عن الصواب حتى ظنّ بأبي تمام ما لم يخطر له ببال »[1].

هـ ـ أسلوبه في عرض المعنى :

وأما أسلوبه في عرض معاني النصوص فيتصف ـ كما قال الدكتور العمري ـ بالوضوح والقوة والجمال[2]، وهي صفات الأسلوب الأدبي الذي سلكه أصحاب المنهج الابداعي ، ففيه ارادة الافهام ، وفيه التأثير في عقول المتلقين ووجداناتهم ، وفيه الامتاع المشع من نظم الكلام ورصفه رصفاً يدل على اختيار الالفاظ واحكام صوغ الجمل .

ولا شك أن الوضوح هي أهم الصفات التي سادت أسلوب المرزوقي ، ذلك لأن وضوح العبارة وجلاء التفسير يعدان مطلباً أساسياً لكل من يتصدى لشرح الشعر القديم ، ومن هنا كان وضوح العبارة الصفة المشتركة لدى سائر الشراح على مختلف مناهجهم ، غير أن هذا الوضوح عند المرزوقي وغيره من الابداعيين لا يأتي وحده ، وانما تأتي معه القوة ، ويأتي معه الجمال ، وكلاهما يشكل فارقاً في الأسلوب بين الابداعيين وغيرهم من ذوي المناهج الأخرى .

---

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٧٠٨ .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ق ٢ : ٢٣٧ .

ولعلّ أولّ ما يلاحظه القارىء في أسلوب المرزوقي وهو يعرض المعاني أنه يتخير ألفاظه ، وهي ألفاظ عذبه سلسة ينأى بها عن الوحشية ويحوطها عن المتزذل ، ثم هو بعد ذلك يحكم الجمل طولاً وقصراً في تنسيق بديع واحكام قويم ، يميلُ فيه إلى الاطناب القائم على الترادف وتتابع الجمل المؤكدة ذات المعنى الواحد . قد تلحظ بين ثنايا هذا التنسيق وهذا الاحكام السجع ولكنه سجع لا تحس فيه بقلق أو تكلف ، وقد تلمس فيه شيئاً من إعمال الفكر ولكنه إعمال مطبوع لا متصنع ، والأمثلة على ذلك كثيرة تسود صفحات شرحه ولكن يمكن أن نعرض نماذج لنبيّن في أسلوبه ما ذكرناه من صفات ، ففي بيت أوس بن حبناء الذي يقول فيه :

إِذَا كَانَ يُسْرٌ أَنَّهُ الدَّهْرَ لَازِبُ ... يَرَى أَنَّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْراً وَلاَ يَرَى

نراه يعرض معناه فيقول : « يقول يعلم أن أسباب الدنيا وتصاريفها مبنيّة على التغيرّ والتبدّل ، فالعسر واليسر يتعاقبان ولا يلزمان ، فمتى استغنى كرم ولم يبطر ، علماً بأنه يفنى فلا يبقى ، واذا افتقر عفّ ولم ييأس ، ثقة بأنه يزول ولا يدوم »[1] .

فانظر الى ألفاظ « التغيرّ والتبدل » ، « يتعاقبان ولا يلزمان » « يفنى فلا يبقى » « يزول ولا يدوم » لتدرك كيف أن المرزوقي كان يوفر الاطناب لأسلوبه ليحقق التنسيق بين جمله .

ومثل هذا الاطناب القائم على الترادف وتعاقب الجمل ذات المعنى الواحد يمكن أن تلحظه كثيراً في أسلوبه ، وغايته من ذلك أن يكشف لك المعنى ويوضحه في جلاء ، وتستطيع أن تلمس ذلك في عرضه لمعنى بيت قبيصة بن جابر الأسدي الذي يقول فيه :

كَأَنِّي كُنْتُ فِي الأُمَمِ الخَوالي ... وَعَاجَمْتُ الأُمُورَ وَعَاجَمَتْني

فقد كان يمكن عرض معناه على نحو مثل هذا « يقول : انه جرّب الأمور وجربته ، كأنه بتجاربه عاش منذ عصور سبقت عصره » غير أن المرزوقي لم يسلك هذه السبيل التي نجدها عند أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي الذين يركنون

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٦٥٤ .

إلى الايجاز في عرض المعنى تصويره بأقل جمل ، انه يعرض معناه في ملاحقة واستقصاء فيكشفه ويوضحه يقول : « اني مجرب مدرب ، زاولت النوائب ، وعاركت الأهوال والعجائب ، فلزمتها ولزمتني ، وأزمت بها وأزمت بي ، وصرت لطول تجاربي وامتداد أيام محاكتي نقاباً محدَّثاً ، أبلغ بظني ما يبلغ غيري بمشاهدته ، على قرب ميلادي وحداثة سني ، حتى كأني كنت في الأمم الماضين ، وأحد الرجال المعمّرين ، فأدرك الشيء قبل حصوله ، وأتصوره ولم يجيء بصورة ما فرغ منه وقضي ، فظني عيان ويومي دهر »[1] .

فلا شك أنك حين تقرأ هذا العرض تحس بأن المرزوقي لم يهدف الى الافهام فحسب بل هدف الى الافهام والامتاع معاً ، ومن ثم جاءت عباراته وجمله متتابعة في أحكام متوالية في تنسيق لتنتهي بما هدف اليه .

غير أننا أحياناً نلمس في أسلوب المرزوقي وهو يعرض المعاني جنوحاً نحو أسلوب المعلمين ، وهنا يختفي الامتاع ويبقى الوضوح وحده ، وذلك في مثل بيت عبد القيس بن خفاف الذي يقول فيه :

صَحَوْتُ وَزَايلَنِي بَاطِلِي لَعَمْرُ أَبِيكَ زِيالاً طَويلاَ

فقد عرض معناه بقوله : « يقول : وبقاء أبيك لقد أفقت من سكر البطالة وفارقني ما كنت أتعاطاه من الصبا والجهالة فراقاً ممتداً ، لا ينقطع بمعاودة تعرض دونه أو بمواصلة تبطله وتزيله » ، وهذا بلا شك أسلوب أدبي ، ولكنه شفعه بأسلوب المعلمين فقال : « فان قيل كيف وصف الزيال بالطول ؟ قلت : الطول في الحقيقة لوقت الزيال لا له لكنه وصفه به على طريق التوسع »[2] .

هذا الجنوح نحو أسلوب المعلمين ذي المنحى العلمي عند المرزوقي هو نتيجة لتأثير شخصيّة المعلم فيه ، وهي شخصية قد تطغى على نوازعه الأدبيّة فيكون لها هذا الأثر في الأسلوب ، غير أن هذا وان كان يقع منه أحياناً ، فان أسلوبه في عرض

---

(١) المصدر نفسه ق ٢ : ٧٠٧ .

(٢) المصدر نفسه ق ٢ : ٧٤٤ .

المعنى يبقى في غلبته أدبياً مشرقاً يحقق غايته في الافهام والامتاع معاً .

٧ ـ البلاغة والنقد :

كانت للمرزوقي عناية بالبلاغة في شرحه ، كما كانت له وقفات نقديّة تدلّ على إدراكه قيمة هذين العنصرين في عمليّة شرح الشعر وهو ـ كما رأيناه في مقدمة شرحه ـ مدركٌ لعمود الشعر، ملمّ بالأبواب التي يقوم عليها، حاذق بعيار كلّ باب منها . واذا كانت هذه حاله فمن الطبيعي أن نجد له لمحات طيبة في علم البلاغة أثناء عمله في الشرح ، تشمل علومها الثلاثة : البيان والمعاني والبديع ، كما نجد له وقفات في النقد وفق هذه النظريّة التي طرحها في عمود الشعر .

أ ـ البلاغة :

ففي مجال البلاغة نجده وهو يشرح النص يشير إلى ألوان تتصل بعلم البيان وأخرى تتصل بعلم المعاني ، وثالثة تتصل بعلم البديع ، ففي البيان كانت له وقفات عند التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز ، فمن أمثلة وقوفه في التشبيه ما جاء عنه في بيت محمد بن بشير الوارد في باب الغزل وهو :

بَيْضَـاءُ آنِسَـةُ الحَـدِيثِ كَأَنَّها قَمَـر تَوَسَّـطَ جِنْـحَ لَيْلٍ مُبْرِدِ

قال : « شبهها بقمر توسط السماء فيما جنح من ليل كان فيه غيم وبرد » ثم بيّن جمال الصورة التي رمي اليها الشاعر من تشبيهه فقال : « والقمر اذا خرج من حلك الغمام في ليلة مطيرة كان أضوأ وأحسن »[(١)] .

وفي بيت عمرو بن معدي كرب الذي يقول فيه :

ولمّا رَأَيْتُ الخَيْلَ زُوراً كَأَنَهَا جَدَاولُ زَرْعٍ خُلّيَتْ فاسْبَطرَّتِ

كانت له وقفتان تخص التشبيه إحداهما في قوله : « ولما رأيت الخيل زوراً» وقد قال فيها : « وصف الخيل في انحرافها بزور والزور جمع أزور ، وهو المعوج الزّور ، وهذا من التشبيه الحسن الصائب » « أما الأخرى فقد كانت في قوله :

---

(١) نفسه ق ٣ : ١٣٥٦ .

« كأنها جداول زرع » قال : « والتشبيه وقع على جري الماء في الأنهار لا على الأنهار ، كأنه شبّه امتداد الخيل في انحرافها عن الطعن بامتداد الماء في الأنهار وهو يطرد ملتوياً ومضطرباً »(١) .

أما في بيت ابن زيّابة الذي يقول فيه :

نُبِّئْتُ عَمْراً غَارِزاً رَأْسَهُ فِي سِنَـةٍ يُوعِـدُ أَخْوَالَهُ

فقد كانت وقفته فيه تدل على نظرة متفهمة لدقة التعبير عند الشاعر في قوله : « في سنة » قال المرزوقي : « أراد بالسنة الغفلة ، وهو ما يحدث في أوائل النوم في العين ولم يستحكم بعد ، وهذا من أحسن التشبيه وأبلغ التعريض ، والايعاد اذا كان على ما وصف حقيق بالتهجين »(٢) .

وفي بيت ربيعة بن مقروم الذي يقول فيه :

وَأَلَـدَّ ذِي حَنَـقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِه فِي مِرْجَلِ

كانت أول خطرة شعت في ذهن المرزوقي حين قراءته هو التشبيه الذي اشتمل عليه ، وفيه تصوير شيء معنوي بشيء محسوس فبدأ به شرحه فقال : « أخرج التشبيه ما لا يدرك من العداوة بالحس الى ما يدرك من غليان القدر حتى تجلّى فصار كالمشاهد »(٣) ، ثم مضى يشرح ألفاظ البيت ويقرر معناه .

إن وقفات المرزوقي في التشبيه متعددة لأنه أهم وسيلة أداء استعان بها الجاهليون والاسلاميون في تصوير معانيهم ، ولأن اختيار الحماسة قد ضم الكثير من القطع التي قالها هؤلاء الشعراء كثر عند المرزوقي الوقوف عند التشبيه والاشارة اليه أثناء عمله في الشرح .

أما الاستعارة فنجد له فيها وقفات كذلك منها وقفته في بيت عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي الذي يروى للسموءل بن عادياء وهو :

---

(١) مفسه ق ١ : ١٥٧ وما يليها .

(٢) نفسه ق ١ : ١٤٢ .

(٣) نفسه ق ١ : ٦٣ .

إذَا المَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ   فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

فقد قال فيه : « ذكر الرداء هاهنا مستعار ، وقد قيل ردّاه الله رداء عمله فجعله كناية عن مكافأة العبد بما يعمله أو تشهيره به ، كما جعله هذا الشاعر كناية عن الفعل نفسه وتحقيقه فأي عمله بعد تجنب اللؤم كان حسناً »[1] .

ومثله بيت تأبط شراً الذي يقول فيه :

فَخَالطَ سَهْلَ الأَرْضِ لَمْ يَكْدَحِ الصَّفَا   بِهِ كَدْحَةً والمَوْتُ خَزْيَانُ يَنْظُرُ

فقد وقف المرزوقي عند عبارة « والموت خزيان ينظر » قال : وهذا من فصيح الكلام ومن الاستعارات المليحة وقد حمل قول الله ـ عز وجل ـ « وأنتم حينئذ تنظرون »[2] على أن يكون المعنى تتحيرون . ولم يكتف بذلك بل مضى يذكر النظائر فقال : « وقد سلك أبو تمام مسلك هذه الاستعارة فقال : إنْ تَنْفَلِتْ وأنوفُ المَوْتِ رَاغِمَةٌ[3] » .

وكذلك وقف يبيّن روعة الصورة البيانية في بيت بلعاء بن قيس الكناني الذي يقول فيه :

وَفَارِسٍ في غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ   إذَا تَأَلَّى عَلَى مَكْرُوهَةٍ صَدَقَا

قال : « جعل للموت غماراً على التشبيه بالماء ، ثم جعله منغمساً فيه فحسنت الاستعارة جداً »[4] .

أما الكناية فهي أيضاً من الألوان البيانية التي نجد لها صدى في شرح المرزوقي ، إذ نجد له فيها إشارات متنوعة منها ما ورد في بيت عمرو بن الإطنابة الذي يقول فيه :

---

(١) نفسه ق ١ : ١١ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية ٨٤ .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٨٢ ، وعجز بيت أبي تمام :
فَاذْهَبْ فَأَنْتَ طَلِيقُ الرَّكْضِ يَا لُبَدُ

(٤) المصدر عينه ق ١ : ٥٩ .

وَالقَاتِلِـينَ لَدَى الوَغَـى أَقْرَانَهُمْ إِنَّ المَنِيَّةَ مِنْ وَرَاءِ الوَائِلِ

قال : « أصل الوغى هو الجلبة والصوت ثم كثر استعماله فصار كناية عن الحرب »[1] .

كما نجد له إشارة أخرى في بيت حسان بن نشبة وهو :

وَكَانُـوا كَأَنْفِ اللَّيْثِ لاَ شَمَّ مَرْغَماً وَلاَ نَالَ قَطُّ الصَّيْدَ حَتَّـى تَعَفَّرَا

فقد قال فيه : « وحسن في الكناية عن الإباء والتصون عن الدناءة والمذلة قوله : « لا شمّ مرغماً » بعد ذكر الأنف »[2] .

واشارة ثالثة من بيت القتّال الكلابي الذي يقول فيه :

فَلَمَّـا رَأَيْتُ أَنَّـهُ غَيْـرُ مُنْتَهٍ أَمَلْـتُ لَهُ كَفِّـي بِلَـدْنٍ مُقَوَّمِ

قال : « وقوله : أملت له كفي بلدن من فصيح الكلام وبليغ الكتابات»[3] فكأنه عنى بذلك أن الشاعر أراد أنه طعنه وقتله فكنى عن الطعن والقتل بامالة الرمح نحوه .

واشارة رابعة في بيت ابن زيّابة :

نُبِّئْتُ عَمْـراً غَارِزاً رَأْسَهُ فِي سِنَـةٍ يُوعِـدُ أَخْوَالَهُ

قال المرزوقي موضحاً تعبير « غارزاً رأسه » وما فيه من كناية « جعل غرز الرأس كناية عن الجهل والذهاب عما عليه وله من التحفظ »[4] .

وبجانب الكناية نجد أيضاً اشارات له في المجاز تدل على نظرته لهذا اللون البياني ومدى تأثيره في صناعة الكلام البليغ ، ومن إشاراته فيه ما جاء عنه في بيت حجر بن خالد الذي يقول فيه :

---

(١) نفسه ق ٤ : ١٦٣٤ .

(٢) نفسه ق ١ : ٣٣٩ .

(٣) نفسه ق ١ : ٢٠٢ .

(٤) المصدر نفسه ق ١ : ٤٢ .

وَجدْنَــا أَبَانَــا حلَّ في المَجْــدِ بَيْتُهُ وَأَعْيَا رِجَــالاً آخَــرِينَ مَطَالِعُهْ

فقد وقف المرزوقي عند عبارة « حلّ في المجد بيته » قال : « البيت لا يحل ولكنه يحل فيه ، ولكنه رمى بالكلام على السعة والمجاز لأن المعنى لا يختل ، ويقولون فلان عالي المكان لأنه اذا علا مكانه علا هو »[١] .

ومن ذلك أيضاً إشارته التي وردت في بيت الحصين بن الحمام وهو :

ولَمَّا رَأَيْتُ الــوُدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي عَمَــدْتُ إلى الأَمْــرِ الَّــذي كَانَ أَحزَمَا

قال : جعل الحزم للأمر كما جعـل له العـزم في قولـه تعـالى : « فـاذا عزم الأمر »[٢] فكل ذلك مجاز واتساع[٣] .

هذا فيما يتصل بعلم البيان ، أما علم المعاني فان عمله فيه كان واضحاً في مواضع متعددة من شرحه ، وبخاصة في كشفه لأساليب الشعـراء وبيـان وسـائـل التعبير التي استخدموها لأداء المعاني ، وأظهر ما يكون ذلك وقفاته المتكررة عند خروج الكلام عن مقتضى الظاهر في مجالي الانشاء والخبر ، ففي مجال الانشاء نجده يقف عند وسائل التعبير في الاستفهام والنهـي والأمـر ، ويدل على خروجهـا عن مقتضى الظاهر وفق الأغراض التي رمي اليها الشعراء . ومن أمثلة ذلك قول عويف القوافي لما حبس الحجاج بن يوسف عيينة بن أسماء قال :

أَمْ مَنْ يهِــينُ لَنَــا كَرَائِــمَ مَالهِ وَلَنَــا اِذَا عُدْنَــا اِلَيهِ مَعَادُ

نظر المرزوقي إلى ما فيه من استفهام فقال : « والاستفهام دخل في الكلام على طريق التوجع والتلهف لما جرى على عيينة المذكور »[٤] .

ومثله قول موسى بن جابر الحنفي الذي جاء فيه :

---

(١) نفسه ق ٢ : ٥١٢ .
(٢) سورة محمد ، الآية ٢١ .
(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٣٩٢ .
(٤) نفسه ق ١ : ٢٦٤ .

وَمَـا خَـيرُ مَالٍ لاَ يَقِـي الـذَّمَّ رَبَّهُ   وَنَفْسِ امـرىءٍ في حَقِّهَـا لاَ يهِينُها

قال : « لفظه لفظ الاستفهـام والمعنـى معنـى الانـكار الـذي يجـري مجـرى النفي »[1] .

وفي خروج النهي عن مقتضى الظاهر نجد وقفته في بيت قطري بن الفجاءة الذي يقول فيه :

لاَ يَرْكَنَنْ أَحَـدٌ إلى الاِحْجَامِ   يَوْمَ الوَغَـى مُتَخَوِّفـاً لِحِمامِ

قال المرزوقي موضحاً إياه : « قصـده الى البعـث والتحضيض على التغـرير بالنفس والتعريض ألا ترى أنه يحث بهذا الكلام على ترك الفكر في العواقب ورفض التحرز خوفاً من المعاطب »[2] .

وفي أسلوب الأمر وخروجه عن مقتضى الظاهر نجد له وقفات منها وقفته في بيت الفضل بن العباس وهو :

مَهْلاً بَنِي عَمِّـنَـا عَنْ نَحْتِ أَثْلَتِـنَـا   سِيـرُوا رُوَيْـداً كَمَـا كُنْتُمْ تَسِيـرونَـا

فقد قال فيه مبيناً الغرض منه « هذا الكلام فيه تهكم »[3] .

أما في مجال الخبر فاننا نجد له وقفات تكاد تشمل سائر أجزاء شرحه ، وذلك لأنه راعى فيه بيان نوع القول ومقصد الشعراء فيه ، ففي بيت أبي الغول الطهوي :

فَدَتْ نَفْسِي وَمَـا مَلَـكَتْ يَمِينِـي   فَوَارِسَ صَدَّقُـوا فِيهِـمْ ظُنُونِي

قال المرزوقي : « لفظه لفظ الخبر والمعنـى الدعـاء »[4] كأنـه أراد بذلك أن الشاعر رمى بكلامه هذا الدعاء لهم بالبقاء وان كان في بقائهم ذهاب نفسه وماله .

---

(١) عينه ق ١ : ٣٧٢ .

(٢) عينه ق ١ : ١٣٦ .

(٣) نفسه ق ١ : ٢٢٤ .

(٤) نفسه ق ١ : ٣٩ .

ومثل ذلك رؤيته التي سجلها عند بيت الحماسة المنسوب لآخر وهو :

وَإِنَّ الحَزَامَـةَ أَنْ تَصرِفُوا لِقَـوْمٍ سِوَانَـا صُدُورَ الأَسَلْ

فقد تمثلت هذه الرؤية في قوله : « هذا الكلام تحذير وانذار يقول : وأبلغاه أن الحزم في صرف أعنة خيلكم إلى غيرنا فإنكم لا تقـومون لنـا إذا هيجتمونـا والـرأي في أن تعدلـوا بصدور رمـاحكم إلى طعن من سوانـا فإنكم لا تكملون لدفاعنا »[1].

ومثله وقفته في بيت الفرار السلمي في بيان غرضه من أسلوب الخبر الذي بنى عليه بيته الذي يقول فيه :

وَكَتِيبَـةٍ لَبَّسْتُهَـا بِكَتِيبَةٍ حَتَّـى إِذَا التَبَسَـتْ نَفَضْـتُ لَهَـا يَدي

بينّ المرزوقي غرضه فيه فقال : « يتبجّح بأنـه مهياج شر وأذى وجمّـاع بـين كتائب شتى تتقاتل من دونه ، ثم يخرج هو من بينهم غير مبال بما يجرون إليه »[2].

وفي بيت جابر بن ثعلب الطائي الذي يقول فيه :

كَأَنَّ الفَتَـى لَمْ يَعْـرَ يَوْمَـاً إِذَا اكْتَسَى وَلَـمْ يَكُ صُعْلُـوكاً إِذَا مَا تَمَوَّلاَ

وقف المرزوقي يبيّن الغرض فيه يقول : « هذا الـكلام بعـث على التجـوال وتحضيض في اكتساب المال فيقول : اذا اقتنيت بعد فقرك ، واكتسيت بعد عريك فكأنّك ما كنت قط فقيراً ولا عرياناً »[3].

وبجانب وقفاته المتكررة عند خروج الكلام انشاء أو خبراً عن مقتضى الظاهر كانت له وقفات أيضاً عند الايجاز والاطناب وبيان موطن البلاغة فيهما ، ففي الايجاز مثلاً وقف في بيت حسان بن نشبة الذي يقول فيه :

سَمَـوْا نَحْـوَ قِيْلِ القَـوْمِ يَبتدِرُونَهُ بِأَسْيَافِهِـمْ حَتَّـى هَوَى فَتَقَطَّرَا

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ٢٥٢ .

(٢) نفسه ق ١ : ١٩١ .

(٣) نفسه ق ١ : ٣٠٥ .

قال المرزوقي مبيناً ما فيه من ايجاز بالحذف : « في هذا الكلام اختصار كأنه قال : ابتدروه بالسيوف وضربوه حتى سقط ، فحذف ضربوه »[١].

أما الاطناب فان عمله فيه أكثر اتساعاً من عمله في الايجاز ، ومن أمثلته وقوفه في بيت أبي صخر الهذلي الذي جاء في رائيته في الغزل وهو :

أَمَا وَالَّـذِي أَبْـكَى وَأَضْحَـكَ وَالَّذِي　　أَمَـاتَ وَأَحيا وَالَّـذِي أَمْـرُهُ الأَمْرُ

فقد قال فيه : « تكريره للذي ليس بتكثير للأقسام لأن اليمين يمين واحدة بدلالة أن لها جواباً واحداً ، ولو كانت أيماناً مختلفة لوجب أن يكون لها أجوبة مختلفة ، وفائدة التكرير التفخيم والتهويل » ولم يكتف بذلك في بيان غرض الاطناب بل مضى فأتى بنظير من القرآن الكريم قال : « وما في القرآن الكريم من قوله : « والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى »[٢] مثله ، ثم رجع الى بيان قيمة البيت فنياً فقال : « على أن ما في البيت من اختلاف الأفعال الداخلة في الصلات جعل الكلام أحسن والتفخيم أبلغ »[٣].

ومثل ذلك أيضاً قول شهل بن شيبان :

مَشَيْنَـا　مِشْيَةَ　اللَّيْثِ　غَدَا　واللَّيْثُ　غَضْبَانُ

قال فيه : « كرر الليث ولم يأت بضميره تفخيماً وتهويلاً » ثم فصّل الحديث فقال : وهم (أي العرب) يفعلون ذلك في أسماء الأجناس والأعلام قال عدي :

لاَ أَرى المَوْتَ يَسْبِـقُ المَوْتَ شَيءُ　　نَغَّصَ المَوْت ذَا الغنـي والفَقِيرَا[٤]

ومثلما جال المرزوقي في علم البيان وألوانه وعلم المعاني وألوانه كانت له جولة في علم البديع ، غير أن جولته فيه كانت محدودة بالقياس إلى عمله في البيان والمعاني ، فنحن بتتبعنا لشرحه لم نجد له سوى اشارات تتصل بمحسنات الكلام

---

(١) نفسه ق ١ : ٣٣٩ .
(٢) سورة الليل ، الآيات ١ ـ ٤ .
(٣) نفسه ق ٣ : ١٢٣١ .
(٤) نفسه ق ١ : ٣٥ .

من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، بل إننا لاحظنا أن جملة من هذه المحسنات عبرت بين شرحه دون أن يقف عندها ، وبخاصة فيما يتصل بالمطابقة . ولعله ترك الكلام فيها لوضوحها ، او لعله تركها للقارىء ليقف عليها دون دلالة منه عليها . ومهما كان الأمر فان تلك الاشارات التي صدرت عنه في تحسين الكلام لفظياً ومعنوياً تجعلنا ندرك بأن المرزوقي كان مدركاً لقيمة علم البديع في فن الشعر ، واذا قلّ عمله فيه أثناء عملية الشرح فان ذلك راجع إلى أن كثيراً من ألوان البديع التي حددها البلاغيون لم تبرز إلا عند شعراء الصنعة الفنيّة أمثال أبي تمام صاحب الاختيار ، ومن قبله بشار ومسلم بن الوليد أو شعراء التصنع الذين ظهروا في العصور التي تلت العصر العباسي الأول ، وهؤلاء لم يكن لهم في اختيار الحماسة نصيب ، ونحن إذا أردنا أن نعرف قيمة عمل المرزوقي في علم البديع لا نطلب ذلك في شرحه للحماسة وانما نطلبه في أعماله الأخرى التي قامت في أشعار المحدثين مثل عمله المسمى بشرح المشكل من شعر أبي تمام[1] .

على أنّ هذا لا يمنع من أن ننظر فيما تناوله من ألوان البديع في شرحه حتى نقف على عمله فيه ، الذي قلنا إنه يتمثل في بعض الاشارات الخاصة بالمحسنات المعنوية واللفظيّة ، ومن ذلك نظره إلى المطابقة في بيت بشامة النهشلي القائل :

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَنْفُسَنا ... وَلَوْ نُسَامُ بِهَا في الأَمْنِ أُغْلِينَا

فقد قال : « وفي البيت طباق بذكر الارخاص والاغلاء والروع والأمن في موضعين وهو حسن جيد »[2].

ونظره أيضاً في بيت أنيف بن حكيم النبهاني الذي يقول فيه :

إِذَا نَحْنُ سِرْنَا بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ ... تَحَرَّكَ يَقْظَانُ التُّرَابِ وَنَائِمُهْ

فقد حلل الاستعارة في قوله « يقظان التراب ونائمه » ثم قال : « وقد أحسن

---

(١) سبقت الاشارة إلى هذا الكتاب عندما ترجمنا له ، فهو من الكتب المخطوطة .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ١٠٥ .

ما شاء في الاستعارة والطباق بالنوم واليقظة »[١].

كذلك كانت له بعض الاشارات في الجناس اللفظي ، وذلك مثل وقفته التي وقفها في بيت دريد بن الصمة الذي يقول فيه واصفاً أخاه عبدالله الذي أبّنه بقصيدة منها هذا البيت :

صَبَـا مَا صَبَـا حَتَّـى عَلاَ الشَّيْبُ رَأْسَهُ   فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِـلِ ابْعَـدِ

قال : « يجوز أن صبا الأول من الصبا واللهو وصبا الثاني من الصباء بمعنى الفتاء . . . ويجوز أن يكون المعنى تعاطي الصبا ما تعاطـاه إلى أن علاه المشيب ، فيسقط التجنيس من البيت وهو يحسن به »[٢].

ومن ذلك إشارته إلى التجنيس الناقص في بيت الغزل الـذي نسـب لآخـر وهو :

شَيَّبَ أَيَّامُ الفِـرَاقِ مَفَارِقِي   وَأَنْشَـزْنَ نَفْسِي فَوْقَ حَيْثُ تَكُونُ

قال : وقوله : « أيام الفراق مفارقي » يسمى التجنيس الناقص »[٣].

ونراه في موضع آخر يهتم بتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وذلك في بيتي النابغة الجعدي وهما :

فَتَـىً كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ   عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ الأَعَادِيا
فَتَـىً كَمُلَـتْ خَيْرَاتُـهُ غَـيْرَ أَنَّهُ   جَوَادٌ فَلاَ يُبْقِـي مِنَ المَالِ بَاقِيا

قال : وقد تجلّت حاسته الفنيّة في تحليله : « واذا تأملت وجدت البيت الثاني مثل البيت الأول في أنه اتبع ثناء بثناء ، وأردف مديحاً بمديح ، فعجز كل واحد منهما يؤكد صدره ويزيده مبالغة معنى وتظاهر مبدأ ومنتهى ، ومثلهما بيت النابغة :

---

(١) نفسه ق ٢ : ٦٣٧ .

(٢) نفسه ق ٢ : ٨٢١ .

(٣) نفسه ق ٣ : ١٣٤٩ .

وَلاَ عَيْبَ فِيهِـمْ غَـيْرُ أَنَّ سيوفَهُمْ   بِهِـنَّ فُلُـولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[١]

وبجانب هذه المحسنات اللفظي منها والمعنوي نجده يشير إلى لون من ألوان نعوت المعاني وهو الالتفات الذي سماه بعض البلاغيين الاعتراض ، ولذا نجد المرزوقي يشير اليه مرة بالالتفات ومرة بالاعتراض كأنه يذهب بهذا مع ابن المعتز الذي يفصل بين الالتفات والاعتراض[٢] .

فمن اشاراته التي استخدم فيها مصطلح الالتفات ما جاء عنه في بيت الحماسة الذي نسب لآخر وهو :

أَعَانَ عَلَيَّ الدَّهْرَ اِذْ حَكَّ بَرْكَهُ   كَفَى الدَّهْرُ لَوْ وَكَّلْتَهُ بِيَ كَافِيا

قال : « ومثل هذا القول » كفى الدهر « يسمى التفاتاً »[٣] . وكذلك ما جاء عنه في بيت العديل بن الفرخ العجلي القائل :

وَضَيَّعْتُ عَمْراً والرِبَابَ وَدَارِماً   وَعَمْرَو بْنَ وَدٍ كَيْفَ أَصْبِرُ عَنْ وَدِ

فقد وقف محللاً الالتفات في عبارة « كيف أصبر عن ود » قال : « وقوله : « كيف أصبر عن ود » هو الذي يسميه النقاد والبصراء بصنعة الشعر وتمييز البديع فيه الالتفات ، كأنه لما ذكر ودّاً والخلاف عليه ، ونفض اليد مما يجمعه اياه ، وكشف الرأس بالمعاداة معه رقّ للرحم قلبه ، وضاق بالحال المتصوّرة صدره ، والتفت الى من بحضرته فقال : كيف يكون صبري على مثله »[٤].

---

(١) المصدر نفسه ق ٢ : ٩٧٠ .

(٢) الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار وعن الاخبار إلى المخاطبة ، وقال ابن رشيق : الالتفات هو الاعتراض عند قوم وسماه آخرون الاستدراك قال : والاعتراض جعله ابن المعتز باباً على حدة بعد باب الالتفات وسائر الناس يجمع بينهما . ينظر العمدة لابن رشيق ٢ : ٤٥ ، ومعجم البلاغة العربيّة لبدوي م ٢ : ٨٠٧ وما بعدها ، على أن من البلاغين من يعتبر الاعتراض في باب المعاني باعتبار أنه اطناب يجيء لفائدة . ينظر أيضاً معجم البلاغة العربيّة م ٢ : ٥٢٢ وما بعدها .

(٣) ينظر شرحه ق ١ : ٢٩٣ ـ

(٤) نفسه ق ٢ : ٧٣٥ .

وأما اشاراته الى « الاعتراض » فقد جاءت في نحو قول تأبط شراً :

هُمَا خُطَّتَا إِمَّا إِسَارٌ وَمِنَّةٌ   وَإِمَّا دَمٌ والقَتْلُ بالحُرِّ أَجْدَرُ

قال : « وقوله : والقتل بالحر أجدر يسمى اعتراضاً لوقوعه بين ما عدده من الخصال »[١]، ومثله ما جاء عنه في بيت عمرو بن معدي كرب القائل :

لَيْسَ الجَمالُ بِمِئْزَرٍ   فَاعْلَمْ وَإِنْ رُدِّيتَ بُرْدَا

فقد قال فيه : « وقوله : فاعلم اعتراض تأكد به الكلام »[٢].

ولعله كان أوضح في معالجته للاعتراض في بيت ابراهيم بن كنيف النبهاني وهو :

فَإِنْ تَكُنْ الأَيَّامُ فِينَا تَبدَّلَتْ   بِبُوْسَى وَنُعْمَى والحَوَادِثُ تَفْعَلُ

فقد فصّل فيه الحديث فقال : « وقوله : « والحوادث تفعل » يسمى اعتراضاً ، ومثل هذا من الاعتراض يزيد القصة تأكيداً ، وهو ها هنا حاصل بين الجزاء وجوابه لأن جواب إن تكن قوله : « فما ليّنت منا قناة صليبة »[٣] وحسن الكلام به جداً إذ كان تأكيداً لما يقتضيه من تحول الأحوال وتحقيقاً لما شكاه من ريب الزمان ، وبعثا على التسلي وأخذ النفس بالتأسي »[٤].

وهكذا نرى أن المرزوقي قد جال في ثنايا شرحه في علوم البلاغة الثلاثة ، غير أن أعماله فيها وان تفاوتت فانها قد دلت على قيمة ألوان هذه العلوم وما تحدثه من أثر في جمال القول الشعري ، كما أن تفاوتها يرجع الى ما أشرنا إليه سابقاً عندما تكلمنا عن منهجه أنه في جوانب البلاغة لم يكن في الدرجة التي عالج بها اللغة والنحو في شرحه ، فهو أكثر عناية باللغة والنحو من البلاغة ، وذلك بتجاوزه المتكرر لجملة من

---

(١) نفسه ق ١ : ٨١ .

(٢) نفسه ق ١ : ١٧٤ .

(٣) جاء هذا القول في البيت التالي وهو :

فَمَا لَيَّنَتْ مِنَا قَنَاةً صَلِيبَةً   وَلاَ ذَلَّلَتْنَا للَّذِي لَيْسَ يَجْمُلُ

(٤) ينظر شرحه ق ١ : ٢٥٩ .

الألوان البلاغيّة أثناء عملية الشرح ، ومع هذا الذي ذكرناه فان شرحه في البلاغة اذا ما قيس بغيره من الشروح التي وصلت الينا يعد الشرح الوحيد الذي اهتم بفنون البلاغة في عناصر الشرح .

ب ـ النقـد :

واذا تركنا جانب البلاغة واتجهنا إلى النقد وجدنا المرزوقي في شرحه ناقداً نظرياً وتطبيقياً ، فأما نقده النظري فقد ضمّنه مقدمته التى صدّر بها شرحه . وأمّا نقده التطبيقي فقد جاء في ثنايا شرحه ، ولما كنا ندرس عناصر الشرح عنده وفق المنهج الذي سار عليه ، موازنين بينه وبين غيره من الشراح ذوي المناهج الأخرى كان من المحتم علينا أن لا ندخل أنفسنا في دراسة نقده النظري الوارد في مقدمته لأنه لا يشكل عنصراً من عناصر الشرح ، وانما الذي يعنينا فقط هو نقده التطبيقي الذي يدخل في صميم عملية شرح الشعر ، غير أن تركنا لما جاء في مقدمته من نقد نظري لا ينسينا أن كثيراً من نقده التطبيقي كان مبنياً على نظريته التي طرحها في عمود الشعر مثل شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته ، والاصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، إلى غير ذلك من الأبواب التي يقوم عليها عمود الشعر .

ويمكن القول بأننا حين أفردنا المواد التي مثلت نقده التطبيقي وجدنا أنه يسير فيها وفق وجهات ثلاث : وجهة تتصل بنقد الرواية وتصويبها ، ووجهة تتصل بنقد الشعر المختار في الحماسة ، ووجهة تتصل بالموازنات والسرقات .

فأما نقده للرواية فقد تكلمنا فيه عندما عرضنا لعنصر الرواية في شرحه ، ويمكن أن نضيف هنا بعض الجوانب التي استرعت انتباهنا ونحن نفرز المواد النقديّة ، منها أنه كان يعتمد في نقده للرواية على جزالة اللفظ واستقامته وهو أحد الأبواب التي أوردها لعمود الشعر ، اذ عيار اللفظ عنده الطبع والرواية والاستعمال[1] . ولذلك نراه يقف عند بيت وضّاح بن إسماعيل القائل :

ذَرِينِي مَا أَمَّنَ بَنَاتِ نَعْشٍ مِنَ الطَّيْفِ الَّذِي يَنْتَابُ لَيْلاَ

(١) ينظر مقدمته ص ٩ .

فيقول : « وروى بعضهم : « يأتاب ليلاً » وهو يفتعل من الأوب ، وينتاب أوجه في النقد وأحسن »[1] كأنه رمى بذلك إلى أن استقامة الفعل « ينتاب » في البيت لأنه يصح مع الطبع والرواية والاستعمال . ومنها أنه كان ينظر الى لغة الشعراء وطرائقهم في النظم ويدلل بها على صحة نسبة الشعر اليهم ، وهي احدى الدعامات التي قامت عليها تصفية الشعر القديم وتنقيته من شوائب النحل والوضع التي علقت به وشكلت قضية الشك والطعن فيه . ففي قطعة الرثاء التي أولها « أصاب الغليل عبرتي فأسالها » والتي نسبها أبو تمام إلى يزيد بن عمرو الطائي أشار المرزوقي إلى أن الأثرم[2] رواها عن أبي عبيدة للنابغة الذبياني وأثبتها في ديوانه ، ولكنه عقّب على هذا بقوله : « وفي ألفاظ هذه الأبيات على ما رواه أبو تمام شاهد صدق على أنه ليزيد لا للنابغة »[3] . فكأنه بذلك يرمي الى أن لغة النابغة الشعريّة تختلف عن لغة يزيد ، وهي نظرة صائبة في مجال اضطراب رواية الشعر ونسبته إلى أكثر من شاعر[4] ، ونظرة صائبة أيضاً في مجال تصفية الشعر القديم من النحل والوضع .

ومنها أنه ينظر إلى المقاربة في التشبيه لأن عيار المقاربة عنده هو أن يقع التشبيه بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجه الشبه بلا كلفة . هذا ما نحسه منه في نقده رواية بيت لمرة بن مكحان في وصف جازر ناقة ، وقد أثبته في متنه على النحو التالي :

يُنَشْنِشُ اللَّحْمَ مِنْهَا وَهِي بَارِكَةٌ كَما تُنَشْنِشُ كَفّا قَاتِلٍ سَلَبَا

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٦٤٢ .

(٢) هو أبو الحسن علي بن المغيرة الأثرم ، سمع أبا عبيدة معمر بن المثني وأبا سعيد الأصمعي ، وروى عنه الزبير بن بكار وأبو العباس ثعلب وغيرهما . له من الكتب كتاب النوادر وغريب الحديث ، توفي سنة ٢٣٢هـ كما جاء في نزهة الألباء ومعجم الأدباء ، وفي أنباه الرواة أنه توفي سنة ٢٣٠هـ . ينظر ترجمته في نزهة الألباء ص ١٥٩ وما بعدها ، ومعجم الأدباء ١٥ : ٧٧ وما يليها ، وأنباء الرواة ٢ : ٣١٩ وما بعدها .

(٣) ينظر شرحه ق : ٩٥٧ .

(٤) ينظر في هذا بحثنا « اضطراب الروايات في الشعر القديم » مجلة الثقافة العربيّة طرابلس الغرب عدد يناير ١٩٨٢ .

ثم قال في الشرح : « ورواه بعضهم » كما تنشنش كفا قاتل سلبا » وقال : شبه نشنشته بنشنشة فاتل الحبل من السلب وهو نبات يخرج على صورة الشمع وعلى قدره فيجز ويفتل منه الحبل وبائعها ومتخذها السلاب . ثم عقب على ذلك فقال : « والرواية الأولى أجود وأكثر مشابه »[1]، فكأنه نظر الى تقارب التشبيه بين نشنشة الجازر للحم الناقة بعد نحرها ونشنشة القاتل سلب القتيل بعد قتله فهي أقرب وأوضح من نشنشة فاتل الحبال من نبات السلب إذ لا قتل فيها يقابل نحر الجازر للناقة .

وأما نقده للشعر المختار في الحماسة فقد رأيناه على ضربين ضرب بيّن فيه مواطن الجودة والجمال ، وضرب بيّن فيه مواطن الضعف ، فأما الضرب الأول فقد كان يراعي فيه حسن المعنى وسلامة اللفظ وتوازنه ، وذلك مثل عمله في بيت بشامة النهشلي الذي يقول فيه :

بِيضٌ مَفَارِقُنَا تغلِي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا

فقد قال فيه بعد أن شرحه وبيّن ما فيه من معان : « وفي البيت مع حسن المعاني التي بينتها توازن في اللفظ مستقيم وسلامة مما يجلب عليه التهجين »[2].

ومثل ذلك ما جاء عنه في بيت عمرو بن معدي كرب وهو :

وَلَقَدْ أَجْمَعُ رِجْلَيَّ بهَا حَذَرَ المَوْتِ وَإِنِّي لَفَرُورْ

قال : «وأجمع رجليّ أي أستحث فرسي وهو من فصيح الكلام ، ومن العبارات التي تصور المعنى ، ومن لفظه وبابه قولهم : جمعت يدي على كذا ، ورفعت يدي عن كذا»[3].

وربما نظر إلى شرف المعنى وحسنه مثل قوله في بيت أبي الأبيض العبسي في فرسه :

---

(١) ينظر شرحه ق ٤ : ١٥٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ١٠٧ .

(٣) نفسه ق ١ : ١٨٢ .

أَقِيهِ بِنَفْسِي فِي الحُـرُوبِ وأَتَّقِي   بِهَـادِيه إِنِّـي لِلْخَلِيلِ وَدُودُ

قال فيه : « هذا معنى شريف حسن »[(١)] ولم يبين وجه شرفه وحسنه ، ولعله نظر إلى الصورة التي رسمها هذا الشاعر لعلاقته بفرسه في الحرب ومدى ما يبدله كل واحد منهما نحو الآخر ، كما نظر الى هذا الاعتراض أو الالتفات المتمثل في قوله : « إني للخليل ودود » وهو تعبير رائع في معناه بالنظر الى حديث الفرس السابق له .

أما الضرب الثاني الذي كان يبين فيه مواطن ضعف الشعر ، فقد رأيناه أيضاً يقيم نقده فيه على المعنى أحياناً وعلى سلامة اللغة أحياناً أخرى ، ومن أمثلة نقده للمعنى ما قاله في بيت ابن زيّابة التّيمي الذي يقول فيه :

والـدِّرْعُ لاَ أَبْغـي بِهَـا ثَرْوَةً   كُلُّ امْـرِىءٍ مُسْتَـوْدَعٌ مَالَهُ

قال : « لولا أن قصده في التمدح إلى التعريض بالمخبر عنه لكان لا معنى لهذا الكلام . ألا ترى إلى قوله : « والدرع لا أبغي بها ثروة » وقد فسر على أنه يجوز أن يكون المراد : لا اقتني الدرع لكي أتجر فيها وأتمول ، وترك التجارة في الأسلحة ليس فيه كبير تمدح »[(٢)] .

أما نظره إلى سلامة اللغة واستعمالها الاستعمال الفصيح لما صحّ من القياس ، فقد تردد في مواضع مختلفة من شرحه ، ومن ذلك وقفته في بيت عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي المنسوب إلى السموءل وهو :

وَإِنَّـا لَقَـوْمٌ مَا نَرَى المَوْتَ سُبَّةً   إِذَا مَا رَأَتْـهُ عَامِـرٌ وَسَلُولُ

قال منتقداً سلامة التركيب فيه : « كان وجه الكلام أن يقول : « ما يرون القتل سبة » حتى يرجع الضمير من صفة القوم اليه ولا تعرى منه ، لكنه لما علم أن المراد بالقوم هم قال : « ما نرى » ثم أضاف ، وقد جاء في الصلة مثل هذا وهو فيه أفظع قال :

---

(١) نفسه ق ١ : ٤٦٩ .

(٢) المصدر عينه ق ١ : ١٤٤ .

أنَا الَّـذي سَـمَّتنِ أُمِّــي حَيْدَرَه[1]

واستشهد على ضعف التركيب بما ورد عن أبي عثمان المازني فقد قال : « لولا صحة وروده وتكرره لرددته »[2] .

ومثل هذا أيضاً نقده بيت عروة بن الورد الذي يقول فيه :

لَحَـى اللهُ صُعْلُـوكاً إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ   مُصَـافي المُشَـاشِ آلِفـاً كُلَّ مَجْزَرِ

فقد عاب عليه إضافة مصافي إلى المشاش ، ووصفها بأنها ضعيفة لأن المشاش أشير به الجنس ، ولا يحصل التخصيص بالاضافة اليه ، وعلى هذا قولهم : قيد الأوابد ودرك الطريدة . كما عاب عليه عدم تحريك الياء من مصافي بالفتح قال : « وكان يجب أن يحرك الياء من مصافي بالفتح فسكنه لأن منهم من يجري الفتحة في مثله من المعتل مجرى سائر الحركات فلا يثبتها »[3] .

على أن النقد البارز في شرح المرزوقي هو النقد المتصل بالموازنات والسرقات ، فقد سجل لنا كثيراً من المفاضلات التي كان يجريها بين الشعراء في معانيهم وصناعتهم الفنيّة ، متخذاً من أبيات الحماسة التي يشرحها محوراً ينطلق منه الى هذا النوع من النقد ، فهو تارة يذكر لنا أقوال الشعراء المشتركة في معنى واحد أو صنعة فنيّة واحدة ، وتارة يفاضل بين أقوالهم ويبينّ الجيد منها ، وتارة ثالثة يبيّن لنا ما أخذه المتأخرون منهم من معاني المتقدمين .

ففي بيت سعد بن ناشب الذي يقول فيه :

فَإِنْ تَعْذُلِينِـي تَعْـذُلِي بِي مُرَزَّأً   كَرِيمَ نَثَـا الاِعْسَـارِ مُشْتَـرَكَ اليُسرْ

وقف المرزوقي عند معنى قوله : « كريم نثا الإعسار مشترك اليسر » ونظر إلى اشتراك الشعراء في إيراد معناه فقال : « وقد أكثر الشعراء في هذا المعنى ، فمن ذلك

---

(١) العبارة لعلي بن أبي طالب قالها في رجز له . ينظر اللسان مادة « حدر » .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٤٢١ .

قول الشمردل [١] :

وَصُــولٌ إِذَا استَغْنَــى وَإِنْ كَانَ مُقْتِراً ... مِنَ المالِ لَمْ تُحْفِ الصَّــديقَ مَسَائِلُهْ

وقول المرار [٢] :

إِذَا افْتَقَــرَ المَرَّارُ لَمْ يُرَ فَقْرُهُ ... وَإِنْ أَيْسَــرَ المَرَّارُ أَيْسَرَ صَاحِبُهْ

وأحسن من الجميع قول الآخر :

إِذَا افْتَقَــرُوا عَضُّــوا عَلَى الفَقْــرِ حِسْبَةً ... وَإِنْ أَيْسَرُوا عَادُوا سِرَاعَــاً إِلى الفَقْرِ [٣]

هذا من حيث الاشتراك في المعاني ، أما الاشتراك في الصنعة الفنية وطريقة نظم الشعراء فمن أمثلته وقفته في بيت البعيث بن حريث الذي جاء في باب الغزل وهو :

مَعَــاذَ الالَــه أَنْ تَكُونَ كَظَبْيَةٍ ... وَلاَ دُمْيَةٍ وَلاَ عَقِيلَــةِ رَبْرَبِ

وقف المرزوقي عند رسم الشاعر صورة لحسن محبوبته ، فنظر إلى طريقته في رسم هذه الصورة قال : كأنه أنف وصار يربأ بصديقته أن تكون في الحسن بحيث تشبه بالظبي أو الظبية أو بالصورة المنقوشة أو بكريمة بقر الوحش « وهــذه طريقــة تختلف عن طريقة الشعراء الذين درجوا على تشبيه المحبوبة بالظبية أو الدمية أو البقرة من الوحش ، ولذلك نظر الى نهجها عند شعراء آخرين فقال : » وقــد سلك من المتقدمين امرؤ القيس هذه الطريقة فقال :

كَأَنَّ دُمَــى سَقْفٍ عَلَى ظَهْــرِ مَرْمَرٍ ... كَسَــا مُزْبِــدَ السَّاجُــوم وَشْياً مُصوَّرا

غَرَائِــرُ في كِنٍّ وَصَــوْنٍ وَنَعْمَةٍ ... يحلَّيْنَ يَاقُوتــاً وَدُرّاً مُفَقَّرَا [٤]

---

(١) هو الشمردل بن شريك بن عبد الملك ، ينتهي نسبه إلى بني يربوع ، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كان في أيام جرير والفرزدق . ترجمتـه في الشعـر والشعـراء ٢ : ٥٩٣ ، والأغاني ١٢ : ١١٢ وما بعدها والمؤتلف ص ١٣٩ .

(٢) من شعراء الحماسة ، له ترجمة في الكتاب الثاني .

(٣) ينظر الشرح ق ٢ : ٦٦٦ .

(٤) رواية الديوان « وشذرا مفقراً » أي الذهب المصنوع على هيئة فقار الجرادة .

فشبه الدمى بالنساء لا النساء بالدمى ، ولم يكتف المرزوقي بهذا ، بل ذهب إلى بيان هذه الطريقة عند أبي تمام فقال : « ومما يستحسن من هذه الطريقة قول أبي تمام :

كَأَنَّمَا جَادَ مَغْنَاهُ فَغَيَّرَهُ ... دُمُوعُنَا يَوْمَ بَانُوا وَهِيَ تَنْهَمِلُ

قال : لأنه شبه الأمطار المغيّرة لرسوم الديار بدموع العشاق من أثر الأحباب يوم الفراق »[1].

وبجانب النظر إلى اشتراك الشعراء في المعاني وطريقة النظم نظر المرزوقي إلى جانب المفاضلة بين الشعراء ذوي الاشتراك في المعنى الواحد ، فكان يوازن ويبيّن الفاضل من المفضول فيها . وهذا أيضاً كثير في شرحه ، ومن أمثلته ما جاء عنه في بيت الحارث بن هشام المخزومي من كلمته التي قالها يوم بدر حين فرّ من الحرب قال :

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتالَهُمْ ... حَتَّى عَلَوا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

قال المرزوقي : ومثله قول المهلهل :

لَمْ أَرِمْ حَوْمَةَ الكَتِيبَةِ حَتَّى ... حُذِيَ الوَرْدُ مِنْ دُمِيٍّ نِعَالاَ

ثم فاضل بين البيتين فقال : « وهذا قاصر عن درجة ما تقدم لأنه يعتذر مما آثره من الهرب في وقته ، وذاك أورده مورد المتبجّح ، وأنه خلقه ومذهبه لعلمه بمصادر الحروب ومواردها »[2].

وفي بيت قيس بن الخطيم الأوسي الذي يقول فيه :

إِذَا مَا شَرِبْتُ أَرْبَعاً خَطَّ مِئْزَرِي ... وأَتْبَعْتُ دَلْوِي في السَّمَاحِ رِشَاءَهَا

وقف المرزوقي فيه ، ونظر إلى قول عنترة وعمرو بن كلثوم في طويلتيهما فقال :

---

(١) ينظر الشرح ق ١ : ٣٧٨ .

(٢) المصدر نفسه ق ١ : ١٨٩ .

وهذا أجود من قول عنترة ، وان كان مفضّلاً عند كثير من الناس على قول عمرو بن كلثوم ، وقول عنترة :

وَإِذَا انْتَشَيْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدىً وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

وبيت عمرو :

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيهَا إِذَا مَا المَاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا

ثم بين لم فضّل بيت قيس على قوليهما فقال : لأن هذا (يعني عمراً) قال : إنّا نتسخّى إذا شربنا الخمر ممزوجة ، وما قاله عنترة في بيتين أشار إليه قيس في مصراع»(١) .

وشغلت السرقات وما أخذه المتأخرون من معاني المتقدمين حيزاً ليس بالضئيل في شرح المرزوقي ، ذلك لأنه كما كان ينظر إلى اشتراك الشعراء في معانيهم وطرائق أدائها كان ينظر إلى أخذ الشعراء من بعضهم بعضاً ، ففي بيت جرير الذي قاله في رثاء قيس بن ضرار :

وَحُقَّ لِقَيْسٍ أَنْ يُبَاحَ لَهُ الحِمَى وَأَنْ تُعْقَرَ الوَجْنَاءُ إِنْ خَفَّ زَادُهَا

قال المرزوقي : « أي حق للجزع به أن يبلغ من القلب حداً لم يبلغ منه شيء » ثم مضى مستعرضاً هذا المعنى لدى الشعراء فقال مشيراً إليهم : « وقد أخرجوا هذا المعنى في معارض لأنه معنى صحيح حكيم شريف ، فقال كثير في الحب يصف امرأة :

أَبَاحَتْ حِمىً لَمْ يَرْعَهُ النَّاسُ قَبْلَهَا وَحَلَّتْ تِلاعاً لَمْ تَكُنْ قَبْلُ حُلَّتِ

يريد بلغت من القلب هذا المبلغ ، وأخذه منه الصمة بن عبدالله القشيري فقال :

---

(١) نفسه ق ١ : ١٨٧ـ ١٨٨ .
(٢) نفسه ق ٣ : ١١١٠ .

فَحلَّــتْ مَحَــلاً لَمْ يكُنْ حُلَّ قَبْلَهَا   وَهَانَــتْ مَرَاقِيهــا لِرَيَّا وَذلَّتِ

وأخذه أبو نواس فقال :

مُبَاحَــةٌ سَاحَــةُ القُلُــوبِ لَهُ   يرْتَــعُ فِيهَــا أَطَــايِبَ الثَّمَرِ

وأخرجه على وجه آخر فقال ينفي :

بِصَحْــنِ خَدٍ لَمْ يَغِضْ مَاؤُهُ   وَلَــمْ تَخُضْــهُ أَعْــيُنُ النَّاسِ

ولا شك أن مثل هذا العمل وأشباهه في شرح المرزوقي كانت وراء أعمال رجال عنوا بالسرقات وما أخذه المتأخرون من المتقدمين ، وهي قضيّة كان لها صدى في حركة النقد العربي وبخاصة في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه المرزوقي وشهد آخره[1] ، فالمرزوقي مثلما رأيناه يفيد من التراث الموروث من العلماء في مجالي اللغة والنحو نراه يفيد هنا من التراث النقدي الذي خلّفه السابقون أو المعاصرون وربما كان هذا وراء اهتمام المرزوقي بأبي تمام في جانب الموازنات والسرقات التي عالجها في شرحه ، فقد كان لأبي تمام حضور ملحوظ في هذا الجانب من نقده ، ومعلوم أن أبا تمام كان شغل الكثيرين من النقاد في زمن المرزوقي وقبله ، بل إن المرزوقي نفسه قد اهتم به اهتماماً كبيراً بدلالة ما أشرنا اليه سابقاً أنه شرح المشكل من شعره وألف كتاباً في الرد على من انتقصوه ، ولعل المرزوقي بجانب تأثره بحركة النقد في عصره قد هدف من اهتمامه بأبي تمام في شرحه إلى الربط بين الاختيارات المشروحة وصاحبها لا من خلال ما اختاره فحسب بل من خلال شعره أيضاً ، ومن أمثلة ذلك ما صدر عنه في بيتين من باب الحماسة هما :

اِنْ يَحْسِدُونِــي فَإِنِّــي غَــيْرُ لاَئِمِهِمْ   قَبْلي مِنَ النَّاس أَهْلُ الفضلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لي وَلَهُــمْ مَابِــي وَمَــا بِهِمِ   وَمَــاتَ أَكْثَرُنَــا غَيْظَــاً بِمَــا يَجِدُ

قال المرزوقي : « وحدثني أبو عبدالله حمزة بن الحسن[2] قال : سمعت أبا

---

(١) ينظر في هذا كتابا « النقد المنهجي عند العرب في القرن الرابع للدكتور محمد مندور ، وتاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري » لأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام .

(٢) سبقت ترجمته فيما مضى .

الحسن علي بن مهدي الكسروي[1] يقول : أنا قد تتبعت من دواوين الشعراء قديمهم ومحدثهم فوجدت أبا تمام الطائي متفرداً بمعنى قوله :

وَإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اَلتخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ يَزَلْ لِلْحَاسِدِ النُّعْمَى عَلَى المَحْسُود

غير مسبوق إليه « فقال المرزوقي معقباً على هذا القول : « وعندي أنه أخذه من فحوى هذين البيتين وان كان زاد عليه »[2] .

وهكذا نخلص من جميع ما عرضناه في هذا الفصل إلى أن المرزوقي بمنهجه الأدبي الإبداعي الفني قد كان معلماً بارزاً في عمله الذي قام به في الحماسة ، فشرحه يعد نسيج وحده بالقياس إلى الشروح التي وصلت الينا ، وسوف يتضح هذا بجلاء حين تكتمل فصول هذا القسم بتطبيق المناهج الأخرى التي سلكها الشراح الآخرون للحماسة .

---

(١) هو أبو الحسن علي بن مهدي بن علي مهدي الكسروي ، كان أديباً ظريفاً حافظاً رواية شاعراً عالماً بكتاب العين خاصة ، ترجم له ياقوت ولم يذكر تاريخ وفاته . قال : انه توفي في أيام تولية بدر المعتضدي على اصبهان . ينظر معجم الأدباء ٥ : ٨٨ وما بعدها .

(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٤٠٦ ، وينظر الصفحات ٦٠٨ ، ٨٦٧ ، ١٢٣٩ ، ففيها أمثلة لما أخذه أبو تمام من غيره .

الفصل الثالث

المنهج العلمي التخصصي

وتطبيقه في أعمال ابن جني

عرضنا فيما سبق صفات هذا المنهج ومصاييره التي يقوم عليها ، وأشرنا الى أن تطبيقه سوف يكون مقصوراً على أبي الفتح عثمان بن جنى[1] في كتابيه « المبهج » و « التنبيه » باعتبار أنه الشارح الوحيد الذي يدخل ضمن فترتنا الزمنيّة لهذا البحث ، ووصلت إلينا أعماله كاملة ، وهي أعمال تدل على أنه جعل من الحماسة وأسماء شعرائها وأعلامها مجالاً يثير فيه كوامن العلوم التي تخصص فيها ، ومعضلات اللغة والنحو التي عرف بها ، بل إنه الشارح الوحيد من شراح الحماسة الذي حدد في مقدمة شرحه انه لا يكتب لعامة القراء من ذوي القدرات المبتدئة أو المتوسطة ، وانما يكتب لخاصة الخواص من ذوي التخصص العالي ، والملكات ذات القدرة المدربّة على الفهم والاستيعاب . قال في مقدمة « التنبيه » بعد أن حدد منهجه فيه : « وبعد فان هذا الكتاب لست أعمله لمبتدىء ولا متوسط وانما أخاطب به من قد تدرّب فكره وقوي نظره ، وهو الذي يغري به ويقوي حظّه منه ، فأما من دون ذلك فيتجافى عنه

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جني ، من أصل رومي ، كان أبوه مملوكاً لرجل من الموصل يقال له سليمان بن فهد الأزدي الموصلي . أخذ ابن جني النحو واللغة عن أبي علي الفارسي ، وصحبه أربعين سنة إلى أن مات أبو علي فخلفه ودرس النحو ببغداد عنه . قال عنه الكمال ابن الانباري : « كان من حذاق أهل الأدب وأعلمهم بعلم النحو والتصريف ، ولم يكن في شيء من علومه أكمل منه في التصريف » وخلّف ابن جنّي تصانيف كثيرة منها الخصائص ، وسر الصناعة ، والتنبيه على شرح مشكلات الحماسة ، والمبهج - فيما اتفقت عليه المصادر سنة ٣٩٢هـ - وذكر ياقوت أن ولادته كانت قبل سنة ٣٣٠هـ . ترجمته في نزهة الألباء ص ٣٣٢ وما بعدها . ومعجم الأدباء ١٢ : ٨١ وما بعدها ، وانباء الرواة ٢ : ٣٣٥ وما بعدها ، وبغية الوعاة ٢ : ١٣٢ . وله ذكر في كتب التاريخ .

إلى مسموع يحفظه لتخفّ عليه كلفته وجشمه »[1] .

لقد تمثّل عمل ابن جني في الحماسة في كتابين كلاهما يدل على منهجه العلمي التخصصي ، فالمبهج خصصه لشرح أسماء شعراء الحماسة ، والتنبيه خصصه لشرح معضلات الاعراب وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف أو عروض أو قوافٍ . ولقد صدّر كلاً من الكتابين بمقدمة جاءت موطئة للعمل وفاتحة له ، ودالة على منهجه في الشرح ، ففي مقدمة المبهج قال ابن جنى بعد أن حمد الله : « هذا تفسير أسماء شعراء الحماسة ، وينبغي أن تعلم أن في ذلك علماً كثيراً وتدرباً نافعاً ، وستراه بإذن الله » ثم مضى قائلاً : « يجب أن يقدم أمام ذلك أحوال هذه الأسماء والأعلام ، وكيف طريقها ؟ وعلى كم وجها تجدها ؟ وإلى كم ضرباً قسمتها »[2] ، ثم استرسل فعقد درساً في أسماء الأعلام بين فيه ما كان مرتجلاً وما كان منقولاً ، وأقسام كل من المرتجل والمنقول ، وما يتصل بهما من أمور تدخل في صميم اللغة محاولاً في كل خطوة يخطوها أن يدعم كلامه بالأمثلة والشواهد والشرح ، حتى وصل في النهاية إلى قوله : « قد فرغنا مما كنا ضمنّا تفسيره فيما تقدم من أحوال الأعلام ، ونحن نورد الأسماء المحتملة للقول من أسماء شعراء الحماسة ونقول في كل ما يحضرنا ويسنحه الله تعالى لنا »[3] .

ولم يبن ابن جني عن منهجه الذي سوف يسير عليه في هذا الكتاب ، غير أنّ ما وطّأ به كتابه يفيد ضمناً بأنه سوف يسير في شرح أسماء الشعراء وفق هذه المقدمة التي طرح فيها أحوال أسماء الأعلام وطرائقها ووجوهها وأضرب قسمتها ، وأنه لن يشرح كل اسم أو علم ورد في الحماسة ، بل يشرح من الأسماء والأعلام ما يحضره ويسنحه له الله تعالى ، بمعنى أنه سوف يسجل في شرحه ما يدور بخلده ويجول في فكره مما يتيح لقارئه العلم الكثير والتدرب النافع .

أما في « التنبيه » فقد وضّح منهجه فيه بجلاء ، قال مخاطباً من صنع له

---

(١) ينظر المبهج ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١١ .

(٣) المصدر عينه والصفحة ذاتها .

الكتاب : « وقد أجبتك أيّدك الله إلى ملتمسك من عمل ما في الحماسة من إعراب وما يلحق به من اشتقاق أو تصريف أو عروض أو قواف ، وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شيء من معانيها إلاَّ ما ينعقد بالاعراب فيجب لذلك ذكره من حيث كان قد سبق إليه جماعة من مثل أبي رياش والديمرتي والنمري وغيرهم . ولأنك كثيراً ما تجد في حواشي نسخ هذا الكتاب (يريد اختيار الحماسة) كثيراً من تفاسيره ، ولم أر أحداً تعرض لعمل ما فيه من صنعة إعراب فتابعتك على ما أردت »[1] .

فهو إذن لن يتحقق في شرحه جميع العناصر التي يقتضيها الشرح ، لأن مثل هذا العمل قد سبقه اليه رجال ، وانما يريد أن يسد نقصاً رآه في أعمال الحماسة وهو الاعراب ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر أنه بجانب الاعراب سوف يناقش أموراً تتصل به من اشتقاق أو تصريف أو عروض أو قواف ، وهو في هذا لن يتناول كلّ هذه الأمور في جميع أبيات الحماسة ، وانما يناقش منها مواضع حددها بأنها تقوم على ضربين أحدهما ظاهر الاشكال تشاق النفس الى كشفه ، والآخر ساذج الظاهر تريك صفحته ألا شيء فيه ومن تحته أغراض ودفائن إذا تجلَّت لك راعتك وازدهتك »[2] .

ووفق هذا المنهج سار ابن جني في كتابه ، يعرض لمشكلات الحماسة من خلال هذين الضربين في الاعراب والتصريف والاشتقاق والعروض والقوافي . واذا كان هذا هو منهجه فمن الطبيعي ألا نبحث في شرحه عن سائر العناصر التي تعرضنا لها في تطبيق المنهج الابداعي عند المرزوقي ، لأن صاحب هذا المنهج لم ينظر الى الحماسة اختياراً أدبياً يريد أن يجلو في شرحه كل ما يتصل بالأدب وفنونه ، فهو لا يبحث في النصوص عن مقاصد الشعراء ولا المعاني التي توخوها في شعرهم ، ولا الظروف والمناسبات التي دعتهم إلى قول الشعر ، ولا مواطن الجمال فيما قالوه ولا أثر أساليبهم في نفوس متلقي شعرهم ، ولا يريد أن يشغل بها نفسه لأنها في رأيه قد عولجت من غيره ، ومن ثم فاننا نبحث في عملي ابن جني في المبهج والتنبيه وفق العناصر الآتية :

---

(١) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ٢ .

(٢) المصدر نفسه والورقة ذاتها .

١ ـ شرح أسماء الشعراء والأعلام :

اهتم ابن جني بهذا العنصر اهتماماً فاق فيه جميع شراح الحماسة من حيث عقد له كتاباً خاصاً تناول فيه نحو عشرة ومائتي علم ، ولا نبعد في القول إذا قلنا أن ابن جني كان بعمله هذا دافعاً للشراح الذين جاؤوا بعده للاهتمام بهذا العنصر مثل أبي العلاء وزيد بن علي الفارسي والتبريزي وغيرهم .

والظاهرة التي تسود عمل ابن جني في هذا الجانب هو أنه كان يستقصي شرح العلم من جميع الجوانب ويضع الاحتمالات التي تتصل به مرتجلاً كان أو منقولاً ، فاذا كان منقولاً بحث في كنهه أهو عين أم معنى ؟ واذا كان عيناً فما حقيقته هل هو اسم صفة أو غير اسم صفة ، إلى غير ذلك من أصناف الأعلام المنقولة . أما اذا كانت الأعلام مرتجلة فهو أيضاً يستقصي شرحها موضحاً عما إذا كانت قابلة للقياس وليس فيها خروج عنه ، أو كانت مدفوعة بالقياس والعلميّة هي التي سوغته فيه . وهو في جميع ما تقدم يستعين بما جاء عن السابقين أمثال سيبويه وأبي الحسن الأخفش ، وأبي زيد الأنصاري وأبي سعيد السكري وأبي علي الفارسي وغيرهم ، ممن كان له في مجال اللغة والتصريف والاشتقاق قول ، كما يستعين بالشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر القديم الفصيح في إقرار كل ما يراه من قواعد وأحكام .

إن أعماله في الأعلام المنقولة والمرتجلة تدل على سيادته بعلم التصريف وعلوه في الاشتقاق ، واستيعابه التام لما يقبله القياس وما لا يقبله ، ونستطيع أن نلمس ذلك في جملة من الملاحظ : أولها : أنه في الأعلام المنقولة كان لا يكتفي بتوضيح النقل فحسب بل يشرح المنقول منه ويبيّن كل ما يتصل به من معان وأحكام ، كما يشرح العلم المنقول ويبين ما فيه من لغات وعلاقة ذلك بالتصريف . من ذلك ما جاء عنه في العلم « يعفر » قال : « وأما يعفر فمنقول بمنزلة يزيد ويشكر وتغلب ، يقال عفرت الزرع إذا سقيته أولّ مرة ، وعفرت النخل إذا فرقت من لقاحه ، وعفرت الرجل في التراب أعفره » . ثم مضى مفسراً اللغات في العلم المنقول قال : « وفيه ثلاث لغات : يَعْفُر، ويُعْفُر ، ويُعْفِر » ثم نظر الى الصرف ومنعه بحسب هذه اللغات الثلاث فوضح أن من فتح الياء فقياسه ألاّ يصرف للتعريف ووزن الفعل بمنزلة

يشكر، وأن من ضمّ الياء والفاء فقياسه أن يصرف لزوال مثال الفعل، وأما من ضمّ الياء وكسر العين مثل يكرم فابن جني يرى ألا سؤال في ترك الصرف لأنه جاء على وزن الفعل ولفظه[1].

وهو في هذا الجانب ـ أعني جانب الصرف ومنعه ـ يعتمد كثيراً عليه في توضيح أصل الأعلام واشتقاقها. ومن أمثلة ذلك مناقشته لحسان علماً، فهو عنده من الحس وليس من الحسن فوزنه فعلان لا فعّال بدليل أنهم منعوه من الصرف[2] ومثله غسّان قال فيه: «إن كان من الغس فهو فعلان وان كان من الغسن ـ وهي خصل العرف ـ فهو فعّال، وينبغي أن يكون فعلاناً لامتناعهم من صرفه قال النابغة الذبياني:

وَثِقْتُ لَهُمْ بالنَّصْرِ إذْ قِيلَ قَدْ غَزَتْ ... كَتَائِبُ مِنْ غَسَّانَ غَيْرُ أَشَائِبِ[3]

ومثلما يستقصي الشرح في الأعلام المنقولة يفعل الشيء نفسه في الأعلام المرتجلة ففي «بهراء» مثلاً قال: إنه «مرتجل علماً غير منقول ولا مذكر لها» ثم نظر الى لفظ «الأبهر» الوارد في كلام العرب والذي يطلق للعرق في الصلب فقال: إنه «ليس بمذكر بهراء، ولكنْ التقاؤهما تركيب اتفق في اللغة بمنزلة سلمان وسلمى، وليس سلمان من سلمى كسكران من سكرى لأن فعلان صاحب فعلى بابه الوصف كغضبان وغضبى وعطشان وعطشى. أما سلمان وسلمى فعلمان مرتجلان وليس من الوصف في قبيل ولا دبير»[4].

وثانيها: أنه يفيد من السابقين فيما خلفوه من آراء تتصل بالأعلام وأوزانها، ولكنه في افادته هذه لم يكن ناقلاً بحتاً وانما كان يناقش ويرجح بين الآراء، ومن

---

(١) ينظر المبهج ص ٦٤.

(٢) المصدر السابق ص ٢٧.

(٣) نفسه ص ٣٤، والبيت في ديوان النابغة ص ٦٠ من قصيدته المشهورة:
«كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ»

(٤) المصدر نفسيه ص ٦١، وقوله من قبيل ولادبير يريد ليس له صلة بالوصف لا من قدامه ولا من خلفه، من قولهم للرجل: «هو لا يعرف قبيله من دبيره» أي لا يعرف ما قدّامه ولا خلفه، يكنون بذلك عن فرط جهله.

ذلك أنه وقف في « أسماء » علماً فقال : « ذكر سيبويه أسماء في جملة الأسماء التي آخرها زائدتان ، زيدا معاً فحذفا في الترخيم معاً ، نحو سكران وبصريّ ومسلمات وأشباه ذلك ، وتتبع أبو العباس[1] هذا الموضع على سيبويه فقال : لم يكن يجب أن يذكر هذا الاسم في جملة هذه الأسماء من حيث كان وزنه أفعالاً ، لأنه جمع اسم ، وذهب أبو العباس إلى أنه إنما منع الصرف في العلم المذكور من حيث غلبت عليه تسمية المؤنث فلحق عنده بباب سعاد وزينب ، وقال أبو بكر : تقوية لقول سيبويه إنَّه في الأصل وسماء قلبت واوها همزة وان كانت مفتوحة ، وذهب في ذلك الى باب أحد وأجم وأناة »[2]. فهذه الآراء الثلاثة من قبل هؤلاء العلماء يوردها ابن جني ثم يعقب عليها ، قال فيما ذهب اليه أبو بكر « كأن أبا بكر إنما شجع على ارتكاب هذا القول لأن سيبويه شرعه له ، وذلك أنه لما رآه قد جعله فعلاً ، ولم يجد في الكلام تركيب «ء س م» تطلب لذلك وجهاً فذهب الى البدل ، وقال فيما ذهب اليه سيبويه وثعلب : « وقياس قول أبي العباس أن تنصرف أسماء نكرة ، وأما على مذهب صاحب الكتاب فانها لا تنصرف نكرة » ثم بين رأيه في هذا فقال : « ومعنى قول سيبويه وأبي بكر فيها أشبه بمعنى أسماء النساء وذلك أنها عندهما من الوسامة وهي الحسن فهذا أشبه في تسمية النساء من معنى كونها جمع أسماء »[3].

ومثل هذا ما جاء عنه في « إياس » علماً قال : « اياس مصدر أسته أؤوسه أوساً واياساً اذا أعطيته » ثم دعم هذا القول بما جاء عن شيخه أبي علي الفارسي قال: «قال أبو علي : سموا الرجل إياساً كما سموه عطاء» ثم أورد رأياً لأبي سعيد السكري قال : « وتوهم أبو سعيد السكري أن أياساً مصدر فولهم أيست من الشيء إياساً » وعقب على هذا القول واصفاً إياه بأنه سهو ظاهر ، وبرهن على عدم صحته بقوله : « إن أيست مقلوبة من يئست ولا مصدر لأيست ، ولو كان له مصدر لكان أصلاً لا مقلوباً كما أن جبذت لما كان له مصدر وهو الجبذ كان أصلاً لا مقلوباً حكمنا

(١) هو أبو العباس ثعلب له ترجمة في الكتاب الثاني .
(٢) المبهج ص ٦٠ .
(٣) نفسه ، الصفحة ذاتها .

أنه أصل غير مقلوب من جذب ، ويؤكد أن أيست مقلوبة من يئست صحة عينها ، ولو لم تكن مقلوبة لوجب اعلالها »[1].

ثالثها : أنه في تفسير الأسماء يعتمد على المنطق كثيراً ، والاعتماد على المنطق في تعليل الأشياء من أظهر صفات مدرسة القياس التي سبق أن أشرنا إلى أن ابن جني هو أحد دعاماتها ، ولقد لاحظنا ذلك كثيراً عنده في المبهج ، ومن ذلك ما جاء عنه في اسم « أبيّ بن سلمى » أحد شعراء الحماسة . قال : « يجوز أن يكون تصغير إباء مصدر أبيت إباء » ثم استدرك فقال : ولست أقول ان المصدر يحقر لكنه كأن انساناً سمي إباء كما يسمى مضاء ثم حقر ذلك الاسم لتحقير المسمى ثم رجع إلى تعليل عدم تحقير المصادر فقال : « فان قيل فهلاّ جاز تحقير المصدر نفسه قيل لم يجز ذلك لانتقاض المعنى به ، وذلك أن المصدر اسم لجنس فعله والجنس أبداً غاية الغايات ونهاية النهايات في معناه ، وما كانت هذه صورته في الشياع والانتشار فما أبعده عن التحقير وهو الغاية في الكثرة والعموم ، ولذلك لم تثن عندنا المصادر ولم تكسر إلاَّ أن توقع على الأنواع المختلفة ، وامتناع المصادر من ذلك كامتناع الأفعال »[2] .

مثل هذا الجدل المنطقي الذي تلحظه هنا يمكن أن تلحظه كذلك في تعليله دخول اللام على « الحمير » في اسم توبة بن الحمير الشاعر قال : « دخول اللام على الحمير علماً أمثل منه في دخوله على الثعلب » ، وذلك أن التحقير ضرب من الوصف يلحق الكلمة ، ولذلك لم يجز دخول التحقير في الأفعال من حيث كانت الأفعال لا توصف . . . واذا ثبت أن التحقير ضرب من الوصف في المعنى كان لحاق اللام في الحمير نحواً من لحاقها في الصغير فتكون اللام فيه مع تعريفه مثلها في الوليد ونحوه وليس كذلك الثعلب لأنه لا تحقير فيه فيضارع به الصفة وانما باب لحاق اللام في العلم الوصف نحو الحارث والعباس ، ولولا ما في الثعلب من معنى المكر والخبث لما لحقته اللام وهو علم »[3] .

---

(١) نفسه ص ـ ٢٥ .

(٢) نفسه ص ٣٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ـ ٥٦ .

ورابعها : استعانته المتكررة لدعم ما يفسره بالقرآن والحديث والشعر والأمثلة على ذلك في القرآن والشعر كثيرة متعددة قال في اسم « عروة بن الـورد » : « ورد صفة يقال في مؤنثه وردة ، قال الله ـ عز وجل ـ : « فكانت وردة كالدهان »[1]. وقد يستعين في ذلك بالقراءات ، قال في اسم قبيصة : « اسم مرتجل للعلم وهو من لفظ قول الله ـ عز وجل ـ » فقبضت قبصة من أثر الرسول[2] « وهو الأخذ بأطراف الأصابع كذا قرأها الحسن »[3].

هذا في القرآن أما الحديث ـ واستعانته به قليلة نادرة ـ فقد جاء عنه في اسم « الفند الزّماني » أنه قال : « وأما زمان فيحتمـل أن يكون من باب زممـت الناقـة فيكون فعلان من ذلك ، ويحتمل أن يكون فعّالا من باب الزمن ، والأول أعلـى عندنا وهو قياس مذهب سيبويه فيـمـا فيه حرفـان ثانيهما مضـعف وبعدهـا الألف والنون ، فقياسه أن تكون الألف والنون زائدتين كزمّان وحمّان » ثم دعم مذهـب سيبويه هذا بما أثر عن الرسول ﷺ ـ أنه قد جاءه قوم من العرب فسألهم فقال : من أنتم ؟ فقالوا : بنو غيَّان ، فقال : « بل أنتم بنو رُشْدَان » قال أبو الفتح معلقاً على هذا : « أولا تراه ـ ﷺ ـ كيف تلقى غيّان بأنه من الغّي فحكم بزيادة ألفه ونونه ، وترك أن يتلقاه من باب الغين وهو الباس الغيم من قوله :

كَأَنِّــي بَـيْنَ خَافِيَتَــي عُقَابٍ ... تُرِيدُ حَمَامَــةً في يَوْمِ غَيْنِ

يدلك على أنه ﷺ تلقاه بما ذكرنا أنه قابله بضده فقال : بل أنتم بنو رشدان ، فقابل الغّي بالرشد فصار هذا عياراً على كل ما ورد في معناه فاعرفه »[4].

أما الاستعانة بالشعر فكثيرة جداً ، تشمل سائر صفحات المبهج ، ومن أمثلته قوله في اسم « بشامة بن حَزْنٍ » قال : البَشامُ شجر له عود يستاك به قال جرير :

---

(١) سورة الرحمن ، الآية ٣٧ .

(٢) سورة طه ، الآية ٩٦ ، وهي قبضت قبضة بالقاف .

(٣) المبهج ص ٣٣ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٤ وما يليها .

أَتَنْسَى أَنْ تُودِّعَنَا سُلَيْمَى بِعْـرِقِ بَشَامَـةٍ سُقِـيَ البَشَامُ[1]

وقال في اسم « الأحوص بن محمد » الشاعـر: الأحـوص صفـة منقولـة ، والحوص ضيق العين كأنها مخيطة ، وكسروا الأحوص حوصاً وأحاوص ، وذلك على صحة الجمعين معاً ، يقول الأعشى :

أَتَانِـي وَعِيدُ الحُـوصِ مِنْ آلِ جَعْفَرٍ فَيَا عَبْدَ عَمْـرٍو لَوْ نَهَيْتَ الأَحاوصا[2]

٢ ـ العروض والقوافي :

لم ينظر ابن جني لهذا العنصر نظرة كلية تشمل جميع النصوص التي ضمها اختيار الحماسة ، وانما نظر إليه من خلال عمله العلمي في التنبيه ، وذلك وفق القضايا التي يراها في نصوص الحماسة ، فان كانت هنـاك قضية علمية تستدعي الوقوف في بحر الشعر أو قوافيه وقف عندها ، والاّ تجاوز ذلك بالحديث عن اللغة أو الإعراب . ولقد تتبعناه في هذا الجانب فوجدناه يناقش الأوزان والقوافي من خلال هذه النظرة ففي الأوزان مثلاً وجدنا له وقفة طويلة في قطعة سلمى بن ربيعة التي مطلعها :

انَّ شِوَاءً وَنَشْوَةً وَخَبَبَ البَـازِلِ الأَمُونِ

قال : « هذه القطعة خارجة عن علل العروض التي جاء بها الخليل ، وأقرب ما تصرف اليه الضرب السادس من البسيط ، غير أن عروضه لزمت « فَعَل » وكأنها محذوفة من « فَعُولُنْ » الذي هو محذوف « مَفْعُولُنْ » ، كما جاءت عروض المتقارب في كثير من الأماكن محذوفة ، غير أن ذلك في المتقارب أسهل منه هنا في موضعين ، أحدهما أنها قد تصاحب « فَعُـولُنْ » في القصيدة الواحـدة ، وهـذه لم تأت معهـا « فَعُولُنْ » ولا « مَفْعُولُنْ » ، والآخر أن « فعَلْ » في المتقارب أصلهـا « فَعُـولُنْ » ، وانما لحقها الحذف لا غير ، وفعل في هذه القطعة أصل جزأيها (مُسْ تَفْ عِلُنْ) فلا

---

(١) نفسه ١٧ .

(٢) نفسه ص ٣٣ .

يجوز ميله أن ينحو به التغير الى أن يحور عن السبعة الى الثلاثة ، وانما غاية ذلك أن يصـــير إلى الأربعـــة نحـــو « فَعْلُنْ » في « فَاعِلاتُـــنْ » ، وفي « مَفْعُــولاَت » وفي « مُتَفَاعِلُنْ » .

هذا ما بينه ابن جني في خروج الشعر عن علل الخليل ، ولم يكتف بذلك بل علل لماذا لم يشر اليه الخليل ؟ فقال : « وكأن الخليل لم يومىء في هذه القطعة الى شيء لما في هذا الجزء من البناء هي في العلة ، ولأن هذه القطعة في ديوان القبيلة انما هي « إن شواء وانّ نشوة » باعادة إنَّ ، فلما تعاظمه اضطراب هذا البيت وخالف بقية الأبيات ضرب صفحاً عن الجميع » ثم مضى في أسلوب جدلي يوضح لماذا لم يجز أن يحور الشاعر في ميله عن السبعة إلى الثلاثة . قال : « فان قلت ألا تعلم أن فعولن في المتقارب قد صار إلى « فل » واثنان من خمسة أقل من ثلاثة من سبعة ، فهلا جاز في (مس تف علن) أن تصير إلى « فعل » قيل : الفرق أن « فَعُولُنْ » « لما صار الى « فل » فانما لحقه الحذف ثم القطع[1] ، وهنا له نظير نحو «فَاعلاتُن» لما صارت الى « فَعْلَنْ » وأما « مُسْ تَفْ عِلُنْ) فاذا صارت الى « فَعَل » فقد فعلت ما لا نظير له ، وذلك أنك حذفت الوتد وحذفت أيضاً سين (مُسْ تَفْ عِلُنْ) فبقي «فَعَلْ : مُتَفْ» وهذا لا نظير له »[2] .

والذي يفهم من عمل ابن جني في العروض أنه لا يهتم بالوزن وأثره في أداء المعنى وتوافقه مع الجو النفسي الذي يصحب الشعر في أغراضه المختلفة ، بل همه إيضاح ما وقع فيه الشعراء من أخطاء، أو ما يثير خلافاً في نظره، ففي قطعة ابن السلماني التي يقول فيها :

لَوَ انَّ صُدُوُرَ الأَمْـرِ يَبْـدُونَ لِلْفَتَى كَأَعْقَابِـهِ لَمْ تُلْفِـهِ يَتَنَدَّمُ
إِذَا الأَرْضُ لَمْ تَجْهَـلْ عَلَيَّ فُرُوجُهَا وَإِذْ لِيَ عَنْ دَارِ الهَـوَانِ مُرَاغَمُ

---

(١) الحذف عند العروضيين اسقاط سبب خفيف من آخر التفعيلة مثل فعولن تصير فعو أو فعل ، والقطع حذف ساكن الوتد المجموع واسكان ما قبله مثل فاعلن تصير فعلن أو فاعل .

(٢) ينظر مخطوطة التنبيه الوررقة ١٦٦ وما يليها .

وقف ابن جني في لفظة «مراغـم » التـي جاءت قافية فقـال : « قـوافي هذه القطعة كلها مجردة غـير مؤسسـة[1] الاّ « مراغـم » هذه فقـد سانـد إذن[2] . وقـد استقصيت هذا في كتاب المعرب في تفسير قوافي أبي الحسن »[3] .

وفي بيت عبدالله بن ثعلبة الحنفي القائل :

وَمَـا إنْ يزالُ رَسْـمُ دَارٍ قَدَ اخْلَقَتْ وَعَهْـدُ حَبِيبٍ بالفَنَـاءِ جَدِيدُ

نظر ابن جني فوجد الشاعر قد خفف الهمزة في « أخلقت » فأوحى له ذلك باثارة قضية تتصل بالخليل وأبي الحسن الأخفش قال : « في قوله قد اخلقت مخفف الهمزة دليل على قول أبي الحسن وعلوه على قول الخليل في امتناع الخليل من الجمع بين يسوء ويسيء قافيتين. وذلك لأنه فيما زعم يخلف إذا خفف همزة حرف رويّه ألا تراه يصير يسو ويسي ، فيختلف الرّويان ، فاحتج عليه أبو الحسـن أنـه إذا بنـي الشاعر القصيدة على تحقيق الهمزة البتة أمن هذا الخلاف الذي أشفق منه الخليل ، وشاهد هذا القول هذا البيت الذي نحن بصدده . ألا ترى أن الشاعـر بنـاه على تخفيف همزة أخلقت البتة والاّ كسر الوزن ، واذا جاز أن يبني الشعر على التخفيف لاغير، وهو فرع كما علمت، جاز أيضاً أن لا يبني الشعر على التخفيف لا غير وهو أصل كما علمت »[4] .

فانظر كيف كان ابن جني يجادل في هذا العلم ، وهو علم مبني على استقراء ما قالت العرب من شعر ، على أن مثل هذا العمل منـه يدل على حضـوره الذهنـي

(١) القوافي المجردة هي التي لم يدخلها ألف التأسيس ، ويقابلها القوافي المؤسسة وهي ما دخلها ألف بينها وبين حرف الروي حرف يجوز تغييره عند الخليل ولا يجـوز عنـد أبـي الجسـن الأخفش ، وهذا الحرف بسمى الدخيل ، وحركته تسمى الاشباع . ينظـر العمـدة ١ : ١٦١ .

(٢) السناد عند ابن جني « كل عيب يحدث قبل الروي » كذا قال ابن رشيق في العمدة ١ : ١٦٩ .

(٣) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٠٥ .

(٤) المصدر نفسه الورقة ١٣٠ .

واستيعابه لكل ما أثاره أبو الحسن الأخفش في تتبعه للخليل في هذا العلم ، وربط ذلك بعمله في الشعر المختار في الحماسة .

٣ - الرواية :

ناقش ابن جني الرواية في « التنبيه » غير أن طريقه فيها غير طريق أصحاب المنهج الأدبي الابداعي ، فقد رأينا الابداعيين في تطبيق المرزوقي يناقشون الرواية من وجوه مختلفة ، أما ابن جني فقد كان ينظر إلى الرواية من جهة اللغة والاعراب فقط ، ولا يقف عندها إلا إذا كانت ذات معضلة لغوية تعوز الشرح أو مشكلة إعرابيّة تحتاج إلى تأويل وايضاح . ففي البيت الذي نسبه الى العباس بن مرداس جاءت روايته له على النحو التالي :

تَرَى الرَّجُلَ النَحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفي أَثْوَابِهِ أَسَدٌ مَزِيرُ

وقال : « رويت هذا البيت عن محمد بن الحسن[1] عن أحمد بن يحيى عن ابن الأعرابي قال : أظن ذلك مزير ، هكذا بالميم قال وهو الماضي الندب » ثم أشار إلى رواية أبي تمام للبيت فقال : « غير أن الذي رواه أبو تمام « يزير » ومضى يشرحها من جهة اللغة فقال : « قياسه في العربية أنه على تخفيف الهمزة على قول من قال في المرأة والكمأة : المراة والكماة ، ثم ناقشها صرفياً فوضّح أن أصل الفعل « يَزْئِرُ » ، نقلت الكسرة فيه الى الزاي ، ثم أبدلت الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها فصارت « يَزِيرُ » وعليه قال بعضهم في يسأل يسال »[2] ، ونراه في موضع آخر ينظر الى الرواية من حيث صحتها ووضوح وجه الاعراب فيها ، وذلك في بيتي أبي الربيس الثعلبي ، وقد جاءت روايته لهما كما يلي :

---

(١) محمد بن الحسن هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب المعروف بأبي بكر العطار أخذ عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب، وكان من أحفظ الناس لنحو الكوفيين وأعلمهم بالقراءات . توفي سنة ٣٥٤ هـ . ترجمته في نزهة الألباء ص ٢٨٨ وما بعدها ومعجم الأدباء ج ١٨ ص ١٥٠ وما بعدها ، وله ذكر في كتب التاريخ والطبقات .

(٢) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٦٩ .

هَلْ تُبلِغَنِّي أمَّ حَرْبٍ وَتَقْذِفَنْ عَلى طَرَبٍ بُيُوتَ هَمٍّ أُقَاتِلُه
مُبِينَـةُ عِتْـقٍ حُسْـنُ خَدٍ ومِرْفَقاً بِهِ جَنَفٌ أَنْ يَعْـرُكَ الـدَّفَّ شَاغلُهْ

قال : « هكذا صحة الرواية في هذين البيتين ، وكذلك وجدناهما بخط أبي موسى في ديوان أبي الربيس ، فأما ما يروى غير هذا من قوله :

هَلْ تُبْلِغَنّـي أُمَّ عَمْـروٍ وَتِربَهَا عَلَى عَجَـلٍ بُيُوتُ هَمٍ أُقَاتِلُهْ

ففاسد ، وذلك أنه تبقى بيوت هم مرفوعاً لا رافع له الاّ أن تبعد المذهب في التأولّ له فتعتقد فيه حذف المضاف أي ذات بيوت هم أي ناقة ذات ذي بيوت أي ناقة ذات رجل في صدره بيوت هم فتحذف مضافاً بعد مضاف ، وذلك وان كان قد جاء فمثله قليل منه قوله سبحانه : « فقبضت قبضة من أثر الرسول »[1] أي من أثر حافر دابة الرسول ، ومنه مسألة الكتاب « أنت مني فرسخان » أي أنت مسافة فرسخين ، وفي هذا تعسف لم تدع ضرورة اليه »[2] .

فأنت تراه في هذين المثلين يهتم في الرواية بالنواحي اللغويّة والصرفيّة والاعرابيّة ، ولا ينظر إلى وضع الرواية من حيث المعنى أو من حيث توافقها مع السياق أو جريانها في كلام العرب ، إلى غير ذلك من الأمور التي كان ينظر إليها المرزوقي بمنهجه الأدبي الابداعي .

غير أن الظاهرة الجديرة بالتسجيل في عمل ابن جني في الرواية هو حرصه الدائم على ذكر مصادر الرواية التي يختارها ، ولعلك لحظت ذلك في مناقشتنا للمرزوقي في رده روايات ابن جني ، فابن جني يأخذ رواياته من دواوين الشعراء أو أفواه العلماء ، وهذا واضح في المثلين السابقين وفي غيرهما من كتاب التنبيه .

وان كان ثمة ما يقال في عمله في الرواية فهو أنه في بعض الأحيان كان يختار الرواية التي تثير قضيّة ، فبيت أبي الغول الطهوي الوارد في صدر القطعة الثالثة من باب الحماسة روي من الشراح روايتين إحداهما :

---

(١) الآية ٩٦ من سورة طه .

(٢) المصدر الأسبق ١٧٦ .

فَدَتْ نَفْسي وَمَــا مَلَــكَتْ يَمِيني   فَوَارِسَ صَدَّقُــوا فِيهِــم ظُنُوني[1]

والأخرى : « فوارس صدّقت فيهم ظنوني »[2] ، وأشار المرزوقي الى رواية ثالثة هي « صدقت فيهم ظنوني » بالبناء إلى المجهول[3] ، فاختار ابن جني رواية صدقت فيهم ظنوني ، وخالف عادته في ذكر مصدر روايته ، ولم يشر إلى الروايات الأخرى بل قال معلقاً على الرواية التي أثبتها : « صناعة الشعر توجب في هذا «صدقوا» وذلك أنه عاد عليهم الضمير مذكراً مجموعاً وهو هم من «فيهم» ولو اتبع صدّقت لكان قياسه « فيها » . كذا طريق الشعر ومقتضى صناعته ، وعليه استقر الأمر فيما بيني وبين المتنبي ، ذلك لأنه قال : « إذا أعدت الضمير بلفظ المذكر ذكَّرت وذلك قوله :

بِالجَيْشِ يَمْتَنِـعُ السَّـادَاتُ كَلُّهُمُ   والجَيْشُ بابْـنِ أَبِــي الهَيْجَـاءِ يَمْتَنِعُ[4]

وهذا الأخير كثير في الشعر جائز ، غير أن طريقة الصنعة ما ذكرت لك »[5] .

وهذا كلام طيب محمود ولكنه ليس فيه نظر إلى ما قال الشاعر في الأصل ، وانما بني من حيث صناعة الشعر وما تقتضيه من اجراء الكلام ، وليس فيه مفاضلة بين الروايات ليختار أجودها أو أبلغها أو أسلمها على نحو ما كنا نرى عند المرزوقي في منهجه الأدبي الابداعي .

٤ ـ اللغة والنحو :

لم يتخذ ابن جني من اللغة والنحو وسيلة يستعين بها على تفسير الألفاظ والتراكيب بغية الوصول إلى معاني الشعر ، فتفسير الألفاظ والتراكيب ـ كما وضحنا من قبل ـ غاية من يهتم بايراد المعاني ، أما ابن جني فلم تكن المعاني غايته إلاّ حين

---

(١) هذه رواية المرزوقي ق ١ : ٣٩ .
(٢) هي رواية التبريزي ١ : ١٥ .
(٣) ينظر المصدر الأسبق ، الصفحة ذاتها .
(٤) البيت من قصيدة يمدح فيها المتنبي علي بن أبي الهيجاء سيف الدولة الحمداني .
(٥) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٠ .

يقتضي الاعراب ذلك ، كما أنه في عمله اللغوي كان ينظر للألفاظ نظرة جزئية من حيث هي لفظة مفردة يقف عليها ، يعالج تصريفها أو اشتقاقها مستعرضاً ما تثيره من قضيّة تتصل بالقياس أو الاشتقاق ، وهذا بطبيعة الحال يدفعه الى أن يغض النظر في أحيان كثيرة عن وضع اللفظة في النص وايراد معانيها المحتملة وفقاً للمعنى الكلي للنص ، وهو بجانب هذه النظرة كان كثيراً ما يخضع تفسيره للالفاظ والتراكيب الى جدل منطقي . ومن أمثلة ذلك وقفته في بيت موسى بن جابر الحنفي الذي يقول فيه :

وَمِنَ الرِّجَالِ أَسنَّةٌ مَذْرُوبَةٌ وَمُزَنَّدُونَ شُهودُهُمْ كالغَائِبِ

وقف في تركيب « شهودهم كالغائب » ولم ينظر إلى سواه قال : « إن كان شهودهنا جمع شاهد فالغائب هنا جمع وجنس أي شهودهم كالغياب ، وان كان شهودهم هنا مصدر شهد كالحضور من حضر فالغائب هنا على ضربين : أحدهما أن يكون جنساً كالأول فيكون المضاف إذن محذوفاً ، أي شهودهم كغيبة الغائب ، والآخر أن يكون الغائب مصدراً كالباطل والفالج والباغر ـ أي المجنون ـ والعائر ـ الرمد ـ أي شهودهم كالغيبة ، ثم عمد إلى طريقة أهل الجدل المنطقي فقال : « فان قيل : فمن أين لك الغائب مصدراً كالباطل في غير هذا فتحمل عليه هذا ؟ قيل : قد ثبت أن المصدر قد يأتي على فاعل بما رأيناه وها هنا ، وان لم يكن معك فيه ما تقطع به فليس معك أيضاً ما يمنع منه ، والقسمة حملاً على النظير محتملة ، وما كانت هذه سبيله فالقسمة قابلة له وغير ممتنعة منه فاعرف ذلك أصلاً من أصول فقه العربية »[1] .

وفي بيت دريد بن الصمة القائل :

كَمِيشُ الازَارِ خَارِجٌ نِصْفَ سَاقِهِ بَعِيدٌ عَنِ الآفَاتِ طَلَّاعُ أَنْجُدِ

نراه يقف من البيت كله عند لفظة « أنجد » فيقول : هكذا تكسير القلة والمراد به معنى الكثرة ، ألا ترى أنه لا يريد أن يطلع أنجداً من الثلاثة الى العشرة ، وانما

(١) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ٧٠ .

يريد أن من عادته اطلاع النجاد فهو يؤذن بالكثرة » ثم مضى مستقصياً الحديث عن جموع القلة والكثرة موضحاً ما أثبته من أن العرب قد تطلق جمع القلة وتريد به الكثرة . قال : « وليس قوله « أنجد » وهو يريد الكثرة كقولهم أرسان ، وأقوام ، وأقلام ، وأرجل ، وهم يريدون من كل واحد منها الكثرة ، والفرق بينهما أن « نجدا » قد تكسره على مثال الكثرة وهي النجاد ، وكل واحد من أرسان وأقوام وأرجل لم يكسرّ الاّ تكسيراً لقلة البتة ، فكان مجيء كل واحد منها مراد به الكثرة أسهل من مجيء مثال القلة ملفوظاً معه ، ومنه بمثال الكثرة مراداً به الكثرة فقد كثر عندهم مجيء لفظ جمع القلة والمعنى به معنى الكثرة ألا ترى إلى قول حسان :

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

ودفعه ايراد هذا البيت إلى أن يذكر رأياً لشيخه أبي علي الفارسي في القصة المروية عن اعتراض النابغة لحسان في تقليل جفانه وأسيافه ، وفي قوله : يلمعن ويقطرن بدل يبرقن ويجرين[1] ، قال ابن جني : « وكان أبو علي يطعن في الحكاية هنا منسوبة الى النابغة » لقد قللت جفانك وأسيافك » قال : ألا ترى إلى قول الله سبحانه : « وهم في الغرفات آمنون »[2] ، وغرف الجنة أكثر مما يظن ، وقال تعالى : «هُمْ دَرَجَاتٌ عِند الله »[3] ، ورتب الناس في علم الله أكثر من العشر لا محالة»[4] .

---

(١) أورد هذه القصة أبو الفرج الاصفهاني في كتابه الأغاني ٨ : ١٨٨ ، وهي شائعة مبثوثة في كتب الأدب ، ولهذا نضرب صفحاً عن ذكرها ، أما ما أثاره النحاة من شكوك حول القصة ومن آراء حول البيت ، فقد أورده مفصلاً كاملاً البغدادي في خزانة الأدب الصفحات ١٠٦ - ١١٨ .

(٢) سورة سبأ ، الآية ٣٧ .

(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٦٣ .

(٤) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١١٦ ، وهذا القول الذي ذهب اليه ابن جني ومن قبله شيخه أبو علي من أن جمع القلة قد يراد به الكثرة قد دفع بالدكتور ابراهيم أنيس إلى أن ينحو بالقضية منحى آخر حيث ذكر أنّ ما ذهب اليه اللُّغويون من وضع صيغ للكثرة وآخرى للقلة لم تكن من الظواهر الملتزمة في اللغة ولا يطابق ما جاء في أسلوب القرآن الكريم ، وليس

على أنّ ابن جني في عمله اللغوي كان كثيراً ما يهتم بالاشتقاق مع ملاحظته الدائمة للقياس ، نلمس ذلك منه في مواضع مختلفة من التنبيه ، قال في لفظة زرافات الواردة في أبيات القطعة الأولى من باب الحماسة وهو :

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا

الزرافة الجماعة سميت بذلك للزيادة التي هي في الاجتماع والتضام ، ومنه التزييف للزيادة في الحديث يقال : زرّف في كلامه أي زاد فيه ، ومنه سميت الزرافة لطول عنقها وزيادته على المعتاد المألوف فيما قده قدّها »[1] وكان حقه أن يكتفي بهذا في تحليل اشتقاق اللفظة ولكنه مضى إلى طريقته الجدلية وملاحظته للقياس فقال : « فان قلت : ان كثيراً من الابل طول عنقه طول عنق الزرافة فهلاّ سميت زرافات ، ففي ذلك جوابان أحدهما : ان الاشتقاق لا يركب فيه القياس ، لما بينّاه في كتابنا في شعر هذيل وهو الموسوم بكتاب التمام وغيره من كتبنا، والآخر أن الجمل على علو جسمه وفخامة منظره لا ينكر أن يكون عنقه طويلة ولكنّ الزرافة على اجتماع جسمها إلى جسم البعير يستنكر ويستكثر لها طول عنقها وهذا واضح »[2] .

وهو في الاشتقاق ينظر إلى ما في اللغة ثم يحكم بأصل اللفظة ، قال في بيت قسامة بن رواحة السنبسي :

دَعَا الطَّيْرَ حَتَّى أَقْبَلَتْ مِنْ ضَرِيَّةٍ دَوَاعِي دَمٍ مُهْرَاقَةٍ غَيْرِ بَارِحِ

« ينبغي أن يكون لام « ضريّة » واواً ، وذلك أن معنا في اللغة تركيب (ض ر و) وليس معنا تركيب (ض ر ي) من الضرو ، والضروة ، والضراوة ، فعلى ما معنا ينبغي أن يكون العمل والاشتقاق »[3] .

يشفع للنحاة قولهم في نهاية الحديث عن صيغ القلة والكثرة إن العرب قد تستعمل هذه مكان تلك أو العكس لحكمة ما لأن مثل هذا القول يحمل في ثناياه دليل ضعف الرأي الذي ذهبوا إليه. ينظر من أسرار العربيّة ص ١٥٣ وما بعدها .

(١) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ٦ .
(٢) المصدر نفسه ، الورقة ٧ .
(٣) نفسه الورقة ١٤٢ .

وكذلك نراه ينظر الى القياس والاشتقاق معاً في لفظة القاع الـواردة في قول بعض القرشيين هو :

بَيْنَا نَحْـنُ بالبَـلاكِثِ فالقَاعِ سِرَاعـاً والعَيسُ تَهْـوي هَوِيّا

قال : « ألف القاع بدل من واو قياساً واشتقاقاً فأما القياس فلأنها عين ، وأما الاشتقاق فلقولهم في تكسيره أقواع ، وأما قيعان وقيعة فلا دليل منه لسكون العين مكسوراً ما قبلها »(١) .

وهكذا نرى أن ابن جني كان ينظر الى الألفاظ نظرة جزئية في النص ، وان عمله اللغوي قد تركز على القياس والاشتقاق مع جنوح إلى طريقة جدليّة يلجأ اليها لبيان أصول العربيّة وأسرارها ، ومن ثم جاء عمله اللغوي في التنبيه جامعاً لفوائد جمة ولطائف نادرة بغض النظر عما ينبغي تحقيقه من عناصر الشرح وتفسير ألفاظ النص وتراكيبه قصداً إلى إبراز معناه .

وما يمكن قوله في عمله اللغوي يمكن أن يقال في عمله النحوي ، فقد لاحظنا فيه عدة جوانب تتصل بنظرته الجـزئية للاعـراب ومعالجاتـه النحـويّة في نصـوص الحماسة ، وأهم هذه الجوانب يمكن تلخيصها في الآتي :

أ ـ إثارته للقضايا ظاهرة الاشكال في مسائل الاعراب أو القضايا التي تبدو جلية ، ولكنها تخفي وراءها الغامض من المسائل .

ب ـ تتبعه الدائم للخلاف بين سيبويه وأبي الحسن الأخفش في جملة من المسائل التي خالف فيها الأخفش جمهرة النحاة .

جـ ـ تنويهه المستمر بأن الاعراب قد يجيء مخالفاً للمعنى .

د ـ اعتماده الواضح على القياس في طرح المسائل الاعرابيّة .

ففي الجانب الأول نراه يركّز جهوده على نواح جزئيّة في النص مثيراً من خلالها

---

(١) المصدر نفسه الورقة ١٧٦ .

قضايا الاعراب وقواعد النحو ولا يربط ما يثيره بالنص ، وانما همه إثارة المشكلة فحسب ، ظاهرة كانت أو خفية ، مثال ذلك ما جاء عنه في بيت عامر بن الطفيل الذي يقول فيه :

أَكُرُّ عَلَيْهِمْ دَعْلَجاً وَلَبانَهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقْعَ الرِّمَاحِ تَحَمْحَمَا

فقد روي « لَبَانَهُ » بالنصب ، وهذا مخالف لما مرّ بنا عن الإمام المرزوقي الذي اعتمد رواية « وَلَبَانُهُ » بالرفع وقال عن رواية النصب إن صاحبها « فرّ من أن يكون الاشتكاء والتحمحم على كثرة نسبة الاشتكاء إلى الأعضاء الآلمة فوقع فيما هو أقبح لأن المراد أكر عليهم فرسي فلا معنى لعطف اللبان عليه »[١] . أما ابن جني فحين أثبت روايته نظر إلى ما أثارته الرواية من قضية تتصل باحدى القواعد في العطف قال : « لبانه بعضه واذا كرّ عليهم فرسه فقد دخل لبانه في جملته فكيف إذا جاز عطف البعض على الكل الداخل فيه بعضه ، وأنت لا تقول أخذت العشرة وثلاثتها ونحو ذلك ، والجواب أنه انما أعاد ذكر اللبان لعظم قدره في نفسه ولأن الذكر بصدره والأنثى بعجزها فلمّا فخّمه وعظّم أمره أعاد ذكره تنويهاً به ، ومثله قول الله سبحانه : « من كان عَدُوّاً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال »[٢] فافردهما صلى الله عليهما بالذكر مخصوصين به وان كانا داخلين في جملة الملائكة المقدم ذكرهم »[٣] .

فاذن على ما يبدو من كلام أبي الفتح إن ثمة معنى في عطف اللبان على الفرس وليس الأمر كما تصوره المرزوقي ، وهذا الذي أبانه أبو الفتح انما يدخل في باب المعاني من البلاغة وهو لون من ألوان الاطناب الذي يأتي في الكلام بفائدة ويسميه البلاغيون عطف الخاص بعد العام[٤]، غير أن أبا الفتح لم ينظر اليه من وجهة

---

(١) ينظر شرح المرزوقي ق ١ : ١٥٤ .

(٢) الآية ٩٨ من سورة البقرة .

(٣) ينظر مخطوطة التنبيه ، الورقة ٤٤ ومايليها .

(٤) ينظر معجم البلاغة العربيّة لبدوي طبانة ٢ : ٥٤٢ ، وقد ذكر فيه أنه يكون للتنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام لما امتاز به عن سائر أفراده من الأوصاف ، وضرب مثلاً له بقوله تعالى : « تنزّل الملائكة والروح فيها » وقال: خص الله سبحانه وتعالى

البلاغة ، وانما نظر اليه من وجهة النحو باعتبار انه من باب عطف البعض على الكل الداخل فيه ، وهي قضية تمس الاعراب وتمس المعنى أيضاً .

وهو بجانب هذه القضايا الاعرابية التي تتصل بقواعد النحو كان يقف أحياناً عند أوجه الاعراب اذا تحقق لاعراب التركيب أكثر من وجه ففي بيت سعد بن ناشب الذي يقول فيه :

وَلَـمْ يَسْـتَشِرْ فِي أَمْـرِهِ غَـيْرَ نَفْسِهِ وَلَـمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِـمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وقف أبو الفتح في اعراب « صاحبا » وعدد أوجه الاعراب فيه فقال : « ان شئت نصبت صاحبا على أنه مفعول به ، ونصبت قائم السيف على الاستثناء أي لم يرض صاحبا إلا قائم السيف ، كقولك : لم أر الا زيداً أحداً أي لم أر أحداً الا زيدا » . هذا وجه ووجه آخر ذكره فقال : « وان شئت نصبت قائم السيف نصب المفعول به وجعلت صاحباً حالاً منه كقولك : لم أضرب اِلاَّ زيداً قائماً أي لم أضرب أحداً اِلاّ زيداً في حال قيامه » ثمّ نبّه الى أمر يدخل في قواعد إعراب البدل فقال : « ومن نصب زيداً في قولك ما رأيت أحداً اِلاَّ زيداً على البدل لم ينصب قائم السيف في القول الأول إلا على الاستثناء المقدم دون البدل ، وذلك لتقدمه على صاحب ، والبدل لا يجوز تقديمه على المبدل منه »[1] .

ويعد الجانب الثاني أظهر ما يجده القارىء في التنبيه ، فكثيراً ما كان ابن جني ينظر في عمله في الحماسة إلى الخلاف بين سيبويه وأبي الحسن الأخفش ، وذلك من خلال رؤيته للشعر الوارد والبحث فيه عما يدعم قول أحد الرجلين في المسائل النحوية التي قام خلاف فيها بينهما ، والأمثلة على ذلك مترددة في صفحات « التنبيه » يرجح تارة رأي سيبويه وتارة رأي أبي الحسن ، لأن ظاهر النص الذي أمامه يدعم هذا أو ذاك ، فبيت بلعاء بن قيس الكناني الذي يوقل فيه :

وَفَـارِسٍ فِي غِمَارِ المَوْتِ مُنْغَمِسٍ إِذَا تَـأَلَّى عَلَى مَكْرُوهَـةٍ صَدَقَا

الروح وهو « جبريل » بالذكر مع أنه داخل في عموم الملائكة تكريماً له وتعظيماً لشأنه كأنه من جنس آخر .

(١) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ٢٠ .

كان شاهداً يرجح مذهب سيبويه في مسألة تتصل بحذف الموصوف من الكلام. قال أبو الفتح: « مكروهة يحتمل خلاف الرجلين سيبويه وأبي الحسن، فمذهب صاحب الكتاب انه وصف لموصوف محذوف كأنه قال: اذا تألّى على حالة مكروهة صدقا، ومذهب أبي الحسن أنه مصدر جاء على مفعول »[1]. ومضى ابن جني مقرراً أن هذا ليس موضع التناصف بين الرجلين فهو قد ذكر ذلك في غير موضع، غير أنه نظر إلى قياس الرجلين في هذه المسألة ونظر إلى تأنيث لفظة « مكروهة » فقال: « ينبغي أن تعلم أن قياس قول صاحب الكتاب أن يكون فيه - أي الوصف - ضمير من الموصوف المحذوف، وقياس قول أبي الحسن ألاّ يكون فيه ضمير من الموصوف، كما لا يكون في الكره والكراهية والكراهة، وكان تأنيث المكروه يشهد لصاحب الكتاب، وذلك أن تأنيث الصفة أشيع وأسير من تأنيث المصدر من حيث كان المصدر دالاً على الجنس، واذا أفضى الأمر بك إلى الجنس فلك فيه جانب التذكير، فهذا أحد ما يشهد لقول سيبويه »[2].

ونراه في موضع آخر يشير في بيت آخر إلى ما يدعم رأي أبي الحسن، وذلك في بيت ابن حبناء التميمي الذي يقول فيه:

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى أَنْ تُهِينَهُ   فَدَعْهُ إِلَى اليَوْمِ الَّذي أَنْتَ قَادِرُهْ

فقد عرض لرأي سيبويه في « قادره » وأمثالها، قال: « أراد قادر فيه فحذف حرف الجر وشبّهه في اللفظ بالمفعول به، وعليه بيت الكتاب:

وَيَوْماً شَهِدْنَاهُ سُلَيْماً وَعَامِرَا

ثم عرض لرأي أبي الحسن ودلّ على أن ما جاء في البيت يؤكد قوله، قال: « وهذا ما يؤكد قول أبي الحسن في قول الله تعالى: واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً »[3] إنه أراد تجزي فيه، ثم حذف حرف الجر فصار تجزيه، ثم حذف

---

(١) المصدر السابق الورقة ١٦ .

(٢) المصدر نفسه، والورقة ذاتها .

(٣) الآية ٤٨ من سورة البقرة .

الهاء من الصفة خلافاً على سيبويه »[1].

أما الجانب الثالث الخاص بأن الاعراب قد يأتي مخالفاً للمعنى فقد عرض اليه ابن جني في مواضع متفرقة من التنبيه ، منها ما جاء عنه في بيت جعفر بن علبة القائل :

عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنَّى تَخَلَّصَتْ ... إِلَيَّ وَبَابُ السِّجْنِ دُونِيَ مُغَلَّقُ

فهو يرى فيه أنه لا يجوز أن يكون « أنى » من قوله « وأنى تخلصت » مجرورة عطفاً على قوله « مسراها » وذلك أنَّ « أَنَّي » استفهام والاستفهام لا يعمل فيما ما قبله ، وبناء على هذا فان « أنّى » في رأيه منصوبة بقوله : «تخلصت» كقولك: أنى ارتحلت أي من أين ارتحلت ، فكأن الشاعر لما قال : عجبت لمسراها تمّ كلامه ثم قال مستأنفاً أحداً في كلام آخر « وأنى تخلصت » أي من أين تخلصت . هذا وضع الاعراب عنده ، غير أنه عقب عليه بقوله : هذا وضع الاعراب ومقتضى الصنعة فيه ، فأما حقيقة المعنى فكأنه قال : عجبت لمسراها ولتخلصها إليّ ، لأن العجب اشتمل عليهما جميعاً ، ولا يستنكر أن يكون وضع الاعراب مخالفاً لمحصول المعنى ، ألا تراك تقول: أهلك والليل، فمعناه الحق أهلك قبل الليل والاعراب غير ذلك[2] .

وأما الجانب الرابع المتمثل في اعتماده الواضح على القياس في مناقشة المسائل الاعرابية فهو مذهبه النحوي ، فابن جني كما سبق أن أشرنا كان من أصحاب مدرسة القياس أو المدرسة البغدادية الجديدة ، وهي مدرسة تعتمد على القياس في العمل النحوي ، وذلك لنزوعها الدائم إلى أهل البصرة ، ولهذا نراه في عمله النحوي ينظر إلى الأقيسة وهو يعالج المسائل الاعرابية ، ففي مناقشاته لخلافات سيبويه والأخفش نراه دائماً يردد قياس سيبويه كذا وقياس أبي الحسن كذا[3] ، كما أنّه كثيراً ما يبين نظرة البصريين من جهة القياس إلى مسألة من مسائل الاعراب ،

---

(١) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٦٠ .

(٢) المصدر السابق الورقة ١٣ .

(٣) ينظر مثلاً المصدر نفسه ، الصفحات ١٦ ، ٢٥ ، ٦٩ ، ١٤٣ .

ففي بيت الفضل بن الأخضر الذي يقول فيه :

أَلاَ أَيُّهَذَا النَّابِحُ السِّيد إنَّني ... عَلى نَأْيِهَا مُسْتَبْسِلٌ مِنْ وَرَائِهَا

نراه يقف في البيت وينظر الى استضعاف البصريين وصف أي النداء بهذا نظراً لما لديهم من قياس قال : « أصحابنا يستضعفون وصف أي النداء بهذا ، وذلك أنها مبهمة ومحتاجة الى الصفة وهذا مبهم محتاج الى موضح ، فلم يكن في القياس أن ينفى الابهام بمعرف في الابهام »(١) .

وفي موضع آخر نجده يقف في بيت مراد بن حنش الصادري الذي يقول فيه :

لقَومِي أَرَى لِلْعُلاَ مِنْ عِصَابَةٍ ... مِنَ النَّاسِ يَا حَارِ بنَ عَمْرٍو تَسُودهَا

فينظر في ترخيم « حار » مع وجود ابن قال : « كان القياس أن لا يجوز ترخيم الاسم الموصوف بابن من قبل أن العلم إذا وصف بابن فلان فقد جعلا كالاسم الواحد ، ولذلك قالوا يا زيد بن عمرو ففتحوا الأول لفتحة الثاني واذا كانا جميعاً كالاسم المفرد فقد حصل جزء الاسم الأول حشواً إذاً لا طرفاً ، واذا كان حشواً لم يتطرق عليه حذف الترخيم ، فهذا وجه قياس امتناعه »(٢) .

وهو اذا كان يتكىء على القياس كثيراً فانه أيضاً كان يعتمد على السماع الشائع أصلاً من أصوله ولهذا نراه حين وقف في بيت من أبيات القطعة الأولى من الحماسة وهو :

لاَ يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِينَ يَنْدبُهُمُ ... فِي النَّائِبَاتِ عَلى مَا قَالَ بُرْهَانَا

قال : «برهان عندنا فعلال وليس نونه بزائدة ، يدل على ذلك قولك برهنت له على كذا ، أي أقمت الدليل عليه ، وهذا قاطع ونظيره دهقان وهو فعلال وليس بفعلان ، ودليله قولهم : قد تدهقن . . . وقد كان القياس في نون برهان ودهقان أن

(١) نفسه ، الورقة ١٠٣ .

(٢) ينظر المصدر نفسه ، الورقة ٨ وما يليها .

يكونا زائدتين حملا على الأكثر ، ولكن قد ورد السماع بما أرغب عن القياس فترك اليه »[1] .

وهذا يدل على أن السماع كان لديه في الدرجة الأولى من أصول العربية مع اعتداده الواضح بالقياس والتعويل عليه في كثير من عمله في اللغة والنحو ، ولكنه كان في السماع يعتمد على الكثرة والشيوع مثل البصريين بدلالة أنه كان ينتقد الشعراء في بعض تراكيبهم اللغوية التي جاءت مخالفة القياس ، وهو أمر سوف نعرض له في عنصر النقد الذي كان يقيمه ابن جني في نصوص الحماسة .

٥ ـ المعاني :

سبق أن أوضحنا في مناقشتنا لمقدمة ابن جني في التنبيه أنه لا يعرض لمعاني الشعر إلّا من خلال الاعراب ، فالمعاني لم تكن من همه ، هذا ظاهر قوله : « وتحاميت شرح أخبارها أو تفسير شيء من معانيها إلا ما ينعقد بالإعراب »[2] ، ولهذا رأيناه نادراً ما يتطرق لمعاني الشعر ، ومن هذا النادر قوله في بيت عروة بن أذينة :

حَجَبَتْ تَحِيَّتَها فَقُلْتُ لِصَاحِبِي   مَا كَانَ أَكْثَرَها لَنَا وَأَقَلَّهَا

قال : « أي ما كان أكثرها لنا فيما مضى وما أقلها الآن ، وهو على حذف المضاف إليه أي ما كان أكثر فعلها أي وصلها ومودتها » ثم فصّل الشرح قليلاً في لفظة « أكثر » فقال : « وأكثر هنا من قولهم لا كثير ولا طيب ، وليس الكثير هنا من الكثرة التي هي زيادة الأجسام ونحوها ، وانما الغرض فيه البركة والقبول وطيب النفس بالشيء » ثم عرض إلى معنى آخر غير الأول فقال : « ويجوز أن يكون من أكثرها وأقلها عائداً على التحية وهذا واضح » يريد أن المعنى : ما كان أكثر تحيتها لنا فيما مضى ، وما أقل هذه التحية الآن وهو معنى ليس برديء من حيث إن التحية هنا رمز للوصول والمودة ، ولكن ابن جني ذا النظرة يفضّل عليه المعنى الأول القائم على

(١) نفسه ، الورقة ٨ وما يليها.

(٢) مقدمة التنبيه ، الورقة ٢ .

حذف المضاف اليه فيقول : « والأول أعلى معنًى »[1] .

وفي بيت عبدالله بن أوفى الخزاعي :

فَبِئْسَـتْ قِعَـادُ الفَتَـى وَحْدَهَا وَبِئْسَـتْ مُوفِيَةُ الأربَعِ

نراه يوضح مجيء « قعاد الفتى » تمييزاً وان كان معرفة وذلك بقولـه : « ان تعريف الجنس لا يخص واحـداً بعينه فضارع شياعة النكرة » ثم أورد معنى البيت في كلمات قال : « ومعنى البيت أنها إن انفردت بزوجها فهي مذمومة وكذلك إن كان معها ثلاث نسوة تكن بها أربعاً » ، ثم أورد بيتاً يدعم به هذا المعنى قال : « وكان الأصمعي يلقي على أصحابه :

وَاحِـدةٌ أَعْـضَـلَكُـمْ شَـأْنُـهَـا كَـيْـفَ إذَا قُـمْـتُ عَـلَى أَرْبَـعِ

أي لو تزوجت أربع نسوة »[2] .

والحق أن عمل ابن جني في المعاني حتى ما ينعقد منها بالاعراب يعد ضئيلاً جداً ، واذا كان منهج الرجل يقوم في الاصل على إثارة القضايا العلميّة التي تتصل باللغة والاعراب ، فمن الطبيعي ألا نجد له شيئاً يذكر في عنصر المعاني .

٦ - **البلاغة والنقد** :

واذا كانت المعاني ليست من همه فان البلاغة أيضاً ليست من همـه ، لأن الشارح يلجأ إلى البلاغة في الشرح لابراز جمال معاني الشعر ومرامي الشعراء في أداء العبارات ولم يكن هذا من عمل ابن جني ، بل إننا لاحظنا أنه اذا كان في النص لون بلاغي فانه ينظر إلى هذا اللون من وجهة نحـويّة لا من وجهـة بلاغيّة مثـال ذلك أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم الذي ورد في بيت النابغة الجعدي :

فَتَـىً كَمُلَـتْ أَخْلاَقُـهُ غَـيْرَ أَنَّه جَوَادٌ فَما يُبْقِـي مِنَ المَالِ بَاقِيَا

كان موقف ابن جني نحوياً بحتاً ، نقل أولاً قولاً لابن الاعرابي عن ثعلب أنه - أي ابن الأعرابي - لما انشد قول النابغة :

---

(١) المصدر نفسه الورقة ١٧٥ .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٢١٥ .

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ   بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ[1]

قال: هذا استثناء، قيس يقولون غير أن هذا أشرف من هذا وهو أفضل من هذا يكون مدحاً بعد مدح ، وأنشد فيه أيضاً :

فَتىً كَانَ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ   عَلَى أَنَّ فِيهِ مَا يَسُوءُ الأَعَادِيَا
فَتىً كَمُلَتْ أَخْلاَقُه غَيْرَ أَنَّه   كَرِيمٌ فَلا يُبْقِي مِنَ المَالِ بَاقِيا

ثم عالج الأمر من جهة نحويّة فقال : « وهذا الاستثناء على إعرابه جاز بالاستثناء المعهود ألا ترى أنه إذا قال : « فتى كان فيه ما يسر صديقه » جاز أن يظن أنه مقصور على هذا وحده فاذا قال : « على أن فيه ما يسوء الأعاديا» أزال هذا من النفس وصار معناه أن فيه مسرة لأوليائه ومساءة لأعدائه . وليس مقصوراً على أحد الأمرين فهو إخراج شيء من شيء لخلاف الثاني الأول وكذلك قوله :

فَتىً كَمُلَتْ أَخْلاَقُهُ غَيْرَ أَنَّه   كَرِيمٌ فَلاَ يُبْقِي مِنَ المَال بَاقِياَ

كان اتلافه للمال عيباً عند كثير من الناس استثنى هذه الحال فأخرجها في جملة خلال المديح لمخالفتها إياها عندهم وعلى مذهبهم ، وليس شيء يعقد عقد على أصله فيخرج عقد شيء منه في الظاهر إلا وهو عائد إليه وداخل فيه في الباطن »[2] .

وهذه العبارة الأخيرة أشبه بكلام المتكلمين ، وتبعد كثيراً عن كلام البلاغيين في مثل هذا الشعر ، فالبلاغيون وضعوا لهذا المحسّن المعنوي في باب البديع اسماً هو تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وعدّه ابن المعتز من محاسن الكلام ، وهو عندهم ضربان أحدهما جاء في بيت النابغة الذبياني المتقدم ذكره وهو أن يأتي بصفة ذم منفيّة ثم يستثني منها صفة مدح ، والآخر جاء في بيت النابغة الجعدي والبيتين الآخرين ،

---

(١) البيت لنابغة بني ذبيان وهو في مدح بني غسان من قصيدته المشهورة التي مطلعها :
« كِلِينِي لِهَمّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ » ينظر ديوانه ص ٥٩ وما بعدها .

(٢) ينظر مخطوطة التنبيه الورقة ١٤٤ .

وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى[1] .

فهذا المنحى في تناول الألوان البلاغية رأيناه عند المرزوقي ، أما ابن جني فقد كان ينظر إلى الشعر وأساليب الشعراء فيه نظرة نحويّة إعرابيّة ، فلهذا كان من الطبيعي أن يعالج الأمور على هذا النحو الذي رأيناه .

واذا كانت هذه حاله في البلاغة فانه كذلك في النقد لم يخرج عن نطاق تلك النظرة النحويّة إلى ميدان أرحب يبرز فيه جوانب الجودة والضعف في النصوص المختارة من الحماسة ، وكل الذي رأيناه منه في هذا الخصوص أنه كان ينتقد الشعراء في أسلوب نحوي حين يراهم يخرجون في شعرهم عن قواعد الإعراب التي قننها النحاة . ومن أمثلة ذلك وقفته التي وقفها في بيت الحكم بن عبدل في مدح عبد الملك ابن بشر بن مروان :

فَكَأَنَّما نَظَرُوا إلى قَمَرٍ ... أوْ حَيْثُ عَلَّقَ قَوْسَهُ قُزَحُ

نظر إلى تركيب « علّق قوسه قزح » فقال : « قال النحويون في الاخبار عن المضاف اليه هو على ضربين : أحدهما تحته حقيقة معنى نحو صاحب زيد وغلام بكر ، والآخر ما لا حقيقة معنى تحته نحو قولهم : ابن قترة ، وحمار قبان ، وسام ابرص ، وأبو براقش ، وبنات أوبر ، وأبو الحصين ، وأم حنين ، وبنات نعش ، فكل واحد من هذه الأسماء المضاف اليها لا يقصد به قصد شيء معروف ، وانما هي معارف لفظيّة لا معنويّة » ثم وضّح أن الضرب الأول يجوز الاخبار عنه فاذا أخبرت عن زيد من قولك هذا غلام زيد قلت : هذا الذي غلامه زيد . وأما الضرب الثاني فلا يجوز الاخبار عن شيء منه ، ألا تراك لو أخبرت عن قبان من قولك هذا حمار قبان للزمك أن تقول : الذي هذا حماره قبان ، فتومىء الى أمر مجهول لا صحة معنى تحته ، فتخبر عنه ، ولا يحصل في اليد شيء منه ، واذا كان كذلك كان قوله : « حيث علّق قوسه قزح » شاذاً عما انعقد عليه قانون هذا القبيل ، ألا ترى أنه لا معنى

---

(١) ينظر في هذا معجم البلاغة العربيّة ١ : ٣٥ وما يليها .

لقزح فتخبر عنه بتعليقه « قوسه » فابن جني اذن يعتبر تركيب ابن عبدل شاذاً خارجاً عن قانون النحو وأن ضرورة الشعر هي التي دعت اليه ، ولكنه مع ذلك يحاول أن يضع له عذراً في هذا الشذوذ بقوله : « ان الشاعر ربما يلعب بكلامه كثيراً » ثم ينتقد تفسيراً لقزح في هذا البيت فيقول : وقول من قال ان قزح شيطان تمحل منه »[1] .

هذا هو عمل ابن جني في شرح الحماسة ، وتلك هي معالجته لعناصر الشرح فيه ، وهي معالجة - كما اتضح لنا بعد هذا العرض - رهينة المنهج الذي سلكه صاحبها ، وهو منهج علمي متخصص في مجالات معينة من الشرح ، مجال المشاكل التي تثيرها النصوص في اللغة ، وما يلحق بها من اشتقاق أو تصريف ، ومجال المسائل الاعرابيّة وما يتصل بها من خلافات بين النحاة ، ومجال المشكلات التي تتصل بالعروض والقوافي ، أو تتصل بشذوذ التراكيب في استخدام الشعراء . ولقد كان ابن جني يتحرك في هذه المجالات بأسلوب يغلب عليه الطريقة الجدليّة المتأثّرة أحياناً بطرق المتكلمين في التعبير ، وهو أسلوب قد يثير في نفوسنا المتعة الذهنية ولكنه خال من الاثارة الوجدانية التي رأيناها عند المرزوقي بأسلوبه الأدبي ، وربما التقى ابن جني مع المرزوقي في الجنوح أحياناً إلى طريقة المعلمين في التعبير ، غير أن غلبة أداء العبارات عند الرجلين جد مختلفة ، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى دلالة ، يستطيع أن يدركه بوضوح كل من يقف على أسلوب الرجلين .

---

(١) ينظر مخطوطة التنبيه ، الورقة ٢١١ وما يليها .

الفصل الرابع

المنهج التتبعي التقويمي

وتطبيه في عملي أبي هلال وأبي محمد الأعرابي

سبق أن أوضحنا أن هذا المنهج يقوم على أعمال السابقين لا ليجمِّعها وينتخب منها كما هو الحال في المنهج التجميعي الانتخابي ، وانما ليتتبعها ويقوّم ما فيها من أخطاء وأوهام ، فهو منهج يقوم على تصحيح ما ورد في شروح الآخرين سواء من حيث رواية الشعر أو شرحه ، ولقد أشرنا إلى أن هذا المنهج يمكن أن يطبق في عمل رجلين من العلماء الذين اهتموا بحماسة أبي تمام هما : أبو هلال العسكري في رسالته « ضبط مواضع الحماسة » وأبو محمد الأعرابي في كتابه « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » .

أ ـ أبو هلال ورسالته[1] :

فأما أبو هلال فان له عملين في الحماسة أحدهما شرحه للحماسة الذي سبق ايراده في ثبت الشروح ، وليس هنا موضع دراسته، إذْ له موضع آت إن شاء الله ، أما ما يهمنا الآن فهي رسالته التي صنعها متتبعاً رواية أحد الشيوخ لمتن الحماسة

---

(١) هو الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، كان تلميذاً لأبي أحمد العسكري أخذ عنه فأكثر ، وأخذ عن غيره ، أهم مؤلفاته كتاب الصناعتين في الشعر والنثر ، وكتاب جمهرة الأمثال ، وكتاب ديوان المعاني ، وجميعها مطبوع . وله كتب مخطوطة مثل كتاب المحاسن في تفسير القرآن ذكر بروكلمان ٢ : ٢٥٤ أنه مخطوط بطهران ، وهذه الرسالة في ضبط مواضع من الحماسة . توفي ـ فيما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، سنة ٣٩٥ هـ ، وقال القفطي إنه عاش إلى بعد ٤٠٠ هـ ، ولم يجدد تاريخ وفاته وكذاك فعل ياقوت . ترجمته في معجم الأدباء ٨ : ٢٥٨ وما بعدها ، وأنباه الرواة ٤ : ١٨٣ ، وبغية الوعاة ٥٠٦ .

ضابطاً ومقوماً ما رآه من مواضع زلل فيها ، قال في مقدمة هذه الرسالة : « مرّ بي في نسخة الحماسة بخط بعض أجلاء الشيوخ ، وذكر أنه قرأها على أبي بكر الخياط وأبي الحسن المهرباني[1] مواضع لم تضبط حق الضبط ، ولم تجر على سنن العدل ، فرأيت الابانة عن مواقع الزلل منها لئلا أنسب إلى الخطأ إذا رويت خلافها »[2] ، فاذا نظرنا إلى هذه الرسالة وجدنا أن عمل أبي هلال فيها يقوم على ثلاثة جوانب : أولها التصحيف الذي يحدث في روايات الحماسة فيؤدي إلى فساد في المعنى ، وثانيها التحريف الذي تنجم عنه عدة أمور ، منها خلل المعنى أو خلل الإعراب أو خلل الوزن ، أو خلل أن يجري الكلام على غير المألوف عند العرب ، وثالثها الخطأ في نسبة الشعر إلى قائله ، وهو في هذه الجوانب الثلاثة كان يعتمد في تبيان كلّ ما يطرأ له من زلل في الرواية على علوم اللغة والنحو والصرف والأخبار التاريخية وعلم العروض ، وعلى ثقافته الواسعة في الموروث من العلم والأدب ، وعلى إدراكه العميق لمعاني الشعر ومرامي الشعراء ، وذوقه الخاص في فهم الشعر ، ومعرفة دقائق القول فيه .

ففي الجانب الأول الخاص بالتصحيف نراه يبينّ ما وقع فيه الشيخ صاحب النسخة من تصحيف في رواياته . ولا شك أن أبا هلال قد أفاد في هذا الجانب من شيخه أبي أحمد العسكري صاحب كتاب « شرح ما يقع فيه التصحيف »[3] ، فهو وإن لم يشر إليه في رسالته فإن تلمذته له تدفعنا إلى القول بأنه أفاد من شيخه في هذا الجانب بدلالة ما جاء عنه في بيت قيس بن الخطيم الذي يقول فيه :

---

(١) هو أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور المعروف بابن الخياط النحوي ، أصله من سمرقند وقدم إلى بغداد ، كان معاصراً للزجاج وناظره في النحو ، وكان يخلط المذهبين البصري والكوفي ، توفي سنة ٣٢٠هـ . وله من الكتب كتاب معانى القرآن ، وكتاب النحو الكبير وكتاب الموجز في النحو، وكتاب المقنع في النحو . ترجمته في معجم الأدباء ١٧ : ١٤١ وما يليها ، وانباه الرواة ٣ : ٥٤ ، ونزهة الالباء ص ٢٤٧ ، وبغية الوعاة ١ : ٤٨ .

أما أبو الحسين المهرياني فلم نعثر له على ترجمة في المظان .

(٢) ينظر مخطوطة هذه الرسالة الورقة ٢ .

(٣) طبع هذا الكتاب بتحقيق من عبد العزيز أحمد ، وطبعته مطبعة البابي الحلبي بمصر .

إِذَا مَا شَرِبْــتُ أَرْبَعــاً خَطَّ مِئْزَرِي وَأَتْبَعــتُ دَلْـوِي فِي السَّماحِ رِشَاءَهَا

فقد قال أبو هلال فيه : « رواه هذا الشيخ « حط مئزري » بالحاء ، ورواية الناس « خط » بالخاء ، قال خالد بن كلثوم[1] وأبو عمرو الشيباني[2] : خطَّ مئزري أي أرخاه فخطّ في الأرض ، وكانوا يُسبلون أطراف الأزر فتخط أهدابها في التراب أي تشقه ، والخط الشق قال النابغة :

أَعَلمْــتَ يَوْمَ عُكَاظَ حِـينَ لَقِيتَنِي تَحْتَ العَجَـاجِ فَما خَطَطْــتَ غُبَارِي

أي ما شققته » وهذا الكلام موجود في كتاب أبـي أحـمد العسكري المشار اليه آنفاً[3] ، وقال أبو هلال عن رواية « حط » المصحّفة إن حط المئزر إنزاله عن الحقو ، وليس ذلك مما يمدح به »[4] .

والتصحيف كما رأينا في هذا المثال قد يقع بسبب الخطأ في الاعجـام ، لأن الكلمة إذا أسقط الاعجام في حرف من حروفها أدت إلى معنى مغاير للمعنى المراد كما وضّح في خطّ وحط ، ومثله أيضاً ما وقع في بيت تأبط شراً القائل :

عَلَى غِرَّةٍ أَوْ جَهْــرَةٍ مِنْ مُكَانِسٍ أَطَالَ نِزَالَ الـقَوْمِ حـتـى تَشَـعْشَعـا

فقد جاءت رواية الشيخ له باسقاط الإعجام في كلمة « تشعشعا » فصـارت « تسعسعا » وهذا ما دفع أبا هلال إلى أن يقول موضحاً الفرق بين اللفظين قال : « التسعسع بالسين الادبار والهرم ، والتشعشع بالشـين معجمـة من قولهـم رجـل شعشعاع أي حلو فأراد أنه أكثر من الطعان حتى حذقه وصار لبقاً حلواً اذا فعله لأنه لا يتكلفه ، ونحوه قول الآخر[5] :

---

(١) هو خالد بن كلثوم الكوفي ، لغوي راوية لأشعار القبائل وأخبارها ، وكان عارفاً بالانساب والألقاب وأيام الناس ، وله صنعه في الاشعار والقبائل . ترجمته في أنباه الرواة ١ : ٣٥٢ .

(٢) له ترجمة في الكتاب الثاني .

(٣) ينظر شرح ما يقع فيه التصحيف ص ٢١٤ وما بعدها .

(٤) ينظر الورقة الثانية من مخطوطة الرسالة .

(٥) هو عبد يغوث بن صلاءة الحارثي وصدره « وَكُنْتُ إِذَا مَا الخَيْلُ شَمَّصَها القَنَا » .

لَبِقاً بِتَقْلِيبِ القَنَاةِ بَنَانِيَا

وإذا كان تأبط شراً يعني نفسه بهذا البيت فإن أبا هلال يلجأ إلى ما ذكره الرواة عن صفاته حتى يدلل أن الرواية تشعشع بالشين لا بالسين قال : «وقد أجمع الرواة على أن تأبط شراً قتل وهو شاب ، ولم يكبر فيتسعسع ، وفي هذه المقطوعة ما يدل على ذلك وهو قوله :

فَلَمْ تَرَ مِنْ رَاءٍ فَتِيلاً وَحَاذَرْتْ   تَأَيُّمَهَا مِنْ لابِسِ اللَّيْلِ أَرْوَعَا

والأروع هو الجميل الذي يروع النظر منظره ، ولو قد تسعسع لم يرع ، ومنها :

رَأَيْنَ فَتَىً لاَ صَيْدُ وَحْشٍ يَهُمُّهُ   فَلَوْ صَافَحَتْ إِنْسَاً لَصَافَحْنَهُ مَعَاً

والهرم المدبر من الرجال لا يسمى فتى »[1] .

وفي الجانب الثاني الخاص بالتحريف في الرواية يتضح لنا من مناقشة أبي هلال له ان التحريف قد يقع في الضبط فيؤدي ذلك إلى فساد في المعنى أو إلى فساد في المعنى والاعراب معاً ، ومن أمثلة فساد المعنى وجعله رديئاً ما جاء عن الشيخ صاحب النسخة في ضبط لفظة وردت في بيت جريبة بن الأشيم القائل :

وَقَدْ شَبَّهُوا العِيرَ أَفْرَاسَنَا   فَقَدْ وَجَدُوا مَيْرَهَا ذَا شَبِمْ

قال أبو هلال : « رواه هذا الشيخ » وقد شبهوا العَيْرَ أفراسنا « أي بفتح العين وسكون الياء في « العير » قال : وهو خطأ وذلك أن الأفراس لا تشبه بالعير الواحد وان شبهت به كان رديئاً لا يقوله مجيد ، وأيضاً فان العير ليس له مير ، والرواية الصحيحة العِيرَ والمراد أنهم لما غزوناهم فرأوا أفراسنا من بعيد ظنوها عيراً أي ابلا تحمل الميرة فابتدروها فصادفوا ميرها » ثم فسرّ ذا شيم بقوله أراد ذا موت واستدل على ذلك بقول خداش بن زهير :

---

(١) ينظر مخطوطة الرسالة ، الورقة ٤ .

بَـيْنَ الأَرَاكِ وَبَـيْنَ المَرْخِ تَشْدَخُهُمْ   زُرْقُ الأَسِنَـةِ فِي أَطْرَافِهَـا الشَّبِمُ

أي في أطرافها الموت»[١] .

ومثل ذلك في تحريف الضبط وفساد المعنى ما جاء في قول أبي عطاء السندي :

فَإِنَّـكَ لَمْ تَبْعُـدْ عَلَى متعهدٍ   بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْـتَ التُّـراب بَعِيدُ

فقد رواه هذا الشيخ صاحب النسخة « لم تبعد » بفتح العين من قولك : بعد الرجل يبعد اذا هلك . قال أبو هلال معلقاً على هذا التحريف : « وليس هذا بالجيد والجيد هاهنا فانك لم تبع » بضم العين من قولك بعد يبعد لقوله : « كل من تحت التراب بعيد » ولو قال : فانك لم تبعد لم يحسن إلا أن يقول في آخر الخطاب بعد ، ومن حق الصنعة أن يرد ما ابتدأ به كقولك : من اجتم سواء حق به ما اجترم ولم يحسن أن تقول حق به ما اكتسب ، فانه قال لم تبعد على متعهد ، ومن العادة أن يقال انك لم تبعد عليّ لتعهدي اياك بالذكر ، وليس من العادة أن يقال انك لم تمت عليّ لتعهدي اياك بالذكر »[٢] .

ومن أمثلة تحريف الضبط الذي يؤدي إلى فساد الاعراب والمعنى معاً ماوقع فيه الشيخ في بيت هلال بن زر أحد بني ثور بن عبد مناة بن أد وهو :

أَجَـادَتْ وَبْـلَ مُدْجِنَـةٍ فَدَرَّتْ   عَلَيْهِـمْ صَوْبَ سَارِيَةٍ دَرُورُ

فقـد روي الشيخ « صـوب » بالرفـع ، قال أبـو هلال : « والصـواب » « صوب » بالنصب ، أراد أن الحرب أجادت فحذفهـا لدلالـة الخطـاب عليهـا ، وصوب منصوب على تأويل المصدر أي أجادت الحرب صوب سارية ، ودرور مرفوع جعله نعتاً للسالأرية على المعنى لأنها في المعنى رفع ، ويجوز أن يكون درور نعتـاً لمحذوف أي أجادت حرب صوب سارية » هذا هو وجه النصب عند أبي هلال . أما الرفع فقد قال فيه : وصوب بالرفع غير جائز لقولـه أجـادت ولا يجـوز أن يؤنـث

---

(١) المصدر نفسه ، الورقة ٦ .

(٢) ينظر المصدر نفسه الورقة ١٠ .

الصوب على تأنيث السارية كما فعل في « شرقت صدر القناة » و « تَضعضعت سور المدينة » لأن الصوب ليس بعض السارية بل السارية طرف له ، وطرف الشيء ليس منه ، ولا يكون صوباً إلا إذا انفصل عنه ، وصدر القناة من القناة ، وسور المدينة من المدينة »[١] .

ومثلما يؤدي التحريف الى فساد في الاعراب والمعنى يؤدي الى اختلال في وزن الشعر ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في البيت القائل :

تَبْكي عَلى بِكْرٍ شَرِبْتُ بِهِ سَفَهاً تَبَكِيّهَا عَلى بكْرِ

رواه الشيخ « تبكّي » بتشديد الكاف وضم التاء ، قال أبو هلال : والبيت اذا روي كذلك كان مكسوراً »[٢] .

وكذلك الأمر في البيت القائل :

وَلَسْتُ بِلَوَّامٍ عَلى الأَمْرِ بَعْدَمَا يَفُوتُ وَلَكِنْ عَلَّ أَنْ أَتَقَدَّمَا

فقد قال أبو هلال فيه : « ذكر الديمرتي أن علّ هاهنا بمعنى لعلّ وعقّب على هذا بقوله : «علّ هو الأصل مزيد عليه اللام ، ويجيء لعلّ بمعنى الايجاب ، والمراد ولكن أوجب على نفسي التقدم في الأمور والاجتهاد في أن لا يفوت » ثم أشار الى رواية الشيخ التي أدت الى اختلال الوزن فقال : « ورواه هذا الشيخ ولكن عليّ أن أتقدما ، والبيت مكسور على هذه الرواية »[٣] .

كذلك قد يؤدي التحريف في الروايةإلى الوقوع في عيب من عيوب الشعر التي يتحاماها الشعراء المجيدون ، وينأون عن الوقوع فيها ، ومن ذلك ما جاء في باب المراثي من قول هشام أخي ذي الرمة وهو :

هَوَى المَسْجِدُ المَعْمُورُ بَعْدَ ابنِ دَهْمٍ وَأَمْسَى بِأَوْفَى أَهْلُهُ قَدْ تَضَعْضَعُوا

---

(١) المصدر نفسه الورقة ٣ .

(٢) نفسه الورقة ١١ .

(٣) نفسه الورقة ١٤ .

قال أبو هلال : « رواه هذا الشيخ «قد تصدعوا» وتضعضعوا أجود لأن روي البيت الذي قبل هذا البيت تصدّع والبيت :

نَعـوا بَاسِـقَ الأَخْـلاَقِ لاَ يَخْلُفُونَهُ تَكَادُ الجِبَـالُ الشُّـمُ مِنْـهُ تَصَدَّعُ

ولم يكن هشام ليوطىء في بيتين متواليين ومع امكان القوافي له ، واذا وقع الايطاء في بيتين متباعدين في القصيدة كان أقلّ عيباً ، وكلما تقاربا كان عيبه أشد فاذا تواليا فهو غاية في العيب ولا نعرفه لمجيد »[1] فكأنّ أبا هلال يرى أن رواية الشيخ قد نفت عن الشاعر الجودة حيث جعلته يقع في غاية العيب من الايطاء ، وهذا بطبيعة الحال يمتنع معه أن يكون من ذوي الاختيار في الحماسة ، وهو اختيار بناه صاحبه على الجيد من القول .

وقد يؤدي التحريف الى مخالفة الكلام لما هو جار على عادة العرب ، وذلك مثل قول برج بن مسهر :

فَقُمْنَـا والـرِكَابُ مُخَيَّسَاتٌ إِلى بُزُلٍ مَرَافِقُهُـنَّ كُومُ

فقد عرض أبو هلال لشرح معنى الركاب ومعنى مخيسات قبل أن يتصدى لتحريف الشيخ في رواية هذا البيت قال : « الركاب الابل لا واحد لها من لفظها ، والمخيسات المذللات والتخييس التذليل، ومنه قيل للسجن مخيّس ، وأصل الكلمة من اللين يقال : خيّست الكتان إذا ألقيت بعضه على بعض في الماء ليلين » ثم تصدى لتحريف رواية الشيخ فقال : « رواه هذا الشيخ محبسات على أنها تحبس ولا أعرف ما الذي تحبسه الركاب ثم تناول تحريفاً آخر ، وهو أن يروي البيت « مخيسات » قال : «ولعل قائلاً مخيِّسات أنها تخيّس أصحابها أي تذلّلهم» فرد هذه الرواية بقوله : « فيكون ذلك قولاً مردوداً لأنه ليس من عادة العرب أن يصفوا الإبل بتذليل أصحابها وانما العادة أن يصفوها بالذل ـ وهو خلاف الصعوبة ـ فيقولوا : ناقة مياسرة اذا كانت لا تصعب على راكبها فالوجه أن يروي ها هنا « مخيَّسات » بالفتح ليكون الكلام جارياً على عادة العرب»[2] .

---

(١) ينظر الورقة ٩ من مخطوطة الرسالة .

(٢) المصدر نفسه ، الورقة ١٦ .

على أنّ أهم ما تعرض اليه أبو هلال من تحريف في الرواية هو قضيّة ارجاع الضمائر على الوجه الصحيح الذي يسير وفق ضوابط اللغة ، ووفق طريق الصنعة في الشعر فضلاً عن أداء المعنى بالصورة التي أرادها الشاعر ، وهو أمر سبق أن تعرضنا له في حديثنا عن ابن جني الذي تكلّم في مسألة إرجاع الضمائر من حيث التذكير والتأنيث ، وما انتهى إليه الأمر بينه وبين أبي الطيب المتنبي في هذا الخصوص[1] ، فأبو هلال في رسالته هذه رأيناه يهتم كثيراً بهذا الجانب في رده روايات هذا الشيخ ، وذلك لأن إعادة الضمير إلى غير وضعه الصحيح تؤدي إما إلى خلل في قواعد العربيّة التي قعّدها النحاة أو الى قلب في المعنى . ومثال ما يؤدي إلى خلل في قواعد العربيّة ما جاء في البيت القائل :

إنَّ الأُمُـورَ دَقِيقَهَا مِمَّـا يَهِيجُ لَهُ العَظِيمُ

فقد جاءت رواية الشيخ فيه « مما يهيج لك » فقال أبو هلال : « ليست هذه الرواية بالمستقيمة ، وذلك أن الأمور منصوب بأنّ ، ودقيقها بدل من الأمور ، ومما يهيج . . . الى آخر البيت خبر ، والهاء في « له » راجعة إلى اسمها من الخبر ولو قال : « لك » لما صح الكلام لأنه ليس له في الخبر راجع إلى لاسم يرتبط به الكلام »[2] .

أما مثال ما يؤدي الى قلب المعنى عما هو مراد له فقد جاء في بيت الغزل وروايته الصحيحة هكذا :

أَرَادَتْ لِتَنْتَـاشَ الـرِواقَ فَلَـمْ تَقُمْ إلَيْهِ وَلَـكِنْ طَأْطَأَتْـهُ الوَلائِدُ

فقد رواه الشيخ صاحب النسخة « طأطأتها » بتأنيث الضمير بدلاً من تذكيره فقال أبو هلال مناقشاً هذا التحريف بادئاً بمعنى البيت : « يصف امرأة بالكسل والنعمة ، ويذكر أنها مكفيّة أي أنها أرادت لتتناول رواق البيت لغرض لها فيه فلم تقم لتكاسلها عن حوائجها ولكن طأطأت الولائد وهي الاماء الرواق اليها فقضت من تناولها وطرها من غير أن تتجشم القيام اليه ، والتناوش التناول . ومنه قوله

---

(١) يراجع فصلنا السابق في دراسة ابن جني .

(٢) ينظر مخطوطة الرسالة الورقة ١٥ .

تعالى : « وأنى لهم التناوش من مكان بعيد »[1] ، ثم عرض لرواية الشيخ « ولكن طأطأتها الولائـد » قال : أي طأطـأت هذه المرأة وليس لذلك معنـى هنـا البتـة ، وطأطأتها باعدتها عن انتياش الرواق وهذا قلب المراد هنا »[2] .

وفي الجانب الثالث والأخير نرى أبا هلال يهتم بنسبة الشعر إلى قائليه ، ففي القطعة الواردة في باب الهجاء ، والتي نسبها أبو تمام الى أبي الأسد في هجاء الحسن ابن رجاء ، وهي من بيتين هما :

فَـلأَنْـظُـرَنَّ إلى الجِبَـالِ وَأَهْلِهَا وَإلى مَنَابِرِهَـا بِطْـرفٍ أَخْزَرِ
مَازِلْـتَ تَرْكبُ كُلَّ شَيءٍ قَائِمٍ حَتَّـى اجْتَـرَأْتَ عَلى رُكوبِ المِنْبَرِ

حرّف الشيخ صاحب النسخة اسم الشاعر إلى « أبو الاسـود » فقـال : أبـو هلال مصححاً إياه : « وهو غلط إنما هو أبو الأسد التميمي واسمه نباتة بن حمّان ، ويعرف بأبي الأسد الدينوري شاعر رشيدي ، وليس بأبي الأسود الدؤلي ، وذلك أنّ أبا الأسود في أيام أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ والحسن بن رجاء في بعض أيام بني العباس[3] .

ومثل ذلك ما وقع الشيخ من تحريف لاسم أبي الطمحان الأسدي ، وذلك في أبيات وردت في باب الملح قالها أبو الطمحان الأسدي لمّا حلق صاحب الشرطة يوسف بن عمر لمته ومطلعها :

وبالحِـيرَةِ البَيْضَـاءِ شَيْخٌ مُسَلَّطٌ إذَا حَلَفَ الأَيْـمَـانَ بِاللهِ بَرَّتِ

قال أبو هلال : « رواه هذا الشيخ أبو الطمحان القيني وهو خطأ ، وذلك أن أبا الطمحان القيني جاهلي واسمه حنظلة بن شرقي . وقيل : بل اسمه ربيعة بن عوف بن غنم بن كنانة بن القين بن جسر القائل :

أضـاءت لَهُمْ أَحْسَـابُهُمْ ووجُـوهُهمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّـى نَظَّـم الجِـزْعَ ثَاقِبُهْ

---

(١) الآية ٥٢ من سورة سبأ .

(٢) ينظر الرسالة ، الورقة ١٧ .

(٣) المصدر نفسه الورقة ٢١ .

وفيهم أبو الطمحان النهشلي وكان يهاجي أم الورد العجلانيّة، وأبو الطمحان الأسدي هذا الذي أنشد له أبو تمام « وبالحيرة البيضاء » وأنشد له الأخفش قال نقلته من خط ثعلب :

كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بالقَصْرِ قَصْرِ مُقَايِلٍ وَزَوْرَةَ ظِلٌ نَاعِمٌ وَصَدِيقُ

وهي أبيات . وأبو الطمحان الطائي أنشد له الجاحظ في الحيوان :

يَا أُمَّ لاَرَقِيَتْ عَينٌ بَكَيْتِ بِهَا وَلاَ جَرَتْ لَكُمُ طَيْرُ المَيَامِينِ

وهي أبيات .

وختم أبو هلال هذا التوضيح فيمن اسمه أبو الطمحان بقوله : « فهؤلاء آباء الطمحان ، والقيني منهم جاهلي من غير خلاف ، ويوسف بن عمر عامل لهشام بر عبد الملك » ثم أضاف أن الحسن بن بشر الآمدي ذكر من يقال له أبو الطمحان ، فذكر أبا الطمحان القيني ، وأبا الطمحان النهشلي ، وأبا الطمحان الأسدي ، وأبا الطمحان الطائي ، وأفاد بأن الأسدي التبس أمره على الرواة وأشكل حتى حسبوه أبا الطمحان وانما هو أبو الطمخاء ، واسمه طخيم أنشد له أبو حاتم والمبرد »[1] .

وهكذا رأينا أبا هلال العسكري من خلال عمله في هذه الرسالة التي تتبع فيها رواية أحد الشيوخ بالاصلاح والتقويم يحقق منهجاً في التأليف ومنهجاً في معالجة ما تناوله من تقويم واصلاح ، وقد كشفت لنا هذه التقويمات والاصلاحات عن ثقافة أبي هلال في فن الشعر ، وما تقتضيه هذه الثقافة من معرفة بعلم النحو واللغة والصرف والعروض ووقوف على الأنساب والأخبار التاريخية ، الأمر الذي يؤكد ما قلناه سابقاً ان أصحاب هذا المنهج ذوو ثقافة عالية في جميع لعلوم التي تشكل عناصر

---

(١) ينظر مخطوطة الرسالة الورقة ٢٦ وما يليها . والأخفش أبو الحسن وأبو العباس ثعلب وأبو حاتم السجستاني وأبو العباس المبرد جميعهم لهم تراجم في الكتاب الثاني من هذا البحث . وهذا الشاعر ورد في الكامل للمبرد ١ : ٢١ باسم طخيم بن أبي الطخماء بتقديم الخاء لا كما ورد في رسالة أبي هلال ، وقد أورد له المبرد الأبيات « كأن لم يكن بالقصر » مع بعض الاختلاف .

الشرح في الشعر ، غير أننا ونحن نقول هذا القول ينبغي أن نسجل ملاحظتين من خلال ما رأيناه من عمل لأبي هلال في هذه الرسالة . إحداهما أن أبا هلال وهو العالم المتصدّي لأعمال السابقين ، يقومها ويصوّب ما فيها من زلل ، كان عليه أن يتحاشى الوقوع في الوهم ، حتى لا يصحح وهماً ليبقي على وهم آخر ، فقد رأيناه يقع في هفوة هو في رأينا أكبر منها ، ذلك أنه لما صحح رواية الشيخ في بيت لأبي عطاء السندي قال : « وقول أبي عطاء السندي يرثي يعقوب بن داؤد :

فَإِنَّـكَ لَمْ تَبْعُـدْ عَلَى مُتَعَهِّدٍ ... بَلَـى كُلُّ ما تَحْـتَ التُّـرَابِ بَعِيدُ »[1]

والبيت من أبيات أربعة قالها أبو عطاء السندي في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة لا في رثاء يعقوب بن داؤد وزير المهدي المشهور ، يدلنا على ذلك أن الطبري ذكر في تاريخه أن يزيد بن عمر بن هبيرة لما قتل على يدي المنصور ودفن بواسط قال أبو عطاء السندي :

أَلاَ إِنَّ عَيْنَـاً لَمْ تَـجُـدْ يَوْمَ وَاسِطٍ ... عَلَيْكَ بِجَـارِي دَمْعِهَـا لَجَمُودُ

وروى بعدها أبياتاً ثلاثة منها البيت الذي أورده أبو هلال »[2] .

وكذلك أورد الأبيات ابن قتيبة في الشعر والشعراء ولكنه وهم وقال : إنها في رثـاء عمر بن هبيرة أبي يزيد[3] ، ويتضح وهمه هذا من أن أبا الفرج الأصفهاني ذكر لنا علاقة أبي عطاء السندي بيزيد بن عمر بن هبيرة ، ولم يشر إلى أية علاقة بينه وبين عمر بن هبيرة[4] ، كما أن صاحب مراتب النحويين أبا الطيب اللغوي أفاد بأن ذكر أبي عطاء قد ورد عند الأصمعي ذات يوم فطعن أحد الحاضرين في شعره فقال الأصـمعي : أخبرني أبو جندل الراعي قال : لما دفن يزيد بن عمر بن هبيرة قال أبو

---

(١) ينظر الورقة ١٠ من مخطوطة الرسالة .

(٢) ينظر تاريخ الطبري ٩ : ١٤٦ .

(٣) الشعر والشعراء ٢ : ٦٥٣ .

(٤) ينظر ترجمة أبي عطاء في الأغاني ١٦ : ٧٨ وما بعدها .

عطاء ، وروى أبيات الرثاء الأربعة ، ثم أردف الأصمعي قائلاً : أفيقال لهـذا لا يحسن ؟ ! »[1] .

وهذه الروايات جميعها تؤكد أن الأبيات في رثاء يزيد بن عمر بن هبيرة ولا صلة ليعقوب بن داؤد بها .

أما الملاحظة الثانية فهي تتصل بما يصنعه شراح الحماسة من مفاضلة بين الروايات ، وذلك أننا بعد أن قرأنا رسالة أبي هلال هذه اتضح لنا أن هناك اختلافاً فيما يفضله أبو هلال من رواية ، وما فضله الامام المرزوقي من رواية ، فقد سبق أن مرّ بنا في دراستنا لعمل المرزوقي في الحماسة أنه قد اختار رواية بيت مرة بن محكان في وصف جازر ناقة على هذا النحو :

يُنَشْنِشُ اللَّحْمَ مِنْهَا وَهْيَ بارِكَةٌ كَما يُنَشْنِشُ كَفّا قَاتِلٍ سَلَبَا

وأشار الى أن بعضهم قد روى « كما تُنَشْنِشُ كفا قاتل سلبا » ولكنه قال : ان الرواية الأولى أجود وأكثر مشابهة »[2] ، وهذه الرواية التي اختارها المرزوقي ووصفها بالجودة هي ذاتها التي اختارها الشيخ صاحب النسخة التي تعقبها أبو هلال بالتصحيح والتقويم ، وكان أن قال عن رواية « كفا قاتل » انها تصحيف والقاتل لا يقطع السلب ولا يعسر عليه أخذه »[3] . ويبدو أن المرزوقي نظر الى المشابهة بين قاتل القتيل وناحر الناقة ، وان القاتل يسلب القتيل عدة حربه كما أن الجازر يسلب الناقة لحمها أما أبو هلال فقد وقف عند معنى لفظة النشنشة وفسرها بمعنى القطع أو الأخذ بمعاسرة ، ثم نظر الى أن القاتل لا يقطع سلب قتيله ولا يأخذه في معاسرة ولذلك حكم بأن رواية « كفا قاتل » بالقاف تصحيف .

والحق أن اختلاف وجهات النظر في تفضيل رواية على أخرى عند شراح الحماسة يعد عملاً قائماً بذاته ويحتاج إلى استقصاء دقيق ، وحسبنا أن نشير إليه فقط

(١) مراتب النحويين ص ٤٥ وينظر الأمالي ١ : ٢٧١ فقد أشار أيضاً أنها في رثاء ابن هبيرة .
(٢) ينظر شرحه ٤ : ١٥٦٨ .
(٣) ينظر مخطوطة رسالته الورقة ٢٢ .

لكي ندلل على أن المفاضلة بين رواية وأخرى اذا قامت على الرؤية الذاتية من الشارح أو ذوقه الخاص فان الاختلاف بينه وبين غيره من الشراح لا بد أن يقع لأن الرؤى مختلفة والأذواق متفاوتة .

ب / أبو محمد الأعرابي وكتابه : إصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري[1] :

وأما أبو محمد الأعرابي فلم يعرف له عمل في الحماسة سوى هذا الكتاب الذي ألفه في الردّ على أبي عبدالله النمري ، وقد أوضح سبب تأليفه في أول الكتاب قال : « حضرت المجلس العادلي العالي[2] ـ نوّره الله ـ ذات ليلة ، فجرى ذكر أبي عبدالله النمري ـ رحمه الله ـ فأثنى عليه بعض الحاضرين ، وذكر أنه كان شيخ البصرة في زمانه فضلاً ، ونبلاً ، ودرايةً ، ورواية ، قد استخرج معاني الأبيات من أبيات الحماسة هو فيها السابق المبرز والجواد المبرّ ، فقلت : شاكه أبا يسار ، تأملت ما فسرّه الشيخ من تلك الأبيات أولاً وثانياً فوجدت في خلال ذلك خللاً كثيراً ، إمّا قصوراً أو تقصيراً ، فقال لي : عنتاً باطلاً وظلماً ، ان كنت صادقاً فيما تدعيه فجرّد لنقيضها كتاباً يدل على صحة دعواك وقد أمهلتك سنة ، فأمليت كتابي هذا بعون الله في مدة

(١) هو أبو محمد الأعرابي الحسن بن أحمد المعروف بالأسود الغندجاني ، نسبة إلى غندجان، بفتح وسكون في القاموس ، وضم وسكون في معجم البلدان، بلد بفارس ، كان علاّمة نسّابة عارفاً بأيام العرب وأشعارها قيماً بمعرفة أحوالها ، له من الكتب كتاب السل والسرقة . وكتاب فرحة الأديب ، وكتاب ضالة الأديب ، وكتاب قيد الأوابد ، وكتاب الرد على النمري ، ومن هذه الكتب كتابان مخطوطان أحدهما فرحة الأديب بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤٢١ ، ٨٠ ش ، ٧٨ أدب ، والآخر كتاب الرد على النمري، هذا الذي ندرسه ، وهو بدار الكتب أيضاً تحت ١٨٤١ أدب . ومنه نسخة أخرى برقم ٨٠ ش أدب ، وتوفي أبو محمد الأعرابي فيما ذكر القفطي سنة ٣٤٦هـ . ترجمته في نزهة الألباء ص ٤٦٦ ، ومعجم الأدباء ٧ : ٢٦١ وما بعدها ، وانباه الرواة ٤ : ١٦٨ وما يليها ، وبغية الوعاة ١ : ٤٩٨ وما يليها .

(٢) أراد بذلك مجلس الوزير العادل أبي منصور بهرام بن ما فنّة وزير الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه صاحب شيراز ، وكان أبو محمد الأعرابي يعيش في كنف هذا الوزير ونال من جهته سعادة ووفرة رزق . ينظر ياقوت في معجم الأدباء ٧ : ٢٦٤ .

أسبوع وبيّنت مواضع الزلل فيما فسرّ أبو عبدالله ، وأثبت الصواب تحت كل بيت ، وجعلت ذلك خدمة للمجلس العادلي العالي ، وبالله التوفيق »[(١)].

ونفهم من هذه المقدمة أمرين أحدهما أنه ألّف هذا الكتاب بدافع من التحدي واظهار المقدرة على التصدي بالنقد والتقويم لأعمال من سبقه ، والآخر أن العجلة كانت صفة من صفات هذا التصنيف ، إذ ألّفه في مدة لا تتجاوز الأسبوع ، وهما أمران قد يؤديان إلى عدم موضوعيّة من جهة ، والى خلل واضطراب في التتبع والتقويم من جهة أخرى ، وهذا ما سيتضح لنا من خلال دراستنا لهذا التصنيف .

وربما كان أهم ما يتوقف عنده الدارس لهذا الكتاب هو مصادره فليس فيه من المصادر سوى شيخه أبي الندى ، الذي أشرنا اليه في ثبت الشروح شارحاً من شراح الحماسة ، وأبو الندى وان كان رجلاً واسع العلم راجح المعرفة باللغة وأخبار العرب وأشعارها كما قال ياقوت[(٢)] ، فانه لم يأخذ علمه من شيوخ معروفين ، وانما أخذ ذلك من خروجه إلى البادية والتقائه بالأعراب الذين يسكنون الخيام ، كما أنه كان مجهولاً لا معرفة للعلماء به ، ولهذا رأينا أبا يعلى الشريف نظام الدين المعروف بابن الهبّاريّة[(٣)] **يعيب على أبي محمد الأعرابي استناده فيما يرويه عن أبي الندى وقال عنه : « من هذا الأسود الذي نصّب نفسه للرد على العلماء ، وتصدّى للأخذ على الأئمة القدماء ، بماذا نصحح قوله ونبطل قول الأوائل ولا تعويل له فيما يرويه الا على أبي الندى ، ومن أبو الندى في العالم ، لا شيخ مشهور ولا ذو علم مذكور »** [(٤)]

ولكن هذا القول وان كان صحيحاً فان هذا لا يمنع من أن يكون عمل أبي محمد في رده على النمري ذا فوائد ، مع ما ذكرناه من اضطراب وخلل ، ولعل هذه الفوائد هي ما عناه القفطي حين أشار إلى أن كتب أبي محمد الأعرابي من فواكه الكتب وانها لنعم الممتع لأهل الرغبة والطلب ، وان الذي قصده منها لم يقصده

(١) ينظر الورقة الثانية من مخطوطة كتابه .

(٢) معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ .

(٣) هو الشريف نظام الدين أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح العباسي المعروف بابن الهبّاريّة ، شاعر هجاء له ديوان شعر ترجم له ابن خلكان في وفيات الأعيان ٢ : ١٥ .

(٤) ينظر معجم الأدباء ٧ : ٢٦٢ وما يليها .

سواه ، ولا يسوغ لأحد من العلماء أن يأتي بمثل ما أتاه »[1] .

ونحن إذا نظرنا في كتابه وجدناه يناقش النمري ويرد عليه في جوانب أربعة : أولها : جانب الرواية وتصحيح ما اعتمده النمري في متنه من رواية للحماسة ، وثانيها : تصحيح نسبة الشعر إلى قائليه ، وثالثها : التنبيه على أمور أغفلها النمري في شرحه ، ورابعها : التصدي بالمناقشة لما قرره النمري من معاني أبيات الحماسة .

ففي الجانب الأول الخاص بتصحيح متن النمري نراه ينظر إلى صحة الرواية من جهة ، وصحة المعنى من جهة أخرى ، ومن ذلك ما ورد عنه في رواية بيت أرطاة ابن سهيّة ، وقد رواه النمري هكذا :

وَنَحْـنُ بَنُوعَـمْ عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَا زَرَابِـيُّ فِيهَـا بَغْضَـةٌ وَتَنَافُسُ

وقـال فيه : أكثـر أهل العلم لا يـدري ما الـزرابي ها هنـا . والزرابيّ : البسط ذات الألوان ، فرد عليه أبو محمد الأعرابي قائلاً : إنه «تاه في تفسيره لما لم يعرف صحة متنه ، وأظنّه كان معوّلاً على الصحف ، والصواب ما أنشدناه أبو الندى - رحمه الله - ثم وجدت بعده بخط إسحق الأعرابي أخي أبي عبد الله :

وَنَحْـنُ بَنُـو عَمٍّ عَلَى ذَاكَ بَيْنَنَا زَآنِـبُ فِيهَـا بَغْضَـةٌ وَتَنَافُسُ

قال : والزآنب القوارض ولا أعرف لها واحداً »[2] .

ولقد انفرد أبو محمـد برواية « زآنـب » غـير أننـي رأيت أبـا هلال ينتقدهـا ويقـول : « الزرابي الطنافس ، واحدها زربيّة ولـيس له ها هنا معنى البتة ، ولا شك في أنه تحريف أو تصحيف »[3] ، وهذا يؤكد أن للبيت رواية غير هذه التي أجمع عليها الشراح ، وربما كان ما ذهب إليه أبو محمد الأعرابي صحيحاً لأنّ أبا هلال لم يعرف للبيت رواية غير هذه التي انتقدها ووصفها بالتصحيف أو التحريف .

ومما نظر فيه أبو محمد الى الرواية والمعنى معاً ما جاء عنه في قول ابن زيّابة :

---

(١) انباه الرواة ٤ : ١٦٨ .

(٢) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ١١ .

(٣) ينظر مخطوطة رسالته « ضبط مواضع الحماسة » الورقة ٨ .

إِنَّـكَ يَا عَمْـرُو وَتَـرْكَ النَّدَى كَالعَبْـدِ إِذْ قَيَّدَ أَجْمَالَهُ

فقد جاء تفسير أبي عبد الله النمري له أنه نقل قولاً عن ابن السكيت مفاده أن الشاعر يقول : أنت كالعبد اقتصر على موضع يرعى فيه ولا يتغـرب بإبله ، وعلّق عليه بقوله : وعندي أنه غير مقنع أن يكون قوله وتـرك الندى معنـاه أنك وبخلك فإن من ترك الندى فقد أخذ البخل . ثم أتى بالمعنى الذي رآه ، قال : يقول إنك وبخلك وحبسك مالك كالعبـد قيّد أجمـاله فـلا يبرحـه منها بعيـر ، وكذلك أنت قيدت مالك فلا يبرحك ، فردّ عليه أبـو محمد الأعـرابي مصححاً رواية البيت والمعنى معاً قال : «أخبرنا أبو الندى قال : هذا البيت من المختل القديم والصواب :

إِنِّـي وَحَـوَّاءَ وَتَـرْكَ النَّدَى كالعَبْـدِ إِذْ قَيَّدَ أَجْمَالَهُ

قال : حواء فرسه ، ومعناه : انني متى تركت الغزو على ظهر حواء واغتنام الأموال وتفريقها على الزائرين والسائلين لم يبق لي همّ لأنّ أكثر همي في ذلك وكنت مثل العبد إذا شبعت إبله فأراحها وقيّدها في مراحها ولم يبق له همّ حينئذ ، يقول : همي في الغزو واغتنام الأموال وبذلها »(١) .

وفي هذا الجانب نرى أبا محمد الأعرابي يعيب على أبي عبدالله النمري أخذه الرواية من الصحف ، ولعلك لحظت ذلك في مناقشته لبيت أرطاة بن سهيّة ، ولقد رأينا ذلك منه في مناقشته للبيت الذي ورد في الحماسة منسوباً لعامر بن الطفيل وهو :

أَكُرُّ عَلَيْهِـمْ دَعْلَجَـاً وَلَبَانُهُ إِذَا مَا اشْتَكَى وَقْـعَ الرِّمَـاحِ تَحَمْحَمَا

فقد شرحه النمري وفق هذه الرواية فاعترض عليه أبو محمد الأعرابي بقوله : « هذا موضع المثل :

إِذَا أَفْسَـدْتَ أَوَّلَ كُلِّ أَمْرٍ أَبَـتْ أَعْجَـازُهُ إِلاَّ الْتِوَاءَ

لو عرف أبو عبدالله صحة متـن هذا البيت لما استهـدف في تفسـيره بلسـان الطاعن ، وأظنّه أخذ هذا الشعر من الصحف فلهذا وقعـت فيه هذه التخـاليط ، والصواب :

---

(١) ينظر مخطوطة كتابه الورقة ٥ .

أُقَــدِّمُ فِيهِــمْ دَعْلَجــاً وَأَكُرُّهُ إِذَا أَكْرَهُــوا فِيهِ الرِّمَــاحَ تَحَمْحَما »[١]

وهذا يدفعنا إلى إيرادما أشرنا اليه في فصل سابق أن أبا عبدالله النمري أخذ ديوان الحماسة عن أبي رياش ، وأخذه أبو رياش عن أبي المطرّف الأنطاكي الذي أخذه بدوره عن أبي تمام ، وجل الذين شرحوا الحماسة أفادوا بأن الحماسة إما وقعت لهم عن طريق أبي رياش أو الحسن بن بشر الآمدي ، فهما اللذان أخذا الحماسة عن أبي المطرف ، وسند أبي رياش أساسه النمري ، وسند الآمدي أساسه أبو الحسين بن دينار . هذا فضلاً عن أن الحماسة قد أخذت مما خطه أبو تمام بقلمه وتركه في بيت آل سلمة بهمذان[٢] ، ولهذا تعددت نسخ الحماسة بناء على اختلاف هذه المصادر ، ومن الطبيعي أن يرجع الشراح وهم يشرحون ما فيها من شعر الى هذه النسخ ، ويقارنوا بينها وبين ما أخذوه من شيوخهم ، ومن ثم فلا مجال لاعتراض أبي محمد الأعرابي على النمري واهتمامه بأنه يأخذ روايته من الصحف ، لأنه ان كان ثمة خلل في رواية النمري فمرده إلى أمرين : أحدهما أبو تمام الذي كان في اختياره يفاضل بين روايات الشعر فيأخذ منها ما يوافق ذوقه ورؤيته السليمة للشعر ، والآخر اختلاف نسخ الحماسة التي كان يرجع إليها الشراح . وصحيح أن العلماء الأوائل كانوا يعترضون على الأخذ من الصحف ، ويعوّلون كثيراً على الأخذ شفاهة عن الشيوخ ، وهذا واضح مما جاء عن ابن سلّام فقد قال : «إذا اختلفت الرواة وقالوا بآرائهم وقالت العشائر بأهوائهم فلا ينفع الناس في ذلك إلّا الرواية عن من تقدّم»[٣] ، غير أنه في زمن النمري كان عهد الرواية الشفهية قد بدأ يتلاشى ليحل محله عهد جديد قوامه الكتب ، وسجلوا أعمالهم في كتب أخذها عنهم تلاميذهم قراءة عليهم أو سماعاً منهم أو إجازة بقراءتها وشرحها للناس ، ومن ثم فإن من الغبن والتعسف أن يأتي أبو محمد الأعرابي ليأخذ على النمري شيئاً هو نفسه لم يسلم منه ، لأنه وإن كان يعوّل كثيراً على أخذه مشافهة عن شيخه أبي الندى فإنه كان يرجع إلى ما أسماه بالصحف ، ولقد مرّ بنا فيما سبق قوله في

---

(١) المصدر السابق ، الورقة ٧ .

(٢) يراجع في هذا وسابقه ما وضحناه في الفصل الأول من هذا البحث .

(٣) طبقات الشعراء ص ٣٤ .

بيت أرطاة بن سهيّة «والصواب ما أنشدناه أبو الندى ـ رحمه الله ـ ثم وجدته بعده بخط إسحق الأعرابي أخي أبي عبد الله» .

ومع ما ذكرناه فان تتبع أبي محمد الأعرابي للرواية في شرح النمري قد دلّ على نواح فيها وجه من القبول والاستحسان ، ومن ذلك ما جاء عنه في بيت الحماسة القائل :

بِيضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلي مَرَاجِلُنَا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا

فقد فسرّ أبو عبدالله معنى قوله « بيض مفارقنا » بأن المراد لا دنس فينا ، والعرب كلها سمر فاذا وصفوا بالبياض فانما يراد به النقاء والطهارة ، فقال أبو محمد الأعرابي انه سأل شيخه أبا الندى عن معنى « بيض مفارقنا تغلي مراجلنا » قال : «هذه رواية ضعيفة فإن بيض المفارق قرع ، ومرجل الحائك يغلي كما يغلي مرجل الملك . قال : والرواية الصحيحة شعث مقاذفنا نهب مراجلنا» ومعناه أننا أصحاب حروب وقرى»[١] وهي رواية تتفق مع ما جاء في الشطرة الثانية ، وفي رأينا أنها أدل وأقوى في المعنى من رواية بيض مفارقنا التي ذهب بعض الشراح في تفسيرها مذهباً فجّاً حيث فسّرها بأنهم يستعملون الطيب ولذا ابيضت مفارقهم[٢] ، وهو معنى بعيد عن الجو العام للقصيدة التي بنيت على الفخر بالشجاعة والكرم .

وفي تصورنا أن أبا محمد الأعرابي قد أفاد من شيخه أبي الندى في عمله التتبعي لرواية أبي عبدالله النمري ، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في الرواية يقع عادة بسبب اختلاف المصادر التي أخذ العلماء منها الشعر ، وبخاصة بالنسبة لأبي الندى الذي ذكرت المصادر أنه كان يخرج الى البادية ويأخذ علمه وروايته منها[٣] ، وهي روايات لا تقاس بما محّصة العلماء الأوائل الذين خلّفوا ما محّصوه في كتب ودواوين اختار منها أبو تمام حماسته .

---

(١) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ٤ .

(٢) ينظر القطعة ٣ من شرح زيد بن علي في الكتاب الثاني .

(٣) ينظر ما ذكره ياقوت في هذا الخصوص في معجم الأدباء ١٧ : ١٥٩ .

أما الجانب الثاني الخاص بتصحيح نسبة الشعر إلى قائله فهو أيضاً جانب لا دخل لأبي عبدالله النمري فيه ، وانما أبو تمام هو المسؤول الأول عنه ، ثم الذين نسخوا اختيار في الحماسة من بعده ، ومع ذلك فان أبا محمد الأعرابي يحمّل النمري خطأ نسبة الشعر الى قائليه .

ولقد تتبعنا عمله في هذا الجانب فوجدناه يصحح نسبة خمس عشرة قطعة الى قائليها ، وكان يأتي في بعضها بالحجة التي تدعم قوله ويترك بعضها الآخر بغير حجة ، فمن القطع التي صحح نسبتها بحجة قوله في البيت الذي نسب للسَّموءل بن عادياء في رواية النمري وهو :

وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِقٍ ... بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ

قال أبو محمد الأعرابي : هذا البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي لا للسَّموءل بن عادياء الغساني ، ويدل على ذلك قوله في القصيدة :

فَإِنَّ بَنِي الدَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ ... تَدُورُ رَحَاهُمْ حَوْلَهُ وَتَجُولُ

والديّان هو يزيد بن قطب بن زياد بن الحارث الأصغر بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث الأكبر القبيل »[1] .

وفي البيت الذي نسب في شرح النمري لمعدان بن جوّاس وهو :

وَكَفَّنْتُ وَحْدِي مُنْذِراً في ثِيابِهِ ... وَصَادَفَ حَوْطاً مِنْ أَعَادِيَّ قَاتِلُ

قال النمري : قيل ، منذر ابنه وحوط أخوه ، فرد أبو محمد الأعرابي بأنّ البيت ينسب الى حجيّة بن المضرّب ، ومنذر أخوه وهو المنذر بن المضرّب وحوط ابنه ، به كان يكتني حجيّة ، وفيه يقول معدان بن جوّاس :

وَرِثْتُ أَبَا حَوْطٍ حُجَيَّةَ شِعْرَهُ ... وأورثني شِعْرَ السُّكونِ المُضَرَّبُ[2]

ومن القطع التي صحح نسبتها دون أن يورد لذلك حجة ما جاء عنه في

---

(١) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ٤ .

(٢) المصدر السابق ، الورقة ٥ .

القطعة التي نسبت في شرح النمري ليزيد بن الحكم الكلابي والتي منها قوله :

فَلَمَّا بَلَغْنَا الأُمَّهَاتِ وَجَدْتُمُ   بَنِي عَمِّكُمْ كَانُوا كِرَامَ المَضَاجِعِ

فقال أبو محمدالأعرابي : هذاالبيت لعبد الرحمن بن زيد العذري أخي زيادة بن زيد قتيل هدبة بن الخشرم ، ولم يأت بحجة تدعم قوله هذا ولا ذكر مصدره فيه»(١) ، ومثله ما جاء في باب الهجاء في البيت الذي رواه النمري لزميل بن أبير وهو :

وَلَسْتُ بِرَبْلٍ مِثْلِكَ احْتَمَلَتْ بِهِ   حَصَانٌ نَأَتْ عَنْ فَحْلِهَا وَهْيَ حَائِلُ

قال أبو محمد الأعرابي : ليس هذا البيت لزميل بل هو لأرطاة بن سهيّة يهجو زميلاً ، ولم يأت بشيء يؤكد هذا القول سوى أنه أورد الأبيات التي وردت في الحماسة بتغيير طفيف في الألفاظ(٢).

على أن أبا محمد الأعرابي في هذا الجانب قد قام بتصحيح اسمين من شعراء الحماسة وردا في شرح النمري وغيره محرّفين ، فقام بتصحيح التحريف فيهما،أحدهما حسان بن نشبة فقد نقل أبو محمد الأعرابي عن شيخه أبي الندى أن هذا الاسم محرّف ، والصواب جسّاس بن نشبة ، مثل عساس ، وأتى بدليل على ذلك ، وهو قول جرير يهجو جخدب بن خرعب التيمي :

أَجَخْدَبُ أَشْبَهْتَ التِي كَانَ بَظْرُهَا   كَطُرْثُوثِ أَرْضٍ غَيْرِ ذَاتِ أُنَاسِ
لَقَدْ شَهِدَتْ تَيْمٌ عَلَى أُمِّ جَخْدَبٍ   وَكَانَ سَرَاةَ التَّيْمِ رَهْطُ جِسَاسِ

يعني جِساس بن نشبة التيمي(٣) .

والاسم الثاني هو أبو الطمحان الأسدي ، وقد ورد هكذا في شرح النمري ، فقال أبو محمدالأعرابي :ليس كل اسم فيه طاء وميم فهو الطمحان على قياس أبي

(١) المصدر نفسه ، الورقة ٩ .
(٢) نفسه ، الورقة ٢١ وما يليها .
(٣) نفسه ، الورقة ١١ .

الطمحان القيني ، وانما هو طخيم أبو الطخماء الأسدي[1]، وهذا يجعلنا نرجع إلى ما أوردناه سابقاً في عمل أبي هلال حين ذكر أن الآمدي قد أفاد بأن اسم هذا الشاعر قد التبس على الرواة وهو طخيم أبو الطخماء وكذلك ما أشرنا إليه من أنّ المبرد قد أورده في الكامل صخيم بن أبي الطخماء»[2] ، وكل هذا إنما يدعم ما ذهب إليه أبو محمد الأعرابي ، ولكن علينا أن نتنبه إلى عبارة الآمدي «ان هذا الاسم قد آلتبس على الرواة» فالرواة هم سبب التحريف وليس النمري حتى يؤاخذ عليه من قبل أبي محمد الأعرابي .

أما الجانب الثالث المتمثل في التنبيه على أمور أغفلها النمري في شرحه فقد كانت مآخذه فيه تنحصر في ثلاثة أمور : أحدها ـ وهو الأكثر ـ أن النمري يغفل ذكر القصة أو المناسبة التي تتصل بالنص ولا يتضح المعنى إلا بايرادها ، وثانيها أنه يترك أجزاء من النص دون تفسير ، وثالثها : أنه يهمل توضيح الأعلام التي ترد في النصوص أو التي تشير إليها أبيات النصوص .

(١) ولقد رأيناه في الأمر الأول وفي مواضع مختلفة من كتابه ينّوه إلى أن هذا البيت لا يفهم معناه إلا بذكر قصته ، ثم يورد القصة الخاصة به ، غير أنه كان إذا رأى هذا في بيت من أبيات الحماسة لا يورد كلّ ما قاله النمري حول البيت ، وانما يشير إليه إشارة فقط ، وقع ذلك منه في أكثر من موضع ، ومن أمثلة ما جاء عنه في بيت قيس ابن الخطيم القائل :

طَعَنْتُ ابْنَ عَبْدِ القَيْسِ طَعْنَةَ ثَائِرٍ   لَهَا نَقَذٌ لَولاَ الشّعَاعُ أَضَاءَهَا

فقد قال فيه : « ذكر أبو عبدالله حروف هذا البيت ولم يذكر السبب الذي دعا قيساً إلى طعن ابن عبد القيس ، وكان سبب ذلك أن هذا القيسي قتل عدياً جد قيس ابن الخطيم ، فقتله قيس بجده وأعانه على ذلك خداش بن زهير العامري »[3] .

---

(١) نفسه ، الورقة ٢٣ .

(٢) ينظر ما أوردناه في عمل أبي هلال من هذا الفصل .

(٣) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ٧ .

وفي بيت معن بن أوس الذي يقول فيه :

لَعَمْــرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّــي لأَوْجَلُ عَلَى أَيِّنــا تَعْــدُو المنِيَّةُ أَوَّلُ

أشار أبو محمد الى ما ذكره النمري أن البيت يروى تغدو بالغين معجمة من الغدو ثم قال : « كنت قد ذكرت أن مثل هذا من الشعر لا يكاد يعرف معناه محققاً الا بالقصة المتعلقة به ، فاشتغل أبو عبدالله عن الأهـم وذكر يغـدو ويعـدو بالغـين والعين ، وكان من قصة هذا الشعر أنـه كان لمعـن بن أوس صديق ، وكان معـن متزوجاً بأخته ، فاتفق أنه طلقها وتزوج بأخرى ، فآلى صديقه أن لا يكلمه أبداً ، فأنشأ معن يقول يستعطف عليه ويسترقه له » ثم أورد البيت كما رواه النمري وقال : وهذا كما قال الآخر :

فأكْرِمْ أَخَــاكَ الدَّهْــرَ مَا دُمْتُمَا مَعاً كَفَــى بالمَماتِ فُرْقَــةً وَتَنَائِيا[1]

والحق أن ذكر المناسبة في شرح الشعر يصوّر الجو النفسي الذي قال فيه الشاعر شعره ، ويبيّن الدوافع التي حرّكت وجدانه إلى قوله . ولكن ليس بالضرورة دائماً أن يكون فهم المعنى مقصوراً على ذلك ، ففي هذا المثال وسابقه يمـكن للشـارح أن يشرح البيت دون ذكر القصة ، ولا يخل ذلك بايراد المعنى ، بدلالة أننا يمـكن أن نشرح هذا البيت الذي أورده أبو محمد الأعرابي « فأكرم أخاك الدهر » وتبيّن ما فيه من معنى دون أن نعرف الدافع النفسي الذي دفع قائله أو القصة التي كانت وراءه ، ومع هذا فان هذا الأمر من عمل أبي محمد الأعرابي قد حفل بالكثير المتنوع الذي أضاف إلى أعمال الشراح الشيء الوفير من أخبار الشعراء وقصصهم وأشعارهم غير المختارة في الحماسة ، ويكفي المتصفح لكتابه أن ينظر فيه ليدرك مدى غزارة علـم الرجـل في هذه النـاحية ، ولعلك حـين تقف معنـا على نمـوذج من عملـه في هذا الخصوص تدرك قيمة هذا الكلام الذي قلناه ، ففي بيت النسيب الذي نسب إلى آخر والذي جاء فيه :

وَنُبِّئْــتُ سَوْدَاءَ القُلُــوبِ مَرِيضَةً فَأَقْبَلْــتُ مِنْ مِصْرٍ إِلَيْهَــا أَعُودُهَا

(١) المصدر نفسه ، الورقة ١٧ .

نجد أبا محمد الأعرابي يقف على عمل النمري فيه فيذكر لنا تقصّيه للديمرتي في شرح معنى سوداء القلوب ، فقد كان الديمرتي قد قال : جعلها سوداء القلوب لقساوة قلبها ، وجمع كما تقول : فلان عظيم المناكب وغليظ الحواجب ، فاعترض عليه النمري بقوله : إن هذا يؤدي الى خطأ كبير لأن الشاعر انما وصف امرأة معرفة وهي ها هنا على تفسيره نكرة ، فلو قلنا رأيت حسن الوجه لكان نكرة ، فاذا أردنا التعريف قلنا : رأيت الحسن الوجه ، وكذلك سوداء القلوب ، ثم أتي بتفسيره فقال : قوله سوداء القلوب يشتمل على معنيين أحدهما : أن يكون اسمها سوداء فأضافها إلى القلوب لتعلقها بها وحبها لها كقول ابن الدمينة :

قِفِـي يَا أُمَيْمَ القَلْـبِ نَقْضِ تَحِيَّةً   وَنَشْـكُ الهَـوَى ثُمَّ افْعَلِي مَا بَدَا لَكِ

والمعنى الآخر أن يكون جعلها كسويداء القلوب ، وزعموا أنها هنة سوداء تحل القلوب ، وتسمى حبة القلب ، ويقال إنها موضع الحب والله أعلم[1] .

هذا عمل النمري في تفسير معنى « سوداء القلوب » وقف عنده أبو محمد الأعرابي فأتى بمثل كعادته في تتبع عمل النمري وتقويمه فقال : هذا موضع المثل :

تَعِيِيـنَ أَمْـراً ثُمَّ تَأْتِـينَ مِثْلَهُ   لَقَدْ حَاسَ هَذَا الأَمْـرَ عِنْـدَكِ حَائِسُ[2]

ثم قال : الشيخان كلاهما على خطأ فاحش ، وذلك لأنهما لم يعرفا قائل هذا البيت ولا من قيل فيه ، ولا القصة التي لا يعرف معناه إلاّ بها ، والصواب :

وَنُبِّئْـتُ سَوْدَاءَ الغُمَيْمِ مَرِيضَةً   فَأَقْبَلْـتُ مِنْ مِصرٍ اِلَيْهَـا أَعُودُهَا

سوداء الغميم امرأة من بني عبدالله بن غطفان اسمها ليلى ولقبها سوداء وكانت تنزل الغميم من بلاد غطفان ، وكان عقبة بن كعب بن زهير ينسب بها ، ثم علقها بعده ابنه العوام بن عقبة فكلف بها فهتف بها وكانت تجد به كذلك ، فخرج إلى مصر في ميرة فبلغه أنّها مريضة فترك ميرته وكرّ نحوها وأنشأ يقول : ونبئت سوداء

---

(١) المصدر نفسه ، الورقة ٢٠ ، وينظر شرح التبريزي ٣ : ١٩١ .

(٢) حاس الأمر خلطه من قولك حاس الذئب الغنم اذا فرقها وجعلها تختلط بعضها فوق بعض .

القلوب مريضة . . . البيت . وروي أبو محمد بعده خمسة أبيات لم ترد في رواية أبي تمام ثم مضى فأخبر بأن العوام ظل يلطف بها حتى رأته ورآها ، فأومأت إليه أن ما جاء بك ؟ فقال : جئتك عائداً حين علمت علتك ، فأشارت إليه أن ارجع فانني في عافية ، فرجع لميرته ، واستعر بها المرض فجعلت تتوله إليه حتى ماتت فبلغه الخبر فقال :

سَقَى جَدَثاً بَيْنَ الغُمَيْمِ وَزَلْفَةٍ ... أَجَمُّ النَّدى واهي العَزَالي مَطِيرُهَا[1]

وفيها يقول :

فَإِنْ تَكُ سَوْدَاءُ العَشِيَّةَ فَارَقَتْ ... فَقَدْ مَاتَ مِلْحُ الغَانِيَاتِ وَنُورُها[2]

فأنت ترى في هذا العمل افادات مختلفة ، منها تصحيح رواية البيت ، ومنها وصف الجو الذي قيل فيه الشعر ، ومنها الإشارة المكانيّة ، ثم إثراء القطعة بما لم يختره أبو تمام واثراء الشرح بغير الشعر المختار في الحماسة مما له صلة بالقصة التي أوردها ، وكلّ هذا يؤكد ما قلناه ان هذا الجانب أبين عمل أداه أبو محمد الأعرابي في خدمة اختيار الحماسة وأثرى إضافة قدمها في عمل الشراح .

(٢) أما في الأمر الثاني فقد رأيناه ينبّه إلى أن النمري يترك أجزاء من النص ويشغل نفسه بتفسير أجزاء ، ومن ذلك ما جاء في بيت عبده بن الطبيب :

تَحِيَّةَ مَنْ غَادَرْتُه غَرَضَ الرَّدَى ... اِذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بِلاَدَكَ سَلَّمَا

فقد أخذ أبو محمد على النمري تركه شرح قوله : « اذا زار عن شَحْطٍ بلادك سلّما » وقال : « أن معناه ان قيس بن عاصم كان كثير الأفضال على عبدة بن الطبيب ، فالى عبدة ألاّ يخرج في سفر إلاّ بدأ بتوديعه ، واذا قدم منه بدأ بزيارته والتسليم عليه ، وكان ذلك دأبه في حياته وفي زيارة قبره بعد وفاته »[3] .

---

(١) العزالي مفردها عزلاء وهي مصب الماء من القربة ونحوها، ويقال أنزلت السماء عزاليها ، إشارة إلى شدة وقع المطر .

(٢) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ، الورقة ١٤ .

ومثله بيت ابن الدمينة القائل :

وَلَمَّا لَحِقْنَا بالحمُولِ ودُونَها خَمِيصُ الحَشَا تُوهِي القَمِيصَ كَوَاهِلُهْ

فقد قال النمري فيه انه ظاهر اللفظ والمعنى ، فأخذ عليه أبو محمد هذا القول ، وأشار الى أن معناه أدق من طرف الابرة ، وذلك لأن معترضاً قد يعترض بقوله : لم خصّ العواتق وانها توهي القميص من بين أعضائه فيكون الجواب ان هذا الشاعر جعل هذا الموصوف بهذه الصفة أحقب مصدراً كما يوصف الأسد ، يعني أنه دقيق الخصر مهفهف الكشح ، غليظ الكاهل فينخرق القميص لأجل ذلك ، ولا ينخرق من قبل الكشح اذ ليس بمنتفخ الجنبين ، وقد أخذ ابن الدمينة هذا المعنى من أم يزيد بن الطثرية حيث تقول :

فَتَىً لاَ يُرَى قَدُّ القَمِيصِ بِخَصْرِهِ وَلَكِنَّمَا تُوهِي القَمِيصَ كَوَاهِلُهْ[1]

(٣) فاذا نظرنا إلى الأمر الثالث والأخير وجدنا له قيمة لا تقل عن قيمة عمله في الأمر الأول ، فقد بيّن فيه الكثير من أسماء الأعلام التي وردت في أبيات الحماسة أو ألمحت اليها ، مما لم يتناوله النمري بالشرح والتوضيح ، والأمثلة على ذلك متعددة ومختلفة ، منه ما جاء في بيت موسى بن جابر الحنفي :

هَلاَلاَنِ حَمَّالاَنِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ مِنَ الثِّقْلِ مَالاَ تَستَطِيعُ الأَبَاعِرُ

فقد شرح النمري البيت دون أن يوضح من هما المعنيان بقوله : « هلالان » فقال أبو محمد : « كان يجب أن يذكر أبو عبدالله قبلاً من هذان الهلالان ، ومن أي قبيلة هما ؟ وما تعلقهما بقائل هذا الشعر ؟ ثم وضح فقال : « سألت أبا الندى - رحمه الله - عن قوله « هلالان » من هما ؟ قال : هما مرداس وعامر ابنا شماس بن لأي من بني أنف الناقة أمهما من بني العنبر ، وهما خالا موسى بن جابر الحنفي »[2] .

وفي بيت شقيق بن سليك الأسدي الذي يقول فيه :

---

(١) المصدر نفسه ، الورقة ١٨ .

(٢) المصدر نفسه ، الورقة ١٠ .

وَأَعْـطَيْتُ الجِعَالَـةَ مُسْتَمِيتاً خَفِيفَ الحَـاذِ مِنْ فِتْيانِ جَرْمِ

قال أبو محمد : فسَّر أبو عبدالله هذا البيت بنبذ من الحروف ولـم يذكر من المعني بهذه الصفة ، ثم وضحه فقال : « هو حطان بن خفاف بم زهير بن عبدالله ابن رمح بن عرعرة بن نهار »(١) .

وفي بيت نهشل بن حري الوارد في باب الرثاء وهو :

أَغَــرُّ كَمِصْبَـاحِ الدُّجُنَّـةِ يَتَّقي قَذَى الـزَّادِ حَتَّـى تُسْتَفَـادَ أَطَايِبُهُ

أشار إلى قول النمري إن البيت يروى « قدى » و « قذى » ثم قال : « ذكر المرثي بهذا البيت أهم من ذكر رواية قدى وقذى ، وهو مالك بن حري أخو نهشل ، ويكنى أبا ماجد ـ رحمه الله ـ وقتل بصفين مع عليّ ـ عليه السلام »(٢) .

وفي بيت برج بن مسهر الذي يقول فيه :

وَنَــدْمَــانٍ يَزِيدُ الـكَأْسَ طِيباً سَقَيْتُ إذَا تَغَـوَّرَتِ النُّجُومُ

ذكـر النمري في معنى النـدمان أنـه واحد النـدامى ، فقـال أبـو محمـد الأعرابي : «لو ذكر أبو عبدالله هذا الندمان الموصوف لكان أقنع لمستفيـده من ذكر واحد الندامى وجمع الندمان ، وإنما أراد بهذا الندمان الحصين بن الحمام المري . وكان خِلاً لبرج بن مسهر ونديمه»(٣) .

وهكذا نلاحظ أن أبا محمد الاعرابـي قد أثـرى عمـل الشراح باضافـات في توضيح أسماء الاعلام الواردة في الاختيار أو الاعلام التي تشير اليها أبيات الاختيار وربما لا حظنا بعض الشطط في تحميل النمري عبء هذا العمل والاستعانة بما قام به في الشرح ولكننا بالمقابل ندرك مدى قيمة الاثراء الذي قام به في شرح الأعلام من خلال هذه السبيل التي ركبها في تتبعه وتقويمه لعمل النمري .

وأما الجانب الرابع من جوانب عمل أبي محمد في منهجه الذي سلكه فقد كان

---

(١) نفسه ، الورقة ١٤ .

(٢) عينه ، الورقة ١٥ .

(٣) نفسه الورقة ١٨ .

منصباً على المعاني التي أوردها النمري لأبيات الحماسة ، وكان في تتبعه لعمل النمري في هذا العنصر المهم من عناصر الشرح يعتمد على فهمه الخاص للنص تارة ويتكىء على ما أخذه من شيخه أبي الندى تارة أخرى ، فمما اعتمد فيه على فهمه ما جاء عنه في بيت سلمة بن ذهل المعروف بابن زيَّابة والذي قاله يرد فيه على الحرث بن همام الشيباني وهو :

يا لَهْفَ زَيَّابَة لِلْحَارِثِ الـصَّابحِ فالْغَانِم فالآيِبِ

فقد فسره النمري بأنه أراد أن الحرث يصبح أعداءه بالغارة فيغنم ويؤوب سالماً ، قد وصفه بالفتك والظفر وحسن العاقبة ، فاعترض أبو محمد على هذا المعنى وقال : « كيف يذكره بالفتك والظفر وهو أعدى عدو له ، وانما المعنى انه لهف أمه وهي زيابة أن لا يلحقه في بعض غاراته فيقتله أو يأسره »[١] .

ومثل ذلك ما جاء عنه في بيت كبشة أخت عمرو بن معدي كرب وهو :

ولا تَرِدُوا اِلاَّ فُضُـولَ نِسَائِكُمْ اذا ارتَمَلَـتْ أَعْقَابهُـنَّ من الدَّمِ

فقد نقل أبو عبدالله النمري رأي شيخه أبي رياش في معناه وهو : أنها أرادت أن تقول إذا قبلتم الدّية فلا تأنفوا بعدها عن شيء واغشوا نساءكم وهن حيّض ، والفضول هاهنا يقال الحيض ، وسمي الغشيان ورداً مجازاً . ثم أشار النمري إلى أن في البيت أقوالاً ليست بشيء وأن تفسير أبي رياش هو أصحها ، فاعترض أبو محمد على ذلك وقال : « ان معنى قولها : ولا تردوا اِلاّ فضول نسائكم أي لا تردوا المواسم بعد أخذ الدية اِلاَّ وأعراضكم دنسة من العار كأنكم نساء حيّض ، ثم اضاف والبيت كما قال جرير :

لاَ تَذْكُرُوا حُلَلَ المُلُـوكِ فَاِنَّكمْ بَعْـدَ الزُّبَـيْرِ كَحَـائِضٍ لَمْ تَغْسِلِ »[٢]

---

(١) ينظر الورقة ٥ من مخطوطة كتابه ، وينظر شرح التبريزي ، فقد نقل شرح النمري للبيت ورد أبي محمد عليه ١ : ٧٥ .

(٢) المصدر السابق ، الورقة ٨ .

ومن أمثلة ما اعتمد فيه على شيخه أبي الندى ما أورده في بيت عبدالله بن عنمة القائل :

لاَ تَـجْعَلُونَـا إِلى مَوْلىً يَـحُـلُّ بِنَا عَقْـدَ الحِـزَامِ إِذَا مَا لِبْـدُهُ مَالاَ

فقد فسرّه أبو عبدالله النمري بقوله : « قوله يحل بنا عقد الحزام أي أذا أراد حلّ عقد حزامه حلّه بانشاء هجائنا مستريحاً إليه متعللا به » فقال أبو محمد معترضاً عليه : « ليس هذا التفسير بشيء ، سألت أبا الندى - رحمه الله - عن هذا البيت فقال : معناه لا تجعلونا إلى مولى يحلنا محل الهلاك ، وذاك أن من استرخى حزامه صار إلى السقوط من فرسه ، وبعده بيت يدل على هذا وهو :

مَوْلى مِنَ القَـوْمِ يُدْعَـى وَهْـوَ مُشْتَمِلٌ تَرَى بِهِ عَنْ قِتَـالِ القَـوْمِ عُقَّالاَ(١)

ويمكن أن نلاحظ أن مآخذ أبي محمد الأعرابي في هذا الجانب جاءت - غالباً - في الأبيات التي تحتمل أكثر من معنى ، ولو تأملت ما قاله النمري في بيت كبشة بنت معدي كرب ، وما قاله أبو محمد الأعرابي فيه لأدركت صدق هذا القول ، والشاعر بطبيعة الحال لا يعني من كلامه اِلاَّ معنى واحداً فقط ، غير أنّ الشرّاح يفسرّون النص حسب رؤيتهم وفهمهم ، ومن هنا اختلفت تفاسير المعاني لديهم في نصوص الحماسة ، فالنمري قد يرى معنى لأحد الأبيات ويرى أبو محمد غيره ، وربما يكون ثالث فيأتي بمعنى مغاير لهما ، غير أن الرؤية قد تقصر بالشارح أحياناً فيأتي إليه الخطأ في التفسير وهذا ما لاحظناه في مواضع أخطأ النمري الرؤية فيها ، فجاء التفسير لديه فجّاً متهافتاً فكشف ذلك أبو محمد الأعرابي في تتبعه له . ومن أمثلته رؤية النمري في تفسيره بيت جواس الضبي الذي يقول فيه :

كَأَنَّ خُرُوَّ الطَّـيرِ فَوْقَ رُؤوسِهِمْ إِذَا اجْتَمَعَـتْ قَيْسٌ مَعـاً وَتَمِيمُ

فقد قال النمري فيه إن الشاعر يصف قوماً قرعاً فشبه بياض قرعهم بخروّ الطير وهو أبيض ، وهو تفسير ضعيف لا محالة ، ولذا رأينا أبا محمد يعترض عليه

---

(١) المصدر نفسه ، الورقة ١٢ .

بقوله : « ذكر أبو عبدالله أن هؤلاء قرع الرؤوس اذا اجتمعت هاتان القبيلتان فيجب ألا يكونوا كذلك إذا لم يجتمعا ، والصواب غير ما ذكر ، ومعنى البيت أنهم لا مآثر لهم يعدونها في المواسم إذا اجتمعت قيس وتميم لذلك فهم خزايا سكوت كأن على رؤوسهم الطير ، وانما أراد الشاعر الخزّو استخفافاً وهزءاً بهم واستحقاراً لأمرهم ، والبيت الذي بعده يدلك على صحة ذلك وهو :

مَتى تَسْأَلِ الضبِّيَّ عَنْ شرِّ قَوْمِهِ   يَقُلْ لَكَ إِنَّ العَائِذِيَّ لَئِيمُ

ومثل البيت الأول قول الآخر :

إِذَا حَلَّتْ بَنُو أَسَدٍ عُكَاظاً   رَأَيْتَ عَلَى رُؤوسِهِمُ الغُرَابَا »[1]

ولعمري إن هذا التفسير أوضح وأبين مما ذهب إليه النمري ، لأن القبائل في مجال الفخر لا تعيرّ بصلع الرؤوس وانما بالاحساب والانساب ، ولا ندري كيف فات على النمري هذا ، وربما كان ما أورده أبو محمد في هذا الخصوص وجهاً من وجوه المعنى التي كان النمري ينقلها لبعض من سبقوه فاقتطعه أبو محمد ليبيّن منه قصور أبي عبدالله في فهم الشعر ، وذلك على نحو ما سنورده في مآخذنا عليه ، ولكن بالرغم من هذا التبرير الذي عرض لنا في هذا الموضوع فان النمري كان يفسر الأبيات أحياناً على ظاهر القول ، ومن ثم يفوت على نفسه فرصة التأمل التي تتيح له معرفة ما في النص من خبايا في المعاني ، ومن هذا ما جاء عنه في تفسير بيت راعي الابل النميري .

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ   سَرِيعٍ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا

فقد قال : يعني امرأة أضافها ، وأراد بالنجم النجوم وهذا كما يقال : قلّ الدرهم والدينار يراد به الجنس ، ويقال : بل أراد بالنجم الثريا نفسها والأول أصح ، فقوله والأول أصح جاء جرياً وراء الظاهر من اللفظ ، ولذا اهتبلها أبو محمد الأعرابي في أن يشنع عليه ويطعن في معرفته بمعاني الشعر قال : « كثيراً ما يرجّح أبو عبد الله الرديء

---

(١) ينظر مخطوطة كتابه ، الورقة ٢١ .

على الجيد والغث على السمين ، وهذا يدل على قلة معرفة منه بمذاهب العرب في معاني أشعارها ، ولا يجوز أن يكون النجم ها هنا الاّ الثريا ، وذلك أن في البيت خبيّة لم يخرجها أبو عبد الله ، وذلك أنّ الثريا لا تكاد ترى في قعر الجفنة وغيرها الا أن تكون قم الرأس ، ولا تكون قم الرأس الاّ في صميم الشتاء ويقال حينئذ أقعر النجم ، وقوله تعد النجم أي لصفاء الودك في الجفنة تعرف عدد الثريا فيها ، وهذا معنى مليح ، وذلك أن نجوم الثريا لا يكاد يعدها اِلاّ ذو بصر حديد ولذلك يقول القائل :

إِذَا مَا الثُّـرَيّا في السَّماءِ تَعَرَّضَتْ يَرَاهَـا حَدِيدُ العَـيْنِ سَبْعَـةَ أَنْجُمِ(١)

هذا هو عمل أبي محمد الأعرابي في كتابه الذي بناه على المنهج التتبعي التقويمي ، رأيناه فيه يكشف عن الكثير من جوانب الخلل التي وقع فيها أبو عبدالله النمري ، غير أننا ونحن نقرأ عمله وندرسه بدت لنا بعض المآخذ نود أن نوردها في الآتي :

أولاً : أنه كان يحرص في غلبة المواضع التي تتبع فيها النمري أن يورد مثلاً من الأمثال شعراً كان أو نثراً ، ولكن حرصه هذا دفعه إلى أن يورد أمثالاً كان ينبغي أن ينزّه كتابه منها ، لأنها من مرتذل القول وسفسافه وذلك مثل قوله : « أخطأت استك الحفرة » و « أودى البعير إلاضرطه القبيح » و «سلي هذا من استك » و « صه صاقع أير أبيكم فاقع » وغير ذلك مما يضيق المقام لذكره ، وهو يعد من كلام السوقة لا من كلام العلماء .

ثانياً : إننا رأيناه يعتمد في بعض الأحيان ألاّ يورد كلّ ما قاله النمري في معاني الأبيات ، وانما يكتفي بذكر جزء ينطلق منه لينال من الرجل ، وهذا ما جعل البغدادي يتهمه بالتزييف ، وذلك في البيت الذي أورده أبو تمام في باب الملح وهو :

كَأَنَّ خُصْيَيهِ مِنَ التَّدَلْدُلِ ظَرْفُ عَجُـوزٍ فِيهِ ثِنْتَـا حَنْظَلِ

فقد قال النمري في تفسيره : يحتمل أن يكون هذا في وصف شجاع لا يجبن في

---

(١) المصدر السابق ، الورقة ذاتها .

الحرب فتتقلّص خصيتاه ، ويحتمل أن يكون هجواً ، ووجهه أنه يصف شيخاً قد كبر وأسن ، ولذلك قال ظرف عجوز ، لأنّ ظرف العجوز خلق منقبض ، فيه تشنج لقدمه ، فلذلك شبه به جلد الخصية للغضون التي به ، والأولى أن يكون هجواً لذكره العجوز مع تصريحه بذكره الخصيتين ، ومثل هذا لا يصلح للمدح .

وقد نقل البغدادي هذا التفسير في الخزانة ، ودلّ على أنّه من النمري ثم قال : وزيّفه أبو محمد الأعرابي الشهير بالأسود الغندجاني فيما كتبه على شرح النمري قال : « قال أبو عبد الله : هذا يحتمل المدح والذم إلا أن يكون له تمام فيحمل عليه ، فأما الذم فهو أن تصف شيخاً قد اضطرب جلده لكبر سنه وهرمه ، وأما المدح فهو أن الأبطال يوصفون اذا شهدوا الحرب بطول الخصى وقلة تقلصها »[١] .

فأنت ترى أن هذا ليس كل ما قاله النمري في هذا البيت حرّفه أبو محمد لينطلق منه إلى القول بأن « قوله هذا يحتمل المدح والذم ، يدل على أنه لم يمارس الأشعار والأراجيز ولم يستقر الدواوين ، ومثل هذا البيت لا يعرف معناه قياساً إلا بمعرفة ما يتقدمه من الأبيات . . . ثم قال : « فقوله : كأن خصييه من التدلدل أذم ذم يكون في الشيخ ، وذلك أنهما يتدليان من الكبر »[٢] .

ثالثاً : أنه كثيراً ما كان يخرج في عمله التتبعي التقويمي عن الموضوعيّة وذلك باستخدام العبارات الجارحة التي ترد في ثنايا كتابه لقصد النيل من أبي عبد الله النمري والحط من قدره مثل « هذا يدل على جهل كثير وغباوة ظاهرة »[٣] ومثل « قال كذا وكذا في هذيان يشبه هذا »[٤] وغير ذلك مما يعد جنوحاً في القصد إلى الاساءة أكثر منه في إصلاح الخطأ للافادة ، وهو بلا شك أمر كان عليه أن يتجنبه حتى يؤدي العمل غايته في التصحيح والتقويم .

رابعاً : أنه مع هذه العبارات التي تقدح في حق أبي عبد الله النمري كان مضطرباً في الحكم عليه فبينما نراه يصدر هذه العبارات لينال منه نراه في موضع آخر يعترف

(١) ينظر خزانة الأدب ٧ : ٤٠٠ ، وينظر مخطوطة كتاب أبي عبد الله ، الورقة ٢٣ .

(٢) المصدران السابقان ، الصفحة ذاتها والورقة ذاتها .

(٣) مخطوطة كتابه ، الورقة ٢ .

(٤) المصدر نفسه ، الورقة ١٧ .

ضمناً بعلم الرجل في معرفة لغات العرب ونوادر كلامهم ، فقد قال مثلاً معلقاً على عمل أبي عبد الله في بيت من أبيات المدح : « لو أن أبا عبد الله عرف علم النسب وأيام العرب مثل ما عرف من لغاتها ونوادر كلامها لما شق غباره في استخراج هذه المعاني »[1] .

ومعنى هذا أنه يعترف بأن أبا عبد الله النمري كان على علم بلغات العرب ونوادر كلامها ، فكيف يتأتى لنا أن نتصور - بزعم أبي محمد - أن رجلاً هذا هو شأنه يمكن أن يوصف بالغباوة أو يكون عمله في تفسير الشعر ضرباً أشبه بالهذيان .

وأما قوله : « لو أن أبا عبد الله عرف علم النسب وأيام العرب » فهذا يدفعنا إلى مناقشة أمر تسلط على أبي محمد الأعرابي في عمله وهو أنه يوقف دائماً إدراك معنى الشعر على معرفة قصته أو نسب قائله أو نسب المقول فيه ، بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك حين يصرح في أحد أبيات الحماسة بأن « مثل هذا لا يعرف معناه البتة الا بالقصة المتعلقة بها معناه ولو قرن به كتاب العين والجمهرة »[2] ، فكأنه بهذا القول يجعل عنصراً من عناصر الشرح متغلباً على سائر العناصر الأخرى وعلى عنصر شرح اللغة بالذات وهو عنصر لا غنى عنه في شرح الشعر البتة ، ولقد سبق أن وضحنا أننا لا ننكر قيمة ذكر الأخبار التي تتصل بالشعر في فهم الدوافع التي أدت إلى قوله والجو النفسي الذي قيل فيه، ولكن هذا لا يجعلنا نحكّمه في كل بيت بحيث تتحول عملية الشرح إلى روايات وقصص مأخوذة من أفواه أعراب متأخرين ، عاشوا في البادية ، رحل إليهم أبو محمد وشيخه أبو الندى فأخذا هذه الأقاصيص والروايات التي ربما تشتمل على الكثير مما يدخل فيه التزييف والاختلاق ، ويحتاج إلى صنيع أشبه بصنيع الأجيال الأولى من العلماء في تصفية ما كانوا يأخذونه من أفواه أهل البوادي وتنقيته .

واذا كنا قد أخذنا على أبي محمد هذه المآخذ في عمله ، فان هذا لا يمنع من القول بأن كتابه بمنهجه الذي قام به يعد إسهامة طيبة في خدمة اختيار الحماسة ، وهذا أمر واضح من خلال الجوانب التي عرضناها فيما سبق .

---

(١) المصدر نفسه ، الورقة ٢٢ .

(٢) نفسه ، الورقة ذاتها .

الفصل الخامس

المنهج التجميعي الانتخابي وشرح التبريزي

هذا منهج سبق أن أوضحنا صفاته ومقوّماتـه من خلال مناقشتنـا لأحمـد جمـال العمري في تحديد صفات هذا المنهج بالنظر لعمل التبريزي في شرح الحماسة ، ولقد رأينا من خلال تلك المناقشة أن هذا المنهج يقوم على تجميع أعمال السابقين وانتخاب شرح منها يحقق استيفاء جميع العناصر التي يقاضيها شرح الشعر ، كما كشفت هذه المناقشة عن جملة من الملاحظات حول تطبيق هذا المنهج على شرح التبريزي كنا قد وعدنا بتوضيحها وابرازها من خلال تطبيق هذا المنهج . ولكن قبل أن نشرع في ذلك رأينا من المفيد أن نشير إلى أن التبريزي ليس وحده الذي سلك هذا المنهج سبيلاً ، فقد تبعه فيه عالمان من علماء القرن السادس أحدهما أمين الدين الطبرسي ، المتوفى سنة ٥٤٨هـ[١] ، والآخر أبو الرضا ضياء الدين الراوندي المتوفى سنة ٥٤٩هـ[٢] .

---

(١) هو أبو علي أمين الدين الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسي الخراساني ، نحوي مفسرّ سكن بيهق من نواحي نيسابور ، وتصدّر للافادة بها ، وقصده الطلاب فأفادوا من علمه وبلاغته في الشعر والنثر ، له من المؤلفات شرح الحماسة ، وهو مخطوط وغير كامل ، وكتاب مجمع البيان في تفسير القرآن وهو مطبوع بصيدا . ترجمته في انباه الرواة ٣ : ٦ وما يليها ، وروضات الجنات ص ٥١٢ وما بعدها ، وله ترجمة وافية في مقدمة كتاب مجمع البيان بقلم محسن الحسيني في طبعة صيدا المشار اليها .

(٢) هو أبو الرضا ضياء الدين فضل الله بن علي بن عبيد الله الحسيني الراونـدي ، من أهـل كاشان، كان من العلماء الشعراء خلّف ديوان شعر، وله من المؤلفات شرح الحماسة، وهو مخطوط ، كما ذكرنا من قبل ، وكتاب النوادر ، وكتاب الكافي في العروض والقوافي . توفي بعد عام ٥٤٩ وقيل ٥٧٠هـ . ترجمته في أعيان الشيعة ٤٢ : ٢٩٦ ومـا بعدهـا ومعجـم المؤلفين ٨ : ٧٥ .

فأما الطبرسي فقد انتخب شرحه من شروح أبي رياش والنمري والبياري وابن جني وأبي العلاء ، فضلاً عن نقولاته المتكررة عن علماء اللغة والنحو من أمثال الخليل وسيبويه والأصمعي وأبي العباس ثعلب ، وأبي علي الفارسي وعبد القاهر الجرجاني ، وكان مثل التبريزي عالة على المرزوقي في جمهور شرحه يأخذ منه دون أن يشير إليه إلّا في القليل النادر[١] ، وليس في شرحه ما يدل على ذاتيّة الاّ في عنصر البلاغة حيث أكثر من شرح الألوان البلاغيّة وبيان جمالها في الكلام ، وذلك مثل عمله في بيت بشامة بن حزن النهشلي الذي يقول فيه :

بِيضٌ مَفَارِقُنَا تَغْلي مَرَاجِلُنا نَأْسُو بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا

فقد وقف عند الكناية في قوله : « بيض مفارقنا » وشرحها ثم أفاض في الحديث عن جمال الكناية في الكلام وأتى بالأمثلة المتعددة من القرآن والشعر وكلام العرب[٢] ، وكذلك عمله في بيتي الحارث بن وعلة اللذين يقول فيهما :

لاَ تَأْمَنَنْ قَوْماً ظَلَمْتَهُمُ وَبَدَأْتَهُمْ بالشَّتْمِ والرَّغْمِ
أَنْ يأْبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمِ والقَوْلُ تَحْقِرُهُ وقَدْ يَنْمي

فقد رأيناه يقف عند « التضمين »[٣] الذي وقع فيه الشاعر ، ويبين أنه من عيوب

---

(١) ينظر مخطوطة شرحه ، الورقة الأولى ، فقد أشار فيها إلى المرزوقي .

(٢) ينظر مخطوطة شرحه ، الورقة ١١ .

(٣) التضمين عدّه أبو هلال من عيوب الشعر وهو أن يكون البيت الأول محتاجاً إلى الأخير مثل بيتي ابن وعلة هذين ، ومثل قول الشاعر :

كَأَنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ يُراحُ
قَطَاةٌ غرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ

وثمة تضمين آخر ذكره أبو هلال ووصفه بأنه حسن وهو أن يستعير الشاعر أنصاف الأبيات أو الأبيات من شعر غيره ، وذلك مثل قول جحظة :

أَصْبَحْتُ بَيْنَ مَعَاشِرٍ هَجَرُوا النَّدَى وَتَقَبَّلُوا الأَخْلاقَ عَنْ أَسْلافِهِمْ
قَوْمٌ أُحَاوِلُ نَيْلَهُمْ فَكَأَنَّمَا حَاوَلْتُ نَتْفَ الشَّعْرِ مِنْ آنَافِهِمْ
هَاتِ اسْقِنِيهَا بالكَبِيرِ وَغَنِّني « ذَهَبَ الَّذين يُعَاشُ في أَكْنَافِهِمْ »

الشعر ولكنه أخف العيوب ، واستدل بذلك على قول الأخفش : « التضمين ليس بعيب إلّا أن غيره أحسن منه » ثمّ مضى مفصّلاً الحديث في البيت المقلّد الذي يتم معناه به والبيت ذي التقليدين الذي يشتمل على معنيين تامين ، مستشهداً في ذلك بالشعر محاولاً من أوجه عدة أن يوضح ما جاء في بعض التضمين من حسن وجمال(١) .

وأما أبو الرضا الراوندي فقد دلّ في مقدمة شرحه على منهجه الانتخابي حيث قال ـ والكلام عن ديوان الحماسة ـ : « وكنت شديد التفات الهمة منذ صباي إلى تتبع شروحه والتقاط غررها ودررها وضم نشرها وايداعها مجلّدة خفيفة المعونة سهلة المرتقى قريبة المغزى ، والأيام تماطل وتطاول إلى أن أرضتني من ذلك بحواشٍ علقتها من نسخة منه بخطي من شرح أبي علي المرزوقي والاسترابادي وأبي الحسن البياري وأبي عبد الله النمري وأبي الفتح ابن جني ونسخة للأمير أبي الفضل الميكالي ، ومن مواضع أخر ، وان لاح لي لائح كتبته ، غير مستبعد أن يكون الأول قد ترك للآخر شيئاً »(٢) .

وعلى هذا فان شرحه يمثل تجميعاً لشروح هؤلاء الذين ذكرهم وانتخاباً منها ، وان كان اتكاؤه على شرح المرزوقي قد فاق سائر الشروح الأخرى ، كما كان بجانب من ذكرهم مثل الطبرسي ينقل عن علماء اللغة والنحو والأوائل ، اذ له نقولات من الخليل وسيبويه ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، وأبي سعيد السيرافي ، وأبي حاتم السجستاني ، وأبي عثمان المازني ، والزجاج .

واذا كان الطبرسي قد تميّز في شرحه الانتخابي بالتركيز على النواحي البلاغية ،

ومثل قول ابن الرومي :

يَا سَائِلِي عَنْ خَالِدٍ عَهْدِي بِهِ رَطْبُ العِجَانِ وكفُّهُ كَالجَلْمَدِ
« كَالأُقْحُوَانِ غَدَاةَ غِبٍّ سمائِهِ جَفَّتْ أَعَاليه وَأَسْفَلُهُ نَدِ »

ينظر معجم البلاغة العربيّة م ١ : ٤٣ وما بعدها .

(١) ينظر مخطوطة شرحه ، الورقة ٢٤ .

(٢) ينظر مخطوطة شرحه ، الورقة ٣ .

فانّ أبا الرضا قد تميّز كذلك بخاصة تمثلت في أنه كان ينتخب من أعمال السابقين ، ثم لا يكتفي بذلك بل يضيف إليها ما يعنّ له من رأي فيها ، وهذا قوله : « وان لاح لي فيه لائح كتبته» ولهذا رأيناه في جملة من المواضع يدلي برأيه فيما ينتخبه ، ومن ذلك ما جاء عنه في بيت ملحة الجرمي الذي جاءِ في باب الصفات والذي يصف فيه برقاً لاح له في الليل وهو :

نَشَــاوَى مِنَ الادْلاَجِ كُدْرِيُّ مُزْنِهِ   يُقَضِّي بِجَدْبِ الأَرْضِ مَا لَمْ يَكُنْ يَقْضِي

قال : « قد أكثروا في معنى هذا البيت ، والذي يلوح لي أن معناه يقضي كدري هذا البارق بتقضية جدب الأرض ما لم يكد يقضي أي يذهب ما لم يكد يذهب من الجدب »[1] .

وأحياناً لا تكون اضافته إلّا إطالة واسهاباً في ايراد معنى النص ، ومن ذلك ما أورده في بيت الغطمّش الضبي الذي يقول فيه :

فَبالخَـيرِ لاَ بالشَّـرِّ فَارْجُ مَودَّتِي   وَأَيُّ امْـرِىءٍ يُقْتَـالُ مِنْـهُ التَرَهُّبُ

فقد أورد آراء من سبقوه في هذا البيت الديمرتي والمرزوقي وأبي الندى ثم أورد معناه مشيراً إلى أنه صاحبه قال : « يقول أيها الرجل الذي يغتابني وينتقصني ثم اذا رآني داجاني وتبصبص إليّ لا تفعل ذلك ، فانك إن رجوت مودتي إياك ومحافظتي عليك فلن أدرك ذلك بالمداجاة اذا حضرت والاغتياب اذا غبت ، ولكن ان أردت ذلك فعليك باعتياد الخير واستصلاح الدخلة وتحسين الباطن فانك انما تفعل معي ذلك ، وتتكلف هذه المعاملة لأنك ترهبني وتَسْتَعْرِمُنِي ، وكيف يحتكم على من يخاف ناحيته ولا تؤمن غائلته ، فلا تحتكم على ما شئت من الاغتياب في حال الغيبة

(١) المصدر السابق ، الورقة ٢٧٦ وهو معنى غير واضح ، وأفضل منه ما ذكره المرزوقي حيث قال : « ان الكدري منه يحكم للمجدب من الأرض ويقسم من المطر له ما لم يكد يقضي به لنفسه ، ولم يقرب منه قسمة له كأنه يصب لجدب الأرض أكثر مما يحتكم به لو حكّم ويختاره لو خيرّ » وفرق ما بين التفسيرين أن أبا الرضا فسرّ يقضي بمعنى يذهب والمرزوقي فسرّ يقضي بمعنى يحكم . ينظر شرح المرزوقي ق ٤ : ١٨٠٧ .

والمداجاة في حال الحضور »[1] .

وهذا عمل ليس فيه جديد اضافة على ما ذكره الشراح سوى إسهاب العرض وتطويله ، واستدعاء الجمل بأكثر من وجه .

واذا كان هذا المنهج قد وجد لدى عالمين غير التبريزي ، فان التبريزي بحق له قصب السبق فيه ، فهو صاحبه الأول لا في شرح الحماسة فحسب بل في غيره من الشروح الأخرى التي قام بصناعتها مثل شرح المفضليات وشرح القصائد العشر . التبريزي هو مبتكر هذا المنهج الذي ظلّ ينمو ويتطور مع الزمن حتى اكتمل وتجلّ عند البغدادي في خزانة الأدب ، وبخاصة في شرح الشواهد الشعريّة التي جاءت في اختيار الحماسة[2] ، ومن أجل ذلك كان من حقه علينا أن يكون تطبيق هذا المنهج في شرحه بالرغم من ملاحظاتنا التي نوهنا لها من قبل .

وهي ملاحظات تتلخص في أنه قد حاول أن يجمع في شرحه ما يحقق جميع العناصر المتطلبة في الشرح ، ولكنه لم يوفق بين هذه العناصر توفيقاً تاماً ، وينسق بينها بانسجام يشعرنا بالتكامل والترابط إلاّ في مواضع متفرقة من شرحه ، كما أنه اعتمد في جمهور شرحه على المرزوقي محاولاً أن يكمل ما فيه من نقص من الشروح الأخرى ، غير أن هذه الشروح لم تكن لتسدّ حاجته في استكمال هذا النقص ، ومن ثم جاءت جملة من النصوص خالية تماماً من أدنى شرح يذكر ، وكان مقتضى عمله ـ وهو الشارح المنتخب ـ أن يسد هذا من عنده ، ولكنه لم يكن مبدعاً بحيث يحقق بابداعه استكمال ما ينتخبه من الشروح ، هذا فضلاً عن انسياقه المتكرر وراء شيخه أبي العلاء في استطراداته المختلفة ، وكذلك انسياقه وراء أبي رياش في نقولات مسهبة سوّد بها العديد من الصفحات دون أن يعمل فيها قلمه بالتهذيب والتشذيب

---

(١) ينظر مخطوطة شرحه ، الورقة ١٤٢ .

(٢) من ينظر إلى مقومات هذا المنهج وصفاته ثم يعرضها على عمل البغدادي في الخزانة ، وبخاصة في النصوص التي اختارها أبو تمام يجد هذا المنهج كاملاً ناضجاً من جميع جوانبه ، وقد لاحظنا ذلك بعد أن أفرغنا كل ما يتصل بالحماسة من الخزانة في كراسات فتكشف لنا عمق هذا المنهج عند البغدادي ، غير أن المقام يضيق لتفصيل هذا وتوضيحه .

أو الحذف والاختصار الأمر الذي أدى إلى طغيان عنصر أخبار الشعر على عناصر الشرح في القطع التي كان أبو رياش يذكر خبر أبياتها أو بواعث الشعر فيها .

هذا ما كنا قد لاحظناه عليه فيما مضى وأقمنا الأمثلة لصحته ، والآن لننظر كيف حاول التبريزي أن يحقق هذا المنهج في شرحه متوخين أن نوضح ذلك من خلال العناصر التي تحقق فيها هذا الانتخاب .

أ ـ شرح أسماء الشعراء والأعلام :

جمع التبريزي لتحقيق هذا العنصر أعمال رجال سبقوه في هذا المضمار هم ابن جني وأبو العلاء وأبو رياش وأبو هلال وأبو محمد الأعرابي ، كما جمع أقوال بعض العلماء الأوائل أمثال : الأصمعي وأبي زيد وغيرهما . وقد استطاع بحق أن ينتخب من هذه الأعمال والأقوال ما يحقق لهذا العنصر وجوده البارز في صنعة شرحه . صحيح أنه أكثر الاعتماد فيه على ابن جني ثم أبي العلاء ، ولكنه كان في أحيان متفرقة يحاول الانتخاب من هؤلاء الذين ذكرناهم بما يوفر لمنهجه مقوماته حيث نراه يجمع بين أعمال ثلاثة علماء في موضع واحد ، وذلك في مثل عمله في شرح اسم الشاعر « ابن زيّابة التيمي » فقد انتخب في شرحه من ابن جني وأبي العلاء وأبي رياش ، نقل عن ابن جني قوله : « زيّابة اسم مرتجل للعلم وهو فعالة أو فيعالة أو فوعالة من لفظ الأرنب ، وتيم فعل من تيّمه الحب أي ذلّله ويقال تامَهُ ، قال الشاعر :

تَامَــتْ فُؤَادِي بِذَاتِ الجِــزْعِ خَرْعَبَةٌ ... مَرَّتْ تُرِيدُ بِذَاتِ العَذْبَــةِ البِيَعَا

ومنه تيم اللات أي عبد اللات ومنه قالوا معبّد أي مذلّل موطوء»(١) . ونقل عن أبي العلاء اضافة جديدة غير ما ذكر ابن جني وهي قوله : « لم يصرّف الفعل من زيّابة إلا أنهم قالوا رجل أَزْيَبٌ وهو الدعي وقالوا للريح : أزيب فقيل هي الجنوب وقيل هي الصبا »(٢) . ثم نقل عن أبي رياش إضافة أخرى حيث أورد لقب هذا

---

(١) ينظر المبهج ص ١٩ ، وشرح التبريزي ١ : ٧١ .

(٢) ينظر شرحه ١ : ٧١ .

الشاعر واسمه وشرحهما قال : « وقال أبو رياش هو فارس مِجْلَز عمرو بن لأي ، اللأي البطء، وَمِجْلَز من الجَلْزِ ، وهو الفتل الشديد ، وجَلْزُ السوط مقبضه ، وجَلْزُ السنان أسفله قال أبو زبيد :

حَمِدْتُ امْرِي ولُمْتُ أَمْرَكَ إذْ أَمْسَكَ جَلْزُ السِّنَانِ بالنَّفْسِ

وكل ذلك راجع إلى الجلز الذي هو إحكام الفتل »[١] .

ونراه في موضع آخر ينتخب من ابن جني والأصمعي وأبي العلاء ، وذلك في شرح هشام بن المغيرة المخزومي ، فقد أورد أولاً قول ابن جني وهو «هشام مصدر هاشمته هشاماً ، وهو فاعلته من الهشم وهو الكسر ، قالت بنت هاشم جد النبي ـ صلى الله عليه وسلم :

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ[٢]

ثم أتى بتفسير الأصمعي فقال : « وقال الأصمعي في تفسيره : هشم ماله فأطعم الثريد » ثم أضاف إلى ذلك ما جاء عن أبي العلاء فيه وفي اسم المغيرة ومخزوم قال : « وقال أبو العلاء : هشام من هشمت الشيء إذا كسرته ، وأصل ذلك أن يكون في شيء يابس إلّا أنه ليس بصعب المكسر ، ومنه قيل للشجرة اليابسة هشيمة وللنبت اليابس هشيم . والمغيرة بضم الميم أجود اللغتين ، وقد حكي بالكسر على الاتباع ، وهو من أغرت الحبل إذا أحكمت فتله أو من أغار على العدو أو من أغار المرأة ، ومخزوم من خزمت البعير إذا جعلت في أنفه خزامة وهي حلقة من شعر »[٣] .

---

(١) نفسه والصفحة ذاتها ، وينظر ص ٧٧ ، فقد نقل فيها أيضاً عن أبي الفتح وأبي العلاء وأبي رياش .

(٢) البيت من أبيات نسبت لمطرود بن كعب الخزاعي ، وذلك في أمالي المرتضى ٢ : ٢٦٨ وأمالي القالي ١ : ٢٤١ ، والحماسة البصريّة ١ : ١٥٥ ، وقال البصري : وتروى لابن الزبعري ولكنه أردف أن نسبتها إلى مطرود أكثر .

(٣) شرح التبريزي ١ : ٩٧ ، وينظر ص ١١١ ، حيث انتخب من ابن جني وأبي العلاء وأبي هلال .

وهو بجانب انتخابه من ثلاثة علماء قد ينتخب من اثنين ، وهذا عنده كثير ، ينتخب أحياناً من ابن جني وأبي العلاء[١] وأحياناً أخرى من أبي العلاء وأبي هلال[٢] ، وأحياناً ثالثة من ابن جني وأبي محمد الأعرابي[٣] .

ويمكن القول بأن التبريزي قد حقق من خلال انتخابه في هذا العنصر إضافة لها قيمتها هي تصحيح بعض أسماء الشعراء من ذوي الاختيار في الحماسة فمثل ما أفاد من هؤلاء العلماء في شرح الأسماء والأعلام أفاد منهم في تصحيح الأسماء التي وقع فيها وهم من أبي تمام ، ومن أمثلة ذلك ما جاء في اسم « قراد بن عباد » فقد نقل عن أبي هلال تصحيحاً له ، قال : « قال أبو هلال : هكذا في الأصل وهو خطأ ، وانما هو قراد بن العيّار بن محرز ، وأبوه العيّار أحد شياطين العرب »[٤] .

وفي اسم حسان بن نُشبة العدوي نقل تصحيحاً له عن أبي محمد الأعرابي قال : « قال أبو محمد الأعرابي : هذا الاسم مصحَّف ، والصحيح جِساس بن نشبة بن عسّاس قال جرير يهجو جخدب بن خرعب التيمي :

لَقَدْ شَهِدَتْ تَيْمٌ عَلَى أُمِّ جَخْدَبٍ وَكَانَ سَرَاةَ التَّيْمِ رَهْطُ جِسَاسِ

يعني جِسَاس بن نشبة »[٥] .

وفي نسب الشاعر المنخل اليشكري ذكر أبو تمام « المنخل بن الحرث اليشكري » فنقل التبريزي تصحيحاً لهذا النسب قال : « قال أبو هلال : هو المنخل ابن مسعود بن عامر بن ربيعة بن عمرو اليشكري »[٦] .

وسجل التبريزي من خلال انتخابه من الشراح إضافة أخرى تتمثل في أن أبا

---

(١) ينظر مثلاً ٢ : ٦٣ ، ٣ : ٤٠ .
(٢) ينظر ١ : ١١٩ .
(٣) نفسه ١ : ١٧٦ .
(٤) نفسه ٢ : ١٠٧ .
(٥) نفسه ١ : ١٧٦ .
(٦) نفسه ٢ : ٤٥ .

تمام قد أورد في اختياره جملة من القطع مغفلة بدون نسبة إلى أصحابها حيث كان يصدّرها بقوله : «وقال آخر » أو « وقال بعضهم » ونحو ذلك ، فكان التبريزي ينقل من الشروح التي ينتخب منها ما يوضح قائلي بعض هذه القطع ، ومن ذلك ما نقله في القطعة (٦٣) من باب الحماسة التي صدرها أبو تمام بقوله : « وقال اخر » فقد نقل التبريزي عن أبي هلال قوله : « لم يذكر أبو تمام اسمه ، واسمه الحكم بن زهرة »[١] .

وفي القطعة (٧٣) من الحماسة أيضاً وقد صدرت بـ « وقال آخر » نجد التبريزي ينتخب في نسبتها قولين أحدهما لأبي رياش الذي نسبها إلى أبي الشغب العبسي ، والآخر لأبي عبيدة الذي نسبها للأقرع بن معاذ القشيري[٢] .

ونسب أبو تمام إحدى القطع لبعض لصوص طيىء فنقل التبريزي توضيحاً له عن أبي هلال قال : « قال أبو هلال : هو شبيب بن عمرو بن كريب »[٣] .

وكان أبو تمام يورد أحياناً اسم الشاعر غير كامل فينتخب التبريزي من الشروح التي أمامه ما يكمل الاسم ويوضحه ، وذلك في مثل القطعة التي نسبها أبو تمام إلى القطامي ، ولم يذكر اسمه ، فنقل التبريزي عن أبي هلال قوله : « واسمه عمير بن شُيَيْم بن عمرو وأوصل نسبه إلى تغلب بن وائل »[٤] .

وكذلك في القطعة التي صدّرها أبو تمام بقوله : « وقال التميمي في منصور بن زياد» نجد التبريزي ينقل عن أبي هلال توضيحاً لهذا التميمي قال : « قال أبو هلال : هو عبد الله بن أيوب ويكنى أبا محمد »[٥] .

والحق أن التبريزي قد استطاع من خلال عمله في هذا العنصر أن يحقق من

---

(١) ينظر شرحه ١ : ١٣٢ .
(٢) نفسه ١ : ١٤٤ .
(٣) نفسه ٢ ٩٢ .
(٤) نفسه ١ : ١٨٠ .
(٥) نفسه ٣ : ٨ .

الشروح التي ينتخب منها فائدة طيبة لاختيار الحماسة وبخاصة حين نعلم أن جملة من الشروح التي كان ينتخب منها لم تصل الينا اذ لا تزال في طيّ المجهول لا يعرف مكانها .

ب - تصحيح نسبة الشعر إلى قائليه :

ومثلما أفاد التبريزي من شروح أبي رياش وأبي هلال وأبي محمد الأعرابي في العنصر السابق كانت فائدته جمة من هذه الشروح في هذا العنصر ، فقد خطا بهذه الشروح التي انتخب منها شرحه خطوات عمليّة في هذا الجانب المهم في توثيق الشعر وتحقيق نسبته إلى قائليه .

ولا شك أن اضطراب النسبة في الشعر القديم بين أكثر من شاعر يشكل عقبة للدارس في هذا الشعر ، ولهذا فان عمل التبريزي الانتخابي في هذا العنصر له قيمته في البحث الأدبي ، إذ يعرض لنا من خلال الشروح التي وقف عليها ، وشكّلت مادة شرحه آراء هؤلاء الشرّاح فيما وقع فيه أبو تمام من وهم في نسبة الشعر إلى غير قائليه . والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة ، منها على سبيل المثال ما جاء في قطعة الرثاء التي قيلت في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقد نسبها أبو تمام إلى الشمّاخ بن ضرار ، فقد انتخب التبريزي لنا قولين في نسبتها أحدهما لأبي رياش الذي قال : « الذي عندي أنه - أي الشعر - لمزرّد أخيه » والآخر لأبي محمد الأعرابي الذي قال : « هو لجزء بن ضرار أخي الشمّاخ »[1] .

وفي بيت الحماسة الذي نسب إلى السموءل بن عادياء الغساني وهو :

وَأَسيافُنَــا في كُلِّ غربٍ وَمَشْرِقٍ بِهَــا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِــينَ فُلُولُ

نجد التبريزي ينقل عن أبي محمد الأعرابي قوله : « هذا البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، يدلك على ذلك قوله :

فَإِنَّ بني الدَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَوْمِهِمْ

(١) شرحه ٣ : ٦٥ .

والديّان هو يزيد ين قطن بن زياد بن الحرث الأصغر بن مالك بن ربيعة بن كعب الحرث الأكبر »[١].

وفي القطعة التي نسبها أبو تمام إلى يحيى بن منصور الحنفي ينقل التبريزي عن أبي رياش قوله : « هذا غلط من أبي تمام يحيى بن منصور ذهلي وهذه الأبيات لموسى بن جابر الحنفي »[٢].

وفي الحماسيّة التي مطلعها :

أَلا أَيُّهــذاَ النَّابِــحُ السِّيدَ اِنَّني   عَلى نَأْيِهــا مُسْتَبْسِــلٌ مِنْ وَرائِهَا

والتي نسبها أبو تمام إلى الفضل بن الأخضر الضبي نجد لدى التبريزي تصحيحاً لنسبتها من أبي هلال الذي قال : إنها لأبيه الأخضر بن هبيرة بن المنذر »[٣].

ونسب أبو تمام مرثية لعمرة الخثعميّة قال إنها ترثي فيها بنيها وجاء مطلعهـا في روايته :

لَقَــدْ زَعَمُــوا أَنِّــي جَزِعْــتُ عَلَيْهِما   وَهَــلْ جَزَعٌ أَنْ قُلْــتُ واباَباهُما

فأفاد التبريزي عن أبي رياش قوله : « الذي عندي أن هذه الأبيات لدرماء بنت سيار بـن عبعب الجحدريّة ترثي أخويها وأولها :

أَبَــى النَّــاسُ اِلاَّ أَنْ يَقولُــوا هُماهُما   وَلَــوْ أَنَّنَــا اسْطَعْنَــا لَكَانَ سِوَاهُما[٤]

وهكذا نجد أن التبريزي قد أفاد في مواضع متفرقة من شرحه[٥] اضافات ذات جدوى في هذا العنصر ، وهي اضافات قد خدمـت اختيار الحماسـة من حيث اِنَّ تحقيق نسبة الشعر إلى قائله أمر ضروري في عمليّة الشرح ، وان كنا نأخذ عليه أنه

---

(١) المصدر السابق ١ : ٦١ .
(٢) نفسه ١ : ١٧١ .
(٣) نفسه ٢ : ٧٢ .
(٤) نفسه ٣ : ٦١ .
(٥) ينظر مثلاً الصفحات ٢ : ١٢٦ ، ٣ : ٦٥ ، ١٠٤ .

كان ينقل الآراء في نسبة الشعر دون أن يرجح أيها أصح في نظره ، ومع هذا فان مجرّد التنبيه إلى شيء كهذا يعد عملاً مفيداً في خدمة النص الشعري .

ج ـ أخبار الشعر ومناسباته :

احتفى التبريزي بهذا العنصر كثيراً ، فلقد سبق أن أشرنا إلى أنه كان ينساق وراء أبي رياش في نقولات مسهبة ، وهي نقولات إنْ لم تُحقِّقْ تعادلاً وتكافؤاً بين عناصر الشرح فانها بلا شك قد خدمت هذا العنصر وحققت به فائدة في فهم الجو الاجتماعي والنفسي الذي قيل فيه الشعر المختار في الحماسة ، والتبريزي بجانب افاداته المتعددة من شرح أبي رياش في هذا العنصر كان يفيد أيضاً من أبي محمد الأعرابي الذي رأيناه في تتبعه لأبي عبد الله النمري يعنى كثيراً بأخبار الشعر وبواعث قوله ويعد معرفة ذلك من قبل الشراح أمراً له أهميته الكبرى في فهم الشعر وإدراك معانيه ، وكذلك كان ينقل من شرح أبي هلال ومن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، ونحن لا نستطيع أن نورد نماذج لهذه الافادات لأنّ جلّها قد جاء في إطالة بالغة ، وبخاصة نقولاته من أبي رياش ، ولكن حسبنا أن نشير إلى أنه نقل لخدمة هذا العنصر من شرح أبي رياش في نحو تسعة وثلاثين موضعاً ، وهي مواضع متفاوتة في أجزاء الشرح الأربعة[1] ، ونقل عن أبي محمد الأعرابي في سبعة مواضع[2] ونقل عن كل من أبي هلال وأبي عبيدة في موضعين[3] ، وهناك مواضع متفرقة أورد فيها أخباراً عن الشعر وأصحابه لم يعزها لأحد من هؤلاء ، ولعلها من أبي رياش أو أبي عبيدة .

د ـ أوزان الشعر وأضربه وقوافيه :

مرّ بنا أنّ التبريزي كان يهتم بتحديد وزن الشعر في قطع الحماسة وأضربه وقوافيه ، وأنه استطاع أن يحقق ذلك في جل قطع الحماسة وأن نحواً من اثنتين وستين قطعة فقط هي التي لم تحظ عنده بتحديد الضرب والوزن والقافية ، وهو في هذا

---

(١) ينظر مثلاً ١ : ٢١ ، ١٠٥ ، ٢ : ١٢ ، ٢٠ ، ٣ : ٦٨ ، ١٦٣ ، ٤ ، ٢٠ .

(٢) ينظر مثلاً ١ : ٦٧ ، ٢ : ٨٨ ، ٣ : ١٩١ .

(٣) ينظر مثلاً ١ : ١٢٠ ، ٢ : ١٦٧ .

الجانب كان يحدد الضرب أولاً فالبحر فالقافية ، كأن يقول في صدر شرح أول بيت من كل قطعة : « الأول من الطويل والقافية من المتواتـر » أو « الأول من البسيط والقافية متدارك » ونحو ذلك ، ولم يورد قضايا تتصل بالوزن أو القافية في شيء من الشرح والتوضيح إلّا ستة مواضع : أربعة منها جاءت منقولة نصاً من شرح أبي العلاء[1] ، وموضع واحد نقله عن المرزوقي ولم يعزه إليه ، ولكن ما نقله موجود بنصه في شرح المرزوقي وهو كلام المرزوقي الذي سبق أن أوردناه عندما تكلمنا عن عنصر الوزن والقافية في شرحه ، والذي كان قد قاله في قطعة سلمى بن ربيعة التي مطلعها :

اِنَّ شِوَاءً وَنَشْوَةً وَخَبَبَ البَازِلِ الأَمُونِ[2]

كما نقل كلاماً عن شذوذ الوزن في القطعة التي مطلعها :

« اِنْ تَسَلَّي فالمَجْدُ غيْر البَديعْ » ولم يعزه لأحد ، وأغلب ظننا أنه أخذه من أبي العلاء لأن الأسلوب فيه شبيه بأسلوب أبي العلاء[3] .

وهذه النقولات الستة إنما أخذها من شرحيْ أبي العلاء والمرزوقي ، وهما من الشروح التي انتخب منها شرحه ، غير أننا وجدنا له موضعاً سابعاً ناقش فيه مسألة تتصل بوزن الشعر أفاد فيها إضافة من غير هذين الشرحين ، وذلك في قطعة الربيع ابن زياد التي يرثي فيها مالك بن زهير العبسي والتي يقول فيها :

وَمُجَنَّبَاتٍ مَا يَذُقْنَ عُذُوفاً يَقْذِفْنَ بالمُهُرَاتِ والأمهارِ[4]

---

(١) ينظر شرحه ١ : ١٠١ ، ١٩٢ ، ٢ : ١٩٠ ، ٣ : ٢٥ .

(٢) المصدر نفسه ٣ : ٨٣ ، وينظر شرح المرزوقي ق ٣ : ١١٣٧ .

(٣) المصدر نفسه ٤ : ١٤٨ .

(٤) المُجنّبات الخيل تجنب إلى الابل في الغزو ، وما يذقن عزوفاً أي ما يذقن أدنى ما يؤكل من الطعام ، وبالمهرات والأمهار يريد تقذف أجنتها لشدة السير وبعد الشقة ، وهـذا البيت مرتبط بما قبله ، وقد دعا فيه ذوي الرأي إلى الرحيل للطلب بثأر مالك بن زهير وهو :

مَا إنْ أرَى فِي قَتْلِهِ لِذوي النُّهَى إلاَّ المطِيَّ تُشَدُّ بالأَكْوَارِ

فقد أورد فيه قولاً لأبي العلاء جاء فيه : « هكذا روي هذا البيت ناقصاً ، وذكر أن الخليل كان يسمى هذا المقعد ، وروى عن أبي عبيدة[١] أنه كان يسمى هذا ونحوه الإقواء » ثم أضاف التبريزي إلى قول أبي العلاء هذا أن أبا عبيد ذكر في الغريب المصنف فيما يتعلق بالقوافي أن الاقواء نقصان حرف من الفاصلة ، واستشهد بقوله : « أفبعد مقتل مالك بن زهير » . قال التبريزي : ولم يبيّن ما الفاصلة ، وربما توهّم أن الفاصلة إحدى الفاصلتين المذكورتين في أول العروض الصغرى والكبرى ، والأمر بخلاف ذلك لأنّ الحرف الناقص في البيت إذا قطعته من الوتد لا من الفاصلة » .

ومضى التبريزي مقرراً حديثه قال : « وذاكرت شيخنا أبا القاسم الرقي في وقت قراءتي عليه هذا الموضع من الغريب ، فذكر أن أبا عبيد يحكي هذا عن أبي عبيدة[٢] وأن أبا عبيدة لم تكن له معرفة بهذا العلم ، وكأنّ الرقي توهم أن المراد بالفاصلة إحدى الفاصلتين من الصغرى والكبرى ، فأطلق هذا القول في أبي عبيدة ، والصواب ما وقع إليّ فيما بعد وذكره لي بعض الشيوخ ، وهو أن المراد بالفاصلة الفصل وهم يسمون عروض البيت فصلاً ، والنقصان في هذا البيت من العروض ، فعلى هذا الاقواء على ضربين أحدهما اختلاف حركة الروي بالضم والكسر ، والآخر نقصان حرف من عروض البيت .

فهذا هو الموضع الوحيد في هذا العنصر الذي قدّم فيه التبريزي عملاً يمكن أن يعد جهداً منه ، وهو وان بدا فيه معتمداً على غيره فانه دل على أنه مستوعب لقراءاته وسماعاته ، يعرف كيف يوظّف هذه القراءات والسماعات في مواضعها المناسبة من شرحه .

هـ ـ الرواية :

هذا العنصر رأيناه فيما سبق عند المرزوقي وابن جني وأبي هلال وأبي محمد

---

(١) هو أبو عبيد القاسم بن سلاّم ، له ترجمة في الكتاب الثاني .

(٢) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وله ترجمة أيضاً في الكتاب الثاني .

الأعرابي يخضع لمفاضلة واختيار ، فالمفاضلة والاختيار هما المعيار السليم الذي يقاس به ذكر اختلافات الرواية ، ولهذا كان لعمل هؤلاء الشراح قيمته في هذا العنصر . أما التبريزي ففضلاً عن أنه كان عالة على المرزوقي في هذا العنصر بصورة لا تخفى على من يقف على الشرحين معاً فانه كان يورد أقوال هؤلاء الشراح ومناقشاتهم في الرواية واختيارهم لها ، يرصفها جنباً إلى جنب دون أن يتدخل بالوقوف إلى صف واحد منهم بالرأي والتعليل ، ولهذا كان عمله في هذا العنصر - كما لاحظه أحمد جمال العمري - مجرد عرض للرواية لا أكثر ولا أقل ، لا تخدم القارىء في شيء بل هو في واقع الأمر عمل له خطورته بالنسبة للقارئين والدارسين لأنه يجعلهم غير واثقين من صحة ما يقال وما يروى ، إذ أنَّ كثرة الروايات وتضاربها تجعل الشعر بين أذهان هؤلاء القراء والدارسين ألعوبة غير جديرة بالثقة لكثرة ما طرأ عليه من تغييرات لفظيّة في الرواية[1] .

وهذا القول الذي ذهب إليه العمري هو خير ما يقال في عمل التبريزي في الرواية ، لأننا حين استخرجنا من شرحه كل ما جمعه من الشراح السابقين في الرواية وبدأنا نقرؤه قراءة دراسة متأنية هالنا ما فيه من آراء متضاربة بحيث تجد الرأي ونقيضه في موضع واحد ، بل يتجاوز الأمر إلى أن اللفظة الواحدة تراها في رواية هؤلاء الشراح في أكثر من شكل ، والكل يحاول أن يدعم روايته لها ذاهباً إلى أنها هي الرواية وما عداها هو الخطأ ، ولا نكون مبالغين اننا في كثير من المواضع التي لفتّنا الحيرة فيها بأثرابها تمنينا أن تكون تحت أيدينا نسخة من رواية الحماسة بخط أبي تمام نفسه ، بل ربما باعدنا في ذلك فتمنينا أن يكون أبو تمام بين ظهرانينا حتى نسأله عن صحة هذه الأقوال الصادرة عن هؤلاء الشراح ، والتي جمعها لنا التبريزي في موضع واحد دون أن يتدخل فيها بعمل يذكر .

وربما يكون هذا القول غريباً من باحث يدرس هذه الشروح ، ولكنه شعور انتابنا في لحظات كثيرة أردنا أن نسجله دالين به على حيرتنا ونحن نقرأ ما جمعه

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٣١٩ .

التبريزي من أقوال هؤلاء الشراح ، والأمثلة على ذلك كثيرة . انظر مثلاً إلى عمل التبريزي في بيت المثلم بن رياح المري الذي يقول فيه :

سَـأَكْفِيـكَ جَنْبِي وَضْعَـهُ وَوِسَـادَهُ   وأغضَبُ إنْ لَمْ تُعْطِ بـالحَقِّ أَشْجَعَـا

وكان المثلم قد قال قبله في رواية أبي تمام :

مَنْ مُبْلِـغٌ عَنِّـي سِنَانـاً رِسَالَةً   وَشَجْنَـةَ أَنْ قُومَـا خُذَا الحَـقَّ أَوْدَعَا

فنقل التبريزي عن المرزوقي قوله : « ويغلب في نفسي أن الشاعر قال : « وَأَغْضَبُ إِنْ لَمْ تُعْطِيَا الحَقَّ أَشْجَعَا » لأنه بنى الرسالة على أن تكون متوجهة نحو اثنين سنان وشجنة ، ومخاطبته من بعد أحدهما في قوله « سأكفيك » على عادتهم في الافتنان والتصرف ولا يمنع من رجوعه إلى ما بنى كلامه عليه من ذكر الاثنين ، وهذا ظاهر لمن تأمله »[1] .

وهذا اجتهاد من المرزوقي لك أن تقبله أو ترفضه لأنه مبني على غلبة الظن ، وغلبة الظن في الرواية تحتاج إلى الرجوع إلى ديوان الشاعر ، وليس إلى هذا من سبيل ، هذا فضلاً عن أن المرزوقي لم يعتمد هذه الرواية في متنه ، وهذا يضعف اجتهاده ، إذ لوكان مقتنعاً به لأثبته في متنه .

هذا ما يقال في عمل المرزوقي ، والأمر إلى هنا واضح جلي ان للبيت روايتين : أولى أثبتها المرزوقي في متنه وثانية قال : بأن غلبة ظنه تدفعه إلى القول بأن الشاعر قالها . ولكن التبريزي ـ وهو يثبت رواية المرزوقي الأولى في متنه ويورد هذا القول عن المرزوقي في الرواية الثانية ـ ينقل لنا في الموضع ذاته قولاً لأبي هلال العسكري جاء فيه « قوله ان لم تعط بالحق أشجعا ، تصحيف قبيح ، والصحيح « وأغضب ان لم يغضب الحق اشجعا » يقول : سأكفيك امري كله لا أحملك شيئاً وأغضب لك ولحقك إن لم يغضب له أشجع »[2] .

---

(1) ينظر شرح المرزوقي ق ١ : ٣٨٣ ، وشرح التبريزي ١ : ١٩٨ .

(2) شرح التبريزي ١ : ١٩٨ .

ولم يعلّق التبريزي على هذا القول بشيء كأنه لم يثبت في متنه الرواية التي وصفها أبو هلال بأنها تصحيف قبيح بل كأنه لم يلحظ أن تفسير أبي هلال لشطرة البيت مخالف لما ذهب أنه الرواية الصحيحة ، فالرواية تجعل الحق فاعلاً ، وأشجعاً مفعولاً به ، والتفسير ظاهره أن أشجع هو فاعل الغضب .

وأعجب من ذلك أن تحاول اللجوء للمرزباني الذي ترجم للمثلم وروى له هذه القطعة فتجد نفسك أمام رواية تختلف عن هذه الروايات جميعاً هي : « وأقبل ان لم تعطنا الحق أشجعا »[1] ، وأنت قد تضعف هذه الرواية لأن فيها إقواء ظاهراً ولكنها في الوقت ذاته قد حولت الغضب إلى قبول إذ فرق بين « أغضب » الواردة في الروايات السابقة و « أقبل » الواردة عنده .

ومع هذا الاضطراب الواضح في شأن رواية هذا البيت تجد نفسك باحثاً عن المعنى الذي أراده الشاعر فلا تجد ما يرضيك سوى أنها روايات ذات معان ، كل معنى منها يمكن أن يكون هو الذي قصده الشاعر .

ومثل آخر نسوقه في جمع التبريزي للرواية جنباً إلى جنب دون أن يبت في ذلك برأي ، ففي بيت ربيعة بن مقروم الذي يقول فيه :

أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

نجد التبريزي ينقل عن المرزوقي ـ دون أن يشير اليه وفي شيء من التحريف ، وهو في أصله على هذا النحو قال : « والرواية الصحيحة » « أَرْجَأْتُه » و « أَرْجَيْتُهُ » وهما لغتان ، والهمز أفصح ، قد قرىء « ترجىء من تشاء منهن »[2] وترجي ، ويروى « أرجيته » ويروى « أزجيته » والمعاني تتقارب في الكل »[3] .

وعمل المرزوقي هنا ايضاً واضح ، فهو قد أثبت الرواية المشهورة في متنه وهي

---

(١) معجم المرزباني ص ٣٠٢ .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأحزاب .

(٣) شرح المرزوقي ق ١ : ٦٥ .

« أرجيته » ثم فضّل عليها رواية « أرجأته » بالهمز لأنها أفصح ، وأشار إلى روايتين أخريين قال إنهما تلتقيان مع السابقتين في معنى واحد ، غير أن التبريزي ـ وقد أثبت في متنه ما أثبته المرزوقي ـ ينقل قولاً لأبي الفتح ابن جني جاء فيه « أكثر من ترى يروي هذا البيت » « أرجيته » بالراء ، فاذا تعالى قليلاً رواه « أرجأته » بالهمزة وكلاهما تصحيف وانما هو « أوجيته » بالواو أي ذللّته وقهرته ، كذلك روينا ، وكذلك وجدته أيضاً في شعر القبيلة »[1] .

ولم يكشف التبريزي مع أي الروايات يقف ، مع روايته التي أثبتها في متنه وهي « أرجيته » أو مع الرواية التي وصفها المرزوقي بأنها أفصح وهي « أرجأته » أو مع رواية أبي الفتح التي قال بأنه وجدها في ديوان القبيلة وهي « أوجيته » إنه لم يوضح شيئاً في هذا الأمر .

والحق أننا تتبعنا عمله في هذا العنصر فلم نجد له موقفاً يذكر إلاّ في موضع واحد ، وذلك في بيت سبرة بن عمرو الفقعسي القائل :

أَتَنْسى دِفَاعِي عَنْكَ إذْ أَنْتَ مُسْلَمٌ وَقَدْ سَالَ مِنْ ذُلٍّ عَلَيْكَ قَرَاقِرُ

وهي الرواية التي أثبتها في متنه ، وهي كذلك عند المرزوقي[2] ، وأشار التبريزي في شرحه إلى أنها رواية أبي عبد الله النمري وأورد تفسير النمري لها قال : « قال النمري يقول سال هذا الوادي عليك فلم تستطع الانتقال عنه ذلاً وضعفاً » ثم نقل رواية أخرى لأبي محمد الأعرابي قال : « وقال أبو محمد الأعرابي : الصواب » وقد سال من نصر عليك قراقر » يعني نصر بن قعين بن الحرث بن ثعلبة بن دودان بن أسد ابن خزيمة يقول : دافعتهم عنك حين سال الوادي بهم عليك ، كما قال الآخر :

وَنَحْنُ أَسَلْنَا مُصْعَداً بَطْنَ حَائِلٍ وَلَمْ يُرَ وَادٍ قَبْلَهُ سَالَ مُصْعَدَا

يعني أنهم أسالوه بالرجال » ، ثم عقّب على هذا بقوله : « وهذا الذي ذكره أحسن ما قيل في هذا البيت كأن الوادي سال عليهم بالرجال »[3] .

---

(١) ينظر شرح التبريزي ١ ٣٤ .
(٢) ينظر شرحه ق ١ : ٢٣٧ .
(٣) ينظر شرح التبريزي ١ : ١٢٧ .

وهو وان لم يبينّ وجه الحسن فيه فانه على أية حال يعد الموقف الوحيد الذي أبدى فيه رأياً في هذا العنصر ، أما باقي عمله فيه فقد كان ناقلاً سلبياً في إيراده الآراء المتضاربة التي جمعها من الشروح المكونة لمادة شرحه .

واذا كنا قد حكمنا بسلبيّة الرجل في عمله المتصل بالرواية وذهبنا من قبل إلى أن عمله الذي رأيناه منه في تجميع الأقوال التي يناقض بعضها بعضاً وتسجيلها في موضع واحد أمر يزعج القارىء والدارس معاً ويجعلهما في موقف الاضطراب والحيرة ، فان هذا لا ينبغي أن ينسينا ما سجلناه سابقاً عنه ، انه لم يكن مبدعاً في عمله بقدر ما كان جامعاً ناقلاً منتخباً ، وحسب الرجل أن يحقق هذا في شرحه وأن يترك لقارئه أو دارسه فرصة أن يختار من هذا التضارب والتناقض ما يرضي عقله وذوقه وفق معطياته الثقافية وَمُكْنَتِه في العمل والدراسة ، وهذا بطبيعة الحال يضع قارئه أو دارسه في موقف عسير ، لأن الرجال الذين كان ينقل عنهم - وعلى رأسهم أبو رياش وأبو هلال والمرزوقي وابن جني وأبو العلاء ، رجال لهم وزنهم ومكانتهم في شرح الشعر وفهم لغته والخبرة الوافية بأساليب العرب فيه ، ولا يعني هذا أنهم لا يخطئون في التأويل ، فقد ثبت لنا ذلك عند بعضهم ، ولكن أن ترجّح رأي أحد منهم على الآخر في مسألة الرواية يحتاج إلى دليل مادي ، يتمثل في الأصول التي اختار منها أبو تمام هذا الشعر ، وأنّى لنا بهذه الأصول ؟ . إذا كنا عاجزين عن أن نعثر على نسخة أصليّة من عمل أبي تمام فهل نطمع في أن نعثر على أصول اختياره ؟ بل إذا كنا عاجزين عن الحصول على جميع الشروح التي كان التبريزي ينتخب منها شرحه فهل يتيسّر لنا أن نحصل على اختيار أبي تمام الأصلي أو على الأصول التي اعتمد عليها في اختياره .

و - شرح الألفاظ والتراكيب :

هذا العنصر ليس للتبريزي عمل ذاتي فيه سوى أنه قد أفاد من أعمال السابقين في مجال اللغة والنحو في شرح الألفاظ والتراكيب ، واذا كان له فضل عمل في هذا العنصر فانه قد استطاع من خلال انتخابه أن يحقق توسعاً في الشرح اللغوي سواء في ذلك شرح الألفاظ أو التراكيب ، وذلك أن هؤلاء العلماء الذين كان ينتخب من

أعمالهم ـ ابن جني وأبي العلاء والمرزوقي وغيرهم ـ قد حققوا في شروحهم مناقشات مستفيضة في القضايا اللغويّة والنحويّة ، فكان تجميع ما أثاروه في شرح واحد عملاً له قيمته من حيث استيفاء المادة المعروضة للنقاش والمساجلة من مختلف النواحي المتصلة بفروع اللغة .

والملاحظة التي نسجلها في هذا الخصوص أن انتخاب التبريزي في القضايا اللغويّة كان أبرز منه في القضايا النحويّة ، وذلك أنه كان في جانب النحو المتصل بشرح التراكيب وما يتبعه من مسائل الاعراب يعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على المرزوقي ، ولهذا قلّ انتخابه في مسائل النحو والاعراب . أما في مجال اللغة فقد كان انتخابه فيها واضحاً ، وكانت الاضافات التوسعيّة بارزة بحيث نجدها في الكثير من الأمثلة ، ومن ذلك ما جاء في تفسير لفظة « الكلالة » الواردة في بيت يزيد بن الحكم الثقفي القائل :

والمَرْءُ يَبْخَلُ في الحُقُو قِ وَلِلْكَلاَلَةِ مَا يُسِيمُ

فقد انتخب في تفسيرها من شرحين : شرح المرزوقي وشرح أبي العلاء . نقل عن المرزوقي ـ ولم يسمه كعادته ـ « الكلالة هم الوارث ما خلا الوالد والولد ، وأصله من تكلّله النسب اذا أحاط به ، وقيل : هو من الكلال الاعياء كأنّ بعد النسب أكلّه »(١) . ثم نقل عن أبي العلاء إضافة وتوسعاً في تفسير اللفظة قال : « وقال أبو العلاء الكلالة التي جاءت في الكتاب العزيز دلّت على أنها يعني بها الأخوة من الأم ، وفي موضع آخر وقعت على الأخت التي ترث النصف ، فجائز أن تكون من الأب ، واذا قيل الكلالة من ليس بوالد ولا مولود دخلت فيه الأخت وغيرها من ذوي النسب »(٢) .

ونراه في موضع آخر ينقل أقوال ثلاثة علماء في تفسير لفظة وردت في بيت لعبد الله بن عنمة يقول فيه :

---

(١) ينظر شرحه ٣ : ١٠٦ ، وينظر شرح المرزوقي ق ٣ : ١١٩٥ .
(٢) ينظر شرحه ٣ : ١٠٦ .

فَازْجُـرْ حِمَـارَكَ لاَ يَرْتَـعْ بِسَاحَتِنَا إذَنْ يُرَدَّ وَقَيْدُ العَـيْرِ مكْرُوبُ

فقد أورد عن المرزوقي في معنى « مكروب » قوله : « مكروب أي ملء قيده فتلاً حتى لا يمشي إلّا بتعب كأنه يضرب أو يستعمل حتى يرم جسمه ، ويؤدي الوجع منه إلى موضع حافره فيضيق عليه » .

ونقل عن أبي عبد الله النمري قوله : « كربت الشيء اذا أحكمته وأوثقته ، ومعنى البيت انا نرد الحمارمملوءاًقيده فتلاً كما يمتلىء الانسان كرباً » . ثم نقل عن أبي محمد الأعرابي معنى يختلف عن المرزوقي والنمري قال : « وقال أبو محمد الأعرابي : وقوله : « وقيد العير مكروب » أي انهم يعقرونه والعقر أضيق القيود »[1] .

أما التراكيب فقد أفاد فيها إضافات من الشروح بحيث حقق فيها هي الأخرى توسعاً ضخماً في شرح اللغة ، الأمر الذي غنّى المادة اللغوية بالكثير من أقوال العلماء ، فمثلاً في تركيب « أهذا مالكم بجلا » الوارد في بيت جابر بن رالان السنبسي القائل :

لَـمّا رَأَتْ مَعْشراً قَلَّـت حَمُولَتُهُمْ قَالَـتْ سُعَـادُ أَهَـذَا مَالَـكُمْ بَجَلاَ

نراه ينقل عن شرح المرزوقي ـ دون عزو ـ قوله : « وبجل في موضع الحال ، والمعنى أهذا مالك مكتفى به ، والأصل في بجل البناء على السكون ، ودعت الضرورة إلى تحريكه فحرّكه بالفتح ، كان الواجب اذا حرّك الكسر فيه ، ومنه قول الآخر :

وَنَعَمْ إنْ قُلْتُمَا نَعَما

لأنّ نعم أيضاً مبني على السكون فحرك آخره للضرورة بالفتح كما ترى ، وقد يضاف « بجل » لكونه اسماً كما يضاف « قد » اذا كان بمعنى حسب قال : « بجلي الآن من العيش بجل » . وينقل في الموضع ذاته من شرح أبي العلاء ـ ولكن بعزو ـ

(١) المصدر نفسه ٢ : ٧١ .

قوله : « يجوز أن يكون نصب : « بجلا » كأنه قال أهذا مالك غير مجاوز ما أراه ، ويجوز أن يكون أراد بجلي أي حسبي فقلب الياء ألفاً ، لأنّ الأخفش وغيره حكوا أن بعض العرب يقول : « جاءني غلاما » يعني غلامي فيقلب الياء ألفاً وعلى هذا أنشدوا :

أُطَوِّفُ مَا أُطَوِّفُ ثم آوي إلى أُمّا وَيَكْفِينِي النَقِيعُ[1]

فلا شك أنك تلحظ في مثل هذا العمل توسعاً في شرح المادة اللغويّة ، وهو توسع ـ بلا شك ـ ما كان ليتحقق لولا تجميع التبريزي لأقوال هؤلاء العلماء والانتخاب منها في موضع واحد من مواضع عمله في شرح الشعر .

ز ـ المعاني :

سبق أن أوضحنا أن التبريزي قد اعتمد شرح المرزوقي أصلاً لشرحه ، ينقل منه بعزو وبدون عزو ، ثم كان ينتخب من الشروح الأخرى ما يكمل به النقص الذي يجده في شرح المرزوقي أو يضيف منها ما يعد جديداً بالنسبة لما ذكره المرزوقي ، ولقد كان هذا العنصر من أبرز العناصر التي عوّل فيها على المرزوقي ، وذلك أنّ المرزوقي ـ كما رأينا من قبل ـ كان قد اهتم بهذا العنصر اهتماماً ملحوظاً ، حيث يوضّح معاني الشعر وما فيها من تأويلات ، ويزيد على ذلك أنه كان يعرض هذه المعاني في أسلوب أدبي جذّاب ، ومن هنا كان الشراح ذوو المنهج التجميعي الانتخابي يعولون عليه في شروحهم ، لاحظنا ذلك عند أمين الدين الطبرسي وعند الراوندي ، وكلاهما سار في الطريق الذي سلكه التبريزي من قبلهما .

غير أننا حين نتتبع هذا العنصر في عمل التبريزي نجد أنه بجانب تعويله على المرزوقي فان عمله لم يخل من انتخاب من شروح أخرى ، جاء هذا في مواضع مختلفة من شرحه وهي مواضع دلت على اثراء هذا العنصر بالكثير من آراء الشراح في معاني الشعر بحيث ترى في الموضع الواحد أكثر من رأي .

ولا شك في أن هذه الآراء المتصلة بمعاني الشعر ـ وإنْ كان فيها تباين واختلاف

(١) المصدر نفسه ٢ : ٨٠ .

في بعض الاحيان فانها تعطي القارىء فرصة الوقوف على أعمال الشراح في هذا العنصر ، وبخاصة الشروح التي لم تصل الينا ، كما تعطيه فرصة التأمل والاختيار في التأويلات التي كان يذهب إليها العلماء بحيث تتكون لديه حصيلة وفيرة من معاني الشعر تمكنه من فهم النص الأدبي فهما يشمل جميع المعاني المحتملة فيه ، وتهيىء له السبيل في ادراك معاني الشعر بعامة ، ما اختاره أبو تمام وما لم يختره .

ونحن لا نريد أن نكرر أن التبريزي لم يكن له عمل خاص في هذا العنصر ، ولكن مجرد تجميع أقوال العلماء والانتخاب منها يُعَدُّ عملاً له فائدته ، اذ يُسَهِّل للقارىء معرفة كل المعاني التي تتصل بالنص دون أن يكلف نفسه عناء قراءة الشروح التي انتخب منها التبريزي . هذا إذا توفرت لديه هذه الشروح . انظر مثلاً إلى هذا العمل في بيت موسى بن جابر الحنفي الذي يقول فيه : -

هِلاَلاَنِ حَمَّالاَنِ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ مِنَ الثِّقْلِ مَا لاَ تَسْتَطِيعُ الأَبَاعِرُ

فقد نقل أولاً قول المرزوقي فيه قال : « أي هما في الاشتهار والانتفاع بمنزلة هلالين ، ويتكلفان في كل جدب ومحل من الأثقال والأعباء ما لو صارت أجراماً لعجز عن النهوض بها وتحملها البعران » . ثم نقل بعده قول النمري الذي قال : « أي هذان الرجلان يحملان من أعباء المغارم وأثقال الصنائع ما لو أنه يوزن لم تستطع حمله الأبل وهي أثقل الحيوان حملاً وأكثره صبراً » .

ولعلك تلحظ أن هذا القول في معنى البيت شبيه بما أورده المرزوقي ولكن التبريزي أورده لكي يورد تعليقاً لأبي العلاء عليه ، فقد أتبع قول النمري بما وجده في شرح أبي العلاء الذي قال : « قد تأول النمري له معنى قد يجوز مثله ، ولكنه بعيد ، وانما ينبغي أن يحمل الشيء على الشيء على ما كثر ، وذلك أنه ذهب - أي الشاعر - إلى أن هذين الممدوحين يحملان من قرى الأضياف ومن نحر الابل ما لا تستطيعه الأباعر ، أي أنها لا تقوى عليه لأنه يهلكها ، وهذا مجانس قولهم بنو فلان ظلامون للجزر ، وقال ابن مقبل :

عَادَ الأذِلَّةُ فِي دارٍ وَكَان بِهَا خُرْسُ الشقَاشِقِ ظلاَّمُونَ لِلْجُزُرِ

أي انهم يعقرونها كثيراً ، فكأن ذلك ظلم لها ، ونحو منه قول الآخر :

قَتِيلانِ لاَ تَبْـكِي المِخَـاضُ عَلَيْهِمَا اِذَا شَبِعَـتْ مِنْ قَرْمَـلٍ وَأَفَانِي

أي كانا يعقرانها فلما قتلا لم تبك عليهما » . أورد التبريزي قول أبي العلاء هذا ثم عقب عليه بقوله : « فلا تعدلنّ عما ذكره أبو العلاء إلى غيره » .

ولقد رأينا في صدر كلام المرزوقي أنه يذهب في معنى « هلالان » الى أن الممدوحين في الاشتهار بمنزلة هلالين فنقل التبريزي في الموضع ذاته قول أبي محمد الأعرابي الذي جاء فيه « سألت أبا الندى عن قوله « هلالان » من هما ؟ فقال : هما مرداس وعامر ابنا شماس بن لأي من بني أنف الناقة ، أمهما من بني العنبر وهما خالا موسى بن جابر الحنفي » فعقب التبريزي على هذا بقوله : « وهذا خلاف ما ذكره المرزوقي »[1] .

فانظر أي فائدة يحصل عليها القارىء من هذا العمل الانتخابي الذي لم يخل من تدخل التبريزي ، وهذا الموضع من المواضع النادرة في شرحه التي كان يبدي فيها رأياً حول ما ينتخبه في شرحه ، أما جلّ المواضع الأخرى فقد كان انتخابه فيها مثل انتخابه الذي رأيناه في عنصر الرواية ، إيراد للأقوال والآراء دون مفاضلة أو اختيار ، وذلك مثل عمله في بيت الحماسة الذي نسبه أبو تمام لبعض بني فقعس وهو :

كَـيْـما أُعِـدَّهُـمُ لِأَبْـعَـدَ مِـنْهُـمُ وَلَقَـدْ يُجَـاءُ اِلَى ذَوِي الأَحْقَادِ

فقد نقل أولاً قول المرزوقي في معنى البيت دون عزو وهو : « أي قد يضطر الانسان إلى نصرة بني الأعمام وان كانوا منطوين على ضغائن ، وهذا كما قيل لبعض حكماء العرب ، ما تقول في العم وابن العم ؟ قال : عدوك وعدو عدوك » . ثم قال معنى آخر لأبي هلال قال : « وقال أبو هلال : يقول : ربما يضطر الانسان الى أعدائه في بعض الأمور ، ومثله قول الآخر :

---

(١) ينظر في جميع ما تقدم شرح التبريزي ١ : ١٩٠ .

وَإنِّـي لأَسْتَبْقِـي امْـرَأَ السُّـوءِ عُدَّةً   لِعَـدْوَة عِرِّيضٍ مِنَ النَّـاسِ جَانِبِ
أَخَـافُ كِلاَبَ الأَبْعَـدِينَ وَنَبْحَهَا   إذَا لَمْ يُجَاوِبْهَـا كِلاَبُ الأَقَارِبِ

ثم شفع ذلك بنقل ثالث لأبي عبد الله النمري في معنى جزء من البيت وهو « لأبعد منهم » قال : وقال النمري : لأبعد منهم أي لمن هو أبعد عداوة منهم ، أي أشد ، من قوله عزّ وجلّ : « وضلوا ضلالاً بعيداً »(١) . ثم أردفه باعتراض أبي محمد الأعرابي على هذا المعنى قال : « وقال أبو محمد الأعرابي : غلط - أي النمري - في قوله لأبعد عداوة منهم ، وانما هو لأبعد قرابة منهم »(٢) .

فأنت ترى أنه يورد هذه الأقوال - وهي مختلفة مناقضة بعضها بعضاً - بدون أن يتدخل فيها بالرأي لبيان أي من هذه الأقوال وافق الصواب وأي لم يوافقه .

هذه هي العناصر التي رأينا فيها لدى التبريزي عملاً انتخابياً يحقق المنهج الذي سلكه ، أما عنصر البلاغة والنقد فان عمله فيه كان مقصوراً على النقل عن المرزوقي وعن أبي هلال ،كان ينقل عن المرزوقي آراءه في الألوان البلاغية التي تعرض له في نصوص الحماسة ، وينقل عن أبي هلال لمحاته النقديّة التي كان يراها في الأبيات المختارة في الحماسة ، ولهذا فان من التكرار أن نتعرض بالدراسة لهذا العنصر عنده لأن عمل المرزوقي في البلاغة قد درسناه في منهجه في الفصل الثاني من هذا القسم ، أما عمل أبي هلال في النقد فسوف نعرض له بالدراسة في القسم الثالث من هذا البحث . .

والآن - وقد فرغنا من استعراض عناصر الشرح التي شكلت انتخاباً في عمل التبريزي - لدينا بعض الملاحظات حول عمل التبريزي في الحماسة نود أن نختم بها هذه الدراسة :

أولاهـا : أنه كان ينظّم ما ينقله من الشروح ، فقد رأيناه يكثر النقل من المرزوقي ، ولكنه كان يتصرف فيما ينقله حيث ينظمه ويرتبه وفق الرؤية التي يراها في معالجة

(١) الآية ١٦٧ من سورة النساء .
(٢) ينظر شرح التبريزي ١ : ١٢٣ .

عناصر الشرح ، لا وفق ما جاءت في شرح المرزوقي ، ولعلنا نذكر أننا حين تكلمنا عن طريقة المرزوقي في شرح النص أوضحنا أنه كان يتعامل مع النص بالشرح وفق الخطرة الأولى التي تخطر له عند قراءته ، قد تكون هذه الخطرة جانباً يتصل بالرواية فيناقشه أولاً ، وقد تكون بلاغة فيبدأ بها ، وقد تكون لفظة فيشرحها ، وربما كانت تركيباً فيعالج شرحه بداية ، وأحياناً قد تكون الخطرة في المعنى ذاته أو في الغرض الذي قيل فيه الشعر فيسجله ، أما التبريزي فقد كان عمله أشبه بالشيء التنظيري الذي يسير وفق طريقة تقليديّة هي شرح الألفاظ ثم التراكيب ثم إيراد المعنى وما فيه من اختلافات بين الشراح وأخيراً البلاغة والنقد ، وربما سبقت إيراد المعنى مناقشة الرواية ، ولذا كنا نراه حين ينقل عن المرزوقي عملاً متعدد العناصر لا ينقله كما جاء في شرح المرزوقي وانما يتدخل فيه بالتقديم والتأخير ، ولم يكن يهدف من هذا أن يخفي أخذه عن المرزوقي قصداً إلى الايهام والتمويه كما ظن الدكتور أحمد جمال العمري[1] ، وانما كان الرجل يحقق رؤيته الخاصة في ترتيب العناصر في عملية الشرح ، وتستطيع أن تدرك هذا من خلال نماذج متعددة رأيناها في نقله عن المرزوقي ، ولكن يكفي أن نعرض لك نموذجاً واحداً حتى تدرك صدق ما ذهبنا اليه ، وذلك في بيت ربيعة بن مقروم القائل :

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

فقد جاءت خطوات المرزوقي في شرحه على النحو التالي :

١ ـ خطر له أول ما خطر أن يسجل في البيت جانباً بلاغياً فقال : « أخرج التشبيه ما لا يدرك من العدواة بالحس إلى ما يدرك من غليان القدر حتى تجلّ فصار كالمشاهد » .

٢ ـ انتقل فشرح أول لفظة في البيت ، وهي لفظة « ألد » ، قال : « والألدّ الشديد الخصومة ، كأنه لدّ بالخصومة أي أوجر فلدّ به ، ولذلك كان اللدد مصدر ألد ويقال في معناه ألندد » .

---

(١) شرح الشعر الجاهلي٢ : ٣١٢.

٣ ـ شرح لفظة الحنق قال : « والحنق شدة الغيظ يقال أحنقه فحنق » .

٤ ـ أورد معنى البيت فقال : « يقول : رب خصم شديد الخصومة ذي غيظ وغضب عليّ تغلي عداوته في صدره غليان المرجل بما فيه إذا كان على النار أنا دفعته عن نفسي » .

٥ ـ وضح جواب « رب » من قوله « وألد » فقال : وجواب رب هو صدر البيت الثاني .

٦ ـ رجع مرة أخرى إلى تفسير لفظة الحنق فقال : « والحنق يجوز أن يكون عن اللزوق كأن الحقد لزق بصدره ، ومنه يقال : أحنقت الدابة اذا أضمرتها »[١] .

هذه هي خطوات المرزوقي في شرح البيت ، وهي بلا شك تفتقر إلى الترتيب المألوف الذي درج عليه الشراح في شرح النص الشعري ، ولهذا كان من الطبيعي ألا ينقله التبريزي كما ورد في شرح المرزوقي ، إنما كان عمله في البيت على النحو التالي :

١ ـ نقل عن المرزوقي خطوته الثانية وهي شرحه للفظة الألد .

٢ ـ نقل عن أبي العلاء إضافة في شرح اللفظة قال : « وقال أبو العلاء خصم ألد أي شديد الخصومة كأنه يميل عما يريد صاحبه ، أخذ من اللديد وهو صفحة العنق وجانب الوادي » .

٣ ـ مزج بين خطوتي المرزوقي الثالثة والسادسة فأورد ما قاله في معنى الحنق .

٤ ـ أورد معنى البيت كما جاء في شرح المرزوقي .

٥ ـ سجّل ما جاء في خطوة المرزوقي الأولى وهي الجانب البلاغي .

٦ ـ نقل قول المرزوقي : « وجواب رب هو صدر البيت الذي يليه » وختم به عمليّة شرح البيت ليدخل في البيت التالي الذي هو جواب رب[٢] .

---

(١) ينظر شرح المرزوقي ق ١ : ٦٣ .

(٢) ينظر شرح التبريزي ١ : ٣٣ وما يليها .

وهكذا نلاحظ أن خطوات التبريزي بدأت من شرح الألفاظ ثم المعنى ثم الجوانب الفنّية التي تتصل بالأسلوب ، وأخيراً الربط بين البيت وتاليه ، وهذه الخطوات المنتظمة في الشرح لها قيمتها في خدمة الغاية التعليمية التي قلنا بأن شروح الحماسة قد ارتبطت بها منذ ظهورها ، وظلت كذلك في مختلف العصور التي تنقلّت فيها . وهي بغير شك مفيدة في استيعاب القارىء الدارس لشرح الشعر .

وثانية هذه الملاحظات أنه ـ على كثرة نقله من الشروح دون أن يبدي رأياً فيما ينقل ـ كانت له بعض المواقف التي دلت على شخصيته في العلم الانتخابي وهي مواقف ـ وان كانت ضئيلة اذا ما قيست بالكثرة الكاثرة التي بدا فيها مجرد جمّاع ناقل منتخب ـ فانها على أيّة حال دلّت على ذاتية فيه ، وعلى حضور ذهن فيما كان يعرضه من آراء . ومن أمثلة ذلك عمله في البيتين اللذين وردا في باب الملح وهما[1] :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفٍ يَافُوخُهُ ... عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَدفَّقُ
أَرِنٍ يَسِيلُ مِنَ النَّشَاطِ لُعَابُهُ ... وَيَكَادُ جِلْدُ اِهَابِهِ يَتَمَزَّقُ

فقد أورد فيهما رأياً لأبي محمد الأعرابي هو أن الضرب منهما مغيرّ وان الصواب ما نقله عن شيخه أبي الندى وهو :

وَلَقَدْ غَدَوْتُ بِمُشْرِفٍ يَافُوخُهُ ... عَسِرِ المَكَرَّةِ مَاؤُهُ يَتَفَصَّدُ
مَرِحٍ يَمُجُّ مِنَ المِرَاحِ لُعَابَهُ ... وَيَكَادُ جِلْدُ اِهَابِهِ يَتَقَدَّدُ
حَتَّى عَلَوْتُ بِهِ مَشَقَّ ثَنِيَّةٍ ... طَوْراً أَغُورُ بِهَا وَطَوْراً أُنْجِدُ

فعلق التبريزي على هذا بقوله : « والبيتان معروفان وهذه الأبيات الثلاثة غريبة[2] ، ولا يمتنع أن تكون هذه غير البيتين ، فقد يقع الحافر على الحافر حتى لا تختلف كلمة من البيت غير ما يتعلق بالقافية نحو قول امرىء القيس :

يَقُولونَ لا تَهْلِكْ أَسىً وتَحَمَّلِ

---

(١) الأبيات ليست بغريبة فقد روى أبو الفرج الأصفهاني البيت الأول والثاني للأقيشر في ترجمته ١٠ : ٨٢ .

وقول طرفة : يقولون لا تهلك أسى وتجلّد[1] .

ومن ذلك أيضاً ما جاء عنه في بيت زياد بن حمل القائل :

وَحَبَّذَا حِينَ تُمْسِي الرِّيحُ بارِدَةً   وَادِي أُشَيٍّ وَفِتْيَانٌ بِهِ هُضُمُ

فقد شرح التبريزي « هضم » بأنه جمع هضوم ، وهو المنفاق في الشتاء ، ثم قال : سألت الرقي عن قوله هضم ما معناه ؟ فقال جمع أهضم وهو الضامر البطن ، فقلت له قد ذكر لي أبو العلاء شيئاً غير هذا فقال : ما هو ؟ قلت : قال : هضم يعني أنهم يهضمون المال أي يكسرونه وينفقونه فأنشد :

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ[2]

فهذا المثال وسابقه وغيرهما في شرحه تدل على شخصيَّة الرجل من حيث قراءاته ولقاءاته بالعلماء ومساءلته لهم ، والافادة من ذلك في مواضعه الصحيحة من الشرح ، وهو يؤكد حضوره الذهني واستدعاءه المعلومات في حينها أثناء عمليّة الانتخاب في شرح الشعر .

واذا كانت هاتان الملاحظتان إيجابيتين في عمل التبريزي الانتخابي فان لنا أخريين سلبيّتين في العمل ذاته : أولاهما : تخصه وتخص غيره من الشراح الذين اتبعوه في منهجه التجميعي الانتخابي ، وهي انهم كانوا لا يعزون جميع ما ينقلونه من آراء وأقوال إلى أصحابها ، وبخاصة حين ينقلون عن المرزوقي فهم - التبريزي والطبرسي والراوندي - يورودن كلام المرزوقي في صورة توحي بأن هذا من عملهم ، وهذه بطبيعة الحال ظاهرة لها خطورتها من حيث أنها تجعل الدارسين لشروحهم أو المستفيدين منها في اضطراب مستمر، حين ينسبون لهم أقوالاً ليست لهم أو يجعلون لأعمالهم قيمة لا تؤول اليهم في واقع الأمر ، ولقد حدث هذا بالفعل من البغدادي في خزانة الأدب ، ومن بعض الباحثين المعاصرين ، فلقد رأينا البغدادي في أكثر من

---

(١) ينظر شرحه ٤ : ١٧٦ ، وصدر البيت عند كل من امرىء القيس وطرفة هو:
وقوفاً بها صحبي عليّ مطيّهم .

(٢) ينظر شرحه ٣ : ١٨١ .

موضع في الخزانة ينسب رأياً للتبريزي أو لأمين الدين الطبرسي ، وهو ليس لهما ، وانما لابن جني أو المرزوقي[1] .

وكذلك أوقع صنيع التبريزي في نقله أعمال العلماء دون عزو باحثاً معاصراً ـ هو الدكتور فخر الدين قباوة ـ في وهم كبير حين ظنّ أنّ كل ما جاء في شروح التبريزي من أعمال رائعة لشراح سابقين انما هي للتبريزي ، وأقام على ذلك حكماً لا يستند إلى شيء ، ولو أنه رجع إلى مصادر التبريزي في شرحه لأدرك هذه الحقيقة ، وهذا ما نبّه اليه الدكتور العمري حين قال : « لقد ضلل التبريزي فخر الدين قباوة ، وأغرقه في الوهم حين جعله يعتقد أن الابداع الفني كله خليق به ، من جهده ، من فهمه ، والحقيقة انه وان كان من صنع يديه لكنه ليس من إعمال عقله أو كد فكره إنما هو لمّام جمّاع عارض سارد »[2] .

وثانيهما : هذا الاسهاب الذي رأيناه منه في نقله أخبار الشعر عن أبي رياش وما يتصل بها من شخصيات وأشعار ، وقد أدى هذا الاسهاب إلى خلل في تنظيم العناصر عنده ، بحيث تغوّل هذا العنصر في بعض المواضع على سائر العناصر الأخرى ، وهو لم يكن يكتفي بايراد هذه الأخبار وما يتصل بها فحسب ، بل كان يزيد عليها تعليقات شيخه أبي العلاء على جزئيات منها ، فهو مثلاً قد نقل عن أبي رياش خبر أرجوزة أدهم بن أبي الزعراء التي مطلعها :

قَدْ صَبَّحَتْ مَعْنٌ بِجَمْعٍ ذِي لَجَبْ

وهو خبر طويل جداً وردت فيه أشعار مختلفة منها أبيات لمعدان بن عبيد الطائي وجهها لمروان بن الحكم منها هذا البيت :

---

(١) ينظر مثلاً الخزانة ١ : ٣٠١ وفيها قول نسبه البغدادي للطبرسي وهو بنصه لابن جنى في التنبيه ، وينظر ٢ : ٤٣٩ ، وفيها قول نسبه الى التبريزي وهو بنصه للمرزوقي وينظر ٤ : ٤٥١ ، ٥ : ١١٥ ، ١١٩ ، ٤٠٩ ، ٤٧٠ ، و ٦ : ٣٥٨ ، ٤٣٦ ، وفيها جميعاً أقوال نسبها إما الى التبريزي أو للطبرسي وهي للمرزوق . هذا وقد كان البغدادي أحياناً ينبه.إلى نقل التبريزي عن المرزوقي دون عزو . ينظر مثلاً ٧ : ١١٧ .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ٢ : ٣١٦ .

أَلَـمْ تَرَ لِلْخِلاَفَـةِ كَيْفَ ضَاعَتْ   إِذَا كَانَـتْ بِأَبْنَـاءِ السَّرَارِي

فلم يكتف التبريزي بايراد الخبر وما قيل فيه من أشعار وانما زاد عليه ما جاء عن أبي العلاء في مناقشته للفظة « السراري » الواردة في البيت السابق ، وهي مناقشة فيها إفاضة واسهاب قال : « السراري جمع سُريّة وحق الجمع أن يكون مشدد الياء فخفّفه للضرورة ، وقد اختلف في اشتقاقها فقيل : هي من السر الذي هو النكاح ، وقيل إنما سمي سراً لأنه يُستَسرُّ به عن العيون ، وقيل : سميت سريّة لأن مالكها يسر بها وهذا أقيس من القول المتقدم لأنهم يسمون السرور سُرّاً بضم السين قال طرفة :

فَفِـدَاءٌ لِبَنِـي قَيْسٍ عَلَى   مَا أَصَـابَ النَّـاسَ مِنْ سُرٍّ وَضُـرْ

فوزنه على فعليّة ، وقال قوم : إنما أخذت السريّة من السراة وهي أعلى الشيء ، فقيل : أراد أن مالكها يملك سراتها ، وقيل : بل ذلك من فعل السراة من الناس لأن السراري إنما يتخذها أهل اليسار والسعة ، وقال قوم : سميت سريّة لأنّ مالكها يطرقها ليلاً فكأنه يسري إليها ، ووزنها على هذه الوجوه فُعُّولة ، وذلك أقيس من أن تجعل فُعِّيلة لأن فُعِّيلاً إنما حكي في قولهم كوكب درّي ، وفُعُّولاً وان كان قليلاً فهو أكثر في الكلام قالوا : السبّوح والقدّوس والذرّوح »[1] .

فهذا الاستطراد المسهب في شرح لفظة ترد في بيت من أبيات الاختيار وان كان له قيمته في التوسع اللغوي الذي تميّز به شرح التبريزي فانه في الوقت ذاته قد أخلّ باحدى صفات هذا المنهج المتمثلة في ايراد العناصر محاطة بالتناسق والتنظيم مشمولة بالمواءمة التي لا تجعل عنصراً يطغى على العناصر الأخرى .

هذا هو عمل التبريزي في الحماسة ، حاولنا أن نعرضه في صورة لا تغمط الرجل حقّه ، فهو شارح حاول أن يبتكر منهجاً مغايراً لسابقيه في شرح الشعر ، وجد شيوخه وسابقيهم قد عالجوا الحماسة في شروحهم من نواح مختلفة كل شرح يركّز على ناحية دون الأخرى ، فأراد بمنهج جديد أن يجمع بين هذه النواحي في شرح واحد أي

---

(١) ينظر شرح التبريزي ٢ : ٨٥ .

أن يجمع شروحاً في شرح ، ومن ثم جاء عمله جامعاً بين مناهج مختلفة ، وأساليب متباينة وهو وان بدا في عمله غير خلاّق أو مبتكر فانه في مقابل ذلك دل على جهد مضنٍ ، وعلى استيعاب شامل ، وعلى وعي وادراك وحضور ذهن ، في استدعاء معلوماته التي قرأها أو سمعها من شيوخه أثناء عمليّة الشرح وأن يوظّف ذلك في مواضعه ، وفي هذا فضل لا ينكر ولو شفعه بفضل آخر بأن عزا نقولاته إلى أصحابها لكان شرحه الغاية الخالدة في هذا المنهج .

الفصل السادس

المنهج الاختصاري التسهيلي والشرح المنسوب لأبي العلاء

رأينا فيما سبق وصفاً لهذا المنهج ، وأدركنا من خلال هذا الوصف أنه منهج يقوم على اختصار المعلومات التي يقتضيها الشرح وتسهيل عرضها للقراء بما يحقق الغاية من فهم النص بأقرب السبل وأسهل الطرق ، لأنه منهج يراعي المتلقين للشروح وقدراتهم على الاستيعاب والتحصيل واختلاف أهوائهم ومشاربهم في قراءة الشعر وتذوقه وفهمه من خلال الشروح وفق العناصر التي تتألف منها عمليّة الشرح ، فهو يقدّم لهم هذه العناصر سهلة ميسرة خالية من تضخم المعلومات واشباعها بالاستطراد والتطويل ، بعيدة عن الاغراب والتعقيد ، يقدّم اللغة ويناقش ما فيها من قضايا ولكن بقدر محدود ، ويعالج النحو والصرف ولكن بصورة تؤدي إلى ادراك المعنى فحسب ، ويتعرض للرواية ولكن في لمحات تشير إلى اختلافها وتعددها ، ويذكر أخبار الشعراء ومناسبات الشعر ولكن في اختصار وايجاز يعينان على فهم البواعث التي أدت إلى قول الشعر أو الجوّ الذي قيل فيه ، إلى غير ذلك من العناصر التي يقتضيها الشرح وحقق فيها هذا المنهج خطوات واضحة المعالم في الاختصار والتسهيل ، خطوات تتفق مع تطور الحياة وتبدّل القرون وتوالي الأجيال ، وما يعتري هذه الأجيال من علو وانحدار في الدرس والتحصيل وفق التطور الذي يحدث في الحياة ووفق تبدّل الأحوال من قرن إلى قرن .

هذا ملخص ما رأيناه في وصف هذا المنهج ،أما تطبيقه في الشروح التي وصلت إلينا فقد سبق أن أوضحنا أنه يمكن تطبيقه في شرحين أحدهما الشرح الذي رجحنا نسبته إلى زيد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٤٦٧هـ ، والآخر الشرح المنسوب خطأ لأبي العلاء المعري الذي أثبتنا في دراستنا لثبت شروح الحماسة أن لا صلة لأبي

العلاء به ، وأن صاحبه أحد علماء القرن السادس الهجري الذين تلقوا العلم على أبي منصور موهوب الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩هـ .

ولما كنّا قد خصّصنا الكتاب الثاني من هذا البحث لتحقيق الشرح المرجّح نسبته إلى زيد بن علي ودراسته رأينا أن يقوم تطبيق هذا المنهج على الشرح المنسوب لأبي العلاء حتى لا نقع في تكرار مخل أو يكون في العمل ازدواجيّة يجب تلافيها .

ولعل أول شيء تجدر الاشارة اليه في هذا الشرح المنسوب لأبي العلاء هو مصادره ، فقد أثبتت دراستنا له أن صاحبه قد أفاد من شروح سبقته ، أفاد من شروح أبي رياش وأبي عبد الله النمري ، وأبي علي المرزوقي ، ومن ابن جني في كتابيه التنبيه والمبهج ، كما أفاد من أقوال العلماء الأوائل وبخاصة في مجال اللغة والنحو من أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى وعبد الملك الأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وهو في مجال اللغة والنحو كثيراً ما ينقل عن ابن جني ، كما نقل عن شيخه أبي منصور الجواليقي في موضع واحد فقط[1] .

ومن المدهش حقاً أن ينسب هذا الشرح لأبي العلاء في حين أن قراءتنا له قد أثبتت أن صاحبه لم يفد من أبي العلاء في شيء ، ولا ذكره في ثنايا شرحه ولا كان من مصادره التي أفاد منها .

ولقد لاحظنا في عمل هذا الشارح أنه كان ينقل من مصادر أخرى دون أن يدل على أصحابها ، فبقراءتنا لما تحت يدنا من شروح تأكد لدينا أنه ينقل من شرح التبريزي ، ولكنه لم يذكره في شرحه ، بدلالة ما جاء في شرحه البيت الذي نسب في الحماسة للعباس بن مرداس ، وقد جاءت روايته في متن هذا الشرح على النحو التالي :

تَرَى الرَّجُلَ النَّحيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوابِهِ أَسَدٌ مَزِيرُ

فقال فيه : « من روى أسد يزير فليس بجيد لأن تشبيهه له بالأسد لا فائدة لذكر

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ١٦٥ .

الزئير معه ، ولا يدوم على حالته هذه ، ومن روى مرير بالراء غير المعجمة أي قوي القلب ، وبالزاي الماضي الندب »[٢] .

فهذا القول مأخوذ بنصه من شرح التبريزي ، والتبريزي نفسه أخذه من المرزوقي دون أن يشير إلى أخذه منه ، ولولا اتفاق صاحب هذا الشرح والتبريزي في تفسير معنى مرير بالراء ومزير بالزاي بما فيه اختلاف عند المرزوقي[٢] لقلنا إنه نقل من المرزوقي مباشرة ، لأنه ذكر المرزوقي في ثنايا شرحه وأفاد منه ـ كما أسلفنا . وليس التبريزي وحده هو الذي نقل عنه صاحب هذا الشرح دون أن يشير إليه فلقد رأيناه في مواضع متفرقة ينقل عن الشرح المرجّح نسبته لزيد بن علي دون أن يشير إلى أنه قد أخذ عنه ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه في بيتي عبد الله بن الزبير الأسدي اللذين يقول فيهما :

فَإِنَّكَ لَوْ سَمِعْتَ بُكَاءَ هِنْدٍ وَرَمْلَةَ إِذْ تَصُكَّانِ الخُدُودَا
سَمِعْتَ بُكَاءَ باكِيَةٍ وَبَاكٍ أَبَانَ الدَّهْرُ وَاحِدَهَا الفَقِيدَا

فقد قال فيهما : قال هند ورملة ثم قال باكية وباك فجاء بأنثى وذكر ، ثم قال : واحدها الفقيدا ولم يقل واحدهما . يقول : لو سمعت بكاء باكية أبان الدهر واحدها ، أي هما تنوحان وتلطمان الخدود معاً لا يفترقان فيقدر أنهما باكية واحدة لاتصال أصواتهما ، وعطف بقوله باك على هذا »[٣] .

فهذا الكلام تجده بنصه في الشرح المرجّح نسبته إلى زيد بن علي مع حذف بعض الزوائد في الكلام[٤] . ومثله أيضاً ما جاء في قطعة النسيب التي صدّرها أبو تمام بقوله : « وقال آخر » والتي جاء منها :

أَحَقّاً يَا حَمَامَةَ بَطْنِ فَلْجٍ بِهَذَا الوَجْدِ أَنَّكِ تصْدقِينَا
أَرَارَ اللّهُ نِقْيَكِ فِي السُّلَامَى عَلَى مَنْ بِالحَنِينِ تُشَوِّقِينَا

(١) المصدر السابق الورقة ١٢٩ .
(٢) ينظر شرح التبريزي ٣ : ٨٩ وما يليها وشرح المرزوقي ق ٣ : ١١٥٣ وما يليها .
(٣) ينظر الورقة ١٠٣ من مخطوطة الشرح .
(٤) ينظر شرح زيد بن علي في القطعة ٦٣ من باب الرثاء في الكتاب الثاني من هذا البحث .

فَـــإنِّي مِثْــلُ مَــا تَـجِــدِينَ وَجْــدِي وَلَكِنِّــي أُسِرُّ وَتُعْلِنِينَا
وَإنِّــي لَوْ بَكَيْتُ جَرَتْ دُمُوعِي وَإنَّــكِ تُعْوِلِــينَ وَتَكْذِبِينَا
وَبِــي مِثْــلُ الــذي بِكِ غَــيْرَ أَنِّي أَجِــلُّ عَنِ العِقَــالِ وَتُعْقَلِينَا

فقد قال صاحب هذا الشرح : « الأبيات ما خلا البيت الأول تدل على أنه خاطب ناقة ، ولا يخلو أن يكون البيت الأول من القصيدة أو من غيرها ، فان كان من غيرها فقد غلط في وضعه هنا (يعني أبا تمام) ، وان كان منها فلا يخلو من أن يكون في ذكر الحمامة ، ثم صرف الخطاب إلى الناقة لأن السلامى ما سمع في الطائر ولا العقال ، أو يكون السلامى مجازاً ، ويجوز أن يكون سمَّى ناقته حمامةً لسرعتها »[1] .

وهذا أيضاً موجود بنصه في شرح زيد بن علي[2] ، وهذا ما يجعلنا نقول : إن ظاهرة النقل من الشروح دون الاشارة إلى أصحابها قد اتسعت منذ أواخر القرن الخامس عند الخطيب التبريزي الذي بينا أنه كثير النقل من غيره دون أن ينص على ذلك واستمرت بعد ذلك طوال القرون التي تلت القرن الخامس .

على أن ما يهمنا من مصادر هذا الشرح سواء ما يدل عليها أو لم يدل عليها هو مدى افادته من معلومات في هذه المصادر وعرضها وتوظيفها بما يتلاءم والمنهج الاختصاري التسهيلي الذي سلكه في شرحه ، وهذا يدفعنا إلى أن ندرس عناصر الشرح في عمله حتى نتبينّ كيف تحقق تطبيق هذا المنهج فيه .

أ ـ أسماء الشعراء والأعلام :

أفاد صاحب هذا الشرح من كتاب المبهج لابن جني في تحقيق هذا العنصر ، ولكنه كان ينقل معلوماته في هذا الخصوص بايجاز بالغ واختصار شديد ، ولقد رأينا ابن جني من خلال منهجه العلمي التخصصي يستطرد في أعماله الخاصة بأسماء شعراء الحماسة وأعلامها استطراد واضحاً ، أما صاحب هذا الشرح فقد كان يأخذ منه ما يحقق شرح الاسم أو العلم دون مجاراة ابن جني في إسهابه واستطراداته ،

(١) ينظر الورقة ١١٩ من مخطوطة الشرح .
(٢) ينظر القطعة ٤٣ من باب النسيب في الكتاب في الكتاب الثاني من هذا البحث .

فمثلاً في شرح اسم « الفند الزمّاني » نجده يقول : « الفند الشمراخ من الجبل ، كان يقال له عديد الفوارس لشجاعته ، واسمه شهل بن ربيعة بن زمان ، جاهلي »(١) ، فهو بهذا يشرح في ايجاز لقب هذا الشاعر وصفته ويورد اسمه ونسبه وعصره . أما ابن جني فقد أسهب في شرح لقب هذا الشاعر ، ذكر أن اسمه شهل ابن شيبان ثم وضح أنه لقب بالفند لعظم خلقته تشبيهاً بفند الجبل وهو قطعة منه ، وبيّن أن جمع الفند أفناد، ثم انتقل فشرح «زمّان» وبين احتمالات اشتقاقه مستطرداً كعادته في الحديث عن الأعلام المختومة بألف ونون مما يجهل أصل نونه هل هي زائدة أو أصلية وهل الاسم على وزن فعلان بحكم زيادة نونه أو فعّال بحكم أصليتها ، ثم انتقل بعد ذلك إلى شهل فأطال في شرحه وبيان اشتقاقه(٢) .

وفي اسم « أنيف بن زبّان النبهاني » لم يقف صاحب هذا الشرح عند أنيف وانما شرح زبّان فقال : « زبّان فعلان من الزبب وهو كثرة الشعر ، ونبهان قيل يقظان »(٣) .

ولا شك أنه نظر إلى المبهج حين قال هذا الشرح ، ففي المبهج نجد قول ابن جني « أنيف تحقير أنف ، ويجوز أن يكون تحقير أنف من قوله : « أو روضة أنفاً » ، ويجوز أن يكون تحقير أنف وزبّان للعلمية ، فعلان من الزبب ، وليس بفعّال من الزبن ، ألا تراه غير مصروف ، ونبهان من الانتباه أو النباهة ، فاذا كان من الانتباه فهو كقولهم في التسمية يقظان »(٤) .

فأنت ترى أنه قد أفاد مما جاء في المبهج ، ولكن في ايجاز واختصار واضحين يدلان على طريقته في معالجة هذا العنصر وفق المنهج الذي رسمه لنفسه في عملية الشرح .

---

(١) ينظر الورقة ٦ من مخطوطة الشرح .
(٢) المبهج ص ١٤ .
(٣) المصدر الأسبق الورقة ١٩ .
(٤) المبهج ص ٢١ .

ب ـ أخبار الشعراء ومناسبات الشعر :

وكذلك لا نراه يخرج عن سبيل منهجه في ذكر أخبار الشعراء ومناسبات الشعر ، فهو يستعين في هذا العنصر بما أورده أبو تمام في مقدمات ما اختاره من قطع ، وبالشروح التي سبقته وبخاصة شرح أبي رياش الذي سبق أن أوضحنا أنه أكثر الشراح عناية بهذا العنصر ، غير أنه كان يعرض الأخبار والمناسبات لا كما يقرؤها في هذه الشروح ، وانما يعرضها وفق منهجه القائم على الاختصار والتسهيل ، ففي باب الرثاء نراه ينقل لنا خبر القطعة التي مطلعها :

خَلِيلَيَّ هُبَّـا طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِـدَّكُمَا لاَ تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا

ولخّص هذا الخبر في « أن رجلين من بني أسد قد خرجا إلى أصبهان فآخيا دهقاناً بها في موضع يقال له راوند ونادماه فمات أحدهما وغبر الآخر والدهقان ينادمان قبره ، يشربان كأسين ويصبّان على قبره كأساً ، ثم مات الدهقان فكان الأسدي الغابر ينوح على قبريهما ويترنم بهذا الشعر إلى حيث مات »[1] .

وفي باب المديح نراه ينقل خبراً عن أبي رياش يذكر فيه ما جرى بين ابن عنقاء الشاعر وعميلة الفزاري ، حين رأى عميلة سوء حال ابن عنقاء فأفاض عليه بما يكفل له هناء العيش ورغده ، فتحركت نفس ابن عنقاء لمدح عميلة فقال فيه ما رواه أبو تمام من شعر في هذا الباب[2] .

وحين وازنا بين ما أورده التبريزي عن أبي رياش في خبر هذه القطعة وما نقله هذا الشارح وجدنا فرقاً في النقلين ، فالتبريزي يروي الخبر كما وجده في شرح أبي رياش[3] ، في حين أن صاحب هذا الشرح يرويه في اختصار لا يخل بالغرض الذي من أجله روى الخبر وهو بيان الباعث الذي حرّك ابن عنقاء لمدح عملية ، وما جاء في الأبيات من معان مرتبط بالخبر ودال عليه ، بل إن معاني القطعة لا تتضح إلا بايراد

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ٩٦ .

(٢) المصدر السابق الورقة ٩٦ .

(٣) ينظر شرح التبريزي ٤ : ٦٩ .

الخبر ، وهذا يدل على أنّ أصحاب هذا المنهج لا يعرضون من الأخبار والقصص الاّ ما يعين على فهم النصوص ، يؤكد ذلك أننا وجدنا التبريزي يورد كثيراً من أخبار الشعر ومناسباته نقلاً عن أبي رياش وهي أخبار لا نجدها في هذا الشرح بالرغم من أن صاحبه قد اعتمد أبا رياش مصدراً من مصـادره ورأى شرح التبـريزي ، كما أسلفنا .

جـ / بحور الشعر وأضربه وقوافيه :

لم يهتم صاحب هذا الشرح بهذا العنصر اهتماماً تاماً ، اذ رأيناه في بداية عمله في الباب الأول من الاختيار ، وهو الحماسة ، يوضّح في جملة من قطع هذا الباب بحر الشعر فقط دون أن يذكر نوع الضرب أو نوع القافية فهو مثلاً نراه يقول في صدر القطعة : « وقال أبو الغول الطهوي من الوافر »[1] أو : « وقال الفرّار السّلمي من الكامل »[2] أو « وقال محمد بن عبد الله الأزدي من الطويل وهو مخروم »[5] ، ولكنه لم يلتزم بهذا في جميع قطع الاختيار بأبوابه العشرة ، وانما ظلّ يذكر بحر كل قطعة حتى بداية الثلث الثالث من باب الحماسة تقريباً ، ثم عدل عن ذلك ، فلم يعد يحدد البحر في القطع الأخيرة من باب الحماسة أو الأبواب التي تلته ، وليس من تعليل في هذا المسلك لأنه إن لم يكن قد رأى شرح أبي العلاء المعـري ذي الاهتمام بأوزان الشعر وأضربه وقوافيه فانه على الأقل رأى شرح التبريزي وأفاد منه ، كما رأى شرح زيد بن علي ونقل منه ، وكلا الشرحين قد عني بهذا الجانب لا سيما التبريزي الذي أوضح بحور الشعر في هذا الاختيار عدا اثنتين وستين قطعة[3] . فكان ينبغيَ عليه أن يفيد منهما في خدمة هذا العنصر ، ولا ينبغي أن نعزو هذا إلى ناسخ الشرح لأن الناسخ اذا غفل عن ذكر البحر في بعض القطع فان هذه الغفلة لن تقع منه في جميع الأبواب التسعة التالية للحماسة ، ولو كان صاحب هذا الشرح من المتقدمين لعزونا

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ٧ .

(٢) نفسه الورقة ٢٨ .

(٣) نفسه الورقة ٤٨ .

(٤) ينظر ما قلناه في هذا الخصوص في دراستنا لشرح زيد بن علي في الكتاب الثاني .

ذلك إلى أن تحديد بحور الشعر وأضربه وقوافيه لم يكن في نظر المتقدمين من الشراح من العناصر اللازمة في عملية شرح الشعر على النحو الذي فصّلنا الحديث فيه عند دراستنا لشرح المرزوقي .

و ـ الرواية :

وجدت الرواية شيئاً من الاهتمام في هذا الشرح غير أن صاحبه كان يعالجها في اختصار واضح ، فهو في أغلب الأحيان يشير إلى اختلاف الرواية دون شرح أو مفاضلة ، وفي بعض الأحيان كان يتولى شرح الرواية التي يشير إليها في أثناء عملية الشرح ، فمثلاً في بيت المرّار بن سعيد الفقعسي جاءت روايته له على النحو التالي :

إِذَا شِئْتَ يَوْماً أَنْ تَسُودَ عَشِيرَةً فَبالْحِلْمِ سُدْ لاَ بِالتَّنَزُّعِ وِالشَّتْمِ

وهي رواية مخالفة لرواية سائر الشراح الذين وقفنا على شروحهم حيث رووا « لا بالتَّسرّعِ والشَّتْمِ » ولقد أشار اليها صاحب هذا الشرح قال : « ويروى بالتسرع » ثم لم يكتف بذلك بل مضى شارحاً فقال : وهما أي التنزع والتسرع بمعنى واحد يقال : رجل نزع أي عجول وتنزّع إذا تعجّل »[١] .

وربما خالف مسلكه قليلاً في الاختصار حيث كان يطيل في شرح بعض الروايات فقد قال في بيت أرطاة بن سهيّة الذي رواه هكذا :

كَفَى بَيْننا أَلاَّ تُرَدَّ تَحِيَّةٌ عَلَى جَانِبٍ وَلاَ يُشَمَّتَ عَاطِسُ

« من روى يسمت بالسين فذلك لأن العاطس اذا عطس انتفض فيدعي له باعادته إلى سمته ، ومن رواه بالشين المعجمة فهو من الشوامت أي القوائم ، وبها عصمة صاحبها فكأنه دعا له بأن ينهضه الله »[٢] .

وفعل مثل هذه الاطالة في الشرح في بيت عبد الشارق بن عبد العزى ، وقد رواه على هذا النحو :

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ١٢٤ .

(٢) نفسه الورقة ٤٨ .

رُدَيْنَــةُ لَوْ شَهِــدْتِ غَدَاةَ جِئْنَا عَلَى أَضَمَاتِنَــا وَقَــدِ اخْتَوَيْنَا

فقد شرح الرواية التي أثبتها في متنه ثم ذكر روايتين أخريين وشرحهما ، قال : « من رواه بالخاء المعجمة من فوق فهو من الخوى وهو الجوع ، أي توحشنا من الطعام لأجل الحرب ، وقيل : هو من أخويته اذا أذهبت قلبه ، ومن رواه بالحاء غير المعجمة فالمعنى أنه يريد ملأنا أيدينا من الغنائم ، ومن رواه بالجيم فالمعنى قد دويت قلوبنا واحترقت أكبادنا من الغيظ ، وهو من الجوى يريد العدواة »(١) .

ولقد لاحظنا في عمله الخاص بالرواية أنه لم يفاضل بين الروايات أو ينتقد ما يورده منها اِلاَّ في موضعين فقط أحدهما الموضع الذي أشرنا اليه من قبل حين انتقد رواية « يزير » في بيت العباس بن مرداس :

تَرَى الرَّجُــلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ وَفِي أَثْوَابِــهِ أَسَــدٌ مَزِيرُ

ونقل عن التبريزي ما نقله عن المرزوقي في أن « من روى أسد يزير فليس بجيد لأن تشبيهه له بالأسد لا فائدة لذكر الزئير معه ، ولا يدوم على حالته هذه »(٢) ، والآخر جاء عنه في بيت عمرو بن معدي كرب الذي يقول فيه :

مَا اِنْ جَزِعْــتُ وَلاَ هَلِعْتُ وَلاَ يَرُدُّ بُكَايَ زَنْدَا

فقد قال فيه : « العرب تضرب المثل بالزند في القلة كما تضرب بالنقير والفتيل والقطمير ، ثم أشار إلى رواية أخرى للبيت فقال : « ويروى زيداً يعني أخاه » ثم عقب عليها فقال : وهذه الرواية غير صحيحة لأنه فتش عن نسب عمرو فلم يوجد له أخ يسمى زيداً »(٣) .

هـ ـ شرح الألفاظ والتراكيب :

حاول صاحب هذا الشرح أن يستفيد من اللغة والنحو في تحقيق هذا العنصر الذي يعد أهم العناصر في عمليّة الشرح اذ لا يتضح معنى النص إلاّ به ، غير أن

(١) نسه الورقة ٥٣ .

(٢) المصدر نفسه الورقة ١٢٩ ، وينظر شرح التبريزي ٣ : ٨٩ وما يليها .

(٣) الورقة ٢٠ من مخطوطة الشرح .

افادته من اللغة والنحو جاءت وفق منهجه ، فهو يشرح الألفاظ والتراكيب إن رأى أن ظاهر النص يقتضي ذلك ، فان كان النص لا يشتمل على الغريب الذي يحتاج إلى شرح أتى بالمعنى مباشرة ، وربما رأى أن في شرح الألفاظ ما يدل على المعنى فيشرح الألفاظ فقط دون أن يأتي بالمعنى . على أنه إن كان في غلبة شرحه يحقق ما ذكرنا فانه أحياناً كان يركّز على جانب لغوي يعرضه ويكتفي به في عملية الشرح ، وأحياناً أخرى يركّز على لفظة نحويّة يعرضها ثم لا يذكر بعدها شيئاً في النص ، فمثلاً في بيت حرقة بنت النعمان القائل :

فَأُفٍ لِدُنْيَا لا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تَقَلَّبُ تاراتٍ بِنا وتَصَرَّفُ

نراه يقف عند لفظة « أف » فقط فينقل عن ابن جني قول أبي علي الفارسي : « إنّ في أفّ سبع لغات أُفِّ وأَفَّ وأُفُّ ، وأُفّاً وأُفٌّ وأُفٍّ وأفي ممال ، وزاد غيره أُفْ خفيفة ، وهذه اللفظة أحد الأسماء التي سمي بها الفعل في الخبر وهي اسم لتضجرت ، فهي مبنيّة من حيث بنيت الأسماء فمن ضمّ أتبع الضمّ الضمّ ، ومن فتح فللخفة لأن التضعيف ثقيل ، ومن كسر فعلى أصل حركة التقاء الساكنين ، ومن نون أراد التنكير أي تضجراً ، ومن لم ينون نوى التعريف أي التضجر ، ومن خفف فلأنه هرب من ثقل التكرير»(١) .

ونحن لا ننكر أن مثل هذا العمل الذي كان يقوم به ابن جني في التنبيه عمل له قيمته في مجال المنهج العلمي التخصصي ، أما ادخاله في عمل يقوم على المنهج الاختصاري التسهيلي فيعد اضطراباً في الالتزام بالمنهج وحللاً في ضبط المقومّات التي قام عليها ، ولكن يبدو أن الشرّاح على مختلف مناهجهم كانت تتجاذبهم أهواؤهم أثناء عمليّة الشرح ، فالأهواء هي التي تخرجهم من حدود مناهجهم التي ارتضوها لأنفسهم ، ومنهم هذا الشارح الذي كان يدفعه هواه إلى الانسياق وراء ابن جني في نقل أمور عنه لا تتفق مع منهجه ، غير أن ذلك لم يرد عنه كثيراً بحيث يجعل المنهج مختلاً اختلالاً ظاهراً وانما وقوعه كان في ندرة لا تحيل منهجه إلى منهج ابن جني .

---

(١) المصدر نفسه الورقة ١٣٧ .

وهو إذا كان ينزع إلى الانسياق وراء ابن جني في بعض مسائل اللغة فقد كان يفعل ذلك في مسائل النحو ، ومن أمثلة ذلك عمله في بيت عصام بن عبيد الزماني الذي جاء في باب الرثاء ، والذي يقول فيه :

لَـوْ عُـدَّ قَبْـرٌ وقَبْـرٌ كُنْتَ أَكْـرَمَهُمْ   مَيْتـاً وَأَبْعَدَهُـمْ مِن مَنْـزِلِ الذَّامِ

فقد قالَ فيه : « لم يرد لو عدّ قبران ، وانما أراد لو عدت القبور قبراً قبراً » وكان منهجه يقتضي أن يكتفي بهذا القول في شرح هذا التركيب ولكنه انساق بهواه مع ابن جني فنقل عنه ما يعد استطراداً في المنهج قال : « ولو قال لو عد قبر قبر لم يجز الرفع كما جاز الأول ، وذلك أن هذا من مواضع العطف ، فحذف حرفه بضرب من الاتساع ، وهذا الاتساع خاصة إنما جاء في الحال نحو فصلت الحساب باباً باباً ، ودخلوا رجلاً رجلاً أي متتابعين فلو رددت على البدل لم يجز ، وعلى هذا قالوا : هو جاري بيت بيت ولقيته كفّة كفّة ، فاتسعوا بالبناء مع الحال ، ونحوها في ذلك الظرف نحو قولك كان يأتينا يوم يوم ، وليلة ليلة ، وأزمان أزمان ، وصباح مساء ، فان خرجت به عن الظرفيّة لم يجز البناء ، ألا تراك تقول : هو يأتينا كلّ صباح ومساء وفي ليلة ليلة فتعرب البتة »[١] .

فهذا الاستطراد في شرح مسائل اللغة والنحو خلل في المنهج ، ولولا أن غلبة عمله المطلقة جاءت وفق منهجه ، وأن انسياقه مع ابن جني في الاستطرادات اللغوية والنحوية كان ضئيلاً لا يقاس بهذه الغلبة لما قام تطبيقنا لهذا المنهج في هذا الشرح .

ونحن اذا نظرنا إلى هذا الشرح بعيداً عن هوى صاحبه نحو ابن جني وجدنا أنه يستفيد من علماء اللغة في خدمة شرح الألفاظ والتراكيب ، ولكنها استفادة محكومة بضوابط منهجه الذي اتبعه فمثلاً في بيت الحصين بن الحمام الذي يقول فيه :

مِنَ الصُّبْحِ حَتَّى تَغْرُب الشَّمْسُ لاَ تَرَى   مِنَ القَـومِ إلَّا خَـارِجِيّـاً مُسَـوَّمَـا

---

(١) ينظر الورقة ١٢٥ من مخطوطة الشرح ، وينظر الورقتين ٢١٧ ، ٢١٩ ففيها نقل عن ابن جني من هذا النوع .

نراه ينقل في إيجاز آراء ثلاثة علماء في شرح لفظة « خارجياً » قال : « قال الأصمعي كل ما فاق في جنسه فهو خارجي ، وقال أبو عمرو الشيباني : الخارجي من الخيل والرجال : المنكر ، وقال أبو زيد : اذا لم يكن للرجل في أهل بيته شرف ولم يثبت أحد منهم ثم ثبت واحد منهم فهو خارجي ، ثم عقّب على ذلك بقوله : « ومن روى من الخيل فالمراد بالخارجي المنكر على ما قال أبو عمرو الشيباني ، وكذلك من روى من القوم وأراد من خيل القوم لكان صحيحاً »(١) .

فاذا تجاوزنا ما كان ينقله عن العلماء في مجال اللغة ونظرنا إلى غلبة عمله في المجال ذاته من خلال منهجه وجدنا أنه كان يهتم بتفسير الألفاظ التي يرى أنها من الغريب ثم يورد المعنى . هذا في اللغة أما في النحو فانه كان يتناول النحو من حيث إيضاح المعنى أي أنه باستثناء المواضع القليلة التي تابع فيها ابن جني ، كان يركّز على مناقشة المسائل النحوية التي تتصل بالمعاني ، والتي تعين على ايضاح المعاني وابرازها .

فمن أمثلة شرحه للغريب من الألفاظ ثم ايراده المعنى ما جاء عنه في بيتي إياس ابن فبيصة الطائي وهما :

وَمَبْثُوثَةٍ بَثَّ الدَّبَا مُسْبَطِرَّةٍ ... رَدَدْتُ عَلى بِطَائِهَا مِنْ سِرَاعِهَا
وَأَقْدَمْتُ والخَطِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا ... لأَعْلَمَ مَنْ جَبَانُهَا مِنْ شُجَاعِهَا

فقد بدأ عمله فيهما بشرح الألفاظ قال : « الدّبا صغار الجراد ، والمسبطرة الممدودة على الأرض ، والبطاء جمع بطيء ، ووحّد الخطيّ لأنه أراد به الجيش » ثمّ بيّن غرض الشاعر من قوله فقال : « يصف شجاعته ليعلم أنه غير جبان » ثم عرض المعنى فقال : « يقول : رب خيل متفرقة على وجه الأرض رددت أولها على آخرها ، أي انه كان مدبّراً لها وقيّماً عليها »(٢) .

ومثله ما جاء عنه في بيت مساور بن هند الذي هجا فيه بني أسد وهو :

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ٤٦ .
(٢) المصدر السابق الورقة ١٤ .

زَعَمْتُـمْ أَنَّ اِخْوَتَـكُمْ قُرَيْشٌ لَهُـمْ اِلْفٌ وَلَيْسَ لَكُمْ اِلاَفُ

فقد رأى أن اللفظة الوحيدة التي تحتاج إلى شرح هي الاِلاَف ، ولذلك فسرّها بقوله : « الإلاف كتاب أمـان يكتبـه الملك للقـوم ليأمنـوا في أرضـه وهـو ها هنـا الائتلاف » ثم عرض المعنى فقال : « زعمتم أنكم مثـل قريش ، وكيف تكونـون مثلهم ولهم تجارة بالشام واليمن وليس لكم ذلك »(١) .

وأن رأى أن النص لا يحتاج إلى شرح للألفاظ عرض المعنى بدءاً وذلك مثل عمله في بيت عبد الله بن عنمة الضبي الذي يقول فيه :

لاَ تَجْعَلُونَـا اِلى مَوْلىً يَحُلُّ بِنَا عَقْـدَ الحِـزَامِ اِذَا مَا لِبْـدُهُ مالاَ

فقد عرض المعنى فيه بقوله : « أي لا تجعلونا مسندين إلى ابن عم يسلمنا عند الشدائد واذا رأى منا ضعفاً اجتهد في أن يزيده ، كأنه لما قال مال اللبد عن الفرس دل على استرخاء الحزام ، وذلك مؤدٍ إلى اضطراب الفارس »(٢) .

ونراه في مواضع أخرى يورد شرح الألفاظ دون إيراد المعنى كأنه رأى أن في شرح الألفاظ ما يدل على المعنى ويغني عنه . ومن ذلك شرحه لبيت مسكين الدارمي الذي يقول فيه :

وَفِتْيَانِ صِدْقٍ لَسْـتُ مُطْلِـعَ بِعْضِهِمْ عَلَى سِرِّ بَعْضٍ غَـيْرَ أَنِّـي جِمَاعُهَا

فقد أكتفى بتـوضيح مرجـع الضمـير في جماعهـا وبشرح لفظـة الجماع قال : « والضمير في جماعها يرجع إلى الفتيان ، ويجوز أن يرجع إلى ما دل عليه الكلام من ذكر الأسرار ، والجماع اسم لما يجمع الشيء ، كما أنّ النظام اسم لما ينظم به الشيء ، وقيل الجماع الذي تجمع فيه الأسرار »(٣) .

واذا كنا قد رأيناه في غلبة عمله اللغوي لا يخرج عن منهجه فانه كذلك في عمله النحوي ، فهو ينظر إلى النحو وسيلة يوضح بها المعنى ، ولا ينظر إليه مجالاً

---

(١) نفسه الورقة ١٧٥ .

(٢) نفسه الورقة ١٧ .

(٣) المصدر نفسه الورقة ١٢٥ .

يستعرض فيه ثقافته النحوية أو اظهار مقدرته على الالمام بالقضايا النحوية وما فيها من اختلاف مذهبي على نحو ما نجد عند بعض الشراح وبخاصة ابن جني في منهجه العلميَ التخصصي أو التبريزي في منهجه الانتخابي ، إنما حسبه من النحو أن يعين على فهم معنى النص ، ففي بيت دريد بن الصمة الوارد في باب الرثاء والذي يقول فيه :

قَسَمْنَا بِذَاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا ... فَما يَنْقَضِي اِلاَّ وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

نراه يقف عند نصب « شطرين » فيقول هو منصوب على المصدر كأنه قال : قسمنا الدهر قسمين ، ويجوز أن يكون حالاً على معنى قسمناه مختلفاً فوقع الاسم موقع الصفة لما تضمن معناه كقولك : طرحت متاعي بعضه على بعض كأنك قلت متفرقاً » . فلا شك أن مثل هذا العمل يعين على فهم المعنى الذي أورده بعد هذا فقال : « يريد جعلنا أوقات الدهر بيننا وبين أعدائنا مقسومة قسمين ، فلا ينقضي شيء منها الاّ ونحن على أحد الحدين إمّا علينا وامّا لنا »[1] .

ومثل ذلك أيضاً ما جاء عنه في بيت القتال الكلابي وهو :

فَلَماَّ رَأَيْتُ أَنَّنِي قَدْ قَتَلْتُهُ ... نَدِمْتُ عَلَيْهِ أَيَّ سَاعَةِ مَنْدَمِ

فقد وقف عند « أي » وبيّن أوجه الإعراب فيها بما يدل على المعنى ويوضحه قال : « أي رفع ونصب فمن نصب فعلى أنه وصف ظرف محذوف كأنه قال : ندمت عليه ساعة أيّ ساعة مندم ، ومن رفع ذهب إلى مذهب الاستفهام المتعجب كأنه لمّا تمّ الكلام بقوله ندمت عليه متعجباً : أيّ ساعة مندم ، هذه التي ندمت فيها أي ليس هذا وقت الندم لأنه وقت حميّة ، فالرفع على استئناف جملة على جملة »[2] .

وجملة القول في هذا العنصر أنه قد عني بشرح الألفاظ والتراكيب من خلال معالجاته اللغوية والنحوية وفق منهجه إلا في الأحيان القليلة التي كان يتأثر فيها بابن جني فينقل عنه ما يخرجه عن حدود منهجه الذي سلكه .

---

(١) نفسه الورقة ٩١ .

(٢) نفسه الورقة ١٣ .

و ـ المعنى :

رأينا من خلال العنصر السابق أن صاحب هذا الشرح كان يعالج معاني الشعر وفق مسار متصل باللغة والنحو ، فهو يعالج الالفاظ لغوياً ثم يورد المعنى ، وقد يطرح مسألة إعرابية يستعين بها على إيضاح المعنى ، وهو حين يعرض المعاني يعرضها بعبارات سهلة غايتها أداء الغرض في غير تنميق للأسلوب أو تخيرّ للألفاظ ، فهو في أسلوبه مختلف عن أصحاب المنهج الابداعي الذين رأيناهم في تطبيق المرزوقي يتخيرّون الألفاظ ويجوّدون سبكها في قالب أدبي رفيع ، ومختلف كذلك عن أصحاب المنهج العلمي التخصصي الذين رأيناهم في تطبيق ابن جني يعمدون إلى العبارات التي تدل على أسلوب علمي بحت ، إنه حين يعرض المعنى يعرضه مجرداً دون اللجوء إلى عبارات إيحائية مؤثرة ، فأسلوبه في عرض المعنى لا هو بالأدبي الذي يمتع قارئه ويؤثر في وجدانه ، ولا هو بالعلمي الذي يثير الذهن ويمتع العقل ، إنه أسلوب أشبه بنثر البيت لا أكثر ولا أقل ، ففي بيت عمرو بن معدي كرب الذي يقول فيه :

وَلَـوْ أَنَّ قَوْمِـي أَنْطَقَتْنِـي رِمَاحُهُمْ نَطَقْـتُ وَلَـكِنَّ الرِّمَـاحَ أَجَرَّتِ

نراه يعرض معناه فيقول : « لو أن قومي ثبتوا في الحرب وصفتهم في الشعر وذكرت مفاخرهم ، ولكنهم انهزموا وطرحوا الرماح التي حقها أن يطعن بها ، فكأنّ الرماح شقت لساني فلم أقدر على ذكرهم »[١] .

وفي بيت جابر بن رالان السنبسي الذي يقول فيه :

فَإِنْ تُبْغِضُونَـا بَغْضَـةً فِي صُدُورِكُمْ فَإِنَّـا جَدَعْنَـا مِنْـكُمُ وَشَرَيْنا

نجده يعرض المعنى بايجاز بالغ حيث يقول : « المعنى إن تبغوضونا فحق لكم ذلك لأنا قهرناكم وذللناكم وبالغنا في الإساءة إليكم »[٢] .

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ٨ .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٢٨ .

وهو بجانب عرضه للمعنى في أسلوب سهل مباشر كان يهتم بعرض المعنى في أكثر من وجه ، وذلك وفق ما وقف عليه في شروح السابقين من معان ، ففي بيت عبدة بن الطبيب الذي يرثي فيه قيس بن عاصم وهو :

عَلَيْكَ سَلامُ اللهِ قَيسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

نراه يعرض له وجهين في المعنى أحدهما صوّره بقوله : « أي عليك سلامه ورحمته أبداً لأن الله تعالى أبداً يشاء الرحمة » والآخر صوّره بقوله : « وقيل المعنى سلام الله ورحمته كثيراً كقولك أصابنا ما شاء الله من الغيث ، ورأينا من الخير ما شاء الله »[1] .

وفي بيتيْ جران العود اللذين يقول فيهما :

يَوْمَ ارْتَحَلْتُ بِرَحْلي قَبْلَ بَرْذَعَتي والعَقْلُ مُتَّلِهٌ والقَلْبُ مَشْغُولُ
ثُمَّ انْصَرَفْتُ إلى نِضْوِي لأبْعَثَهُ إثْرَ الحَمُولِ الغَوادِي وَهْوَ مَعْقُولُ

نجده يصوّر معناهما فيقول : « هذا يصف اهتمامه بالفراق وتحيّره حتى لا يدري كيف وجه الشيء فيأتيه من قبله ، ألا تراه جعل الرحل قبل البرذعة ثم انصرافه إلى بعيره ليبعثه وهو معقول » . ثم نقل رأياً لأبي عبد الله النمري يتصل بالمعنى قال : قال النمري : « كذا روى أبو تمام هذين البيتين ـ والصواب عندي أن الأخير أول والأول أخير ، وإلّا كيف يرتحل عنه وهو ينصرف إليه » ثم أضاف : وغير النمري يقول هذا كله لدهشته لأنه قدّم ما يؤخر وأخر ما يقدّم »[2] .

وكان حق الشارح أن يعقب هنا على الخطأ الذي وقع فيه النمري في تفسير ارتحلت ، وقد نبه إلى هذا الخطأ أبو محمد الأعرابي حيث أفاد بأن البيتين على ما روى أبو تمام صحيحان ، وانما جاء هذا الوهم لأبي عبدالله النمري من حيث أنه فهم من قوله « ارتحلت » معنى الرحيل ، ولم يقصد الشاعر إلى ذلك وانما قصد « ارتحلت »

---

(١) نفسه الورقة ٨٧ .
(٢) المصدر نفسه الورقة ١٤٠ .

بمعنى وضعت الرحل قبل البرذعة التي حقها أن تكون أولاً ثم يوضع الرحل عليها »[٢] .

والحق أن دراستنا لهذا الشرح أثبتت أن صاحبه لم يغفل عن التنبيه على خطأ ما يورده من معاني الآخرين فحسب بل أثبتت أنه كان يخطىء في تفسير معاني النصوص فيورد في بعضها معاني بعيدة كلّ البعد عن المعنى الذي رمى اليه الشاعر ، وهذا أهم مأخذ رأيناه منه في عنصر المعاني . ولقد حاولنا أن نرصد أوهامه في هذا الخصوص فوجدناها ترجع إلى أمرين أحدهما عدم محاولته الوقوف على البواعث التي دفعت الشعراء إلى قول الشعر ، والتي تؤدي معرفتها إلى إدراك مقاصد الشعراء ومراميهم من الكلام ، والآخر وهمه في تصور المعنى المراد من النص نتيجة لقصور في إدراك أساليب الشعراء ومجرى كلامهم ، فمن أمثلة الأمر الأول ما جاء عنه في بيت معقل بن عامر الأسدي الذي يقول فيه :

أُنـبِّئُـه بـأنّ الجُـرْحَ يُـشـوي وأنَّـكَ فَـوْقَ عِـجْـلِزَةٍ جَمُـومِ

وهو بيت من أبيات قالها معقل بن عامر حين مرّ بابن الحسحاس بن وهب الأعيوي يوم شعب جبلة[٣] فوجده صريعاً فحمله على فرسه وداواه وأداه الى أهله ، وقال هذا الشعر يصف هذه الواقعة بينهما ، وبناء على معرفة هذا الخبر الذي يدل على الباعث لقول الشعر يأتي معنى البيت ، وهو معنى واضح صوّره المرزوقي ونقله عنه التبريزي قال : « يريد أن تبلغيك المأمن سهل وان ما بك من الجرح هين »[١] غير أن هذا الشارح لما فات عليه معرفة الخبر المؤدي إلى باعث الشعر أتى في تفسيره بمعنى نقله عن النمري وهو « هذا يربط به جأشه يقول : إن شئت كررت وان شئت فررت أي أقدم فان الجرح يخطىء المقتل وأنت أيضاً على فرس جواد فكر إن شئت وان شئت فرّ »[٢] . وهو كما نرى معنى لم يقصد إليه الشاعر ولا يدل عليه البيت ،

---

(١) ينظر مخطوطة اصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله الورقة ١٩ .

(٢) يوم شعب جبلة يوم كان بين تميم وحلفائها ذبيان وأسد وبين بني عامر بن صعصعة وعبس ، وكانت الدائرة فيه على تميم وحلفائها . ينظر أيام العرب في الجاهلية « يوم شعب جبلة » .

(٣) شرح المرزوقي ق ١ : ١٩١ ، وشرح التبريزي ١ : ١٠٠ .

(٤) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ٢٣ .

ولهذا اعترض عليه أبو محمد الأعرابي في تتبعه لأبي عبد الله النمري ، وقال مشيراً إلى تنكّبه عن المعنى المراد « هذا موضع المثل » .

أَرَادَ طَرِيقَ العُنْصُلَينِ فَيَاسَرَتْ   بِهِ العِيسُ فِي نَائِي الصُّوَى مُتَشَائِمِ[1]

ثم أورد المعنى على نحو ما فسره المرزوقي[2] .

ومن أمثلة الأمر الثاني ما جاء عنه في بيت تأبط شراً الذي يقول فيه واصفاً نفسه :

يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حَتَّى أَلِفْنَهُ   وَيُصْبِحُ لاَ يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

فقد صوّر معناه بقوله : « أي لا يكون بالليل في الموضع الذي يبيت فيه الوحش ، ولا يحمي أي لا يكف الأذى عن الوحش »[3] ، وهو تفسير يدل على أن صاحبه لم يقف على شعر الصعاليك من أمثال تأبط شراً في حديثهم عن الوحش ، كما أن ظاهر الألفاظ لا يدل على ما جاء به من معنى ، فقد قلبه تماماً ، ومعناه كما صوّره المرزوقي « ان مجامع الانس تكرهته فلفظته ، فألف القفار ، ولزم مرابع الوحش ومساكنها حتى أنست به وسكنت إليه وعدته واحداً منها ، وصار هو أيضاً على تعاقب الزمان وتصرف الأحوال لا يحمي من أجلها مرعى »[4] .

هذا الوهم الذي وقع فيه الشارح في هذا المثال وسابقه في تفسير معنى الشعر ما كان لنا أن نؤاخذه عليه لولا أنه دل بقلمه على أنه قرأ شرح المرزوقي[5] ، كما أنه كان ينقل عن التبريزي دون أن يشير اليه كما أوضحنا ، واذا كان قد وقف على الشرحين معاً فكان يلزمه ألا يقع فيما وقع من خطأ في التفسير لأن مصادره التي يرجع اليها تعصمه من ذلك .

---

(١) العنصل واد بين اليمامة والدهناء وثناه بما حوله ، والصّوى جمع صوّة : حجر يكون دليلاً في الطريق يريد أراد طريقاً بعينه فأبعدت به العيس الى طريق آخر فيه شؤم له .

(٢) ينظر الورقة ٧ من مخطوطة اصلاح ما غلط فيه أبو عبد الله النمري .

(٣) ينظر الورقة ٢٣ من مخطوطة الشرح .

(٤) ينظر شرحه ق ٢ : ٤٩٥ .

(٥) ينظر الورقة ١٩ من مخطوطة الشرح .

ز . البلاغة والنقد :

لم يهتم الشارح بهذا العنصر ، ولا حظي منه بعناية تذكر ، فهو في مجال النقد لم نر له سوى نقد الرواية الذي عرضنا له فيما سبق . أما في البلاغة فقد أهمل جلّ نواحيها في ميادينها الثلاثة البيان والمعاني والبديع ، فالذي يقرأ شرحه لا يجد سوى وقفات ضئيلة تخص الاستعارة والمجاز ، وعمله فيهما لا يدل على عناية تهدف إلى تبيان أثر هذين اللونين في جودة الشعر وحسنه ، وانما يأتي الحديث عنهما عرضاً في أثناء الشرح كأن الأمر ليس من مطلبه ولا غايته . ومن ذلك ما جاء عنه في بيت مسلم ابن الوليد الذي قاله في مالك بن علي الخزاعي وهو :

نَفَضَتْ بِكَ الأَحْلَاسُ نَفْضَ إِقَامَةٍ   واسْتَرْجَعَتْ نزَّاعَهَا الأَمْصَارُ

قال : « الاحلاس جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير وذكره ها هنا استعارة »[1] .

ولعل الموضع الوحيد الذي رأينا فيه عناية بهذا اللون البلاغي ، هو ما جاء عنه في بيت الفرّار السلمي القائل :

وَكَتِيبَةٍ لَبَّسْتُهَا بِكَتِيبَةٍ   حَتَّى إِذَا الْتَبَسَتْ نَفَضْتُ لَهَا يَدِي

قال : « أي تركت معاونتها ، ولم أشغل يدي بها ، فاستعار نفض اليد للاعراض عنها، يقال : نفضت اليد من فلان ولفلان أشدّ النفض إذا وكلته لنفسه »[2] ، ومع ذلك فهي عناية لا تبين موطن الجمال في التصوير الاستعاري بقدر ما هي عناية شرح للتركيب الذي نجمت عنه الاستعارة .

هذه هي العناصر التي قام عليها عمل هذا الشارح ، حاولنا أن نستعرضها من خلال نظرتنا الى المنهج الاختصاري التسهيلي ، ولقد رأيناه في غلبة عمله يحقق مقومات هذا المنهج وصفاته ، إلا في مواضع قليلة عبنا عليه فيها : نقله عن ابن جني ومجاراته إياه في الاستطراد اللغوي والنحوي ، كما عبنا عليه عدم إفادته من المصادر

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ١٠٣ .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٢٢ .

التي كانت تحت يده إفادة تعصمه من الخطأ في تفسير الشعر ، هذا فضلاً عن أننا يمكن أن نأخذه عليه تركه الكثير من القطع دون شرح ، ربما رأى أنها واضحة المعاني لا تحتاج منه إلى عمل ، ولكن الوضوح شيء نسبي ، فما تراه أنت واضحاً قد يراه غيرك ليس بواضح ، والوضوح لدى الشارح ذي المنهج التسهيلي لا يعني الترك وبخاصة إذا علمنا أن أصحاب هذا المنهج يكتبون لفئة معينة من القراء ، يحاولون إعانتها على فهم الشعر وإدراك معانيه بأسهل الطرق وأقربها ، وسهولة الطرق وقرب مأخذها في شرح الشعر ليست مبرراً إلى ترك الواضح منه ، وإلا تحوّل العمل من شرح للشعر إلى رواية فقط ، والرواية جزء من عمل الشارح وليست كلّ عمله .

واذا كان قد برز في القرن الخامس والسادس رجلان اتجها في شرح الحماسة هذه الوجهة من الاختصار والتسهيل ، فان ثمة رجلاً ثالثاً قد اتجه أيضاً إلى هذه الوجهة هو أبو الحجاج الأعلم الشنتمري[1] وذلك في شرحه المسمى « تَجَلِّي غرر المعاني » وهو من حيث الترتيب الزمني يلي زيد بن علي الفارسي في الاتجاه إلى هذا المنهج الاختصاري التسهيلي ، غير أنه اتجه في رواية متن الحماسة وجهة تختلف عن سائر الشراح الذين وقفنا على شروحهم ، إذ أن جميع الشراح قد حاولوا جهد طاقاتهم أن يلتزموا باختيار أبي تمام في الحماسة دون تبديل أو تعديل وأمرهم في رواية متن الحماسة ـ كما رأينا ـ يرجع إلى ما كان لديهم من نسخ للحماسة ، ووفق هذه النسخ كانت اختلافاتهم في رواية الشعر . أمّا الأعلم الشنتمري فقد غيرّ في الحماسة

(١) هو أبو الحجاج يوسف بن سليمان النحوي ، وقد لقب بالأعلم لشق كان في شفته العليا ، وهو من أهل شنتمريّة الغرب ولذا نسب اليها ، رحل من شنتمريّة إلى قرطبة وأخذ عن أبي القاسم إبراهيم بن محمد المعروف بابن الافليلي ، ويعد الأعلم من علماء اللغة العربية ومعاني الأشعار حافظاً لجميعها حسن الضبط لها ، مشهوراً بمعرفتها واتقانها ، فكانت الرحلة إليه في وقته ، وقد ساعد الأعلم أستاذه الافليلي في شرح ديوان المتنبي ، كما صنّف من الكتب شرح الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاج ، وشرح أبيات الجمل ، وشرح أشعار الشعراء الستة ، وشرح الحماسة . توفي باشبيلية سنة ٤٧٦هـ ، وكانت ولادته فيما ذكر ياقوت سنة ٤١٠هـ . ترجمته في معجم الأدباء ٢٠ : ٦٠ وما يليها ، وانباه الرواة ٤ : ٥٩ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ٧ : ٨١ وما بعدها ، وله ذكر في خزانة الأدب ١ : ٢٥ .

تغييراً غير قليل ، وهو تغيير مسّ أبواب الحماسة ، وقطع هذه الأبواب ، وترتيبها ، ورواية عدد الأبيات في القطعة الواحدة . الأمر الذي يمكن معه القول بأن الأعلم قد صنع حماسة غير حماسة أبي تمام .

فمن حيث الأبواب وجدناه يفصل بين باب الأضياف والمديح ، الذي جاء باباً واحداً في سائر الشروح ، غير شرح المرزوقي الذي سبق أن أوضحنا أن نسّاخ شرحه هم الذين جعلوا هذا الباب بابين ، وأتينا بالادلة على ذلك . أما الأعلم فقد كان واضحاً أنه هو الذي فعل ذلك ، لأنه كان يرتب القطع في داخل الأبواب بحسب القوافي ، يبدأ بقافية الهمزة وينتهي بقافية الياء ، ولذا جاءت القطعة الأولى في كل من البابين على قافية الهمزة أو الألف كما يسميها هو[١] ، هذا فضلاً عن أنه أضاف باباً جديداً سماه « باب الكبر » جاء في آخر الأبواب وروى فيه ست قطع[٢] ، ومن ثم صارت الأبواب في شرحه اثني عشر باباً لا عشرة كما جاء في حماسة أبي تمام .

أما اختلاف القطع فواضح أن الأعلم قد حذف جملة من القطع التي رواها أبو تمام في كل باب من الأبواب ، كما أضاف في هذه الأبواب قطعاً لم يخترها أبو تمام ، لعله أخذها من كتب الاختيارات التي تلت اختيار أبي تمام ، ومن أمثلة ذلك قطعة رواها في باب النسيب همزية القافية ونسبها إلى أبي زبيد الطائي مطلعها :

إنَّمَا مِتُّ غَيْرَ أَنِّي حَيٌّ ... يَوْمَ بَانَتْ بِوُدِّهَا أَسْمَاءُ[٣]

وكذلك قطعة رواها في الباب ذاته جاءت على قافية الباء وهي :

أَلاَ لاَ أَرَى وَادِي المِيَاهِ يُثِيبُ ... وَلاَ النَّفْسُ عَنْ وَادِي المِيَاهِ تَطِيبُ

أُحِبُّ هُبُوطَ الوادِيَيْنِ وَإِنَّني ... لَمُشْتَهِرٌ بالوَادِيَيْنِ غَرِيبُ[٤]

---

(١) ينظر مخطوطة شرحه ٢ الورقة ٧٦ والورقة ٩٩ وواضح أنه أراد بالألف ألف التأنيث الممدوة .

(٢) المصدر نفسه ، الورقة ١٥٥ .

(٣) ينظر الورقة ٣٨ من مخطوطة الجزء الثاني .

(٤) المصدر نفسه الورقة ٤٢ .

وجاء ترتيب القطع مختلفاً من حيث إنَّ أبا تمام لم ينظر إلى القوافي في الترتيب أما الأعلم فقد رتب القطع بحسب القوافي بادئاً بالهمزة ومنتهياً بالياء .

ورأيناه أيضاً في بعض القطع التي أخذها من حماسة أبي تمام لا يكتفي بما اختاره أبو تمام ورواه ، بل كان يضيف إليه ما يجده في كتب أخرى ، ومن أمثلة ذلك قطعة الهذيل بن مشجعة البولاني التي وردت في باب المديح والتي مطلعها :

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابنُ عَمِّي غَائِباً لَمُقَاذِفٌ مِنْ خَلفِهِ وَوَرائِهِ[1]

فقد بلغت في رواية الشروح التي وقفنا عليها ستة أبيات ، أضاف اليها الأعلم ثلاثة أبيات أخرى هي :

وَإِذَا اسْتَرَاشَ حَمَدْتُهُ وَوَفَرْتُهُ وَإِذَا تَصَعْلَكَ كُنْتُ مِنْ قُرَبَائِهِ
وَإِذا أَرَدْتُ عِتَابَهُ أَنْظَرْتُه حَتَّى أُعَاتِبَهُ بِبَعْضِ خَلائِهِ
وَإِذَا غَدَا يَوْماً لِيَرْكَبَ مَرْكَباً صَعْباً قَعَدْتُ لَهُ عَلَى سِمْسَائِهِ[2]

ومما لا شك فيه أن هذه الاختلافات التي عمد إليها الأعلم الشنتمري فيما صنعه من اختيار قد باعدت بين كتابه وحماسة أبي تمام ، ولكن الذي يهمنا هنا هو طريقته في شرح الشعر سواء في القطع التي أخذها من حماسة أبي تمام أو القطع التي أضافها من عنده ، وهو شرح - كما رأيناه - يسير وفق المنهج الاختصاري التسهيلي ، وهذا واضح من ظاهر قوله في خاتمة كتابه فقد قال بعد أن أوضح تاريخ بدء العمل فيه وتاريخ الفراغ منه : « وأرجو أن يكون معطىً حقه من التلخيص والتقريب وموفىً قسطه من التلخيص والتهذيب »[3] ، فشرحه اذن يقوم على تلخيص ما قرأه من شروح سابقة ، وعلى تقريب مادة الشرح لقارئيه وتلخيصها وتهذيبها .

والحق أن الذي يقرأ الشرح يحس بأن الأعلم قد توخّي التسهيل في شرح الشعر بصورة لا تخفى فهو شرح يقوم في غلبته العظمى على تفسير الألفاظ في النص وايراد

---

(١) رواية الأعلم في هذا البيت « لمدافع من دونه وورائه » .

(٢) المصدر نفسه الورقة ٨٨ والسمساء من الفرس الحارك ومن الحمار ظهره .

(٣) الورقة ١٥٥ من مخطوطة الجزء الثاني .

معناه ، والأمثلة على ذلك يستطيع أن يعثر عليها القارىء من أول الكتاب إلى آخره ، ففي بيتي قيس بن الخطيم اللذين وردا في أول قطعة في باب الأدب وهما :

وَمَا بَعْضُ الاقَامَةِ فِي دِيَارٍ ... يُهَانُ بِهَا الفَتَى اِلاَّ عَنَاءُ[1]

وَبَعْضُ خَلائِقِ الأَقْوَامِ دَاءٌ ... كَدَاءِ البَطْنِ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ

نراه يعمد إلى شرح لفظة « العناء » ثم يورد المعنى . قال : « العناء المشقة أي من أقام على هوان فهو في مثل حال المسافر عناء ومشقة ، فلا ينبغي أن يضام على ذلك ، وقوله : « وبعض خلائق الأقوام داء » أي من جبل على خلق دنيء لم يصرف عنه بغلبة الطبع عليه ، فمثله مثل المبطون لا دواء له »[2] .

ونراه يشرح بيتيْ عبد الله بن الزبير الأسدي في باب الأدب فيوجز في ذلك غاية الايجاز والبيتان هما :

لاَ أَحْسِبُ الشَّرَّ جَاراً لا يُفَارِقُنِي ... وَلاَ أَحُزُّ عَلَى مَا فَاتَنِي الوَدَجَا

وَمَا نَزَلْتُ مِنَ المَكْرُوهِ مَنْزِلَةً ... اِلاَّ وَثِقْتُ بِأَنْ أَلْقَى لَهَا فَرَجَا

فقد قال فيهما : « يقول : إذا نزل بي شر لم أيأس من الخير ، وعلمت أنه سيفارق كالجار الذي لا يقيم ، ومعنى أحزّ أقطع ، أي لا أستهلك في تتبع ما فات من عرض الدنيا ولا أموت غماً في أثره ، فضرب حز الودج مثلاً »[3] .

وهو بجانب ما رأيناه من خلال هذين النموذجين في تَوَخِّيه سهولة العبارة في الشرح والميل إلى تسهيل المعنى وتقريبه للقارىء ، كان لا يثير القضايا النحوية واللغوية في أثناء الشرح ، وانما غايته من ذلك لا تتجاوز غاية أصحاب هذا المنهج التي تتمثل في إيضاح معنى النص بأقرب وأسهل طريق ، ولذا رأيناه عرض لمسألة تتصل بالاعراب يعرض لها من خلال إبراز المعنى لا غير ، ومن ذلك ما جاء عنه في بيتي عروة بن الورد اللذين يقول فيهما :

---

(١) رواية الشروح الأخرى « الأَبلاء » .

(٢) الورقة ٤ من المصدر نفسه .

(٣) المصدر السابق ، الورقة ١٠ .

قُلْتُ لِقَوْمٍ فِي الكَنِيفِ تَروَّحُوا عَشِيَّةَ بِتْنَا عِنْدَ مَأْوَانَ رُزَّحِ
تَنَالُوا الغِنَى أَوْ تَبْلُغوا بِنُفُوسِكُمْ إلَى مُسْتَرَاحٍ مِنْ حِمَامٍ مُبَرَّحِ

قال : « وجزم تناولوا على جواب قوله تروّحوا »(١).

وكذلك إذا عرض للرواية عرض لها في إيجاز واضح ، وذلك على نحو ما جاء عنه في بيت أبي الطمحان القيني ، وقد جاءت روايته له على النحو :

وَقَبْلَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرائِحِ

ثم أشار في الشرح إلى رواية أخرى قال : « ويروى « من غد » وهو أبين »(٢).

وكذلك كان شأنه في جانب البلاغة إذا عرض للون من الألوان البلاغية في شرح الأبيات . ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه في بيت النسيب الذي نسب إلى آخر وهو :

وَكُنْتَ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِداً لِقَلْبِكَ يَوْماً أَتْعَبَتْكَ المَنَاظِرُ

قال فيه : « الرائد المتقدم في طلب المرعى ، واستعاره لأول النظر أي اذا أبصرت إلى شيء يهواه قلبك أتعبك ما نظرت إليه بما حمّلك من العشق »(٣).

وصفوة القول أن الأعلم بشرحه هذا الذي تصرف في رواية متنه بما خالف فيه اختيار أبي تمام قد استطاع أن يحقق خطوة في المنهج الاختصاري التسهيلي بعد زيد ابن علي الفارسي ، وهو في التزامه بهذا المنهج كان أكثر اهتماماً بعنصر المعنى ، واذا عرض إلى عناصر الشرح الأخرى كان الايجاز والتيسير سبيله ، وربط ما يناقشه من عناصر بعنصر المعنى بحيث يمكن أن نقول إنه قد وظّف العناصر الأخرى لخدمة عنصر المعنى ، وهذا أحد مقومات هذا المنهج على نحو ما وضحنا فيما سبق .

---

(١) نفسه ، الورقة ١١ .
(٢) المصدر نفسه ، الورقة ٤٢ .
(٣) نفسه ، الورقة ٤٩ .

وإذا كان الأعلم الشنتمري ومن قبله زيد بن علي الفارسي قد اتجها في شرح الحماسة إلى هذا المنهج الاختصاري التسهيلي وهما ، كما رأينا، من علماء القرن الخامس الهجري فان هناك عالماً من علماء هذا القرن قد نحا في شرحه المنحى نفسه هو أبو الحسن البياري(١)، يدل على ذلك مقدمته التي صدر بها الجزء الأول من شرحه الذي وصل إلينا(٢) ، فقد قال فيه بأسلوب ركب فيه السجع : « أما بعد فقد أجمع الرواة على كتاب الحماسة أنه أمثل كتاب عمل في الأبيات ، وقد قصر به عن من لا يفهمه أنه لم يقع فيه شرح شاف ولا فسّر تفسير كاف(٣)، إلاّ تفسيراً لم يُسِغ شَرَقاً ولم يفتح غلقاً ، فسر من شأنه اللغة فان أخذ عنها ضلّ وأضلّ ، أو من فسر أبياتاً منه أشتاتاً هو فيها ، كما قال جزء بن ضرار :

قَضَيْتَ أُمُــوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِــجَ في أَكْمَامِهَــا لَمْ تُفَتَّقِ(٤)

أو من عني بالأيام فأخلد إليها واقتصر إلاّ فيما قلّ عليها ، فعمدت احتساباً إلى

---

(١) هو أبو الحسن علي بن الحارث البياري الخراساني ، منسوب إلى بيّار مدينة من أعمال قومس بخراسان أحد تلاميذ أبي الندى الغندجاني ، قال عنه القفطي : أديب بليغ فاضل له تصانيف جليلة منها شرح الحماسة ، وكتاب صنعة الشعر ، كما شعر ، روى القفطي والباخرزي مقاطيع منه في ترجمتها له. ولم تذكر المصادر تاريخ وفاته ولكن من المقطوع به أنه من رجال القرن الخامس ، ذلك لأنه كان تلميذاً لأبي الندى أستاذ أبي محمد الأعرابي المتوفى سنة ٤٣٦هـ ، كما أن الباخرزي المتوفى سنة ٤٦٧هـ قد ترجم له في « دمية القصر وعصرة أهل العصر » . ينظر ترجمته في الدمية ص ٣٠٤ ، ومعجم الأدباء ١٥ : ٥٨ ، وانباه الرواة ٢ : ٢٧٤ وما يليها ، وله ذكر في ترجمة شيخه أبي الندى ٤ : ١٨١ .

(٢) يوجد من هذا الجزء نسخة مخطوطة في مكتبة دبلن بانجلترا تحت رقم ٣٨٧٠ ، منها نسخة مصورة بالتصوير الشمسي في دار الكتب المصرية تحت رقم ٧٤٠٩ أدب ، ونسخة أخرى تحت رقم ١٦٨٣١ ز ، وهذا الجزء يبدأ من أول الحماسة وينتهي بحماسية الأخضر ابن هبيرة ، وهي الحماسيّة رقم ١٩١ في شرح المرزوقي ١٨٩ في شرح التبريزي ، ١٩٢ في شرح زيد بن علي الذي حققناه .

(٣) هكذا وردت العبارة في الأصل وفيها اضطراب من جهة النحو .

(٤) البيت من أبيات الحماسة رواه أبو تمام ضمن قطعة في باب الرثاء ، وهي في رثاء عمر ـ رضي الله عنه ـ .

إيضاح ما بلغه علمي من غريبه ومعانيه ، وذكر نكت من النقد ، وفقر من الأيام ، وايماء إلى بعض ما وقع من الكتاب في غير موضعه ليتوصل بها إلى تصوّر ما فيه باختصار من غير اكثار »[١] .

فظاهر من هذه المقدمة أن الرجل قد حدد منهجه أنه سوف يشرح الحماسة مركّزاً على جوانب معينة في اختصار وايجاز ، وهو يبدو كذلك من خلال ما قرأناه له في الجزء الأول من شرحه ، ولولا أن شرحه لم يصل إلينا كاملاً لكان أولى بتطبيق هذا المنهج من الشرح المنسوب خطأ لأبي العلاء المعري ، إذ أن جميع مقومات هذا المنهج وصفاته تكاد تكون متوفرة فيه سوى إسهاب طفيف بدا منه في مواضع قليلة عند معالجته لبعض أجزاء من أبيات الحماسة مثل وقفته في تركيب لو وجوابها في صورها المختلفة ، وذلك في أول بيت من أبيات الحماسة وهو :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلي   بَنُو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا[٢]

على أن هذا الاسهاب الطفيف في بعض النواحي لا يخرجه عن حد المنهج الذي رسمناه ، فهو من خلال ما جاء في الجزء الأول وما نقله عنه كل من أمين الدين الطبرسي وأبي الرضا الراوندي في شرحيهما المخطوطين يبدو ملتزماً بجميع مقومات المنهج وصفاته ، إذ أن أكثر جهوده في الشرح مقصورة على توضيح الألفاظ وايراد المعاني في سهولة ويسر وايجاز واختصار ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه في بيت جعفر ابن علبة الوارد في باب الحماسة وهو :

هَوَايَ مَعَ الرَّكْبِ اليَمَانِين مُصْعِدٌ   جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ

فقد بدأ بتوضيح علة وجود البيت في باب الحماسة ، مع ما ينطوي عليه من نسيب فقال : « هذا موضعه باب النسيب ، وانما وضع ها هنا ، لأن فيه معنى الفخر بالنجدة ، يريد أنه رابط الجأش لا يهوله ما مني به من الحبس ، وما يرقبه من القتل » . ثم انتقل فوضح الدافع النفسي إلى قول هذا الشعر فقال : « رأى صاحبته

---

(١) ينظر اللوحة الأولى من نسخة المايكروفيلم المصورة بدار الكتب المصريّة .

(٢) المصدر السابق اللوحة الثانية .

وهو محبوس بدم العقيلي زارته في نسوة فلما خرجت تبعتها نفسه وانتبه فقال هذا الشعر » . ثم مضى يفسّر الألفاظ التي اشتمل عليها البيت من خلال وضعها في السياق لا من خلال كونها مفردة مجردة ، سالكاً في ذلك سبيل الاختصار والايجاز قال : « الركب أصحاب الابل الواحد راكب ، مصعد أصعد في الجبل ذهب ، جنيب ومجنوب أي لزم الركب لا يبرحهم كأنه مجنوب اليهم ، وجثمان كل شيء جسمه ، موثق قد أوثق بقيد أو قدّ »[1] . .

وهو هنا وفي مواضع كثيرة نراه لا يورد المعنى حيث يستغني عنه بما يفسر من ألفاظ ورأيناه في مواضع أخرى عديدة يكتفي بايراد المعنى مستغنياً به عن شرح الألفاظ وذلك عندما لا تشتمل الأبيات على الغريب ، وذلك في مثل عمله في بيت يزيد بن الحكم الكلابي القائل :

دَفَعْنَاكُمُ بِالقَوْلِ حَتَّى بَطِرْتُمُ   وبالرَّاحِ حَتَّى كَانَ دَفْعُ الأَصَابِعِ

فقد أورد معناه دون حاجة إلى شرح ألفاظه قال : « يقول : نابذتمونا فلِنّا لكم ، واستصلحناكم بالقول فأبيتم ، فصرنا إلى دفعكم بالراح ، يريد مسحناكم كما تمسح الدابة الشموس ، ورفقنا بكم جهدنا ثم صرنا إلى معاناتكم إمّا بلكم وامّا قتال بسلاح ، وأضاف ذلك إلى الأصابع لأنها هي التي تضبط السلاح وتعلمه »[2] .

على أن هذا الشرح فيما يبدو بجانب ركونه إلى المنهج الاختصاري التسهيلي قد أضاف فوائد جمة من خلال المصادر التي اطّلع عليها وبخاصة شرحي أبي رياش وأبي الندى ، وتبدو هذه الفوائد في توضيح بعض القطع التي وردت غفلاً في الحماسة لأصحابها[3] ، وفي جملة من اللمحات النقدية التي جاءت في مواضع من

---

(١) المصدر نفسه اللوحة ١٧ .

(٢) نفسه اللوحة ١٢٠ .

(٣) ينظر مثلاً عمله في نسبة الحماسيّة ٤٨ التي نسبها أبو تمام إلى بعض بني فقعس وقال عنها التبريزي : « قيل إنها لِمُرَّةَ بن عَرَّاءِ الفقعسي فوضّح البياري نسبتها بجلاء » قال : « هي لأبي مرة وهو خالد بن فهر بن مرثد بن نوفل بن نضلة بن حجوان ، فاتك عريض يجني الجنايات فيسلمه قومه إذا طلب » ينظر نسخة المايكروفيلم اللوحة ١٥٧ وينظر شرح التبريزي ١ : ١١٥ .

شرحه في نقد أبيات الحماسة[1]، وهي تدل على أنه كان له باع طيب في مجال نقد الشعر ، ولعل هذا ما دفع الدكتور هاشم الشريف إلى القول بأن شرح البياري يعد من أفضل الشروح[2]، وهو كذلك إذا نظرنا إليه بالنسبة للشروح التي تشترك معه في المنهج الاختصاري التسهيلي، أما بالنسبة للشروح ذات المناهج الأخرى فلا نظن الأمر كذلك ، فشرح المرزوقي ذو المنهج الابداعي الفني وشرح الطبرسي ذو المنهج الانتخابي يتفوقان عليه في كثير من النواحي ، بالرغم من إفادة الثاني منه ، وعدم إفادة الأول من شرحي أبي رياش وأبي الندى اللذين أفاد منهما البياري .

تلك هي مناهج الشراح الذين وصلت إلينا شروحهم ، وهذا هو عملنا في تطبيقها من خلال النظرة الموازنة بينما طرحوه من شرح للشعر في عناصره المختلفة ، حاولنا فيه أن نعطي كلّ شارح حقه ، ما له وما عليه ، مراعين في ذلك غايات الشراح ، والمؤثرات التي تسلّطت عليهم أثناء عملية الشرح فأثرت في مسارهم الذي سلكوه في أعمالهم .

بيد أن هذا إن كان قد تحقق لنا في شروح وصلت إلينا كاملة ، ومثّلت الفترة الزمنية التي حددناها لعملنا ، فان هناك شروحاً أخرى تدخل في مدار عملنا لم تصل إلينا كاملة ، وانما وصل بعضها مختصراً أو في صورة نقولات في شروح أخرى أو وصلت إلينا ولكن في صورة عمل ينأى عن سائر المقومات والصفات التي حددناها لمناهج الشراح فيما سبق ، ومن هنا كانت غير واضحة المعالم في مناهجها ، وكان من المتعذّر دراستها تحت المناهج الخمسة التي درسناها في القسم من البحث ، وطبّقنا عليها أعمال الشراح . ولهذا اقتضت طبيعة العمل فيها أن ندرسها وحدات قائمة لذاتها محاولين استنطاق ما جاء إلينا منها لمعرفة مسار أصحابها في عمليّة شرح الشعر .

---

(١) ينظر مثلاً نقده لبيت قبيصة بن النصراني الذي يقول فيه :

أُحَدِّثُ مَنْ لاَقَيْتُ يَوْماً بلاءه وَهُمْ يحسِبُوني أَنَّني غَيْرُ صَادِقِ

وذلك في اللوحة ١٧٦ من النسخة ، وينظر كذلك عمله فيما نقله عنه الراوندي في شرحه المخطوط رقم الورقة ٢٤٢ .

(٢) ينظر مخطوطة تحقيقه لشرح الأعلم الشنتمري المحفوظة بمكتبة جامعة لندن ١ : ٨٠ .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر ان دراستنا لمناهج الشراح وتطبيقها ، وكذلك دراستنا لهذه الشروح غير واضحة المنهج قد كشفت لنا في مجموعها عن ظواهر عامة في عملية شرح الشعر ، فاقتضى عملنا ذو النظرة الموازنة في المناهج والتطبيق أن نعرض لهذه الظواهر بالدراسة وأن نكشف من خلال بحثنا فيها عما بدا لنا من آراء ، وهي آراء لا تمس شرح الشعر في الحماسة فحسب بل تمس شرح الشعر القديم بعامة .

ومن أجل هذا رأينا أن يقوم قسم ثالث من هذا البحث نعقده في فصلين : فصل نعالج فيه هذه الشروح التي نوهنا بها سالفاً ، والتي هي غير واضحة المعالم في مناهجها ، وتحتاج إلى دراسة جزئية لا كليّة . وفصل نعالج فيه هذه الظواهر التي بدت لنا في أعمال الشراح ذوي المناهج الواضحة وغير الواضحة ، وهذا ما نحاوله في القسم الثالث ان شاء الله .

القسم الثالث

١ - شروح غير واضحة المنهج

٢ - ظواهر عامة في أعمال الشراح

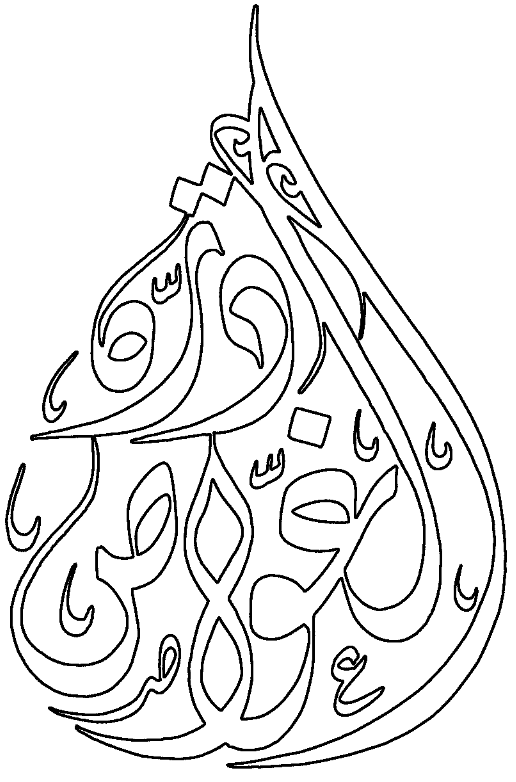

الفصل الأول

شروح غير واضحة المنهج

١) شرح أبي الفتوح ثابت الجرجاني :[١]

هذا الشرح وصل إلينا كاملاً كما بيّنا في ثبت شروح الحماسة ، غير أنه ليس واضحاً في منهجه، ويبدو أن صاحبه قد قصد به رواية متن الحماسة التي أخذها عن عبد السلام البصري[٢] أكثر من قصده إلى عمل شرح على الشعر ، فقد جاء في مقدمته « قرأت هذا الكتاب ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة على الشيخ أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري ، وقال لي : قرأته على أبي رياش أحمد بن هاشم بن شبل القيسي الربعي ـ رحمه الله ـ بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة ، وقال : أنشدنا أبو المطرف الأنطاكي قال : أنشدنا أبو تمام حبيب بن أوس لبعض شعراء بلعنبر »[٣] .

وهي رواية لها قيمتها من حيث أن السند فيها بين أبي تمّام صاحب الاختيار والجرجاني صاحب الكتاب لا يتجاوز ثلاثة رجال ، كما أن الفترة الزمنيّة بين قراءة

(١) هو أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني من جرجان ، مدينة بفارس بين طبرستان وخراسان ، رحل إلى بغداد ، وأقام بها طالباً ، وروى فيها عن ابن جنى ، وعلي بن عيسى الربعي ، وعبد السلام بن الحسين البصري ، ورحل بعد تمكنه من العلوم إلى الأندلس ، فجال في أقطارها واجتمع بملوكها ، وأملى فيها كتاباً في شرح « الجمل » لأبي القاسم الزجاجي . قال عنه ياقوت كان إماماً في العربية ، متمكناً في علم العرب ، ولد سنة ٣٥٠ هـ وقتل في سنة ٤٣١ هـ بالمغرب على يدي باديس بن حبُّوس أمير صنهاجة لتهمة لحقته عنده . ترجمته في معجم الأدباء ٧ : ١٤٥ وما يليها ، وانباه الرواية ١ : ٢٦٣ وما بعدها ، والصلة لابن بشكوال ١ : ١٢٧ وما يليها ، وبغية الوعاة ١ : ٢٨٢ .

(٢) هو أحد رواة الحماسة ، له ترجمة في الكتاب الثاني .

(٣) ينظر الورقة ٢ من مخطوطة هذا الشرح .

عبد السلام البصري على أبي رياش وقراءة الجرجاني على عبد السلام لم تتعد الثلاثين عاماً . هذا فضلاً عما أشرنا إليه سابقاً من أن أبا رياش والحسن بن بشر الآمدي هما الوحيدان اللذان أخذا الحماسة مشافهة عن أبي المطرف الأنطاكي ، وعن طريقهما وصل اختيار الحماسة إلى جل العلماء الشراح الذين عنوا بشرح الحماسة .

ويتضح لنا من خاتمة الجرجاني في عمله أنه حمل ديوان الحماسة إلى الأندلس ضمن كتب قرأها على الشيوخ في بغداد ، وقام بتصحيحها عليهم ، وأن ديوان الحماسة ظلّ عنده فترة من الزمن حتى أعاد النظر فيه بعمل بعض التعليقات التي تتصل بشرح غريبه وبعض معانيه ، وهذا واضح من قوله في هذه الخاتمة : « تكلفت بتصحيح هذا الكتاب وشرح غريبه ومعانيه بعد طول العهد به ، وهو في الكتب التي قرأتها وصححتها ، ولم آمن أن يقع فيه خلل فان آفة العلم النسيان »[1] .

والحق أنه لم يتكلف فيه شرح كلّ غريبه ، ولا شرح كل ما فيه من معان ، وانما عمله ـ كما بدا لنا ـ مجرد تعليقات في مواضع متفرقة من الاختيار ، جلها في شرح مفردات بعض الأبيات لا كلها ، ويمكن أن نوجز ملاحظات قراءتنا له في الآتي :
أولاً : ان الشرح لا يدل على أن صاحبه قد أفاد من شروح سبقته في الحماسة ، وانما كل ما ورد في هذا الشأن أنه نقل في موضوعين فقط سماعاً عن عبد السلام البصري ذكر فيه قولين لأبي رياش ، أحدهما في شرح اسم الفند الزماني[2] ، والآخر في شرح لفظة « حظباي » الواردة في بيت الفند الذي يقول فيه :

وَلَوْلاَ نَبْلُ عَوْضٍ في حُظُبَّايَ وَأَوْصَالي[3]

أما في غير هذين الموضعين فنحن لا نجد عنده إفادة من شارح للحماسة أو من عالم من علماء اللغة والأدب الذين رأيناهم يترددون كثيراً في أعمال من درسنا شروحهم في تطبيق المناهج الخمسة .

---

(١) ينظر مخطوطة الشرح الورقة ١٢٩ .
(٢) المصدر نفسه الورقة ٢ .
(٣) نفسه الورقة ٣٦ .

ثانياً : أنه كثيراً ما كان يكتفي برواية قطع الاختيار دون أدنى تعليق أو شرح ، فهو مثلاً أورد ثلاث قطع متوالية في باب الحماسة دون أن يعقب عليها بكلمة واحدة[1]. وفي باب النسيب أورد خمس قطع تباعاً دون تعليق[2] ، ووقع ذلك منه في باب الأضياف والمديح فقد أورد أربع قطع متوالية دون أن يعنى بشرح شيء منها[3] . هذا بجانب وجود قطع متفرقة في مختلف الأبواب ، جاءت خالية من أدنى عمل ، وهي كثيرة جداً لا طائل لحصرها وتعدادها ، ويكفي أن تنظر إلى باب مذمة النساء عنده لتجد أنه قد بلغ في روايته سبع عشرة قطعة اشتملت على ستة وستين بيتاً ، كان حظها من تعليقاته اثني عشر سطراً لا غير ، غلبتها المطلقة في شرح المفردات ، وهي خالية تماماً من إيراد أي معنى من معانيها[4] .

ثالثاً : أن تعليقاته على الأبيات كانت موجزة غاية الايجاز ، واقتصرت - كما أشرنا - على شرح الألفاظ فقط ، والأمثلة على ذلك كثيرة يصعب حصرها ، منها على سبيل المثال ما جاء عنه في قطعة عاتكة بنت عبد المطلب التي جاءت في باب الحماسة ، والتي لم يشرح منها سوى بيت واحد هو :

فِيهِ السَّنَوَّرُ والقَنَا والكَبْشُ مُلْتَمِعٌ قِنَاعُهْ

فقد فسّر ألفاظه في إيجاز شديد قال : «السّنور السلاح ، والكبش رئيس القوم ، وملتمع أي لامع ، وقناعه يعني البيضة»[5] .

وكذلك قطعة سلمى الجعفي التي يرثي فيها أخاه ، وهي من ستة أبيات لم يشرح منها سوى ثلاثة ألفاظ فقط ، جاءت في البيت الذي يقول فيه سلمى :

فَتىً كَانَ يُعْطِي السَّيْفَ فِي الرَّوْعِ حَقَّه إذَا ثَوَّبَ الدَّاعِي وَتَشْقَى بِهِ الجُزْرُ

(١) نفسه الورقة ١٥ .

(٢) نفسه الورقة ٨٤ .

(٣) نفسه الورقة ١٠٩ .

(٤) ينظر الأوراق ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٥) المصدر نفسه الورقة ٤٣ .

قال : « الروع الفزع ، وهو هنا الحرب ، وثوّب أشار بثوبه ، والجزر جمع جزور »[1] .

رابعاً : أن عناصر الشرح التي تجلت لنا بوضوح في شروح الشراح ذوي المناهج الخمسة تبدو في هذا الشرح غير واضحة ، ولا يدل العمل فيها على أدنى عناية تذكر ، فعنصر تحديد أوزان الشعر وأضربه وقوافيه لا وجود له ، وكذلك شرح أسماء الشعراء والأعلام . أما أخبار الشعر ومناسباته فلم يقع الاّ في ثلاثة مواضع فقط[2] . وفي عنصر اللغة كان عمله ـ كما ذكرنا ـ مقصوراً على شرح المفردات في إيجاز مبالغ فيه ، وكذلك لم نجد في النحو سوى عمل واحد جاء في بيت دريد بن الصمة الذي يقول فيه :

وَعَبْدَ يَغُوثَ تَحْجُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وَعَزَّ المُصَابُ حَشْوَ قَبْرٍ اِلى قَبْرِ

قال : « يروى بنصب المصاب وبرفعه ، فمن رفعه جعل المصاب فاعل عزّ وجعل حثو قبر إلى قبر بدلاً منه ، ومن نصب عنى به الرجل الذي أصيب »[3] .

ومثل النحو الرواية ، فهي لا تطل علينا في ثنايا الشرح الاّ نادراً ، والحديث فيها يقتصر على الاشارة إلى اختلافها فقط ، مثل بيت سلمى بن ربيعة فقد رواه هكذا :

دَرَّتْ بِأَرْزَاقِ اَلعُفَاةِ مَغَالِقٌ بِيَدَيَّ مِنْ قَمَعِ العِشَارِ الجِلَّةِ

ثم أشار قائلاً : « ويروى دارت »[4] .

أما عنصر المعاني فهو الآخر قليل جداً لا يقاس بأي عمل من أعمال الشراح الآخرين الذين وصلتنا شروحهم . وقد أدى عدم العناية بالمعاني إلى إهمال عنصر البلاغة تماماً . أما النقد فلم نجد له فيه سوى وقفة واحدة لا قيمة لها[5] .

---

(١) نفسه الورقة ٧٣ .

(٢) ينظر الأوراق ٢ ، ١٣ ، ٣١ .

(٣) نفسه الورقة ٤٧ .

(٤) نفسه الورقة ٣٧ ودارت هي رواية التبريزي والمرزوقي وزيد بن علي .

(٥) المصدر نفسه الورقة٥٣ .

وبناءً على كل ما ذكرنا نرى أن هذا الشرح لا يمكن تصنيفه تحت أي منهج من المناهج الخمسة التي عرضناها في القسم الماضي وطبّقنا عليها شروح الشراح ، فليس فيه عمل الابداعيين ولا عمل المتخصصين ، ولا هو ينظر في شروح سبقته ، يجمعها وينتخب منها ، ولا يعمد إلى أعمال السابقين يتتبع مواطن زللها فيصلحها ويقوّمها ، ولا يعنى بجميع العناصر ليعرضها مهذّبة مشذّبة في اختصار وتسهيل ، وانما هو بالتحديد كتاب ضمّ شعر الحماسة مصححاً على يدي صاحبه مرتين ، مرة أثناء قراءته على عبد السلام البصري ، ومرة أخرى حين فكّر في مراجعته وعمل تعليقات عليه في غريبه ومعانيه ، هذا كل ما يظفر به الدارس لهذا العمل الذي سمي شرحاً من باب التجوّز .

٢) شرح أبي رياش بن إبراهيم الشيباني[١] :

هذا الشرح من الشروح المفقودة ـ كما مرّ بنا من قبل ـ ، غير أن نقولات كثيرة وصلتنا منه ، فقد أفاد منه أبوعبدالله النمري في عمله «شرح معاني كتاب الحماسة» الذي وصل إلينا مختصر عنه[٢] ، ونقل عنه زيد بن علي في مواضع مختلفة من شرحه . كما نقل عنه التبريزي نقولات كثيرة جلها في أخبار الشعراء ومناسبات الشعر ، هذا فضلاً عن أن البغدادي في الخزانة كان يورد أخباراً وأقوالاً ينسبها إليه ، الظن أنه أفادها من شرح التبريزي وغيره من شروح الحماسة التي ذكر في مقدمته أنها تحت يده[٣] .

ومن خلال وقوفنا على هذه النقولات يتبينّ لنا أن الرجل كان أخبارياً تاريخياً من الطراز الأول ، اذ أن هذه النقولات جاءت دالة على أن شرحه كان مصبوغاً بصبغة الأخبار أكثر من كونه شرحاً لنصوص الحماسة ، ولهذا رأينا أبا العلاء المعري ينبي

---

(١) له ترجمة في الكتاب الثاني عند مقدمة صاحب الشرح الذي حققناه . وفي هذه الترجمة تحقيق لاسمه الذي جاء مضطرباً في المصادر .

(٢) ينظر ما أوردناه في شأن هذا المختصر في ثبت الشروح في القسم الأول من هذا البحث .

(٣) ينظر مثلاً نقولاته عنه في ٢ : ١٤٥ ، ٣ : ٦٢ ، ٥ : ١١٢ .

عليه شرحه المسمى « الرياشي المصطنعي » قصداً إلى سد ما رآه من نقص فيه[1] .

على أن أبا رياش بجانب هذه الصفة الاخبارية التي غلبت على عمله في الحماسة والتي تجلّت لنا بوضوح في نقولات التبريزي المسهبة عنه فان بعض ما نقله النمري عنه ، وكذلك التبريزي ،قد دلّ على أنه أسهم في خدمة اختيار الحماسة من جوانب متعددة ، ففي مختصر شرح النمري نجد له لمحات في عنصر اللغة وعنصر المعاني ، وفي شرح التبريزي حمدنا له وقفات طيبة في شرح الأعلام الواردة في الحماسة وأسماء شعرائها . وكذلك في تحديد نسبة بعض القطع التي وردت غفلاً في رواية أبي تمام مصدرة بـ « وقال آخر » أو « وقال بعضهم » ، وفي تصحيح ما وهم فيه أبو تمام من نسبة بعض الأشعار إلى غير قائليها . هذا بجانب إثرائه قطع الاختيار بما كان يضيفه إليها من شعر أسقطه أبو تمام في نقده واختياره .

فاذا نظرنا إلى عمله في عنصر اللغة وجدنا النمري ينقل لنا بعض لمحات منه ، وذلك مثل ما جاء عنه في بيت الحماسة القائل :

إِذَا كُنْتُ لاَ أَرْمِي وَتُرْمَى كِنَانَتِي ... تُصِبْ جَائِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِي وَمنْكِبِي

فقد فسرّ أبو رياش ألفاظ هذا البيت بقوله : « الكنانة للنبل كالجعبة للنشاب ، والجائحات المجتاحات ، والكشح أحد جانبي الوشاح ، فسميت الخاصرة كشحاً لوقوعه عليها »[2] .

ومثله ما نقله عنه التبريزي في شرح معنى « الأيهم » قال : « الأيهم الرجل الشجاع ، والأيهمان السيل والجمل الهائج ، ويقال أيضاً السيل والحريق ، وكل هذه معان متقاربة ، ومؤنثة (يهماء) وهي الأرض التي لا يهتدى لها ، كما أن هذه لا يكاد يهتدى لها »[3] .

أما عمله في عنصر المعاني فقد أفاد منه النمري في مواضع بدت في مختصر شرحه

---

(١) ينظر ما ذكرناه في ثبت الشروح عن أبي العلاء وينظر ياقوت في معجم الأدباء ٣ : ١٥٧ .

(٢) ينظر مخطوطة مختصر أبيات الحماسة الورقة ١٩١ .

(٣) ينظر شرح التبريزي ٣ : ١٧٨ .

ليست بالكثيرة ، وانتخب التبريزي شذرات منه ، وهو من خلال ما رأيناه يعرض المعنى في وضوح ويسر ، وذلك مثل عمله في بيت جعفر بن علبة القائل : .

فَقَالُــوا لَنَــا ثِنْتَــانِ لاَ بُدَّ مِنْهُمَا   صُدُورُ رِمَــاحٍ أُشْرِعَــتْ أَوْ سَلاَسِلُ

فقد قال فيه : « يقول : إما أن تحاربوا فنشرع إليكم صدور الرماح وإما أن تستأسروا فنجعلكم في السلاسل كما يفعل بالأسرى »[1] ، فهذا عمل أشبه بنثر البيت ، ومثله ما نقله التبريزي عنه في معنى بيت كبشة أخت عمرو بن معدي كرب الذي تقول فيه :

وَلاَ تَرِدُوا اِلاَّ فُضُــولَ نِسَائِكُمْ   اِذَا ارْتَمَلَــتْ أَعْقَابُهُــنَّ مِنَ الدَّمِ

فقد صوّر معناه بقوله : « تقول : إذا قبلتم الدية فلا تأنفوا بعدها من شيء كما تأنف العرب ، واغشوا نساءكم وهن حيّض ، والفضول ها هنا بقايا الدم وسمي الغشيان ورداً مجازاً »[2].

وربما قدّم لايراد معنى البيت بشرح بعض ألفاظه ودعم ما صوّره من معنى ببعض الشواهد من الشعر ، وذلك على نحو ما نقله النمري في بيت أبي الغول الطهوي القائل :

وَلاَ يَرْعَــوْنَ أَكْنَــافَ الهُوَيْنَا   اِذَا حَلُّــوا وَلاَ أَرْضَ الهُدُونِ

قال : « الهدون السكون ، وأصله أن تجعل المرأة على ولدها شيئاً يثقله في المهد لينام ، يقال هدنته أمه » . ثم أورد تصويره معنى البيت فقال : « يقول : هؤلاء القوم من عزّهم ومنعتهم وشدة جرأتهم لا يرعون النواحي التي أباحتها المسالة ووطّأتها المهادنة ، ولكن يرعون النواحي المتحاماة والأرضين الممتنعة » ثم دعم ذلك بقول أبي النجم[3] :

---

(١) مخطوطة مختصر معاني أبيات الحماسة الورقة ١٧٧ .

(٢) ينظر شرح التبريزي ١ : ١١٨ ، وينظر البغدادي في الخزانة ٦ : ٣٥٩ ، فقد نقل القول نفسه منسوباً اليه .

(٣) أبو النجم هو الفضل بن قدامة من عجل . له ترجمة في الكتاب الثاني من هذا البحث .

تَــبقَّــلَتْ مِــنْ أَوَّلِ الــتَــبَــقُّــلِ   بَــيْنَ رِمَــاحَيْ مَــالِكٍ وَنَهْشَــلِ »[1]

على أن أهم إسهام قدمه أبو رياش في شرحه في خدمة اختيار الحماسة إنما يتضح فيما نقله التبريزي عنه من شرحٍ للأعلام الواردة في الحماسة وتوضيح أسماء بعض شعرائها ، وتصحيح نسبة الشعر فيها ، وهي في مجملها جوانب لها قيمتها في خدمة اختيار الحماسة ، وتدل دلالة واضحة على مدى علم أبي رياش بأنساب العرب وأشعارها وقائلي هذه الأشعار ، إذ نراه في شرح الأعلام الواردة في الحماسة لا يكتفي بتوضيح العلم فحسب بل يورد نسبه وما يتصب به من خبر . ومن أمثلة ذلك ما نقله التبريزي عنه في شرح عامر وجناب الواردين في بيت هلال بن رزين القائل :

وَأَيْقَنَــتْ القَبَائِــلُ مِنَ جَنَابٍ   وَعَامِــرَ أَنْ سَيَمْنَعُهَــا نَصِيرُ

قال في عامر : « يعني عامر الأجدار وهم بطن عظيم من كلب ، وانما لقب بالأجدار لأنه ولد في أصل جدار ، وهو أخو عامر بن صعصعة لأمه » . ثم قال في جناب : « هو جناب بن هبل بن عبد الله بن كلب »[2] .

وفي قطعة الرثاء التي نسبها أبو تمام لآخر والتي مطلعها هذا البيت :

لَوْ كَانَ حَوْضَ حِمَارٍ مَا شَرِبْتَ بِهِ   اِلاَّ بِاذْنِ حِمَارٍ آخِرَ الأَبَدِ

نجد أبا رياش يشرح اسم حمار الوارد في البيت فيقول : « هو علقمة بن النعمان ابن قيس بن عمرو ثعلبة »[3] .

أما في توضيح أسماء الشعراء الذين كان أبو تمام يختصر أسماءهم فقد رأينا لأبي رياش وقفات طيبة في هذا الخصوص ، ففي قطعة النسيب التي صدّرها أبو تمام بقوله : « وقال ابن الطثريّة » وقف أبو رياش فوضح اسمه قال : « اسمه يزيد بن

(١) ينظر مختصر معاني أبيات الحماسة الورقة ١٧٨ .
(٢) ينظر شرح التبريزي ١ : ١٧٨ .
(٣) المصدر السابق ٢ : ١٥٢ .

المنتشر أحد بني عمرو بن سلمة بن غشير ، والطثرية أمه من حي من قضاعة يقال لهم طثر »[1].

وصدّر أبو تمام قطعة في الهجاء بقوله : « وقال عارق الطائي » فوضّح أبو رياش اسمه قال : « اسم عارق قيس بن جروة وانما سمي عارقاً بقوله :

لَئِنْ لَمْ تُغَيِّرْ بَعْضَ مَا قَدْ صَنَعْتُمُ ... لأَنْتَحِيَنْ لِلْعَظْمِ ذُو أَنَا عَارِقُهْ[2]

وترتفع قيمة عمل أبي رياش في الحماسة في تصحيح ما وهم فيه أبو تمام من نسبة بعض قطع الحماسة إلى غير قائليها ، وقد صدر ذلك منه في مواضع منها إحدى منصفات العرب التي روى أبو تمام أبياتاً منها في باب الحماسة ونسبها إلى العديل بن الفرخ العجلي وهي القصيدة التي مطلها :

أَلاَ يَا اسْلَمِي ذَاتَ الدَّمَالِيجِ والعِقْدِ ... وَذَاتَ الثَّنَايَا الغُرِّ والفَاحِمِ الجَعْدِ

صحح أبو رياش هذه النسبة فقال : « ليست هذه الأبيات للعديل وهي قصيدة طويلة لأبي الأخيل العجلي قالها في آخر أيّام بني أميّة » ثم دعم هذا التصحيح بخبر أورده جاء فيه أن أبا الأخيل « وفد على عمر بن هبيرة الفزاري فقيل : إن أبا الأخيل العجلي بالباب يستأذن فقال : إذن والله لا يأذن له غيري ، فقام من مجلسه حتى أتاه على الباب فأخذه بيده وأقعده معه على بساط ثم قال : أنشدني منصفتك فأنشدها إياه فكساه وأعطاه ثلاثين ألفاً »[3] .

وفي قطعة الرثاء التي نسبها أبو تمام إلى امرأة والتي أولها :

أَلا فاقْصِرِي مِنْ دَمْعِ عَيْنَيْكِ لَنْ تَرَيْ ... أَباً مِثْلَهُ تَنْمِي اِلَيْهِ المَفَاخِرُ

أوضح أبو رياش صحة نسبتها وخطأ أبي تمام قال : « الذي عندي أن هذه الأبيات لمحمد بن بشير أحد بني الخارجيّة ، وهم من غزوان بن عمرو بن قيس

---

(١) المصدر نفسه ٣ : ١٦١ .

(٢) نفسه ٤ : ١١ .

(١) نفسه ٢ : ١٢٦ .

عيلان ، يرثي بها أبا عبيدة بن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي »[١] .

وهكذا نجد أن عمل أبي رياش في هذا الجانب كان مفيداً لأنه يدخل في صميم توثيق الشعر ، ولقد بلغت نقولات التبريزي عنه فيه نحو عشرة مواضع ، ولا ندري إن كان هذا هو كل ما صححه أبو رياش من نسبة في شعر الحماسة أو أن هناك مواضع أخرى لم ينقلها التبريزي وغيره من الشراح الذين أفادوا من شرح أبي رياش .

وفي إدراكنا أن أبا رياش من خلال عمله الذي وقفنا على بعض منه في نقولات الشرَّاح المستفيدين من شرحه يبدو شارحاً يغلب على شرحه الجانب الأخباري التاريخي مع قليل عناية ببعض العناصر الأخرى التي عرضنا لها فيما تقدم ، غير أنه يبقى شيء مهم هو أن عناصر أخرى خلا شرحه منها أو لم يصل إلينا شيء منه فيها ، أهمها الرواية والنحو والبلاغة والنقد ، وهي بلا شك عناصر لها دورها البارز في عمليّة شرح الشعر ، هذا فضلاً عن أن النقولات التي وصلت الينا عنه في عنصري اللغة والمعاني لا تبيّن لنا بجلاء مساره فيهما ، ومن أجل هذا كله بدا منهجه في شرح الشعر غير واضح المعالم ، ويغلب ظننا أنه كان ـ من خلال نقولات التبريزي العديدة في أخبار الشعر ومناسباته وما يتصل بها من أنساب وأشعار ـ أخبارياً تاريخياً ، فهو أشبه بأبي عبيدة معمر بن المثنى الذي ذكر الجاحظ أنه عطف عليه ليأخذ منه علم الشعر فوجده « لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب »[٢] .

٣) شرح معاني كتاب الحماسة لأبي عبد الله النمري[٣] :

سبق أن أوضحنا عند إيرادنا لثبت شروح الحماسة أن شرح النمري لا يزال

(١) نفسه ٣ : ٤١ ، وينظر الأغاني ١٤ : ١٥١ وفيها تأكيد لنسبة الشعر إلى محمد بن بشير الخارجي .

(٢) ينظر العمدة لابن رشيق ٢ : ١٠٥ .

(٣) له ترجمة في الكتاب الثاني من هذا البحث .

مفقوداً، وأن ما وصلنا منه ما هو إلا مختصر يحمل عنوان «معاني أبيات الحماسة» كتبه لنفسه رجل يدعى أحمد بن بكر بن أحمد الحاكم وذلك في نحو سنة ٤٢٦ هـ[1]، وهو مختصر إن لم يحقق لنا كلّ ما جاء عن النمري من عمل بحيث يبدو منهجه واضحاً، فانه على الأقل قد أفادنا في استيحاء المعالم التي سلكها في بعض عمله، هذا فضلاً عن أن الناسخ صاحب هذا المختصر قد صدّر مختصره بالمقدمة التي أوردها النمري في صدر شرحه، إذ جاء فيها « قال أبو عبد الله الحسين بن علي النمري - رحمه الله - : هذا شرح معاني كتاب الحماسة وذكر رواياته التي هي في الخط على صورة واحدة، على ائتلاف المعاني واختلافها وايضاح الأمثل والأرذل والمتكافي منها . وكان أبو رياش أحمد بن هاشم القيسي[2] - رحمه الله - أملى علينا أكثر هذا الكتاب، وقرأته بعد عليه، وأنا ذاكر ما أفادنيه منه، وناسبه إليه، كما أنسب كلًّا إلى أهله، وكل ما لم أنسبه في هذا الكتاب فهو خاطر خطر لي لم أسمعه قبل، ولعلّ بعض من تقدّم قد سبقني إليه، فله فضل السبق، ولي فضل الموافقة، ونظرت في الكتاب المعروف بالعارض في الحماسة المنسوب إلى الديمرتي، وهو كتاب شرط فيه تفسير ما يعرف من لفظ ومعنى فخبط خبط عشواء فيها متبعاً ومبتدعاً، وقد ذكرت طرفاً من خطئه وصوابه فيما تعلق بما أوردته من المعاني، وليس الغرض الرد عليه فاستوعب خلله وأسأل الله أن يرشد به ويرشد بنا وهو حسبنا ونعم الوكيل »[3] .

---

(١) لم يشر ناسخ هذا المختصر إلى تاريخ الفراغ من نسخه، ولكن المجلدة التي ضمت هذا المختصر ضمت أيضاً نسخة لمتن الحماسة برواية أبي رياش، وقد كتبها ناسخ المختصر نفسه وقال في آخرها : «كمل كتاب الحماسة على ما روي عن ابي رياش أحمد بن أبي هاشم - رحمه الله - وفرغ من كتبه أحمد بن بكر بن أحمد الحاكم حماه الله يوم الاثنين سلخ ربيع الأولى سنة ست وعشرين وأربع مائة» ثم أورد بعد ذلك المختصر الذي يبدأ من الورقة ١٧٥ وينتهي عند الورقة ٢٣٧ وعلى هذا نرجح أن يكون تاريخ نسخ المتن والمختصر متقارباً إن لم يكن في العام الذي سجله الناسخ في آخر المتن .

(٢) ثمة خلط واضطراب في اسم أبي رياش، فهو في كلام النمري « أحمد بن هاشم » والناسخ يذكره « أحمد بن أبي هاشم »، وهو كما ثبت لدينا أحمد بن إبراهيم وأبو هاشم كنية أبيه . ينظر ترجمتنا له في الكتاب الثاني من هذا البحث .

(٣) ينظر الورقة ١٧٥ من مخطوطة « معاني أبيات الحماسة » المحفوظة بمكتبة كلية الجغرافيا والتاريخ بأنقرة تحت رقم ١٤٣١ .

فواضح من هذه المقدمة أن النمري قد قصد من عمله في الحماسة جانبين أحدهما المعاني والآخر الروايات وأنه في الجانبين معاً كان يسجل ما أفاده فيه شيخه أبو رياش وينسبه إليه .

كما يسجل ما أخذه من العلماء الآخرين وينسبه إليهم ، ثم هو بجانب هذا قد نظر قبل صنعته شرحه في كتاب القاسم الديمرتي ، فهو يعرض له ذاكراً ما أخطأ فيه وما أصاب ، لا في كل ما جاء عنه ، وانما فيما يعرض له أثناء عمله .

ومن هنا فان مصادر شرحه وفق ما جاء في مقدمته ووفق ما خرجنا به من قراءتنا لهذا المختصر تتمثل في أربعة : أولها شيخه أبو رياش الذي أخذ عنه رواية متن الحماسة ، وثانيها : علماء اللغة والأدب السابقين أمثال الأصمعي وابن الأعرابي وعلي بن سليمان الأخفش وأبي زيد الأنصاري وابن السكيت . وقد نقل عن هؤلاء جميعاً في مواضع متفرقة من عمله ، وثالثها : كتاب الديمرتي الذي تعرض له ناقداً معترضاً في مواضع ، ومصوباً مستحسناً في مواضع أخرى ، ورابعها مصادر أخرى لم يسمها وانما كان يشير إليها بعبارات مبهمة مثل « أنشدنا أبو رياش » ثم يقول : « وروى غيره » أو « وروى قوم » ومثل « قال الأصمعي وغيره » أو « قال ثعلب وغيره » أو « وروى الديمرتي وغيره » .

ولقد استطاع النمري أن يوظف في عمله إفاداته من هذه المصادر توظيفاً جيداً لا سيما في جانب الرواية واختلافاتها ، وجانب معاني الشعر وما يتصل به من شرح للغة ، وهو ان كان ينقل ما أفاده فيه أبو رياش وينسبه إليه ، وكذلك ينسب كلّ ما ينقله إلى أهله فانه لم يكن يكتفي بالنقل فحسب كما يفعل أصحاب المنهج الالتزامي النقلي بل كان يورد آراء السابقين ثم يبينّ رأيه فيه ، وربما اختار غيره مما هداه إليه عقله وتفكيره . ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه في بيت سلمى بن ربيعة الضبي القائل :

وَمَنَاخِ نَازِلَةٍ كَفَيْتُ وَفَارِسٍ نَهِلَتْ قَنَاتِي مِنْ مَطَاهُ وَعَلَّتِ

فقد نقل أولاً رأياً لثعلب في البيت قال : « قال ثعلب وغيره : هذا خطأ لأن الفارس لا يقف له حتى ينهل قناته من ظهره ويعلّها » ثم نقل قول شيخه أبي رياش

وهو « يريد أنه أرواها فكأنه سقاها نهلاً وعللاً بما يكون الري » ثم انتهى إلى الوجه الذي رآه فقال : « وعندي فيه وجه آخر ، ألا ترى أنك إذا قلت : نهلت إبلي من بئر فلان بهذا كلام تام ثم تقول وعلّت ، فجائز أن تكون علّت منها أو من غيرها ، وكذا هذا الرجل نهلت قناته من ظهر الفارس ، وعلّت من غـيره ، أي لم يكن بلائـي مقصوراً على طعنة واحدة وهذا واضح »[1] .

وكذلك ما جاء عنه في بيت ابن زيّابة القائل :

إنَّـكَ يَا عَمْـرُو وَتَـرْكَ النَّدَى كَالعَبْـدِ إذْ قَيَّدَ أجْمَالَهُ

فقد نقل عن ابن السكيت معنى له قال : « قال ابن السكيت : أنت كالعبد اقتصر على موضع يرعى به ولا يتعزب بابله » ولكنه لم يأخذ بهذا المعنى الذي عرضه ابن السكيت على ظاهر اللفظ ، وانما أورد للبيت معنى آخر قال : « عندي أنه غير ممتنع أن قوله : « وترك الندى » معناه أنك وبخلك ، فان من ترك الندى فقد أخذ البخل يقول : انك وبخلك وحبسك مالك كالعبد قيّد أجماله فلا يبرحه منها بعير وكذلك أنت قيّدت مالك فلا يبرحك »[2] .

فهذان المثالان وغيرهما مما جاء في عمل النمري ينأيان به عن المنهج الالتزامي النقلي الذي رأينا أن من أهم صفاته عرض آراء السابقين بلا أدنى تدخل وبلا مساس لجوهر القول أو الرأي ولم يكن النمري بهذه الصفة بل كان يعرض رأي غـيره ثم يعرض رأيه المخالف له ، صحيح أنه لم يكن يصرح باعتراضه على ما يعرضه من آراء السابقين ، ولكن إيراده رأيه في ذيل ما يعرضه لهم يدل ضمناً على أنه يريدُ من قارئه أن يأخذ به . إن السمة الوحيدة في عمله التي تشبه سمات المنهج الالتزامي النقلي تتمثل في أنه كان ينسب الأقوال إلى أصحابها ، وهي سمـة تعـد من أخص سمات هذا المنهج ، على نحو ما نوّهنا به من قبل حين عرضنا لمناهج شراح الشعر بالمناقشة والتوضيح .

---

(١) المصدر السابق الورقة ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه الورقة ١٨٣ .

واذا كان النمري في جل عمله لا يتصف بمنهج الالتزاميين النقليين فانه في تعرضه للقاسم الديمرتي لم يكن ذا منهج تتبعي تقويمي ، لأن أصحاب المنهج التتبعي التقويمي ـ كما رأيناهم من خلال شرح منهجهم وتطبيقه ـ كانوا يبنون كتبهم في المقام الأول على تتبع كتب السابقين من خلال ما فيها من زلاّت وأخطاء يعرضونها ويبينون وجه الصواب فيها ، يفعلون ذلك ضاربين صفحاً عن الصحيح الذي ضمته هذه الكتب فلا يذكرونه البتة . أما النمري فلم يقم كتابه على هذا الأساس ، وانما أقامه على شرح معاني شعر الحماسة وذكر رواياته . هذا من جهة ومن جهة أخرى انه لم يتبع الديمرتي في كل خطأ وقع فيه ، وهذا ظاهر من قوله في مقدمته : « وليس الغرض الرد عليه فأستوعب خلله » هذا فضلاً عن أنه لم يقصر جهده على الأخطاء وحدها ، على نحو ما رأينا في تطبيق هذا المنهج على أبي هلال العسكري وأبي محمد الأعرابي ، وانما كان يذكر مواضع الصواب أيضاً ، ولا أدل على ذلك من هذا المثال الذي جاء في بيت الحماسة القائل :

إِذَا كُنْتُ لاَ أَرْمِي وَتُرْمَى كِنَانَتِي ... تُصِبْ جَائِحَاتُ النَّبْلِ كَشْحِي وَمَنْكِي

فقد أثبت النمري روايته على هذا النحو وهي رواية شيخه أبي رياش الذي نقلنا شرحه للبيت فيما سبق[1] ، ولكنه أشار إلى رواية أخرى للديمرتي فقال : « وفي كتاب الديمرتي « جانحات النبل » بالنون أي كاسرات الأجنحة » ثم عقب مستحسناً هذه الرواية مفضّلاً إياها على رواية شيخه التي أثبتها قال : « وهذه الرواية أحب إليّ ، فانه قلّما يقال : رماه بسهم فاجتاحه ، على تلك الرواية ، ومعنى جانحات عندي ما جنح منها إليه أي مال »[2] .

كذلك لا يبدو من عمل النمري أنه كان في منهجه تجميعياً انتخابياً على نحو ما رأينا عند التبريزي وأضرابه ، ولا علمياً تخصصياً مثل ابن جني وغيره من ذوي المنهج العلمي التخصصي ، كما أنه لا يبدو من شرحه اختصارياً تسهيلياً يسلك سبيل أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي الذين يعرضون عناصر الشرح في سهولة

(١) ينظر شرح أبي رياش لهذا البيت في دراستنا السابقة له وقد نقلناه من هذا المختصر .
(٢) ينظر مخطوطة المختصر الورقة ١٩١ .

ويسر ، وانما كان الرجل مثل شيخه أبي رياش .ولكن من جهة أخرى ، فقد رأينا أبا رياش قد قصر جلّ جهده على أخبار الشعراء ومناسبات الشعر وما يتصل بها من أيام وأنساب . أما النمري فقد بينّ في مقدمته أنه يقصر جهده على معاني الشعر وعلى رواياته ، بيد أن شرح معاني الشعر يقتضي شرح ألفاظ الشعر وتراكيبه ، وهذان ـ أي الألفاظ والتراكيب ـ يقتضيان اللغة من جانب والنحو من جانب آخر ، واللغة واضحة في عمله الذي دلّ عليه هذا المختصر ، أما النحو فاننا لم نجد له فيه عملاً يذكر سوى إشارات طفيفة لا تدل على شيء(١) . وكذلك الأمر بالنسبة لعنصريّ البلاغة والنقد إذ أن عمله في البلاغة لا يتجاوز اللمحات المتناثرة التي جاءت منصبة في التشبيه والاستعارة(٢) لا يعدوهما إلى الألوان البلاغيّة الأخرى . أما عمله في نقد أشعار الحماسة فلا وجود له مطلقاً ، فهو بهذا ليس كأصحاب المنهج الفني الابداعي الذين رأيناهم في عمل المرزوقي يوظفون اللغة والنحو والبلاغة والنقد وغيرها من عناصر الشرح توظيفاً فنياً محكماً أثناء عملية الشرح .

كذلك ليس في هذا المختصر ما يدل على عنايته بعنصر الأخبار التاريخية ومناسبات الشعر إلا في مواضع ضئيلة ، ويبدو أنه لما رأى شيخه أبا رياش قد وفّ هذا الجانب حقّه وزاد فيه زيادة لا تدع لقائل مقالاً صرف نظره عنه إلا ما كانت الحاجة تدعو إليه في توضيح المعنى فيذكره عن شيخه ، وذلك في مثل بيت الشدّاخ ابن يعمر الكناني الذي يقول فيه :

القَوْمُ أَمْثَالُكُمْ لَهُمْ شَعَرٌ فِي الرَّأْسِ لاَ يُنْشَرُونَ اِنْ قُتِلوا

وهو من الأبيات التي لا يظهر معناها إلا بذكر قصتها ، ولذا نراه يلجأ إلى شيخه أبي رياش في ذكر قصته فيقول : « وجدت بخط أبي رياش ـ رحمه الله ـ حضر الشدّاخ بعض الحروب فراح اليه أصحابه يوماً فقالوا : قتلنا فلاناً وفلاناً ، وقتل منا فلان وفلان ، وعدوا من قتلوه فقال أصحاب الشدّاخ :فأين فلان وفلان وعدوا من

---

(١) ينظر مثلاً الورقة ٢١٠ من مخطوطة المختصر فقد وقف عند تركيب « أن الرزيئة ما أولاك » في بيت حزاز بن عمرو فقال : « ما ها هنا صلة » .

(٢) ينظر مثلاً الأوراق ١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢٢٣ من المصدر نفسه .

زعموا أنهم قتلوه فقال بعض القوم : نحن فلان وفلان ، فقال الشداخ : أما زعمتم أنكم قتلتموه ؟ قال : إنا نقاتلهم ليلاً وينشرون صباحاً فقال الشدّاخ : القوم أمثالكم . . . . . البيت »[1] .

وثمة عنصران لا وجود لهما في هذا المختصر أحدهما يتصل بشرح أسماء الشعراء والأعلام الواردة في الحماسة ، والآخر يتصل بأوزان الشعر وأضربه وقوافيه . واذا كنا قد أشرنا في عمل المرزوقي إلى أن تحديد أوزان الشعر وقوافيه يعد من العناصر التي لم تبرز لدى شراح القرن الرابع الهجري الذي منه أبو عبد الله النمري فان شرح أسماء الشعراء والأعلام الواردة في الحماسة قد كان له وجود لدى شراح هذا القرن ، ولقد رأينا لشيخه أبي رياش نصيباً من عمل فيه ، ولا تفسير لخلو عمل النمري منه سوى أنه لم يوله اهتمامه ، أو أن هذا المختصر لم يضم النصوص التي اشتملت على جهده فيه .

كذلك لا نجد في هذا المختصر ما يشير إلى أن النمري قد عني بنسبة أشعار الحماسة إلى قائليها أو تصحيح نسبتها مما وهم فيه أبو تمام ، وهو جانب رأينا شيخه أبا رياش يوليه اهتمامه ويحقق فيه عملاً مفيداً ، ولعلّ النمري اكتفى بما حققه فيه شيخه فلم يحاول نقله أو الزيادة عليه ، ولهذا رأينا أبا محمد الأعرابي يأخذ عليه ذلك في أكثر من موضع في كتابه الذي ذكرناه في المنهج التتبعي التقويمي .

وبناء على كل هذا الذي ذكرناه نجد أن عمل النمري الذي رأيناه من خلال هذا المختصر لا يدخل في دائرة واحد من المناهج الخمسة التي حددناها لغلبة شراح الحماسة ، ومن هنا جاءت دراستنا له وحدة قائمة لذاتها .

إن أظهر عمل قدمه النمري لخدمة اختيار الحماسة يبدو ـ كما أشرنا سابقاً ـ في عنصرين : عنصر الرواية وعنصر المعاني ، ففي عنصر الرواية نجد النمري مبدعاً بحق في مناقشته لها ، ويتجلى إبداعه في أنه كان يربط الرواية ما ائتلف منها وما اتفق بالمعنى ، يعرضها ويناقشها على هذا الأساس ، وذلك مثل عمله في بيت أبي الغول الطهوي الذي رواه هكذا :

---

(١) المصدر نفسه الورقة ١٨٧ .

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وَإِنْ هُمْ صَلُوا بالحَرْبِ حِيناً بَعْدَ حِينِ

ثم قال : « ويروى إلاّ بعد حين » ويروى تَبْلَى وَتُبْلَى وكلاهما من البلى « تكون البسالة فاعلة ومفعولة وهي الشجاعة ، وأصله أن يكرّه الرجل وجهه » ثم وضح معنى آخر للفعل » تبلى « قال : وتبلى أيضاً من قولهم بلوت الشيء إذا اختبرته » ثم مضى مناقشاً الروايتين « حيناً بعد حين » و « إلاّ بعد حين » وفق هذين المعنيين قال : فمن جعله من البلى روى « حيناً بعد حين » لا غير ، أي شجاعتهم باقية غير بالية وان تكررت الحرب زماناً بعد زمان ، ومن جعله من الاختبار كانت الروايتان « حيناً بعد حين » و « إلاّ بعد حين » على معنيين أحدهما : أنهم لا تعرف لهم بسالة في الحرب أي لا يعبسون وجوههم فيها إلفا لها واستهانة بها ، والمعنى الآخر انهم لا تعرف لهم بسالة إلاّ بعد حين »[1] .

ومثل ذلك أيضاً ما جاء عنه في رواية بيت أبي عطاء السندي وهو :

ذَكَرْتُكِ والخَطِيُّ يَخْطِرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهِلَتْ مِنَّا المُثَقَّفَةُ السُّمْرُ

فقد فسرّه بقوله : « يقول : ذكرتك في هذه الحالة الفظيعة التي لا يذكر فيها إلا من غلب على القلب ، ولم تشغلني عنك مراس الحرب » ثم عرض لرواية أخرى فقال : «ووجدت في نسخة « وقد نَهِكَتْ وَنُهِكَتْ منا المثقفة » من قولك : رجل منهوك اذا أخذ منه المرض أي تحطمت الرماح بأيدينا » . ثم مضى مفاضلاً بين الروايتين بناء على المعنى فقال : « والأول أحسن ألا ترى أن ذكره لها وهو مطعون أحسن منه وهو طاعن » ثم نظر إلى معنى آخر فقال : « فان أراد بقوله نَهِكَتْ منا أي طعنّا بها إلى أن نهِكَتْ فالمعنى فيه وفي نَهِلَتْ واحد »[2] .

فلا شك أنك تلحظ في هذين المثالين أن النمري كان دقيقاً في نظره إلى الرواية واختلافها من جهة والى المعنى ومراد الشاعر من جهة أخرى . وانه كان يحاول في فنيّة محكمة الربط بين الاثنين معاً في عمله في صورة تشهد له بالابداع .

---

(١) المصدر السابق ، الورقة ١٧٦ .

(٢) نفسه الورقة ١٧٨ .

أما في عنصر المعاني فالحق أن النمري قد قدّم جهداً محموداً في استخلاص معاني النصوص الواردة في الحماسة ، وذلك وفق ما سمعه من السابقين ، ووفق ما خطر له من خواطر فيها ، ولقد لاحظنا له لمحات مشرقة في هذا الخصوص تنم عن فضله وعلمه ، ولقد تجلّت معالجته للمعاني في عدة نواح ، ففي ناحية نراه ينقل الأقوال التي سمعها في المعنى ويفاضل بينها ويضيف إليها ما يكملها ويوضحها ، وذلك مثل عمله في بيت ابن زيّابة القائل :

الرُّمْحُ لاَ أَمْلأُ كَفِّي بِهِ   واللِّبْدُ لاُ أَتْبَعُ تَزْوَالَهُ

فقد نقل في معنى صدره ما سمعه لابن السكيت وهو قوله : « أقاتل بالرمح وغيره واذا اقتصر على الرمح فكأنه قد ملأ يده فشغلها عن غيره » ثم أشار إلى معنى آخر قال : « وقال غيره : معنى لا أملأ كفي به أي أطعن به اختلاساً كقول الآخر[1] :

لَبِيقاً بِتَصرِيفِ القَنَاةِ بَنَانِيَا

ثم فاضل بين المعنيين فقال : « والقول قول ابن السكيت » ثم أضاف إليه معنى عجز البيت فقال : « وقوله واللبد لا أتبع تزواله أي أنا فارس فاذا مال اللبد لا أميل معه »[2] .

وفي ناحية أخرى نراه يقدم للمعنى بشرح الألفاظ ثم يعرضه في أسلوب سهل واضح ، فاذا عرضه عمد إلى توضيح ما يؤكده ويقوّيه ، ومن أمثلة ذلك ما جاء عنه في بيت زميل بن أبير الوارد في باب الهجاء وهو :

وَلَسْتُ بِرَبْلٍ مِثْلِكَ احتَمَلَتْ بِهِ   حَصَانٌ نَأَتْ عَنْ فَحْلِهَا وَهْيَ حَائِلُ

فقد بدأ عمله فيه بشرح الألفاظ قال : « الربل ضروب من النبات تتقطر بالورق من غير مطر ، وانما يكون ذلك عند طلوع سهيل من برد السحر ، والجمع

---

(١) هو عبد يغوث بن صلاءة الحارثي وصدر بيته :
وَكُنْتُ إِذَا مَا الخَيْلُ شَمَّصَهَا القَنَا

(٢) مخطوطة معاني أبيات الحماسة الورقة ١٨٢ .

ربول ، وقد تربلت الأرض ، والحصان المرأة العفيفة ، وفحلها بعلها ، والحائل التي لم تحمل ، ونأت بعدت ، وأراد بالنأي الطلاق فكنى عنه » ثم عرض المعنى في إيجاز ويسر قال : « يقول : ولدتك أمك من غير ذكر كالربل الذي ينبت من غير مطر » ثم انطلق يؤكد هذا المعنى الذي قرره بشرح ما استوحاه من ألفاظ الشاعر فقال : « وصف أمه بالحصن وهو العفاف ليؤكد أنها لم تزن ،ليؤكد أنه ولد من غير والد كبيضة التراب ، وذكر أيضاً أنّ أمه طلقت وهي حائل غير حامل تأييداً لذلك لئلا يلحق بالرجل الذي كانت أمه تحته قبل »(١) .

وفي ناحية ثالثة نراه يجزّىء عرض المعنى محاولاً إبرازه من خلال هذه التجزئة ، وغالباً ما يقع منه ذلك في البيت ذي التقليدين ،الذي يشتمل على معنيين كل معنى قائم لذاته ، وذلك مثل قول ابن زيّابة :

وَالـدِّرْعُ لاَ أَبْغِـي بِهَـا ثَرْوَةً كُلُّ امْـرِىءٍ مُسْتَـودَعٌ مَالَهُ

فقد بدأ بمعنى جزئه الأول وهو الصدر قال : « الثروة والثراء كثرة المال يقول : لا أبع الدرع وان أرغبت فيها » ثم انتقل الى معنى العجز فقال : « وقوله مستودع ماله أي ماله الذي يملكه وديعة عنده يسترجع ، ويكون ماله واحد الأموال ، وهذا كقولك الأموال عواريّ ، ومثله قوله : عز وجل : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »(٢) . يقول : فعلام أبيع درعي بمال لا يبقى ولا أبقى عليه وانما هو وديعة ؟ » ثم رجع إلى الصدر مرة أخرى فذكر رواية فيه وشرح المعنى بناء عليها قال : « ويروى لا أبغي بها نثرة » والنثرة الدرع يقول : درعي لا أبغي بها درعاً ، أي قد جربتها وأحمدتها فهذا كقولك : ما أريد بأهلي أهلاً ولا بسيفي سيفاً »(٣) .

وفي ناحية رابعة نراه مفتوناً بعرض المعاني في أكثر من وجه ، يعرض الأوجه محاولاً أن يدعم كلّ واحد منها بما قيل في معناه من شعر وذلك مثل عمله في تحليل

---

(١) المصدر نفسه الورقة ٢٢١ .
(٢) سورة الحديد الآية ٧ .
(٣) مخطوطة معاني أبيات الحماسة الورقة ١٨٢ .

هذا البيت الذي نسبه أبو تمام لبعض بني قيس بن ثعلبة ، وقيل : هو لبشامة بن حزن النهشلي وهو :

بِيضٌ مَفارِقُنَا تَغْلِي مَرَاجِلُنَا ... نأسو بِأَمْوالِنَا آثارَ أَيْدِينَا

فقد بدأ بعرض المعاني التي سمعها ممن سبقه في قوله : «بيض مفارقنا» ثم قال : « ولاح لي في هذا البيت ثلاثة أوجه لم أسمعها فيه من قبل ، أحدها أن العرب تزعم أن الكرام تشيب مفارقها ومقادم رؤوسها أول شيء ، وان اللئام تشيب مآخر رؤوسها قبل مفارقها » ودعم هذا المعنى بما أنشده ابن الأعرابي من قول القائل :

وَشَيَّبْتَ مَشِيبَ العَبْدِ فِي نُقْرَةِ القَفَا ... وَشَيْبُ كِرَامِ النَّاسِ فَوْقَ المَفَارِقِ

ثم أورد الوجه الثاني فقال : « والمعنى الثاني أن تكون المفارق ها هنا مفارق الطرق والواحد مفرق فيقول : الطرق إلينا بيض واضحة لكثرة من يغشانا من ضيف ومسترفد ومستنجد » ودعم هذا بقول أحدهم يصف طريقاً :

يَرْكَبْنَ عَوْداً وَاضِحَ السَّلائِقِ ... أَبْيَضَ خَرَّاجاً مِنَ المَضَائِقِ

ثم عرض الوجه الثالث فقال : « والمعنى الثالث أن العرب إذا أسرت الرجل وأرادت المنّة عليه جزّت ناصيته وأطلقته فيقول : نحن لن نؤسر فتجز نواصينا فتدنس مفارقنا لقربها من النواصي ، ودعم هذا المعنى بقول الخنساء :

جَزَزْنَا نَوَاصِيَ فُرْسَانِهِمْ ... وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنْ لَنْ تُجَزَّا(١)

واذا كان أبو عبد الله النمري قد قصر جهده على الرواية وعلى معاني الشعر فان تعرضه للقاسم الديمرتي كان من خلال هذين الجانبين فهو في ثنايا عمله في روايات النص يعرض لما اعتمده الديمرتي في متنه مستحسناً تارة - كما رأينا فيما سبق - ومنتقداً تارة أخرى ، وذلك كما في بيت زويهر بن الحارث فقد أثبت روايته هكذا :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ فَارَقْتُ مُؤْثِراً ... أَتَانِي صَرِيحُ المَوْتِ لَوْ أَنَّهُ قَتَلْ

---

(١) المصدر نفسه الورقة ١٨١ .

وفسرّه على هذه الرواية ثم قال : « وروى الديمرتي وغيره « أتاني صريخ الموت » بالخاء معجمة وهو داعيه .ثم انتقد الرواية والتفسير معاً قال : « وهذا تصحيف في الحرف وخطأ في تفسيره ، فان الصريح هو المغيث والمستغيث ، ذكر ذلك في الأضداد ولا وجه لهما ها هنا إلاّ على تكلّف »[١] .

وكذلك كان شأنه حين يعرض للديمرتي في جانب المعاني ومن أمثلته ما جاء في بيت تأبط شراً :

أَقُولُ لِلِحْيَانٍ وَقَدْ صَفِرَتْ لَهُمْ   وِطَابِي وَيَوْمِي ضَيِّقُ الجُحْرِ مُعْوِرُ

وكان الديمرتي قد فسرّ معنى قوله : « وقد صفرت لهم وطابي » بأنه أراد خلت نفسي من ودهم ، فانتقده النمري بقوله : « هذا خطأ فاحش ومتى ودّ تأبط شراً لحيان وهو أبداً يغير عليها وينال منها »[٢] .

والحق أن النمري في شرحه معاني كتاب الحماسة قد استطاع أن يقدم عملاً طيباً في عنصري الرواية والمعنى أفاد منه جل الشراح الذين جاءوا بعده ، غير أنه في جانب المعاني كان أحياناً يفسرّ المعنى على ظاهر الألفاظ الواردة في النص دون أن يسبر غورها ويصل إلى أبعادها وما تدل عليه من إيحاءات ، وهذا ما جعل أبا محمد الأعرابي يتصدى له بالنقد والتجريح فيما كان يقع فيه من هذه السبيل ، وقد بينا ذلك عندما عرضنا لعمل أبي محمد الأعرابي في تطبيق المنهج التتبعي التقويمي ، فلا مجال لتكراره هنا .

٤) شرح أبي هلال العسكري :[١]

كنّا قد أوضحنا فيما سبق أنّ لأبي هلال عملين في الحماسة أحدهما ما درسناه في المنهج التتبعي التقويمي ، وهو رسالته « ضبط مواضع من الحماسة » والآخر شرحه

---

(١) نفسه الورقة ٢٠٩ .

(٢) نفسه الورقة ١٧٩ .

للحماسة، الذي أفادت عنه جملة من المصادر[٢]، وهو مفقود لم يهتد إلى مكانه حتى الآن ، غير أنّ التبريزي نقل عنه نقولات عديدة ، فقد كان من الشروح التي اعتمد عليها في صنعة شرحه ذي المنهج التجميعي الانتخابي ، كما أن البغدادي قد أفاد منه في عدة مواضع من الخزانة وترجم لأبي هلال وذكر شرحه هذا الذي نحن بصدده[٣] . ولقد ظن بعض الدارسين أن رسالته السالفة الذكر هي نفسها شرحه الذي أشارت إليه المصادر ، غير أن ما جاء في هذه الرسالة ـ وكما وضحنا من قبل ـ يختلف تماماً عن هذه النقولات التي حفظها لنا التبريزي في شرحه والبغدادي في خزانته[٤] .

وهذه النقولات وان كانت غير كافية في أن توضح لنا منهج الرجل بوضوح ، فانها يمكن أن تدلنا على بعض الملامح التي نستطيع في ضوئها استكشاف عمله في عناصر شرح الشعر في حدود القدر الذي سمحت به هذه النقولات .

ولعلّ أظهر عنصر دلت عليه هذه النقولات وبدت فيه عناية واضحة من أبي هلال هو عنصر النقد ، وهذا في رأينا يرجع إلى أن التبريزي الذي جعلنا نتصل بهذا الجانب من عمل أبي هلال ، كان قد جعل شرح أبي هلال المعوّل الأول الذي يرجع إليه في سدّ هذا العنصر من شرحه الانتخابي ، كما يرجع إلى أن أبا هلال كان أحد النقاد البارزين الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري ، وكتابه الموسوم بالصناعتين خير شاهد على هذا ، فضلاً عن شهادة بعض أهل العلم له بالتقدم في نقد الشعر وتقويمه ، فقد نقل لنا صاحب الخزانة رأياً لأبي محمد بن الخشاب[١] يفيد فيه بأنه « لم يجر في سنن الفرزدق في التعجرف في شعره بالتقديم والتأخير المخل بمعانيه

(١) سبق أن ترجمنا له عند دراستنا لرسالته « ضبط مواضع من الحماسة » في الفصل الرابع من القسم الثاني .

(٢) ينظر في شأن هذه المصادر هامش الثبت الذي أوردناه لشروح الحماسة في القسم الأول .

(٣) خزانة الأدب ١ : ٢٣٠ .

(٤) ينظر شرح الأعلم الشنتمري دراسة وتحقيق ، د . هاشم الشريف ١ : ٧٨ .

والتقدير المشكل الاّ المتنبيء ، ولذلك مالّ إليه أبو علي وابن جني لأنه يوافق صناعتهما ، ولا ينفع شهادة أبي علي له بالشعر لأن أبا علي معرب لا نقّاد ، وانما ينفعه شهادة مثل العسكريين(٢) وأبي القاسم الآمدي ، فانهم أئمة يقتدى بهم في نقد الاعراب »(٣) .

ولهذا فلا غرابة أن نجد أبا هلال يعني بهذا الجانب في شرحه للحماسة ، وهو فيه يسير وفق اتجاهين : اتجاه ينقد فيه الروايات ، واتجاه ينقد فيه الأشعار التي ضمّها اختيار الحماسة ، وفي المسارين معاً كان ينظر إلى اللغة وما تؤديه من معان ، وينظر إلى المعاني نفسها من حيث صحتها وجودتها ، أو من حيث فسادها ورداءتها .

ففي جانب نقد الرواية مثلاً نجده في بيت الرثاء الذي جاء في قطعة لعبدة بن الطبيب وقد روى هكذا :

تَحِيَّةَ مَنْ غَادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى إذَا زَارَ عَنْ شَحْطٍ بلادَكَ سَلَّمَا

ينتقد رواية « غرض الردى » فيقول : « غرض الردى بالغين معجمة أي هدف الردى صباح مساء ، وهذه صفة لجميع الناس ، وليس فيه تخصيص لأحد ، والجيد « عرض الردى » بالعين غير المعجمة من قولهم : فلان بعرض الأمر أي بحيث يناله ولا يخطئه ، واذا كان كذلك عاش عيشة نكدة لتوقعه له لأنه بصدده ، أي جعله

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد الخشاب النحوي البغدادي كان فيما ذكر القفطي أديباً فاضلاً له معرفة بالنحو والعربيّة والشعر ، أقرأ الناس مدة ببغداد وتخرج به جماعة في علم النحو . توفي سنة ٥٦٧هـ . ترجمته في معجم الأدباء ١٢ : ٤٧ وما بعدها ، وانباه الرواة ٢ : ٩٩ وما بعدها ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٦٧ وما يليها . وله ذكر في كتب التاريخ وبعض كتب الطبقات .

(٢) يعني أبا هلال العسكري وشيخه أبا أحمد العسكري ، وقد ترجمنا لأبي أحمد في الكتاب الثاني .

(٣) خزانة الأدب ٥ : ١٤٥ .

هذا الميت معرّضاً للأعداء ينالونه كيف يريدون »[1] .

فهو هنا قد نظر إلى مدلول لفظتي « غرض » و« عرض » واتساق هذا المدلول مع المعنى الذي رمى إليه الشاعر ، فالألفاظ وما تدل عليه من معان واتفاق هذه المعاني وتجانسها مع المضمون الكلي للبيت وقيمته هي قوام عمل أبي هلال في نقده ، ولهذا نراه في نقده للرواية غالباً ما يفسرّ أولاً حروفها وفق ما هو مستعمل عند العرب ، ثم يبني نقده بالنظر إلى مضمون البيت ، هذا ما لمسناه منه في نقده السابق وما لمسناه في سائر النقولات التي تتصل بنقد الرواية في شرح التبريزي . ومن أمثلته ما جاء عنه في بيت الربيع بن زياد القائل :

يَجِدُ النِّسَاءَ حَواسِراً يَنْدُبْنَهُ يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنَّ بالأَسْحَارِ

فقد ذكر أن هذا البيت يروى « يندبنه بالصبح قبل تبلج الأسحار » ثم نظر إلى مدلول لفظة « الصبح » فقال : يريد بالصبح الحق والأمر الجلي كقوله :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ يَنْطِقُ الصُّبْحُ دُونَنَا وَلَمْ نَرَ كالصُّبْحِ الجَلِيِّ مُبِينَا

ثم انتقل إلى مدلول آخر للفظة يصير الكلام به مستحيلاً قال : « ولو جعل الصبح الوقت المعروف كان الكلام محالاً ، لأن الصبح لا يكون قبل التبلج »[2] .

ومثل ذلك أيضاً ما جاء عنه في بيت الرقاد بن المنذر الذي يقول فيه :

فِدَىً لِفَتَىً أَلْقَى إِليَّ بِرَأْسِهَا تِلاَدِي وَأَهْلِي مِنْ صَدِيقٍ وَجَامِلِ

فقد رواه أبو هلال « من صديق وآبل » ثم نقد الرواية وفق مدلول لفظة « ابل » مع السياق فقال : « كان ينبغي أن يقول من صديق وعدو ، فأما أن يقول من صديق وابل فرديء جداً لأنه جعل الآبل من الأهل » ثم انتقل إلى رواية « فجامل » فنقدها أيضاً بقوله « وان رد الجامل إلى التلاد »[3] فرديء أيضاً لأن قوله

(١) شرح التبريزي ٢ : ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق ٣ : ٢٦ .

(٣) هذا ما ذهب اليه المرزوقي في شرحه ق ٢ : ٥٦٥ ، ونقله عنه التبريزي قال : « قوله من صديق دخل من على طريق التبيين ، فالصديق تفسير الأهل والجامل تفسير التلاد » .

من صديق يحتاج إلى قسم آخر ، والاّ فالكلام مبتر لا خير فيه »[1] .

هذا فيما يتصل بنقد الرواية ، أما نقده لما ورد في الحماسة من أشعار فان معياره فيه لم يخرج عما قلناه سابقاً من نظرته إلى المعنى من حيث الصحة والجودة أو الفساد والرداءة ، نجد ذلك منه في بيت جابر بن رالان السنبسي الوارد في الحماسة وهو :

لَكِنْ تَرَى رَجُـلاً فِي إِثْـرِهِ رَجُلٌ   قَدْ غَادَرَا رَجُـلاً بِالقَـاعِ مُنْجَدِلاَ

فقد قال فيه : « جعل رجلين منهم على رجل واحد وهو وصف رديء لأن من عادتهم أن يجعلوا الرجل يقاوم جماعة وتجاوزوا ذلك إلى أن قال بعضهم : « والجيش باسم أبيهم يستهزم » فجعل ذكر الرجل الواحد هازماً للجيش »[2] .

وهو بجانب نظرته إلى رداءة المعنى وفساده ينظر ـ كما بيّنا سابقاً ـ إلى ألفاظ النص وما تعطيه من مدلول يتسق مع المراد من النص ، وقد دلّ على ذلك في نقده بيت كبد الحصاة العجلي الوارد في باب الرثاء وهو :

أَلاَ هَلَكَ المُكَسِّرُ فاسْتَرَاحَتْ   حَوافِي الخَيْلِ والحَـيُّ الحَرِيدُ

فقد وقف أولاً عند لفظة « حوافي الخيل » وفسرّها بقوله « حوافي الخيل التي كان يحفيها لكثرة غزوه عليها ثم قال : « والجيد هنا «حفيات الخيل» مخففة من حفي يحفى فهو حف إذا احتكّ حافره من كثرة السير» ثم رجع إلى لفظة «حوافي» فقال : والحافي خلاف الفاعل وليس له هنا موضع لأن خيل العرب لم تكن تنعل فيقال ان هذا الرجل كان يحفي خيله لكثرة اشتغاله عن إنعالها أو لغير ذلك من الأسباب »[3] . ولم يكتف أبو هلال بهذا في نقده البيت بل مضى إلى لفظة أخرى هي « الحريد » وفسرّها بقوله : « والحريد المنفرد » ثم بنى نقده على هذا المعنى فقال : « لو لم يقل الحريد كان أجود لأنه لم يغز المنفرد من الأحياء إلاّ لعجزه عن مجتمع الناس » ثم عرض للحريد معنى آخر فقال : « ويجوز أنه أراد بالحريد البعيد ، والمعنى أنه كان

---

(١) شرح التبريزي ٢ : ٦٣ .
(٢) المصدر نفسه ٢ : ٨١ .
(٣) المصدر نفسه ٣ : ٥٣ .

يبعد المغزى والمغار لقوته وكثرة عدده »[1] .

وقد يتجاوز أبو هلال نقد أشعار الحماسة وتقويمها إلى الشعراء أنفسهم وابداء رأي نقدي في شعرهم ومخالفة من سبقه في هذا الخصوص ، وذلك على نحو ما جاء عنه في أشجع بن عمرو السلمي فقد قال فيه : « كان البحتري يقول : إنه يخلي ، ومعنى الاخلاء أنه يأتي بألفاظ حسنة ليس تحتها كبير معنى[2] ، وأنا لست أرى في شعره شيئاً من هذا الجنس »[3] .

وثمة عنصر غير النقد يبدو واضحاً في عمل أبي هلال ، دلّت عليه هذه النقولات التي وصلت الينا عن شرحه وهو عنصر يتصل بتعريف الشعراء وبتوضيح اسم من ورد مبهماً في عمل أبي تمام . وبتصحيح ما وهم فيه أبو تمام من نسبة الشعر إلى غير قائليه ، وهي جوانب لها قيمتها في خدمة اختيار الحماسة ، وقد رأينا ذلك في عمل أبي رياش الذي درسناه فيما سبق ، فأبو هلال كان مثله في تقديم هذه الخدمة الجليلة التي تكشف عن علم وافر بما قالت العرب من أشعار وبشعراء العرب وأنسابهم وقبائلهم ، يبدو هذا واضحاً مما نقله التبريزي عنه .

---

(١) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .

(٢) في تفسيره لمعنى الاخلاء نظر ، ذلك لأني وجدت في إعجاز القرآن للباقلاني أن البحتري قال : « دعاني علي بن الجهم فمضيت إليه فأفضنا في أشعار المحدثين إلى أن ذكرنا شعر أشجع السلمى فقال لي : إنه يخلي ، وأعادها مرات ولم أفهمها وأنفت أن أسأله عن معناها ، فلما انصرفت أفكرت في الكلمة ونظرت في شعره فاذا هو ربما مرت له الأبيات مغسولة ليس فيها بيت رائع ، واذا هو يريد هذا بعينه أن يعمل الأبيات فلا يصيب فيها بيتاً نادراً ، كما أن الرامي إذا رمى برشقه فلم يصب بشيء قيل : قد أخلى » . ينظر اعجاز القرآن ط ـ دار المعارف مصر ص ١١٥ .

وفي ادراكنا أن تفسير أبي هلال لمعنى الاخلاء يقوم على نظرية الفصل بين اللفظ والمعنى ، وهي النظرية التي انتقدها عبد القاهر الجرجاني ، كما هو معلوم ، ولا أظن البحتري وعلى بن الجهم وهما شاعران مطبوعان يذهبان في نقدهما لأشجع هذا المذهب الذي ذهب إليه أبو هلال في معنى الاخلاء ، ولهذا كان أبو هلال محقاً في اعتراضه على البحتري لأنه فسر الاخلاء على غير ما فهمه البحتري ، ولو نظر إليه نظرة البحتري لربما اتفق معه في الرأي .

(٣) شرح التبريزي ٢ : ١٦٩ .

ففي جانب تعريف الشعراء نراه يذكر لنا الشاعر وبعض ما عرف به ، وذلك مثل تعريفه لعنترة بن الأخرس المعني فقد قال فيه : « يعرف بعنترة بن عكبرة ، وعكبرة أمه ، وبها يعرف ، وهو شاعر فارس مشهور »[١] .

وكذلك مثل تعريفه بالشاعر « القطامي » وكذا أورده أبو تمام في الحماسة بدون ذكر لاسمه ، فعرفه أبو هلال قال : « اسمه عمير بن شييم بن عمرو بن عباد » وأوصل نسبه إلى تغلب ثم قال : « كان فحلاً رقيق الحواشي كثير الأمثال » واستشهد من شعره بثلاثة أبيات تدل على ما قاله فيه :

وَالنَّاسُ اِنْ يَلْقَ خَيْراً قَائِلُونَ لَهُ ... مَا يَشْتَهِي وَلأُمِّ الْمُخْطِيءِ الهَبَلُ

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهُ ... وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ

وَالعَيْشُ لاَعَيْشَ اِلاَّ مَا تَقَرُّبِهِ ... عَينٌ وَلا حَالَ اِلاَّ سَوْفَ تَنْتَقِلُ[٢]

ونراه في بعض المواضع من نقولات التبرزي عنه لا يكتفي بالتعريف بالشاعر فحسب بل يذكر معه من يشاركه في الاسم ، ويبدو أنه كان في هذا مستفيداً من الآمدي في المؤتلف والمختلف ، فقد مرّ بنا أنه أفاد منه في رسالته « ضبط مواضع من الحماسة » في إيراد من اسمه « أبو الطمحان » وهذا يدفعنا إلى القول بأنه اعتمد عليه في هذا الخصوص .

ففي الحماسيّة التي صدّرها أبو تمام بقوله : « وقال عنترة » ولم يزد على ذلك نجد أبا هلال يقف عنده ويقول : « يعني عنترة بن معاوية بن شداد بن قراد » ويورد نسبه إلى عبس بن بغيض ويقول : « وكنيته أبو المغلّس » ثم يضيف قائلاً : « وفي الشعراء جماعة يقال لهم عنترة ، منهم هذا ومنهم عنترة بن عكبرة الطائي وهو عنترة ابن الأخرس ، وقد مرّ ذكره ، ومنهم عنترة بن عروس مولى ثقيف ، وكان مولّداً في بلاد أزد شنوءة، شاعر راجز »[٣] .

---

(١) شرح التبريزي ١ : ١١٩ .

(٢) نفسه ١ : ١٨١ . وفي الشعر والشعراء « والناس من يلق خيراً » .

(٣) المصدر نفسه ١ : ٢١٨ .

وقد فعل ذلك في قطعة الحماسة التي نسبها أبو تمام إلى جميل بن معمر العذري قال : « في الشعراء ثلاثة يدعون جميلاً منهم جميل بن عبد الله بن معمر ويكنى أبا عمرو . . . وهو قائل هذا الشعر الذي أنشده أبو تمام ، وجميل بن المعلى أحد بني عميرة بن جويّة بن لوذان بن ثعلب بن عدي من فزارة ، وجميل بن سيدان الأسدي » وقد أورد لكل من ابن المعلى وابن سيدان شعراً[1] .

ويتصل بتعريف الشعراء جانب آخر هو أنه كان يوضح نسبة بعض القطع التي كان أبو تمام يوردها مبهمة مصدرة بـ « وقال آخر » أو « وقال بعضهم » فكان أبو هلال يجلو هذا الابهام الذي خلفه أبو تمام في عمله ، ومن أمثلته ما جاء عنه في الحماسيّة التي مطلعها :

اللــؤم أَكْرَمُ مِنْ وَبْــرٍ وَوَالِدِهِ وَاللــؤْمُ أَكْبَــرُ مِنْ وَبْــرٍ وَمَــا وَلَدَا

وقد صدّرها أبو تمام بقوله : «وقال آخر » فقال أبو هلال : « لم يذكر أبو تمام اسمه ، واسمه الحكم بن زهرة ، قال الجمحي : زهرة أمه وهو الحكم بن المقداد بن الحكم ، وأورد نسبه إلى فزارة ثم قال : « ويعرف بالحكم الأصم الفزاري »[2] .

وفي القطعة الواردة في باب الأضياف والمديح ، وقد أغفل أبو تمام نسبتها، وقف أبو هلال ونسبها إلى قائلها قال : الشعر لجثامة بن قيس وهو أخو بلعاء بن قيس »[3] .

أما في تصحيح ما وهم فيه أبو تمام من نسبة أشعار إلى غير قائليها فقد أفادت النقولات عنه أنه قد قدّم في شرحه جهداً محموداً في هذا الشأن ، وذلك وفق المصادر التي وقف عليها ووجد فيها من أشعار الحماسة ما كانت النسبة فيها مخالفة لما جاء عند أبي تمام .

---

(١) نفسه ١ : ١٧٠ وينظر ١ : ١٩٧ فيمن اسمه « المثلّم » و٣ : ٤٢ فيمن اسمه « القلاخ » .

(٢) نفسه ١ : ١٣٢ .

(٣) نفسه ٤ : ٨٥ ، وبلعاء بن قيس هو أحد شعراء الحماسة ، له الحماسيّة رقم ٨ من باب الحماسة .

ففي الشعر الذي نسبه أبو تمام إلى الفضل بن الأخضر بن هبيرة الضبي قال أبو هلال : هو للأخضر بن هبيرة بن المنذر ، وأورد نسبه الى ضبة بن أد[1] . وفي حماسيّة أخرى نسبها أبو تمام إلى جريبة بن الأشيم الفقعسي قال أبو هلال : « إن غير أبي تمام رواها لسبرة بن عمرو الفقعسي ، ثم أورد قصتها وقال : « والصحيح أن الخصف بن معبد بن عبد الحرث العجلي هو الذي قال هذا الشعر الذي أنشده أبو تمام ونسبه إلى جريبة بن الأشيم »[2].

وقد كان أبو هلال يشير أحياناً إلى نسبة أخرى غير نسبة أبي تمام ويعزوها إلى مصدرها دون أن يبت في ذلك برأي ، وذلك على نحو ما جاء عنه في الحماسيّة التي نسبها أبو تمام إلى شبيب بن عوانة الطائي ، فقد قال أبو هلال : إن بعض علماء البصرة رواها للكروّس بن زيد بن الأخرم ، وأورد نسبه إلى جديلة التي هي فرع من طيىء ثم قال : « وكان قد خاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم فحبسه مروان فقال : قضى بيننا مروان أمس قضية . . . الأبيات[3] . ولم يوضح رأيه فيما إذا كان الشعر لشبيب أو للكروس .

ومثله أيضاً ما جاء عنه في الحماسيّة التي نسبها أبو تمام إلى المثلّم بن عمرو التنوخي التي منها :

إِنِّـي امـرؤٌ مِنْ تَنُـوخَ نَاصِرُهُ مُحْتَمِـلٌ في الحُـرُوبِ مَا احْتَمَلُوا

فقد قال أبو هلال : « هذا الشعر في أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلي قال : « إني امرؤ من هذيل ناصره »[4] ، وكذلك لم يذكر أي النسبتين صحيح ، ما ذكره أبو تمام أو ما وجده في أشعار هذيل .

والحق أن شرح أبي هلال من خلال ما وصلنا عنه قد قدّم فوائد في هذا الجانب المتصل بتوثيق الشعر ، واذا كنا قد رأيناه في بعض المواضع يشير إلى أن الشعر يروى

---

(١) المصدر السابق ٢ : ٧٢ .
(٢) نفسه ٢ : ١٣٩ .
(٣) نفسه ١ : ١٦٩ .
(٤) المصدر نفسه ٢ : ١٩ .

لغير من ذكره أبو تمام دون أن يقطع في ذلك برأي فان ذلك يرجع لادراكه بأن المصادر الأولى لرواية الشعر التي اعتمد عليها العلماء الرواة كانت مختلفة ، وحسبه في هذه الحال أن يشير إلى أن هذا النص أوذاك قد وجده منسوباً إلى غير الذي ذكره أبو تمام في المصادر التي توفرت لديه ، وهذا إنما يقع منه في النصوص التي لم يكن فيها على يقين في أمر نسبتها أما ما كان فيها على يقين فانه يقطع فيه برأي واضح على النحو الذي رأيناه في حماسيتيّ الأخضر بن هبيرة والخصف بن معبد .

وبجانب ما أوردناه لأبي هلال من عناصر كان لعنصر المعاني وجود في هذه النقولات ، غير أن ذلك كان في مواضع قليلة ، وذلك أن التبريزي ـ وهو معتمدنا الأول في هذه الدراسة ـ كان في منهجه الانتخابي يعوّل كثيراً على المرزوقي في عنصر المعاني لا على أبي هلال ، ولذا كانت نقولاته منه في هذا العنصر لا تتجاوز في الحسبة أصابع اليد الواحدة . أما البغدادي فلم ينقل عنه في هذا العنصر سوى في موضع واحد ، ومع ذلك فاننا من خلال هذه النقولات القليلة نحاول أن نتعرف على طريقة الرجل في معالجته لمعاني النصوص .

وأول ما نلحظه في هذه النقولات أنه أحياناً كان يعرض معنى النص قبل شرح ألفاظه ، وذلك مثل ما جاء عنه في بيت ابن زيّابة القائل :

يَا لَهْفَ زَيَّابَـةَ لِلْحَـارِثِ الصَّابِـحِ فالغانِـمِ فالآيِبِ

فقد أورد معناه أولاً قال : « زيّابة أبوه[1] يقول : يا لهف أبي على الحارث إذ صبّح قومي بالغارة فغنم وآب سالماً أن لا أكون لقيته فقتلته ، إنما يريد يا لهف نفسي فأقام أباه مقام نفسه » ثم وقف بعد هذا عند لفظة « الصابح » فقال : « يقال : صبّح الرجل القوم ـ بالتشديد ـ كما قال الله تعالى : « ولقد صبّحهم بكرة عذابٌ مستقر »[2] ، وصبحهم ـ بالتخفيف ـ إذا سقاهم صبوحاً فقوله « الصابح » فكأنه جعل الغارة لهم صبوحاً ، وقيل : صبّحته وصبحته في الغارة بمعنى »[3] .

(١) في شروح المرزوقي وأبي العلاء والتبريزي أن زيّابة اسم أمه لا اسم أبيه .

(٢) سورة القمر الآية ٣٨ .

(٣) شرح التبريزي ١ : ٧٤ .

ونراه في موضع آخر يعرض المعنى في ايجاز ثم يذكر تعليلاً له قصداً إلى تأكيد صحته ، وذلك في البيت الذي نسبه أبو تمام لبعض بني عبد شمس من فقعس وهو :

لَاذَتْ هُنَـالِكَ بالأَشْعَـافِ عَالِـمَةً أَنْ قَدْ أَطَاعَـتْ بِلَيْلٍ أَمْـرَ غَاوِيهَا

فقد أورد معناه موجزاً قال : « يقول : أطاعوا الأمر الذي دبَّره لهم بالليل غاويهم » ثم علل لاستخدام الشاعر تدبير الأمر ليلاً فقال : إنما يدبر بالليل ليتوفر عليه ولا يشتغل بغيره ، فيكون حظه من الابرام أكثر لخلو البال بالليل واجتماع الفكر فيه » ثم أتى بآية قرآنية دعم بها هذا التعليل قال : « وفي القرآن :بيّت طائفة منهم غير الذي تقول »[1] .

وأحياناً نراه إذا أراد عرض المعنى عمد إلى ما فيه من تراكيب ، فبيّن ما فيها من أوجه المعنى ، ومن خلال هذه الأوجه يكون عرض المعنى ، وذلك كما جاء عنه في بيت الفند الزماني الذي يقول فيه :

أَيَا طَعْنَـةَ مَا شَيْخٍ كَبِـيرٍ يَفَـنٍ بَالي

فقد وقف عند تركيب « أيا طعنة » قال : « في ندائه وجهان أحدهما أن يعجب من فظاعتها فكأنه يقول : هلمي يا طعنة فاعجبي أنت أيضاً من هولك وسعتك ، والآخر أن المنادى غير الطعنة كأنه قال : يا هؤلاء اشهدوا طعنة لا يطعن مثلها شيخ » ولم يعرض المعنى لأنه قد صار واضحاً من خلال وجهي هذا التركيب[2] .

وثمة عنصر آخر غير هذه العناصر التي تعرضنا لها هو عنصر الأخبار التاريخية التي تتصل بنصوص الحماسة ومناسبات الشعر ، وقد جاءت جميع النقولات الدالة على عمله في هذا العنصر في شرح التبريزي ، وقد سبق أن عرضنا نماذج منهـا في دراستنا لمنهج التبريزي حين وضحنـا من خلالهـا كيف كان التبـرزي ينتخـب من

---

(١) المصدر نفسه ١ : ١٤٢ ، والآية من سورة النساء رقم ٨١ وأولها : « فاذا برزوا من عندك بيّت . . . . الخ » .

(٢) ينظر خزانة الأدب ٧ : ١٢٠ .

الشروح التي أمامه ـ ومنها شرح أبي هلال ـ ما يحقق لهذا العنصر وجوداً في شرحه [1].

هذه هي العناصر التي استطعنا أن نعثر عليها من خلال نقولات التبريزي والبغدادي عن شرح أبي هلال ، وهي نقولات لم تحقق لنا الوقوف على سائر العناصر التي تقوم عليها عمليّة شرح الشعر ، فهناك عنصر اللغة ليست فيه نقولات تذكر ، ولا يعني هذا أن أبا هلال لم يهتم باللغة في شرحه ، إذ من الواضح أن من يهتم بالمعاني يهتم تبعاً باللغة ، ولكن ما وجدناه من نقولات فيها غير كاف لابراز طريقة الرجل في معالجتها ، وليس من غايتنا في هذا البحث أن نتصيّد المثال أو المثالين لاصدار حكم على عمل من أعمال الشراح ، ربما تكشف الأيام خطله وتهافته .

واذا كان حظ اللغة في هذه النقولات إلى قُلٍّ فان حظ النحو والاعراب عنصراً يعتمد عليه الشارح في مناقشته تراكيب النصوص وشرحها كان إلى خلو وانتفاء ، ومثل ذلك يمكن أن يقال في البلاغة وعنصر أوزان الشعر وأضربه وقوافيه ، وهي عناصر لا ندري إن كان لها وجود في شرح أبي هلال وأهملها التبريزي والبغدادي فلم ينقلا شيئاً منها أو أن أبا هلال لم يكن ذا عناية بها ، ومن أجل ذلك كان من العسير علينا أن ندرج عمل الرجل تحت منهج من المناهج التي حددناها وطبقنا عليها عمل الشراح ، وان كان ظننا يذهب إلى أصحاب المنهج الابداعي الفني منه إلى أصحاب المناهج الأخرى .

٥) شرح أبي العلاء :الرياشي المصطنعي[2] :

يعد شرح أبي العلاء من الشروح المفقودة ، ولقد سبق أن أوضحنا من قبل خطأ نسبة الشرح الموجود مخطوطاً في دار الكتب المصريّة الى أبي العلاء ووضحنا

---

(١) ينظر دراستنا لمنهج التبريزي ، وينظر شرحه فقد نقل فيه أخباراً تاريخية ومناسبات للشعر من شرح أبي هلال وذلك في ١ : ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، و ٢ : ٩٢ ، ١٢١ ، ١٣٠ ، ١٣٩

(٢) هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان، من قبيلة تنوخ ، ولد وعاش في المعرة بالشام فنسب اليها ، وهو أكبر من أن يعرف فوجوده في كتب التراجم ظاهر ، والبحوث من

وهم بعض الباحثين في اشاراتهم التي تفيد بأن شرح أبي العلاء موجود لا مفقود[1]، كما سبق أن ذكرنا أن أبا العلاء ـ فيما ذكر ياقوت ـ قد صنع شرحه هذا تلبية لرغبة أمير يدعى « مصطنع الدولة » كان قد أنفذ إليه نسخة من شرح أبي رياش وطلب منه أن يستكمل ما فيها من نقص مما لم يتناوله أبو رياش ، فكان أن صنع أبو العلاء شرحه الذي بلغ أربعين كراسة وسمّاه « الرياشي المصطنعي » نسبة إلى أبي رياش من جهة ولمن صنع له الشرح من جهة أخرى .

ويبدو أن التبريزي ـ تلميذ أبي العلاء ـ قد قرأ هذا الشرح عليه وأخذه عنه ، ولذا كان من الشروح الأساسية التي عوّل عليها في صنعة شروحه للحماسة ، وبخاصة شرحه الأوسط المتداول بين الناس ، الذي درسناه فيما سبق في المنهج التجميعي الانتخابي ، فعن طريق التبريزي وصلت إلينا نقولات عن أعمال أبي العلاء في الحماسة ، وهي نقولات وصلت ـ فيما قمنا به من إحصاء ـ إلى بضعة ومائة موضع بلغ بعضها من حيث الكم العشرين سطراً أو أكثر .

بيد أن هذه النقولات مع ما فيها من تنوع واسهاب في بعضها فإنها لا تهيّىء للدارسين تحديد منهج لأبي العلاء في شرحه للحماسة ، وان كنا لا نعدم من وجود ملامح يمكن أن نتبيّن من خلالها طريقة تعاطيه لجملة من العناصر التي كان التبريزي يلجأ فيها إلى شرح أبي العلاء لينتخب منه ما يكمّل به عناصر شرحه .

إن أبرز ما تقدمه لنا نقولات التبريزي من شرح أبي العلاء هو اهتمامه الواضح بشرح أسماء الشعراء والأعلام الواردة في أبيات الحماسة ، فقد بلغت النقولات في هذا العنصر نحو اثنين وأربعين موضعاً ، وهي في مجملها تدل على أن أبا العلاء كان مثل ابن جني مولعاً بمثل هذا العمل ، وأنه ـ بلا شك ـ كان متأثراً به فيه ، فهو قد

المعاصرين حوله كثيرة ، ولد في النصف الثاني من القرن الرابع قرن ازدهار العلم والأدب والنقد ، وتوفي سنة ٤٤٩هـ ، فكانت الفترة التي عاشها من أخصب الفترات التي حظي فيها ديوان الحماسة باهتمام ملحوظ من قبل العلماء الشراح .

(١) ينظر ما ذكرناه في هذا الخصوص عند ثبت شروح الحماسة في القسم الأول من هذا البحث .

حقق من الاضافات على ما جاء في كتاب المبهج لابن جني ما يجعلنا ندرك قيمة ما وقفنا عليه سابقاً من قول ابن جني في مقدمة المبهج : « إن وراء هذا العمل علماً كثيراً وتدرباً نافعاً » ، فقد استطاع أبو العلاء أن يثير عقولنا ونحن نقرأ أعماله في هذا العنصر ، وجعلنا نحس بعظمته في علم اللغة واستعلائه المنفرد في الاستيعاب التام لكلام العرب .

واذا كنا قد رأينا ابن جني في المبهج يجنح كثيراً في شرحه للأسماء الأعلام نحو التصريف والأوزان وما هو مصروف وغير مصروف ، فان أبا العلاء كان في أعماله التي نقلها التبريزي واضح الاهتمام بمعاني الألفاظ التي اشتقت منها الأسماء الأعلام ، وما ورد في معانيها من وجوه محاولاً أن يوفر لكل وجه شاهده من كلام العرب . ففي اسم « شمعلة بن الأخضر » مثلاً نراه يقف أولاً عند « شمعلة » فيقول : « الشمعلة أصل بناء اشمعلّ إذاً أسرع » ، ثم أتى بشاهده فقال : قال أمية ابن أبي الصلت :

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمَعِلٌّ وَآخَرُ فَوْقَ دَارَتِهِ يُنَادِي

ثم انتقل إلى اسم « الأخضر » فبينّ فيه وجهين قال : « الأخضر ينعت به الرجل على معنى المدح وعلى معنى الذم ، واذا مدح به احتمل أن يكون مشبهاً بالبحر لأن البحر يوصف بالخضرة وبالربيع ، وهذان الوصفان لمن ذكر بالجود ، ويوصف الانسان بالأخضر لأن الخضرة من ألوان العرب قال[1] :

وَأَنَا الأَخْضَرُ مَنْ يَعْرِفُنِي أَخْضَرُ الجِلْدَةِ فِي بَيْتِ العَرَبْ »

هذا في وجه المدح أما في وجه الذم فقد قال فيه : « واذا جاءوا بالخضرة في معنى الذم ، فانما أرادوا أنهم قد اخضروا من اللؤم لأن السواد إذا اشتد جعل خضرة فقيل ليل أخضر وأخضر الليل » ثم أتى بشاهد على هذا قال : قال القطامي :

---

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، كان يسمى الأخضر اللهبي وهو أحد شعراء الحماسة ، روى له أبو تمام الحماسيّة رقم ٥٥ في شرح المرزوقي والتبريزي ، وهو من شعراء بني أميّة كان في أيّام الوليد بن عبد الملك . ينظر الأغاني ١٥ : ٢ وما بعدها .

يَا نَاقَ سِيرِي عَنَقاً فِسْبَرّاً وَقَلِّبِي مَنْسِمَكِ المُغْبَرَّا
وَبادِري اللَّيْلِ إذَا مَا اخْضَرَّا[1]

وأردفه بشاهد آخر هو قول جرير في هجاء بني تيم :

كَسَا اللُّؤْمُ تَيْماً خُضْرَةً فِي جُلُودِهَا فَوَيْلٌ لِتَيْمٍ مِنْ مَطَارِفِهَا الخُضْرِ[2]

إن أبا العلاء في تحليله اللغوي للأعلام يعطيك كل الاحتمالات التي يمكن أن يكون العلم مأخوذاً منها ، انظر مثلاً تحليله لاسم « معدان » من اسم الشاعر الكندي « معدان بن جوّاس » قال : « معدان يحتمل أن يكون من المعد وهو نحو من الخطف والاختلاس يقال : امتعد الذئب الشاة إذا اختلسها ، ويقال : معد الرجل اذا صار لصاً وهو راجع إلى ذلك المعنى » ثم ينتقل إلى احتمال ثان فيقول : « ولا يمتنع أن يكون معدان من المعد وهو الشيء الغض » ثم رجع إلى المعنى الأول فقال : « ويقال : معد الدلو إذا نزعها نزعاً شديداً قال الراجز :

يَا سَعْدُ يا ابْنَ عَمَلٍ يَا سَعْدُ هَلْ يَرْوِيَنْ ذَوْدَكَ نَزْعٌ مَعْدُ

ويقال مَعَدَ مَعْداً إذا خَطَا خطواً سريعاً ، وهذا كله راجع إلى الخطف ، وزعم قوم أن معدة الانسان سميت بذلك لشدتها ، ما أراها إلّا من بعض ما ذكر من الألفاظ »[3] .

ولم يقتصر جهد أبي العلاء على شرح أسماء شعراء الحماسة بل تجاوزه إلى الأعلام التي وردت في أبيات الحماسة ، ففي البيت القائل :

لاَ تَعْذُلِي فِي حُنْدُجٍ اِنَّ حُنْدُجاً وَلَيْثَ عِفِرِّينٍ لَدَيَّ سَوَاءُ

---

(1) هذه رواية التبريزي من شرحه جـ ٢ ص ٦٣ ، وفي ديوان القطامي ص ١٢٠ وردت الرواية هكذا :

يا ناقَ سِيرِي جَنَباً زِوَرًّا وَقَلِّبِي مَنْسِمَكِ المُغْبَرَّا
وعارِضِي اللَّيْلَ إذا ما اخضرَّا

(2) ينظر شرح التبريزي ٢ : ٦٣ .

(3) المصدر نفسه ١ : ٧٧ .

وقف أبو العلاء في اسم حندج وقال : « حندج اسم الرجل مأخوذ من الحندج وهو كثيب صغير من الرمل ربما أنبت الشجر ، وقد جاءت الحنادج في معنى الصغار من الإبل »[1] .

وفي البيت الذي نسبه أبو تمام لامرأة من بني شيبان وهو :

بِعَـيْنٍ أُبَـاغَ قَاسَمْنَـا المَنَايَا فَكَانَ قَسِيمُها خَـيْرُ القَسِيمِ

قال أبو العلاء : « أباغ يجب أن يكون من الأبغ وهو لفظ ممات ، ويجوز أن تكون الهمزة مبدلة من الواو لأنهم قالوا : وبغته إذا عبته ، وقيل : إن الوبغ فساد في ريش الطائر أو وبر البعير »[2] .

ويلي هذا العنصر من حيث الكثرة في نقولات التبريزي عنصر اللغة والنحو ، فلقد كان لأبي العلاء فيهما وقفات طيبة تدل على علو كعبه وبخاصة في التفسير اللغوي لألفاظ أبيات الحماسة وتراكيبها . وصحيح أن عبقريّة أبي العلاء اللغويّة تجلّت في شرحه لأسماء الشعراء وأعلام الحماسة ، ولكن عمله اللغوي في الأبيات قد أكدّ هذه العبقريّة ودلّ عليها . ولقد بلغت نقولات التبريزى عنه فى مجال اللغة نحو ثلاثة وعشرين موضعاً ، أما في النحو فقد بلغت نحو تسعة مواضع . ففي شرح الألفاظ نجد له وقفة في ألفاظ بيت سوار بن المضرّب القائل :

بِذَبِّـي الـذَّمَّ عَنْ حَسَبِـي وَمَالِي وَزَبُّونَـاتِ أَشْـوسَ تَيَّحَانِ

فهو يبدأ بشرح « أشوس » أولاً يقول : « الشوس أن يضيّق الرجل أجفانه وينظر في أحد شقيه من الكبر ، ويقال تشاوس الرجل إذا فعل ذلك قال حميد بن ثور :

يَقَـرُّ بِعَيْنِـي أَنْ أَرَى مِنْ مَكَانِهِ سُهَيْلاً كَعَـيْنِ الأَخْـزَرِ المُتَشَاوِسِ

---

(١) المصدر نفسه ١ : ١٤٣ .

(٢) نفسه ٢ : ١٧٩ ، وينظر ٢ : ٤ شرحه لاسم « وثيرة » وص ١٢ شرحه للعلم « ضريّة » وهو موضع ، وكذلك ص ١٣ شرحه لاسم « الطف » علم على موضع ، وص ٤٢ شرحه لاسم « أريب » .

ثم رجع إلى التيّحان فقال : « والتيّحان يروى بكسر الياء وفتحها وهو الذي يعترض الأمور » ثم عرض إلى قصد آخر للشاعر قال به بعض القوم قال : « وذهب قوم إلى أنه يعني بأشوس تيحان فرساً وادعوا أن الزبونة الأذن وأنه كنى بالزبونات عن رأس الفرس وهاديه لأن أذنيه يكونان فيه » ولم ينكر أبو العلاء هذا التفسير في قصد الشاعر بل قال : « فاذا صح ذلك فهو مثل قولهم رماهم بهادي فرسه وبغرته ونحو ذلك كما قال عنترة :

مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةِ وَجْهِهِ »[1] .

وهو هنا نراه ينظر في التحليل اللغوي للألفاظ إلى ما يمكن احتماله في كلام العرب وأشعارها ، وهي نظرة شملت جزءاً كبيراً من عمله اللغوي ، إذ كثيراً ما نراه لا يفسر اللفظة من حيث سياقها فحسب بل ينظر إلى ما تعطيه من مدلول في احتمالات معانيها المتعددة ، وينظر إلى عدم تنافي هذه الاحتمالات مع السياق من جهة ومع ما هو سائر في كلام العرب من جهة أخرى ، ومن ذلك وقفته في الفعل « تَعُدُّ » من بيت راعي الابل النميري الذي يقول فيه واصفاً امرأة دعاها إلى جفنة طعامه :

فَبَاتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ فِي مُسْتَحِيرَةٍ سَرِيعٍ بِأَيْدِي الآكِلِينَ جُمُودُهَا

قال : « كان بعض الناس يجعل تعد هنا من العدد أي أن هذه المرأة تعد النجم في الجفنة المستحيرة أي المملوءة لأنها ترىٰ خيال النجوم فيها ، وقد يجوز هذا الوجه» ثم نظر إلى احتمال آخر لمعنى « تَعُدُّ » فقال : « وقد يحتمل أن يكون « تَعُدُّ » في معنى تحسب وتظن ، وأصله راجع الى العدد الا أنه قد أخرج بعض الاخراج كما قال :

إِذَا وَلَّيْتَ مَعْرُوفاً لَئِيماً فَعَدُّكَ قَدْ قَتَلْتَ لَهُ قَتِيلاً

أي فاظنن أنك فعلت ذلك ، والمراد أن المرأة تحسب النجم في الجفن لما تراه من بياض الشحم »[2] .

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٦٥ .

(٢) المصدر نفسه ٤ : ٣٩

وهو يستغرق في شرحه اللغوي استغراقاً منقطع النظير بحيث يوفي اللفظة الواردة في البيت وما تدل عليه من معان حقها في التفسير والتحليل ، وذلك مثل عمله في لفظة « قعاد » الواردة في بيت عبد الله بن أوفى الخزاعي وهو :

فَبِئْسَتْ قُعَادُ الفَتَى وَحْدَهَا وَبِئْسَتْ مُوفِّيَةُ الأَرْبَعِ

قال أبو العلاء : « قعاد الفتى ما يقعده في بيته لأن المرأة تسمى قعيدة ، وهي من القعود في البيت » وكان حق تفسير اللفظة أن ينتهي عند هذا الحد ، غير أن أبا العلاء مضى مفسّراً لفظة « القعود » في معنى آخر قال : « ومن ذلك أخذ القعود من الابل وهو الفتى الذي قد صلح أن يقعد عليه الراكب » ، وانطلق من هذا إلى مجال أوسع فقال : « والقعود كلمة اتسع فيها المتكلمون حتى قال أصحاب الأضداد : يقال : قعد في معنى قام ، وليس ذلك إلا على المجاز لأن القاعد خلاف المضطجع ، فلما كان ذلك خروجاً من حال الضجعة إلى ما هو أعظم للشخص ظن السامع أن قعد في معنى قام ، وقول النابغة :

والبَطْنُ ذُو عكَنٍ خَمِيصٌ نَاعِمٌ وَالنَّحْرُ تَنْفُجُه بِثَدْيٍ مقْعَدِ

أراد أنه لم ينكسر للكبر فكأنه قاعد ، ولو قيل جارية قائمة الثدي لأدى ذلك معنى قولهم ثدي مقعد ، فمن هذه الجهة تأوّل بعض الناس أن قعد يكون في معنى قام »[1] .

فانظر إلى هذا الاستغراق في التفسير اللغوي الذي يدل على مدى اتساع علم الرجل في اللغة وتفسيرها ومناقشة من له رأي في معاني ألفاظها ، وهو استغراق لم يقع منه في تحليل الألفاظ فحسب بل نجده لديه في تحليل التراكيب ، غير أنه كان في هذا الجانب أكثر تمسكاً بما هو مشهور في كلام العرب وبما هو متفق مع سياق البيت ، ففي بيت الأشتر النخعي القائل . .

بَقَّيْتُ وَفْرِي وانْحَرَفْتُ عَنِ العُلاَ وَلَقِيتُ أَصْحَابِي بِوجْهِ عَبُوسِ

(١) المصدر نفسه ٤ : ٤٣ .

نراه يقف عند تركيب « بقيت وفري » فيقول : « الذي ينبغي أن يحمل عليه معنى قوله « بقيت وفري » أن الوفر المال وذلك المشهور من كلام العرب » ثم مضى مستعرضاً رأياً فقال : « وذكر أبو محمد الديمرتي أن الوفر ها هنا الشعر ، وأنكر ذلك عليه أكثر أهل العلم ، ولا يمتنع في القياس أن يسمى الشعر وفراً لأنه كالغرة في الجسد ، ولأنهم قد سموا شعر الرأس إذاً كثرة وفرة ، واذا صح ذلك لم يحسن أن يحمل البيت عليه لأن توفير شعر الرأس ليس من جنس الانحراف عن معالي الأمور ولقاء الضيف بالوجه العابس ، وقد جاء الحديث عن النبي -ﷺ- وعن غيره من صلحاء السلف، أنهم كانوا يوفرون شعورهم ، فان ذهب إلى أنه أراد بالوفر الذي جاءت السنة باماطته عن الجسد فهو أيضاً ليس بلائق إذ كان منافياً لما بعده . . . ولا يجوز أن يعدل عن أن الوفر المال الكثير »[1] . فأنت تراه لا ينكر أن يأتي الوفر بمعنى الشعر ، ولكن تفسيره بهذا المعنى في التركيب الوارد في البيت لا يتفق مع المشهور من كلام العرب ولا مع السياق في البيت ، ولذا لم يجزه أبو العلاء على كثرة ما كان يجيز من معان محتملة في الألفاظ إذا اتفقت مع المشهور من كلام العرب والسياق .

أما في مجال النحو فقد دلت نقولات التبريزي أنه كان يهتم به في شرحه ، وذلك من جهة القواعد ومن جهة الاعراب ، فمن جهة القواعد نراه مثلاً يناقش قاعدة أفعال البدء والشروع في بيت الحماسة القائل :

وَقَدْ جَعَلَتْ قَلُوصُ ابْنَيْ سُهَيْلٍ مِنَ الأَكْوَارِ مَرْتَعُهَا قَرِيبُ

فقد قال فيه : «ويروى فقد جعلت قلوصَ ابنَيْ سهيل» وكثير من الناس يرفع القلوص وهو وجه رديء» ثم بينّ وجه رداءته من حيث مخالفته للقاعدة النحوية فقال : « لأن القائل إذا قال جعلت وهو يريد المقاربة لم يكن بدّ من إتيانه بالفعل كما قال :

جَعَلْتُ وَمَا بِي مِنْ جَفَاءٍ وَلاَ قِلىً أَزُورُكُمْ يَوْماً وَأَهْجُرُكُمْ شَهْرَا

---

(١) المصدر نفسه ١ : ٧٥ وما يليها .

وعلى ذلك جميع ما يرد ، فاذا قال القائل : جعل زيد فعله يجمل ولم يأت بلفظ الفعل فانما يحمله على المعنى كأنه قال : جعل زيد يجمل »[1].

أما في جهة الاعراب فقد كان ينظر من خلاله إلى المعنى ، ومن ذلك ما جاء عنه في بيت يزيد بن الحكم الثقفي الذي يقول فيه :

والمَرْءُ يَبْخَلُ في الحُقُوقِ وَلِلْكَلاَلَةِ مَا يُسِيمُ

فقد وقف عند إعراب « ما » في قوله « ما يسيم » فبيّن وجوه الاعراب فيها ناظراً إلى المعنى في كل وجه قال : « ما فيه يجوز أن تكون زائدة ، ويكون المعنى أنه يخلي ماله للكلالة فكأنه أسامه فيهم كما يقال : تركت مالي في بني فلان ، ويجوز أن يكون « ما » في معنى الذي أي والذي يسميه في رزق الكلالة ، ولا يبعد أن يكون « ما » وما بعدها في معنى المصدر كأنه قال : واسامته لماله للغير لا لنفسه »[2].

ومن الملاحظ في عمل أبي العلاء النحوي أنه كان دقيقاً في مناقشة أساليب الشعراء ومراعاة أن تكون تراكيبهم جارية على سنن كلام العرب، فإذا رأى التركيب لدى الشاعر قد خرج عن هذا الحد ناقشه منتقداً في دقة ، قال في بيت زميل ابن أبير الوارد في باب الهجاء:

فَجِئْتَ ابنَ أَحْلاَمِ النِّيَامِ وَلَمْ تَجِدْ لِصِهْرِكَ إِلاَّ نَفْسَهَا مَنْ تُبَاعِلُ

« نصب ابن احلام النيام على الحال ، وتأوّل انفصال الاضافة كأنه قال : فجئت ابناً لأحلام النيام ، والانفصال يكثر إذا كانت الصفة الجارية على الاسم الأول موضوعة للاسم الثاني في الحقيقة كقولك مررت برجل حسن الجارية فالمعنى حسن جاريته فالحسن للجارية ، وليس ذلك موجوداً في مثل قوله ابن أحلام النيام لأن الابن ليس هو للأحلام ، فكان ذلك منافياً لقولك مررت برجل جميل الأصحاب لأن الأصحاب هم الذين حكم لهم بالجمال »[3].

---

(١) المصدر نفسه ١ : ١٦٣ .
(٢) نفسه ٣ : ١٠٧ .
(٣) المصدر نفسه ٤ : ٦ .

أما عنصر المعاني فالحق أن ما نقله التبرزي من عمل أبي العلاء فيه كان ضئيلاً بالقياس إلى عنصر شرح الأسماء والأعلام وعنصر اللغة والنحو ، وذلك لأن التبريزي كما أشرنا في أكثر من موضع كان يعوّل في عنصر المعاني على المرزوقي لا غير ، ومن ثم جاءت نقولاته في عنصر المعاني من أبي العلاء وغيره من الشراح الذين انتخب شرحه منهم قليلة جداً ، ولكن هذا لا يمنع من أن نقول إن هذا القليل الذي جاءنا عن أبي العلاء يعطي مؤشر عناية منه بهذا العنصر ، فلا شك أن الشارح الذي يعنى باللغة والنحو هذه العناية التي رأيناها يكون من الطبيعي أن يعنى بالمعاني ، فاللغة والنحو تنبثق عناية الشارح بهما باعتبار أن ما يثيره فيهما يكون وسيلة لشرح ألفاظ النص وتراكيبه ، ولقد رأينا أبا العلاء في تحليله للغة وقضاياها ولقواعد النحو ومسائل الاعراب ينظر دائماً إلى مقاصد الشعراء ومعانيهم ، ومن ثم فليس بصحيح ما ذهب إليه الدكتور عسيلان حين أشار إلى أن عناية أبي العلاء بالجانب اللغوي جعلته لا يدقق النظر في معاني الشعر ، وأنه يعمد إلى عرض المعنى بصورة تكاد تكون نثراً للبيت[1] .

وكذلك ليس بصحيح ما أشار اليه الدكتور العمري من أن أبا العلاء حين نصدى لشرح الحماسة كان مقتصداً مقتصراً على بعض النواحي اللغوية والتأويلات المعنويّة[2] .

فقول الدكتور عسيلان مدفوع من وجهين أحدهما : أن شرح أبي العلاء لم يصل الينا كاملاً وانما وصل إلينا بعض منه عن طريق نقولات قرأناها في شرح التبريزي ، والتبريزي كما أوضحنا آنفاً لم يكن يعتمد في شرحه الانتخابي في عنصر المعاني على أبي العلاء ، واذا نقل عن أبي العلاء شيئاً في جانب المعاني فان هذا يقع غالباً في المواضع التي يكون أبو العلاء مخالفاً فيها المرزوقي أو غيره في فهم البيت وايراد معناه ، ومن ثم فان القول بأن اهتمام أبي العلاء باللغة قد جعله لا يدقق في المعاني قول لا ينبغي أن يقال إلّا إذا وقفنا على أعمال الرجل كاملة في عنصر المعاني . هذا فضلاً عن أن نقولات التبريزي لا تدل على ذلك بل إننا رأيناه يناقش آراء

(١) حماسة أبي تمام وشروحها ص ٢٣٤ .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٣٣٤ .

السابقين في المعنى في دقة ثم يبدي رأيه في وضوح وجلاء ، كاشفاً لنا المعنى وفق رؤيته ووفق ما وقف عليه من كلام العرب ، ولعلك حين ترجع إلى ما أوردناه له في انتخاب التبريزي لعنصر المعاني في شرحه عند بيت موسى بن جابر الحنفي القائل :

هِلاَلاَنِ حَمَّالانِ في كُلِّ شَتْوَةٍ مِن الثِّقْلِ مَا لاَ تستَطِيع الأَبَاعِرُ[١]

تدرك حقيقة هذا القول ، بل لعلك حين تقرأ عمله في إيراد معنى الشطرة الثانية من بيت عمرو بن مسعود الثقفي :

أَيَبْغِي آلُ شَدَّادٍ عَلَيْنَا وَمَا يُرْغَى لِشَدَّادٍ فَصِيلُ

تعلم أن ما ذهب إليه الدكتور عسيلان من قول لا يستند إلى شيء ، فقد تناول أبو العلاء معنى الشطرة مستعرضاً في دقة أوجه المعاني فيها قال : « في قوله : « وما يرغى لشداد فصيل لا يذهب به مذهب البخل وأنهم لا يعطون أحداً فصيلاً[٢] ، ولكن يحمل على أنهم لا يؤذون كما يقال : ما تروّع له شاة أي فَلِمَ يتعرضون لنا بالأذاة ونحن عنهم كافون ؟ ، ويجوز أنه يصفهم بأنهم أذلة لا يظلمون أحداً ولا يرغي فصيل لأجلهم كقوله[٣] :

قُبَيِّلَةٌ لاَ يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ وَلاَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

والدليل على أنَّه لم يرد بالارغاء معنى الهبة قوله ـ يريد البيت الذي يليه ـ « فان تغمز مفاصلنا تجدنا . . . الخ » لأن الكلام دال على تهدد ووعيد »[٤] .

فهل مثل هذا العمل يقال في صاحبه إنه كان لا يدقق في المعاني؟ .

وأما قوله بأنه كان يعمد إلى عرض المعنى بصورة تكاد تكون نثراً للبيت فهو أيضاً حكم لا يستند إلى شيء لأن المثال الذي أتى به برهاناً على حكمه هذا لا صلة

(١) ينظر فصلنا الذي عقدناه لتطبيق المنهج التجميعي الانتخابي في شرح التبريزي (عنصر المعاني) .

(٢) هذا المعنى ذهب اليه المرزوقي في شرحه ، ينظر ق ١ : ٢٤٠ .

(٣) هو النجاشي الحارثي قاله في بني العجلان ، ينظر خبره في الشعر والشعراء ١ : ٢٤٨ .

(٤) ينظر شرح التبريزي ١ : ١٢٨ .

لأبي العلاء به ، وذلك في بيت ربيعة بن مقروم القائل :

وَأَلَـدَّ ذِي حَنَـقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا   تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

فقد نقل الدكتور عسيلان معناه ونسبه وهما لأبي العلاء وهو « رب خصم شديد الخصومة ذي غيظ وغضب عليّ تغلي عداوته غليان المرجل فيه إذا كان على النار أنا دفعته عن نفسي »(٤) ، فهذا القول ليس لأبي العلاء وانما هو للمرزوقي[٢] نقله التبريزي عنه بدون عزو ، وأورده بعد قول لأبي العلاء في تفسير لفظة « ألد » الواردة في البيت فظن الدكتور عسيلان أنه لأبي العلاء ، وكان ينبغي عليه في هذه الحال أن يضاهي نقولات التبريزي بشرح المرزوقي حتى لا يقع في هذا الوهم الذي وقع في مثله بعض الباحثين من نسب أقوال المرزوقي الواردة في شرح التبريزي بدون عزو إلى التبريزي نفسه ، على نحو ما أوضحناه سابقاً في دراستنا لعمل التبريزي في الحماسة .

وأما ما ذهب إليه الدكتور العمري من أن عمل أبي العلاء في شرح الحماسة كان مقتصداً مقتصراً على بعض النواحي اللغويّة والتأويلات المعنويّة ، فهو أيضاً رأي لا يستند إلى شيء وذلك لثلاثة أمور : أحدها أنه كان يشير في هوامشه وهو يتحدث عن شرح أبي العلاء إلى نسخة المايكروفيلم المحفوظة بمعهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة وهي نسخة الشرح الذي أثبتنا خطأ نسبته إلى أبي العلاء .

ومن ثم فان أي حكم بناه على قراءة هذا الشرح ـ إن كان قد قرأه حقاً ـ وخصّ به أبا العلاء يصبح في حيّز البطلان .

وثانيها : أنه فيما يبدو لنا لم يفرّغ كل أعمال أبي العلاء الواردة في شرح التبريزي ولو فعل ذلك لأدرك أن أبا العلاء ـ الذي قال عنه : « إنه كان في شروحه على شعر المحدثين كأبي تمام والمتنبي وغيرهما ، يحشو شروحه بالأخبار التاريخيّة

---

(١) ينظر الحماسة وشروحها ص ٢٣٤ .

(٢) ينظر شرح المرزوقي ق ١ : ٦٤ ، وهذا الموضوع من المواضع النادرة في شرحه التي لاحظنا فيها أنه يكتفي في ايراد المعنى ينثر البيت .

والمسائل اللغوية والعروض والقافية والنقد واشباعها بالاستطرادات اللغوية والنحويّة[1] ـ هو نفسه أبو العلاء في شرح الحماسة لم يحد عن سبيله قط .

وثالثها : أنه لم يقف على دواعي تأليف أبي العلاء لشرح الحماسة ولا على كيف بنى شرحه لها ، فقد ألفّ أبو العلاء شرحه كما وضحنا تلبية لرغبة أحد الأمراء ، أرسل إليه نسخة من شرح أبي رياش وطلب منه أن يكمل ما فيه من نقص ، ومن ثم بنى أبو العلاء شرحه للحماسة على شرح أبي رياش فضلاً عن نظره في شروح أخرى سبقته مثل شرح الديمرتي وشرح أبي عبدالله النمري ، وهنا يكمن الفرق بين شروح أبي العلاء على شعر المحدثين وشرحه على شعر الحماسة . فشروحه على شعر المحدثين لم تبن استكمالاً لعمل سابق ، فلو وقف الدكتور العمري على هذا لأدرك لماذا كان أبو العلاء في شرحه على الحماسة يميل في بعض الأحيان إلى مناقشة معنى النص وما فيه من تأويلات . ذلك أنه كان ينظر في عنصر المعاني إلى عمل أبي رياش فيه وإلى عمل غيره من شراح الحماسة الآخرين ، يعرض ما قالوه من تأويلات ولكنه كان وهو يفعل ذلك يدلي برأيه فيما يعرض وفق رؤيته الخاصة للنص ، يتضح هذا في القليل من الأمثلة التي أوردها لنا التبريزي ، ومنها ما جاء عنه في بيت الحرث بن وعلة الذهلي القائل :

أَنْ يَأْبِرُوا نَخْلاً لِغَيْرِهِمِ والشَّيْءُ تَحْقِرُهُ وقَد يَنْمِي

فقد قال أبو العلاء : « قد اختلف في معنى هذا البيت ، فقيل : أراد أنه يفارقهم ، ويهبط هو وقومه أرضاً ذات نخل كان لغيرهم فيدفعونهم عنه ويأبرونه ، كأنه يتهددهم بترحله عنهم لأن ذلك يؤديهم إلى الذل ، واستدلوا على هذا الوجه بقوله في القصيدة :

قَوِّضْ خِيَامَكَ والْتَمِسْ بَلَداً يَنْأَى عَنِ الغَاشِيكَ بالظُّلْمِ

وقيل : بل يريد أنه يحاربهم فيصلحهم لغيره فيجعلهم كالنخل التي أبرت ، إذ كان عَدوّهم ينال غرضه منهم إذا أعانه عليهم، وقيل: بل عنى أنه يسبي

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٣٣٤ .

نساءهم فتوطأ فيكون ذلك كالوبار الذي هو تلقيح النخل . فهذه أوجه ثلاثة في معنى البيت يعرضها أبو العلاء ثم يختار آخرها فيقول : « وهذا الوجه أشبه بمذهب العرب مما تقدم ، لأنهم يكنون عن المرأة بالنخلة قال الشاعر يخاطب امرأة :

أَلاَ يَا نَخْلَـةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ وَرَحْمَـةُ اللَّهِ السَّلاَمُ[1]

وجملة القول في عمل أبي العلاء في عنصر المعاني تتلخص في أن ما وصلنا منه في نقولات التبريزي لا يكفي لاصدار حكم عام عليه ، ولكنه يدل على أنه لم يهمله في شرحه ولا كان يكتفي فيه بنثر الأبيات ، كما أن اهتمامه بعرض ما في النص من تأويلات لمعانيه إنما يرجع إلى اعتماده على ما كان يجده في شرح أبي رياش من عمل في عنصر المعاني فضلاً عن وقوفه على أعمال آخرين سبقوه في هذا الخصوص .

وبجانب ما دلت عليه نقولات التبريزي من عناية لأبي العلاء بالعناصر السابقة ، دلت أيضاً على عناية له في عنصر أوزان الشعر وأضربه وقوافيه ، وهو أمر سبق أن أشرنا إليه عندما تكلمنا عن إفادة التبريزي منه في هذا العنصر ، فأبو العلاء يعد من أبرز الشراح الذين اهتموا بقضايا أوزان الأشعار المختارة في الحماسة ، يدلنا على ذلك ما ذكره تلميذه الخطيب التبريزي في ختام شرحه حيث أفاد بأن أبا العلاء كان ملماً بكل الأوزان التي جاءت فيها أشعار الحماسة وبأضربها وأنواع قوافيها وما جاء شاذاً في الوزن منها ، وذلك حين قال : « قال أبو العلاء اشتمل ما وضعه أبو تمام حبيب بن أوس الطائي من أجناس الشعر الخمسة عشر على اثني عشر جنساً وهي : الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والوافر ، والكامل ، والهزج ، والرجز ، والرمل ، والسريع ، والمنسرح ، والخفيف ، والمتقارب ، وفاته ثلاثة أجناس وهي : المضارع والمقتضب والمجتث . وفيه من الضروب الثلاثة والستين تسعة وعشرون ضرباً . ومن القوافي الخمس أربع وهي : المتدارك ، والمتراكب ، والمتواتر ، والمترادف ، وفاته المتكاوس ، ومنه من الأوزان الشاذة ثلاثة الأول قول الضبي :

---

(١) ينظر شرح التبريزي ١ : ١٠٧ .

إنَّ شِوَاءً وَنَشْوَةً وَخَبَبَ البَازِلِ الأَمُونِ

والثاني قول أم السليك أو أم تأبط شراً :

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةً مِنْ هَلاَكٍ فَهَلَكْ

والثالث قول المخزوميّة :

إنْ تَسْأَلِي فَالمَجْدُ غَيْرُ البَدِيعْ قَدْ حَلَّ في تَيْمٍ ومَخْزُومٍ[1] .

وطبيعي من كان هذا شأنه أن يكون له عمل في الأوزان والقوافي من خلال شرحه لنصوص الحماسة ، ولقد نقل التبريزي بعضاً من هذا العمل في مواضع مختلفة من شرحه منها ما يتصل بالوزن ومنها ما يتصل بالقافية ، فمن أمثلة الوزن ما جاء عنه في بيت الشدّاخ بن يعمر الكناني القائل :

قَاتِلِي القَوْمَ يَا خُزَاعُ وَلاَ يَدْخُلْكُمُ مِنْ قِتَالِهِمْ فَشَلُ

فقد قال فيه : « قوله قاتلي القوم كأنه مخروم ، والخرم سقوط حرف متحرك من أول كل شعر أصل بناء أوله على حرفين متحركين والثالث ساكن ، وذلك لا يجوز في هذا الوزن على رأي الخليل ، والذي أعتقد أنه جائز ، وقد ذكره أبو رياش على ما يجب من صحة الوزن وهو « فقاتلي القوم يا خزاع »[2] .

ومن أمثلة ما يتصل بالقافية عمله في بيت موسى بن جابر الحنفي وهو :

أَلَمْ تَرَيَا أَنِّي حَمَيْتُ حَقِيقَتِي وَبَاشَرْتُ حَدَّ المَوْتِ والمَوْتُ دونَهَا

فقد أشار أولاً إلى أن « الأحسن رفع دونها ويكون في معنى صغير ، كأنه قال : والموت صغير هذه الخطة » ثم مضى قائلاً : « ولو أنشد منشد بفتح النون في دونها لكان في الشعر عيب نحو الاقواء، ومثله قليل لأنهم يقوون في المرفوع والمخفوض الذي لا هاء بعد رويه ، وإذا جاءت الهاء بعد الروي فإن تغير الاعراب قليل ، ورووا أن أبا عمرو بن العلاء كان ينشد قول الأعشى :

(١) المصدر السابق ٤ : ١٨٦ وما يليها .

(٢) نفسه ١ : ١٠٠ .

هَذَا النَّهَــارُ بَدَا لَهَــا مِنْ هَمِّهِ ... مَا بَالُهَا بِاللَّيْلِ زَالَ زَوَالُهَا

فيرفع الزوال والقوافي منصوبة في كل القصيدة[1] .

والذي نلحظه من خلال هذين المثالين وغيرهما مما أورده التبريزي أن الرجل كان متمكناً في هذا العلم مُلِمّاً بجميع قواعده ، مدركاً لخروج الشعراء عن حدوده من خلال وقوفه على ما روي لهم من شعر أو جاء في دواوينهم[2] .

وثمة عنصر تبدو نقولات التبريزي فيه ضئيلة لا تذكر ، أقل في ضآلتها من عنصر المعاني ، وهو عنصر الرواية ، ويبدو أن التبريزي لم يتخذ عمل أبي العلاء فيه مجالاً لعمله الانتخابي ، ولهذا جاء ما نقله عنه في الرواية ممتزجاً بعمله في اللغة من حيث أن أبا العلاء فيما يبدو كان ينظر إلى اختلاف الرواية من وجهة نظر لغويّة لا من الوجهة التي كان يراها أصحاب المنهج الابداعي الفني ، فهو في نظرته للرواية أشبه بابن جني منه إلى الابداعيين لأنه كان مثله ينظر إلى الرواية وجودتها من حيث اللغة لا غير ، ومن أمثلة ذلك عمله في بيت ملحة الجرمي الذي يصف فيه سحاباً والذي رواه المرزوقي والتبريزي هكذا[3] . :

نَشَــاوَى مِنَ الادْلاَجِ كُدْرِيُّ مُزْنِهِ ... يُقَضِّي بِجَذْبِ الأَرْضِ مَا لَمْ يَكَدْ يَقْضِي

فقد روى أبو العلاء « يشاوى من الادلاج كدري مزنة » وشرح روايته لغوياً ثم قال : « ومن روى نشاوى من الادلاج » أراد قطاه نشاوي من الادلاج ، والأجود أن يجعل تقضي من وصف المزنة لأنه يتصل بها ، فان جعل يقضي للحبى أو للبرق فجائز والأول أحسن ويكون في هذه الرواية بالياء ، وفي الأول بالتاء ، واذا روي نشاوى فالأحسن أن يروى مزنه باضافة مزن إلى الهاء »[4] .

---

(١) المصدر نفسه ١ : ١٩٢ .

(٢) ينظر مثلاً عمله في غير ما أوردناه في شرح التبريزي ٢ : ١٩١ ، ٣ : ٢٥ .

(٣) ينظر شرح المرزوقي ق ٤ : ١٨٠٧ وشرح التبريزي ٤ : ١٥٢ .

وهناك عنصر لم نجد في نقولات التبريزي منه سوى موضع واحد(٥) ، وهو عنصر الأخبار التاريخية ومناسبات الشعر ، ويبدو أن التبريزي اكتفى فيه بما كان ينقله عن أبي رياش باعتبار أن أبا رياش كما وضحنا من قبل كان أوفى الشراح بهذا العنصر ، وبجانب هذا هناك عنصران لا وجود لهما في هذه النقولات هما عنصرا البلاغة والنقد ، ولا ندري إنْ كان له عمل فيهما ولم يفد منه التبريزي أو أنه لم يعالجهما أصلاً في شرحه .

ومهما يكن من الأمر فإن هذا الشرح «الرياشي المصطنعي» الذي صنعه أبو العلاء لخدمة اختيار الحماسة قد بدا لنا من خلال نقولات التبريزي عنه غير واضح المنهج ، يصعب ادراجه تحت واحد من المناهج الخمسة التي حددناها لشراح الحماسة فهو أشبه في بعض عمله اللغوي وبخاصة في شرح الأسماء والأعلام بابن جني ولكنه يختلف عنه في أمور ، أهمها أن ابن جني في عمله اللغوي كان يجنح كثيراً إلى التصريف ، ولم يكن أبو العلاء كذلك ، وثانيها أن ابن جني كان في عمله اللغوي والنحوي ينظر إلى الأبيات التي تثير قضية لغوية أو نحويّة ولا يهتم بالمعنى إلا من خلال ارتباطه بالاعراب في حين أن أبا العلاء قد ركز جهداً على المعاني وتأويلاتها وان لم تكن لها صلة بالاعراب بل إنه كان يلجأ إلى الاعراب ليوضح به المعنى وليس العكس ، وثالثها أن ابن جني كان يعمد كثيراً إلى اثارة الخلاف بين أبي الحسن الأخفش وجمهرة النحاة وبخاصة سيبويه ، وينظر إلى ما تعطيه أبيات الحماسة من دعم لأحد الفريقين ، ولم يكن هذا من شأن أبي العلاء ولا قصد إليه في عمله اللغوي النحوي ، ورابعها أن عمل ابن جني في « التنبيه » كان علمياً بحتاً . أما أبو العلاء فانه بجانب جنوحه إلى اللغة فان عمله لم يخل من أدب ، يبدو ذلك حتى في عمله اللغوي حيث كان ينظر إلى كلام العرب فينقل من أدبها الشيء الكثير ليدلل به على صحة المعنى اللغوي للالفاظ أو التراكيب وأحياناً لمعاني النصوص ومرامي الشعراء .

وأخيراً إن أبا العلاء لم يضع شرحه للطبقة المتخصصة العليا من أهل العلم

على نحو ما صرّح ابن جني في مقدمته لكتاب « التنبيه » . من أجل هذه الفروق جميعها بعد منهج أبي العلاء عن منهج ابن جني برغم تأثره به في بعض عمله ومشاكلته إياه في نواح من شرحه .

كذلك لم يكن أبو العلاء مشابهاً في منهجه منهج الابداعيين الفنيين الذين رأيناهم في تطبيق المرزوقي وذلك من حيث أنهم كانوا يقصرون عملهم على نصوص الحماسة ، فيوُظِّفون علوم اللغة والنحو والرواية والبلاغة والنقد والأخبار التاريخيّة توظيفاً فنياً محكماً لابراز معاني النصوص ، ويعرضون ذلك في أسلوب أدبي رائع ، ولم يكن أبو العلاء كذلك لأنه قد تجاوز نصوص الحماسة إلى شرح أسمائها وأعلامها فضلاً عن استطراداته الكثيرة في اللغة مما أثاره أبو رياش في شرحه من أخبار تاريخيّة ، وما يتصل بها من أشعار كان أبو العلاء يقف عندها ويشرح ما فيها من لغة وأعلام ، هذا فضلاً عن أن أسلوبه لم يكن أدبياً يعنى فيه بصوغ عباراته وسبكها بما يكسبها شيئاً من الايحاءات التي تثير المتعة لدى القارىء ، وانما كان يعمد إلى أسلوب فصيح خال من الزخرفة والصياغة يؤدي به أفكاره ومعانيه .

كذلك اختلف أبو العلاء عن أصحاب المنهج التتبعي التقويمي ، لأنه لم يقصد من شرحه أن يتتبع أبا رياش في عمله ويقوّم ما فيه من أخطاء ، وانما قصد منه أن يسد ما فات على أبي رياش توضيحه من حيث ان أبا رياش كان يجنح إلى الأخبار التاريخيّة في المقام الأول ، ففاتت عليه جملة من عناصر الشرح حاول أبو العلاء أن يكون له عمل فيها ، وفق ثقافته وهواه .

وطبيعي أن يختلف عمل أبي العلاء عن أصحاب المنهج التجميعي الانتخابي ، وأصحاب المنهج التسهيلي الاختصاري ، فنقولات التبريزي المسهبة المستطردة دلت على أنه لم يكن تسهيلياً اختصارياً قط ، كما أنه إذا كان قد نظر في شروح سبقته فإنه لم يكن ينظر فيها لينتخب منها شرحه ، وإنما ليناقشها ويبيّن رأيه فضلاً عن أنه كان في عمله ابتكارياً يكد ذهنه ليبرز لنا جهده وعلمه ودرايته ، في حين أن الانتخابيين كما رأيناهم في عمل التبريزي وغيره كانوا بعيدين عن هذا كله ، إلّا في مواضع قليلة لا تقاس بما قام به أبو العلاء في عمله .

الفصل الثاني

ظواهر عامة في أعمال الشراح

وبعد فلقد وقفنا على مناهج الشراح في الحماسة إلى نهاية القرن السادس الهجري ، وطبّقنا هذه المناهج على شروحهم ، ما وصل منها كاملاً وغير كامل ، ووقفنا بالدراسة على عناصر الشرح التي انتهوا إليها في ذلك الزمن ، ومدى ما حققوه من عمل فيها .

لقد كانت رحلة طويلة مع أعمال هؤلاء الشراح ، ودراسة ذات نظرة موازنة ، متشعبة متلاحقة كشفت عن المتشابه والمختلف ، وعن الابداع والابتكار ، والتقليد والاتباع ، وعن الجهد الذي يدل على عمق واعمال فكر ، والذي يدل على سطحيّة وعدم نفاذ ، وكشفت مع هذا كله عن مدى ما اضطلع به هؤلاء الشراح من ثقافات ، وما تسلط عليهم من أهواء ونزعات ، وما رموا اليه من أهداف وغايات .

ولقد كنا ونحن نلحظ هذه الجوانب التي كشفتها الدراسة وتتابع الأعمال بنظرتنا الموازنة نلحظ ايضاً ظواهر عامة كانت الدراسة والمتابعة تكشفها واحدة تلو الأخرى ، حتى بلغت في الاحصاء ستاً . . . وهي ظواهر تتصل بشرح شعر الحماسة ، تمسّ المتن ، والمادة التي خلفّها الشراح في شروحهم ، وتمس الشراح أنفسهم وما نقلوه في أعمالهم مما كان ينبغي التوجه اليه بالشرح والتفسير .

ولأنها ظواهر لا تتصل بشعر الحماسة وشرحه فحسب بل يتصل بعضها بشرح الشعر القديم عامة رأينا ان نفرد لها هذا الفصل ، نناقشها ونبيّن وجهة نظرنا فيها ، وهي كما بدت لنا يمكن تصنيفها في مجموعات ثلاث . الأولى تتصل بمتن الحماسة ، وتضم ظاهرتين ، ، إحداهما : ندرة رجوع الشراح إلى الأصول في رواية المتن ،

الأخرى تغاضيهم عن مناقشة النحل في المتن المختار من قبل أبي تمام . أما المجموعة الثانية فتتصل بالمادة التي خلّفها هؤلاء الشراح ، وتضم ثلاث ظواهر ، إحداها : الاستطراد والتوسع في بعض عناصر الشرح ، والثانية طغيان اللغة والنحو في عمليّة الشرح ، والثالثة إغفال الشاعر والعوامل النفسية الموحية له بالشعر. وأما المجموعة الثالثة والأخيرة فتتصل بالشراح أنفسهم ، وتشمل على ظاهرة واحدة هي : تسلّط نزعاتهم وأهوائهم في أعمالهم التي خلّفوها لنا في الحماسة .

- ١ -

في متن الحماسة

أ ـ ندرة رجوع الشراح إلى الأصول في رواية المتن :

وهي ظاهرة شملت سائر الشروح على مختلف مناهجها ، إذ أن شراح الحماسة كانوا إذا عالجوا رواية المتن عالجوها من خلال نسخ الحماسة التي لديهم أو نسخ الشروح التي وقفوا عليها وأفادوا منها ، فالنمري مثلاً كان كثيراً ما يشير إلى رواية الديمرتي وغيره في شرحه ، والى رواية شيخه أبي رياش[١] ، والمرزوقي كان يرجعنا إلى نسخ الحماسة مختلفات المصادر[٢] ، كما كان ينظر إلى رواية ابن جني في كتاب « التنبيه » ويناقشها[٣] . وابن جني نفسه كان إذا ناقش الرواية ناقشها من خلال ما قرأه فيها من أعمال شراح سبقوه ، لا يشير إليهم بالاسم ولكن يدل عليهم من خلال عمله ، وكذلك كان يشير إلى رواياته التي أخذها بالسماع من الشيوخ[٤] . وأبو هلال العسكري كان يناقش الرواية في غلبة عمله من وجهة نظر لغويّة أو إعرابية أو غيرهما من معايير الرواية دون أن يرجع إلى أصل من أصول متن الحماسة ، وما رسالته « ضبط مواضع من الحماسة » ببعيدة عنا . وأبو محمد الأعرابي كان يعتمد

(١) ينظر مثلاً الأوراق ١١٢ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، من مخطوطة مختصر معاني أبيات الحماسة .

(٢) ينظر شرحه ق١ : ٢٢٥ .

(٣) نفسه ق ١ : ٨٦ .

(٤) مخطوطة التنبيه الورقة ١٦٩ ، وفيها سماع له في رواية بيت للعباس بن مرداس.

اعتماداً دائماً على شيخه أبي الندى . وأبو العلاء المعري كان يشير إلى نسخ الحماسة ويقول : « ويقع في بعض النسخ كذا . . . . . »[١]. أما التبريزي وغيره من أصحاب المنهج التجميعي الانتخابي فقد كان موقفهم من متن الحماسة هو موقف الشروح التي انتخبوا منها أعمالهم ، وجلها مما ذكرناه آنفاً ، فهم قلّ أن يرجعوا إلى الأصول المتمثلة في أشعار القبائل ودواوين الشعراء ، ولم نجد لهم في هذا الخصوص سوى إشارات طفيفة لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، منها إشارة ابن جني التي مرت بنا في بيت تأبط شراً القائل :

فَأُبْتُ إلى فَهْمٍ ولَمْ أَكُ آيِبا ... وكَمْ مِثْلِهَا فَارَقْتُهَا وَهْيَ تَصْفِرُ

فقد قال فيه : « أن الرواية في ديوان الشاعر بالخط القديم (وما كدت آيبا) »[٢]، واشارة ثانية له في رواية بيتين لأبي الربيس[٣] قال : إنه وجدهما بخط أبي موسى في ديوان أبي الربيس[٣]. واشارة ثالثة لأبي هلال العسكري في القطعة التي نسبها أبو تمام الى المثلّم بن عمرو التنوخي ، فقد قال فيها : « هذا الشعر في أشعار هذيل للبريق بن عياض الهذلي »[٤]. واشارة رابعة لزيد بن علي الفارسي في القطعة الأولى من باب الرثاء التي نسبها أبو تمام لأبي خراش الهذلي قال فيها : « ان هذا الشعر ليس في ديوان أبي خراش »[٥].

ونحن لا نجد تعليلاً لهذه الظاهرة سوى أنهم قد شغلوا بالحماسة وروايات نسخها عن غيرها من مجاميع الشعر ودواوين الشعراء ، ولم يحاولوا أن يربطوا عملهم في متن الحماسة بمصادر الشعر الأخرى ، وهي مصادر لا يمكن القول بأنها كانت غير متوفرة لديهم في ذلك الزمن ، فهناك كتب وصلت إلينا كانت تشير إليها وتدل عليها ، والذي يقرأ كتاب المؤتلف والمختلف للآمدي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ يجد

---

(١) شرح التبريزي ١ : ١٤٩ .

(٢) مخطوطة التنبيه الورقة ١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، الورقة ١٧٦ .

(٤) ينظر شرح التبريزي ٢ : ١٩ .

(٥) ينظر القطعة الأولى من باب الرثاء في شرحه الذي حققناه في الكتاب الثاني .

إشارات متعددة إلى جملة من دواوين القبائل ودواوين الشعراء التي كان يرجع إليها في صنعته هذا الكتاب(٥) . وكذلك يمكن أن يجد ذلك لدى المرزباني المتوفى سنة ٣٨٤هـ ، فقد كان يشير إلى مصادر للشعر من صنع أبي سعيد السكري(٦) بل إن بعض هذه المصادر من مجاميع أشعار القبائل ودواوين الشعراء كانت موجودة لدى البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ ، وقد أوردها ضمن مصادر كتابه الخزانة في المقدمة التي صدّر بها هذا الكتاب(٧) . ومن ثمّ كان من المتيسرّ لهؤلاء الشراح أن يفيدوا من هذه المصادر في أعمالهم التي اتصلت برواية متن الحماسة بدلاً من أن يدوروا حول نسخ الحماسة وروايات الشراح فيها .

وفي إدراكنا أنهم لو فعلوا ذلك لحققوا أمرين . أحدهما : تجنب الوقوع في افتراضات لا معنى لها أثناء عمليّة الشرح حين يكون في الأبيات نقص ناجم عن اختيار بعض أبيات من قصيدة الشاعر وترك الباقي ، وذلك كما في أبيات عمرو بن معدي كرب الواردة في باب الحماسة ، فقد كان اختيار أبي تمام لها على هذا النحو :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الخَيْلَ زُوراً كَأَنَّها جَدَاوِلُ زَرْعٍ خُلِّيَتْ فاسْبَطَرَّتِ
فَجَاشَتْ إليَّ النَّفْسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرُدَّتْ عَلَى مَكْرُوهِهَا فاسْتَقَرَّتِ
عَلَامَ تَقُولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ سَاعِدِي إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا الخَيْلُ كَرَّتِ

فقد أخذ الشراح يبحثون عن جواب « لمّا » الواردة في البيت الأول ، فدخلوا في تأويلات لا طائل لها ، حتى المرزوقي صاحب المنهج الابداعي الفني وقف عندها وأطنب في القول حيث قال : « يجوز أن يكون الفاء في « فجاشت » زائدة في قول الكوفيين وأبي الحسن الأخفش ويكون جاشت جواباً للمّا ، والمعنى : لما رأيت الخيل هكذا خافت نفسي وثارت ، وطريقة جلّ أصحابنا البصريين في مثله أن يكون الجواب محذوفاً كأنه قال : لما رأيت الخيل هكذا فجاشت نفسي وردت على ما كرهته

---

(١) ينظر مثلاً المؤتلف الصفحات : ١٨ ، ٧١ ، ٨٤ , ٩٦ ، ١٠٤ ، ١٢٣ .
(٢) معجم الشعراء ص ٦٤ .
(٣) ينظر خزانة الأدب ١ : ١٨ ـ ٢٤ .

فقرّت طعنت وأبليت ، ويدل على ذلك قوله : « علام تقول الرمح يثقل ساعدي اذا أنا لم أطعن . . . » فحذف طعنت أو أبليت لأن المراد مفهوم » . ثم مضى يعدد الأمثلة من القرآن والشعر التي تدل على حذف جواب الشرط في الكلام إذا كان مفهوماً من السياق[1] .

وتبعه في ذلك الخطيب التبريزي حيث نقل كلامه بنصه بدون أين يضيف إليه شيئاً[2] ، ولم يكلّف أحد منهما نفسه بالرجوع إلى ديوان الشاعر لمعرفة ما إذا كان أبو تمام قد أسقط في روايته بيتاً من شعر الشاعر اشتمل على جواب « لمّا » ، حتى جاء البغدادي في الخزانة فأورد أبيات الحماسة على نحو ما رواها أبو تمام ثم قال : « هذا المقدار أورده أبو تمام في الحماسة ، وفي ديوانه أكثر من هذا » ثم مضى وذكر ما قاله الشراح في جواب « لمّا » وعلّق عليه بقوله : « وهذا تعسف نشأ من أبي تمام فانه حذف بيت الجواب اختصاراً كعادته ، لكن كان على الشارح مراجعة الأصل ، والجواب هو البيت الثالث المحذوف وهو :

هَتَفْتُ فَجَاءَتْ مِنْ زَبِيدٍ عِصَابَةٌ   إِذَا طُرِدَتْ فَاءَتْ قَرِيباً وَكَرَّتِ[3] »

أماالأمر الثاني الذي كان يمكن أن يحققوه من وراء الرجوع إلى الأصول فهو معرفة ما كان يختار أبو تمام وما كان يترك ، فهم قد ظلوا يرددون أن أبا تمام قد « اختطف الأرواح دون الأشباح » على حد تعبير المرزوقي[4] ، أو أن أبا تمام « في اختباره الحماسة أشعر منه في شعره » على حد التعبير الذي نقله التبريزي في مقدمة شرحه[5] . ولكن أحداً منهم لم يحاول أن يطبق هذه الأقوال في نص من نصوص الحماسة من خلال رجوعه إلى المصادر الأولى لشعر الحماسة ، ويدل في هذا النص على ما اختاره وما تركه ، ولماذا اختار ولماذا ترك ؟ . اننا لم نجد شيئاً من هذا من

---

(١) ينظر شرحه ق ١ : ١٥٩ .

(٢) شرحه ١ : ٨٣ .

(٣) ينظر خزانة الأدب ٢ : ٤٣٩ وما يليها .

(٤) ينظر مقدمة شرح المرزوقي ق ١ : ١٣ .

(٥) مقدمة شرح شرح التبريزي ١ : ٣ .

واحد منهم ، وانما وجدناه عند عالم من العلماء الذين لم يكن لهم عمل في الحماسة ، وهو ضياء الدين بن الأثير الذي ولد في النصف الثاني من القرن السادس وعاش في القرن السابع حقبة من الزمن حيث توفي سنة ٦٣٧هـ ، فقد تناول في كتابه « الاستدراك » هذا الجانب في عمل أبي تمام ، وقال بعد أن أكد أن أبا تمام إمام الناس شعراً ومعرفة بالشعر : « ولقد تأملت من الأشعار التي اختار كتاب الحماسة منها فوجدته دقيق النظر فيما أخذ ،وما ترك،وسأذكر من ذلك قطعة واحدة حتى يتبينّ م ذكرته ونبهت عليه ، وذلك أنه أورد في باب المراثي أبيات العتبي التي يرثي فيها بنيه وهي :

وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِيَّ مُشَاطِراً ... فَلَمَّا تَقضَّى شَطْرُهُ عَادَ في شَطْرِي

وَكُنْتُ بِهِ أُكْنَى فَأَصْبَحْتُ كُلَّما ... كُنِيْتُ بِهِ فَاضَتْ دُموعِي عَلى نَحْرِي

فَيَا لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَني ... سَبقْتُكَ اِذْ كُنَّا اِلى أَمَدٍ نَجْرِي

وَقَدْ كُنْتُ ذَا نَابٍ وَظُفْرٍ عَلى العِدَى ... فَأَصْبَحْتُ لاَ يَخْشَوْنَ نَابِي وَلاَ ظُفْرِي

ثم مضى قائلاً : « وهذه الأبيات قد اختارها من قطعة تشتمل على ثمانية أبيات فأخذ أربعة وترك أربعة . . . فأما الذي تركه فهو هذا :

لَقَدْ شَمِتَ الأَعداءُ بِي وَتَغَيَّرتْ ... عُيُونٌ أَرَاهَا بَعْدَ مَوْتِ أَبِي عَمْرِو

تَجَرَّا عَلَيَّ الدَّهْرُ لَمّا فَقَدْتُهُ ... وَلَوْ كَانَ حَيّاً لاَ جْتَرأْتُ عَلى الدَّهْرِ

أَسُكَّانَ بَطْنِ الأَرْضِ لَوْ يُقْبَلُ الفِدَا ... فَدَيْنَا وَأَعْطَيْنَا لَهُمْ سَاكِنَ الظَّهْرِ

فَيَا لَيْتَ مَنْ فِيهَا عَلَيْهَا وَلَيْتَ مَنْ ... عَلَيْهَا ثَوَى فِيهَا اِلى آخِرِ الدَّهْرِ

ثمّ بيّن علة اختيار تلك وطرح هذه فقال : « واذا وقف ناقد الشعر على الأبيات بجملتها رأى الجميع مختاراً ببديهة النظر ، فاذا أفكر وأنعم نظره في المأخوذ منها والمتروك ، علم حينئذ مقدار ما عند أبي تمام من نقد الشعر والمعرفة به . أما البيت الأول مما أخذه فليس في الأبيات ما يقوم مقامه لأن معناه منفرد برأسه ، وكذلك

البيت الثاني . أما البيت الثالث فانه مقام بيتين من المتروك هما « أسكان بطن الأرض » و « فيا ليت من فيها » ، وأما البيت الرابع فانه يقوم مقام الأول المتروك »[1] .

فمثل هذا العمل لم نجده لدى شارح من شراح الحماسة لأنهم لم يحاولوا الرجوع إلى الأصول إلا في القليل النادر الذي كان قصدهم منه فحص الرواية في بيت من الأبيات لا البحث فيما اختاره أبو تمام ، ولو فعلوا ذلك ووقفوا على ما أسقطه أبو تمام من شعر الشعراء في قصائدهم التي كان ينتحل منها ، ورووا لنا هذا الشعر المتروك ـ وان لم يناقشوه ـ لأتاحوا لنا فرصة التعرف بجلاء على عمل أبي تمام في الاختيار والنظر فيه وفق هذا النحو الذي سلكه ابن الأثير .

ونحن لا ننكر أن جماعة من رواة الحماسة أو شراحها قد حاولت أن تضيف على ما اختاره أبو تمام من شعر في الحماسة مما وجدت في الكتب أو الدواوين ، وهو ما نفسر به عادة الزيادات التي تؤدي إلى اختلاف الرواية في متون الشراح حين نجد تفاوتاً في عدد أبيات القطع لدى شارح وآخر ، غير أن هذه الجماعة لم تكن تشير إلى هذه الاضافات وتدل عليها بل كان الواحد منها يورد ما يورده كأنه من اختيار أبي تمام ، أو هكذا وجده في النسخ التي اعتمدها في عمله ، ومن هنا كان صنيع هذه الجماعة مشكلاً آخر أدى إلى اختلاف في عدد أبيات القطع التي اختارها أبو تمام فضلاً عن المشكل الناجم عن اختلاف ألفاظ الأبيات على أكثر من وجه في روايات هؤلاء الشراح .

ب ـ تغاضيهم عن قضية النحل في متن الحماسة :

وهي ظاهرة كان السبب في لفت نظرنا إليها قطعتان من الحماسة إحداهما في باب الرثاء وهي اللاميَّة المعروفة بلاميَّة العرب ، والتي نسبها أبو تمام إلى تأبط شراً ، وقيل : إنها لابن أخته في رثائه[2] ، ونسبها أبو الفرج في الأغاني والشريف المرتضى

---

(١) الاستدراك في الأخذ على المآخذ الكنديّة من المعاني الطائيّة ص ٢٣ .

(٢) شرح التبريزي ٢ : ١٦٠ .

في أماليه الى الشنفري[1] . والأخرى في باب النسيب صدرها أبو تمام بقوله : « وقال آخر ، وقال أبو رياش : إنها مولدة »[2] .

فأما هذه الأخرى فلم نجد في شأنها سوى هذه الاشارة التي وردت عن أبي رياش والتي لم يوضح فيها لم قال هذه العبارة ؟ فأبو تمام لم ينسبها إلى شاعر قديم حتى يقال فيها هذا القول . ولم يذكر أبو عبدالله النمري - تلميذ أبي رياش - شيئاً عنها . . . حتى أبو العلاء المعري الذي أقام شرحه « الرياشي المصطنعي » على شرح أبي رياش ، لم يصل إلينا عنه شيء في أمرها . وكذلك التبريزي الذي نقل لنا قول أبي رياش لم يوضح لنا لماذا هي مولدة ، وهناك آخرون وقفوا على شرح أبي رياش وأفادوا منه ورد ذكرهم في الفصول السابقة مثل زيد بن علي وأمين الدين الطبرسي ، وصاحب الشرح المنسوب خطأ لأبي العلاء لم يولوا هذا الأمر اهتماماً في عملهم ، ونحن لا نستطيع أن نقول فيه شيئاً لأن صاحب الشعر مجهول لدينا ، فأبو تمام لم ينسبه إلى احد ، ولم يبت أحد من الشراح الذين وقفنا على شروحهم في أمر نسبته ، ومن ثم فانه إذا جاز لنا أن نتكلم في هذه القطعة بشيء فهو أن رواية أبي تمام لها في الحماسة لا تدل على قدمها ، فأبو تمام - كما هو معلوم - قد روى في الحماسة شعراً قديماً وشعراً محدثا ، فلماذا لا يكون هذا الشعر محدثاً رواه أبو تمام ، ولم يشأ أن يذكر صاحبه ، فكان ما قاله أبو رياش في شأن توليده ؟ ! .

غير أن الذي يهمنا هنا هو القطعة الأولى التي رواها أبو تمام ودلّ على أنها من شعر الجاهليّة ، فقد توالت إشارات الشراح إلى انها منحولة من صنع خلف الأحمر وهي اشارات جاءت متباينة في الزمن ، بدأت عند أبي عبدالله النمري المتوفى سنة ٣٨٥هـ ، حين ذكر في شرحه أنها لخلف الأحمر وساق دليلاً على ذلك هو قوله : « جلّ حتى دقّ فيه الأجل »قال : « إن الاعرابي لا يكاد يتغلغل إلى مثل هذا »[3] . ثم جاء الامام المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ ، ونسبها تبعاً لأبي تمام إلى تأبط شراً ، ثم

---

(١) الأغاني ٥ : ١٦٢ ، وأمالي المرتضى ١ : ٢٨٠ .

(٢) شرح التبريزي ٣ : ١٦١ .

(٣) شرح التبريزي ٢ : ١٦١ .

قال : « وذكر أنها لخلف الأحمر وهو الصحيح »[1]. وردّ أبو محمد الأعرابي المتوفى سنة ٤٣٦هـ على دليل النمري السابق بقوله : « ليس هذا كما ذكر بل الأعرابي قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظاً ومعنى ، وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذي ذكره لنا أبو الندى قال : « مما يدل على أن هذا الشعر مولّد أنه ذكر فيه « سلع » وهو بالمدينة وأين تأبط شراً من « سلع » ؟ وانما قتل في بلاد هذيل ورمي به في غار يقال له رخمان »[2] . ونسب زيد بن علي الفارسي المتوفى سنة ٤٦٧هـ القطعة الى الشنفرى ، وأشار بأنه ابن أخت تأبط شراً ، ثم أضاف « أن المبرد قال : انها لخلف الأحمر ، الا أنها تنسب إلى تأبط شراً »[3].

وأخيراً جاء الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ بمنهجه التجميعي الانتخابي فنقل ما قاله المرزوقي وأضاف « وقيل : قال ابن أخت تأبط شراً » ثم نقل كلام النمري ورد أبي محمد الأعرابي عليه دون أن يعقب على ذلك بشيء[4].

ومع هذه الاشارات التي توالت في هذه الشروح عبر فترات متباعدة ، صدرت خلالها شروح أخرى تدخل في دائرة الفترة الزمنيّة التي حددناها لهذا البحث ، فاننا لم نجد شارحاً من الشراح تناول هذه القضية بشيء من المناقشة والتفصيل وابداء رأي قاطع فيها . فأبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥هـ لم يصل إلينا عنه شيء فيها ، وكذلك أبو العلاء المعري المتوفى سنة ٤٤٩هـ ، وصحيح أن شرحي هذين العالمين لم يصلا إلينا ، ولكن كلا من الشرحين كان من الشروح التي انتخب منها التبريزي شرحه ، فلو أورد لأبي هلال أو لأبي العلاء كلام في هذه القضية لنقله التبريزي ، ولما اكتفى بنقل كلام النمري ورد أبي محمد الأعرابي عليه ، وكذلك لم يقف عند هذه القضية شراح القرن السادس أمين الدين الطبرسي

---

(١) شرحه ق ٢ : ٨٢٧ .

(٢) ينظر مخطوطة كتابه « اصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله » الورقة ١٧ .

(٣) ينظر شرحه في الكتاب الثاني من هذا البحث القطعة ١٢ من باب الرثاء .

(٤) شرح التبريزي ٢ : ١٦٠ وما يليها .

المتوفى سنة ٥٤٨هـ ، وأبو الرضا الراوندي المتوفى بعد سنة ٥٤٩هـ ، وصاحب الشرح المنسوب إلى أبي العلاء الذي رجحنا أنه من علماء القرن السادس .

إن ما قاله النمري من دليل على كون هذه القصيدة منحولة غير مقنع ، وكان يستدعي الوقوف والتعليق من قبل هؤلاء الشراح لا سيما أبو العلاء والتبريزي والطبرسي الذين وقفوا على شرحه ، وما قاله أبو محمد الأعرابي من أن الأعرابي قد يتغلغل إلى أدق من عبارة « جلّ حتى دقّ فيه الأجل » لفظاً ومعنى صحيح لا قول فيه ، بدلالة ما ذكره الدكتور عبدالله الطيب المجذوب أنك : « لو فتشت عما في الشطر « جلّ حتى دق فيه الأجل » من معنى لم تجده يزيد شيئاً عن كلمة امرىء القيس الكندي » ألا كل شيء سواه جلل »[1] . غير أن أبا محمد الأعرابي وقد أبطل كلام النمري بما نعتبره صحيحاً ، ذهب بعيداً جداً حين اعتمد كلام شيخه الرامي إلى أن القصيدة مولدّة منحولة لأن فيها ذكر « سلع » وهو بالمدينة وتأبط شراً قتل ببلاد هذيل فهذا القول أضعف بكثير مما قاله النمري ، فقول النمري قد تجد له تأويلاً ومخرجاً على نحو ما فعل الدكتور عبدالله المجذوب حين ذهب إلى أن لفظ الشعر فيه لف ودوران مخالف لطريقة الجاهلية ، وان هذا ما أراده النمري من قوله »[2] أما كلام أبي محمد الأعرابي فلا مخرج له البتة ، والرد عليه ـ كما أفاد الدكتور ناصر الدين الأسد ـ لا يحتاج منا إلى أكثر من أن نفتح القاموس للفيروز أبادي أو معجم البلدان لياقوت لنجد فيه أن « سلعا » اسم لعدة مواضع ومنها « جبل لهذيل »[3] .

ونحن لا نريد أن نخوض في غمار هذه القضية ومناقشة ما أثاره المعاصرون فيها ، فقد تعرض لها بروكلمان ونقل آراء من سبقه من المستشرقين فيها وانتهى إلى الوقوف مع القول القائل بجاهليتها[4] . وتصدى لها الدكتور عبدالله المجذوب وذهب إلى القول بجاهلية بعضها وتوليد بعضها[5] وبحث فيها الدكتور ناصر

(١) المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها ١ : هامش ٧٤ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة ذاتها .
(٣) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص ٤٦٠ .
(٤) تاريخ الأدب العربي ١ : ١٠٦ وما يليها .
(٥) المرشد الى فهم أشعار العرب هامش ص ٧٥ .

الدين الأسد في شيء من التفصيل ، وانتهى إلى القول بأنها جاهليّة صحيحة وليست منحولة[1] .

لا نريد أن نتعرض بالحديث لهؤلاء الباحثين فليس هذا موضعه ، وانما نريد أن نؤكد أن هؤلاء الشراح الذين تصدوا للحماسة بالشرح قد شكلوا ظاهرة عامة في موقفهم من شأن هذه القصيدة حين اكتفى بعضهم بترديد القول القائل بأنها لخلف الأحمر، وأتى اثنان منهم بكلام لا يقوم على ساق، وكان على الشراح الذين جاءوا بعدهما أن يناقشوه ويبيّنوا خطأه وتهافته على النحو الذي رأيناه عند المعاصرين بعد، ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأن قضية النحل في متن الحماسة لم تكن ـ فيما يبدو من أعمالهم ـ موضع بحث ودرس لديهم .

ـ ٢ ـ

في مادة الشروح

أ ـ التوسع والاستطراد

وهي ظاهرة كان رصدنا لها مستمراً في سائر الشروح ذات المناهج المختلفة ، ابتداء من المنهج الفني الابداعي ، وانتهاء بالمنهج الاختصاري التسهيلي ، غير أنها جاءت على تفاوت في هذه الشروح . فالنمري الذي ركزّ جهوده في الروايات والمعاني كان يتوسع في ايراد المعاني فيورد للبيت الواحد أكثر من تأويل في معناه ولكنه كان لا يستطرد في عمله كما كان يفعل الشراح الآخرون . والمرزوقي بمنهجه الابداعي الفني كان يحاول جاهداً أن يوظف سائر العلوم في خدمة النص توظيفاً محكماً ، وقد استطاع أن يحقق ذلك في غلبة عمله ، ومع ذلك فقد لاحظناه يقع في التوسع والاستطراد في أكثر من موضع ، ويكفي أن تقرأ عمله في بيتي أبي عطاء السندي اللذين يقول فيهما :

فَإِنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِنَاءِ فَرُبَّمَا ... أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الوُفُودِ وُفُودُ
فَإِنَّكَ لَمْ تَبْعُدْ عَلَى مُتَعَهِّدٍ ... بَلَى كُلُّ مَنْ تَحْتَ التُّرَابِ بَعِيدُ

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ، الصفحات ٤٥٨ ـ ٤٦١ .

لتدرك مدى توسعه واستطراده في مناقشته جواب شرط « إن » الوارد في صدر البيت الأول ، فقد بالغ في التوسع والاستطراد في الشرح وضرب الأمثلة[1] .

ومثل هذا التوسع والاستطراد يمكن أن تلحظه في عمله الذي أداه في شرح تركيب « وبعض الشر أهون من بعض » الوارد في بيت أبي خراش الهذلي[2] ، غير أن ما صدر عنه من توسع واستطراد كان غالباً في مجالي اللغة والنحو[3] . أما بقية عناصر الشرح الأخرى التي تعاطاها في شرحه فقد كان عمله فيها يتسم بالدقة والاحكام البعيدين عن هذه الظاهرة .

أما أبو العلاء المعري فالحق أنه، ومن خلال ما وصلنا عنه في شرح التبريزي، كان أكثر الشراح توسعاً واستطراداً ، فهو في شرحه لأسماء شعراء الحماسة والأعلام الواردة في أبياتها كان كثيراً ما يتجاوز المادة التي يناقشها إلى مواد أخرى تتصل بها ، وكذلك لاحظنا منه ذلك في جملة من قضايا النحو والاعراب والعروض ، فضلاً عن إسهابه المتكرر في مناقشة تأويلات المعاني وتراكيب النصوص ، ولعلك حين ترجع إلى ما ذكرناه في دراستنا لشرحه « الرياشي المصطنعي » والى تعرضنا له بالحديث في منهج التبريزي تلميذه الذي كان يتابعه في الاستطراد والتوسع ، تجد من الأمثلة ما يدل على كثرة استطراده وتوسعه ، بل إنك تجد أنه لم يكن يتوسع ويستطرد في الأعمال الخاصة بنصوص الحماسة فحسب بل يتجاوز ذلك إلى التوسع والاستطراد في شرح ما كان يثيره أبو رياش في شرحه من أقوال وأخبار شعر .

ومثله في هذا ابن جني في القضايا اللغوية والنحوية التي كان يثيرها في كل من المبهج والتنبيه ، والأمثلة على توسعه واستطراده كثيرة لا حصر لها . يمكنك أن تلم بها إذا نظرت في أعماله في المبهج في شرح أسماء « نهار بن توسعة »[4] و « ريطة بن

---

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٨٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ق ٢ : ٢٩٥ .

(٣) ينظر مثلاً استطراده وتوسعه في المجالين معاً ، الصفحات ١٣٢ ، ٢٢٤ ، ٥٥٠ ، ٦٩٦ ، ٧٨٥ .

(٤) المبهج ص ٤٣ وما يليها .

عاصم»[1] و«أميّة بنٍ أبي الصلت»[2]، كما يمكنك أن تجدها في «التنبيه» في إثارته الخلاف بين سيبويه والأخفش وارسال الحديث متشعباً حين ينعكس هذا الخلاف في نص من نصوص الحماسة[3]. ولو أجريت نظرك في عمله الذي ناقش فيه بيت المنخل اليشكري القائل :

وَفَوَارِسٍ كأُوَارِ حَرِّ النّارِ أَحْلاسِ الذُّكُورِ

لوجدت توسعاً واستطراداً ملحوظاً في هذا العمل[4].

واذا كان ابن جنى بمنهجه العلمي التخصصي قد برز لديه التوسع والاستطراد فان أبا محمد الأعرابي بمنهجه التتبعي التقويمي قد كان في بعض عمله الذي تتبع فيه أبا عبدالله النمري يقع في التوسع والاستطراد ، وبخاصة في ايراده قصص الشعر وأخبار الشعراء وذكر ما فيها من شخصيات وأشعار[5].

أما التبريزي ذو المنهج التجميعي الانتخابي الذي يقوم على استيفاء عناصر شرحه من الشروح التي سبقته ، وتقديمها في ثوب منسّق مشذّب ، فقد رأيناه في مواضع متعددة ينجرف مع شيخه أبي العلاء في التوسع والاستطراد ، كما كان يسوّد العديد من الصفحات بأخبار الشعر ومناسباته التي كان ينقلها من شرح أبي رياش فضلاً عن جنوحه المستمر إلى النحو وما فيه من تشعب واستطراد[6].

إن الشراح الذين يفترض أن تكون أعمالهم خالية من هذه الظاهرة هم أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي ، ومع ذلك فاننا لاحظنا في بعض عملهم

---

(١) نفسه ص ٤٨ وما يليها .

(٢) نفسه ص ٦٦ وما يليها .

(٣) ينظر مثلاً الأوراق ١٢ ، ١٩ ، ٩٦ ، ١٨٤ من مخطوطة كتاب التنبيه .

(٤) المصدر السابق الورقة ٨٦ وما يليها .

(٥) ينظر مثلاً الأوراق ٢ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ من مخطوطة كتابه « اصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » .

(٦) يراجع الأمثلة التي عرضناها في دراسة شرحه ، كما يراجع دراستنا لشرح زيد بن علي في الكتاب الثاني ، فقد تعرضنا له هناك .

إسهاباً وتوسعاً ، وهو إسهاب وتوسع ـ وان جاء في قلة لا تخرجهم عن حد المنهج الذي ساروا فيه ـ فانّه دلّ على أن هذه الظاهرة قد كان لها أثرها في أعمالهم ، وهو أمر كنا قد أشرنا إليه في دراستنا لهم في شرح كل من البياري وصاحب الشرح المنسوب خطأً إلى أبي العلاء ، كما نوهنا له في دراستنا لشرح زيد بن علي في كتابنا الثاني من هذا البحث[1] .

ويمكن القول بأنه لم يسلم أحد من أصحاب هذا المنهج من هذه الظاهرة سوى الأعلم الشنتمري الذي شرح حماسة من صنعه تعد بعيدة عن حماسة أبي تمام ، وان اشتملت على جملة من نصوصها .

على أننا إذا بحثنا عن علة غلبة هذه الظاهرة على شروح شراح الحماسة وجدنا أنها ترجع إلى التأثر بأعمال الشراح الذين تخصصوا في شرح الشعر الجاهلي ، فقد ذكر الدكتور أحمد جمال العمري أن شراح الشعر الجاهلي الذين ظهروا في القرن الرابع ـ وهو القرن الذي صدر فيه جل شروح الحماسة ـ قد أدركوا أن القصد من شرح الشعر هو التعليم والتثقيف إلى جانب الإمتاع . ومن ثم رأوا « أن من الواجب عليهم أن يوسعوا دائرة نشاطهم ، ويحللوا ، ويدققوا ، ويسهبوا في شروحهم ، ويستطردوا لتشمل كل ما يتصل بالنص من قريب أو بعيد ، روايات وتفسيرات لغوية ، وتوضيحات نحويّة ، وتحليلات نقديّة ، ونظرات بلاغيّة ، وأخبار وأنساب وأحداث ، وبذلك وضعوا أمام قارئ شروحهم وطالب علمهم مائدة ضخمة تضم أدسم المواد العلميّة التي هي حصيلة الجمع والجهد »[2] .

واذا كان هذا هو شأن الشعر الجاهلي في القرن الرابع وفهمهم لعمليّة شرح الشعر فمن الطبيعي أن ينعكس ذلك على شراح الحماسة من حيث إننّا سبق أن أوضحنا عند حديثنا عن حركة تطور شرح الشعر عامة أن شراح الحماسة لم يكونوا بمعزل عن هذه الحركة بل إن جماعة منهم قد أسهمت ـ بجانب عملها في الحماسة ـ في شرح الشعر القديم الجاهلي والاسلامي في اختيارات غير الحماسة ودواوين الشعراء .

---

(١) يراجع دراستنا له في اسهابه القليل في النحو في مناقشتنا لمعالجته عناصر شرح الشعر .

(٢) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٢٧٦ .

ان هذا التوسع والاستطراد الذي طرأ على حركة شرح الشعر لدى شراح القرن الرابع الهجري ، هو الذي جعل الخطيب التبريزي في النصف الثاني من القرن الخامس يلبي رغبة أحد طالبي علم الأدب في صنع شرح خال من التوسع والاستطراد ، ويقول مخاطباً إياه في مقدمته لشرح القصائد العشر : « وذكرت أن الشروح التي لها طالت بإيراد اللغة الكثيرة والاستشهادات عليها ، والغرض المقصود منها معرفة الغريب ، والمشكل من الاعراب ، وايضاح المعاني ، وتصحيح الروايات وتبيينها مع الاستشهادات التي لا بدّ منها من غير تطويل يمل ولا تقصير بالغرض يخل »[1] .

غير أن التبريزي وهو يقول هذا الكلام لأحد طلاب عصره ، ويدرك حاجة الناس في زمنه إلى ترك التوسع والاستطراد في شرح الشعر لم يسلم من هذه الظاهرة . الحق أنه قد حاول في مواضع كثيرة في شرحه أن يكون مقتصداً منسقاً في انتخابه من الشروح التي سبقته ، ولكنه مع هذا لم يستطع التخلص من التأثير الذي تسلّط عليه من قبل شيوخه الذين درس عليهم أو الشيوخ الذين قرأ أعمالهم ، وأفاد منها في شروحه .

وهذا الذي قلناه في التبريزي يمكن أن يقال في سائر الشراح ذوي المناهج المختلفة ، وبخاصة شراح المنهج الاختصاري التسهيلي الذين أدركوا ما أدركه التبريزي ، وعملوا على التخلص مما كان سائداً في شروح الحماسة وغيرها من توسع واستطراد باقامة منهج يقوم على اختصار عناصر الشرح ، وعرضها سهلة ميسرة ، فهم أيضاً لم يسلموا من التأثر بهذه الظاهرة ، وان جاء هذا التأثر متفاوتاً ، وفي قلة لا تقاس بأصحاب المناهج الأخرى .

ب ـ طغيان اللغة والنحو في عمليّة الشرح :

لاشك أن اللغة والنحو من العلوم التي تعين على فهم النص الشعري بل هما أمران مهمان في قراءة النص قراءة صحيحة ، من حيث إن القراءة الصحيحة تعد

---

(١) ينظر مقدمة شرح القصائد العشر ، تحقيق فخر الدين قباوة ص ١٧ .

أولى العتبات التي يصعدها القارئ الدارس للوصول إلى فهم النص ، ولهذا استعان بهما الشراح في تحليل النص ، قصداً إلى ابراز معانيه ، غير أن هذه الاستعانة ينبغي ألّا تكون هي الغالبة المستأثرة بجهد الشارح وكدّ ذهنه في عمليّة الشرح ، هذه بديهة من البديهات لا تحتاج إلى وقوف وابانة ، ولكننا ونحن نقرأ شروح الحماسة التي قام عليها بحثنا لاحظنا ان غلبة أصحابها كثيراً ما يجنحون إلى التفسير اللغوي والنحوي في معالجة النص ، الأمر الذي يجعلهم يغضون النظر عن العناصر الأخرى وهي عناصر لها قيمتها في تحليل النص وتبيان معانيه ، ومن ثم صار هذا الجنوح المطرد ظاهرة عامة انتظمت غلبة الشراح في أعمالهم التي قرأناها لهم .

ونحن هنا لا نعني أصحاب المنهج العلمي التخصصي ، لأن هؤلاء قد بنوا منهجهم في المقام الأول على معالجة القضايا اللغويّة والنحويّة التي تثيرها أبيات الحماسة ، واذا كان هذا هو حالهم فمن الطبيعي أن نجد اللغة والنحو يطغيان على أعمالهم ويملكان الغلبة الغالبة من جهودهم .

وكذلك لا نعني أصحاب المنهج التتبعي التقويمي لأن أصحاب هذا المنهج يقوم عملهم - كما وضحنا من قبل - على تتبع أعمال السابقين وتقويم ما فيها من أخطاء وأوهام ، فهم في أعمالهم يسيرون وفق ما يتتبعونه ويصلحونه لغةً كان أو نحواً أو روايةً أو معنىً ، أو خبراً ، إلى غير ذلك من الجوانب التي تكون مثار التتبع والتقويم .

إن الشراح الذين نعنيهم بهذه الظاهرة هم أصحاب المناهج الثلاثة الأخرى : المنهج الإبداعي الفني ، والمنهج التجميعي الانتخابي ، والمنهج الاختصاري التسهيلي ، فأصحاب هذه المناهج تقوم أعمالهم على صفات ومقومات لا تقتضي وجود هذه الظاهرة ، لأننا لو رجعنا إلى ما قلناه في شرح هذه المناهج لوجدنا أن من أهم صفات المنهج الابداعي الفني أنه يقوم على دعامات فنيّة ومقومات أدبيّة تتآزر وتأتلف لتخدم النص الشعري . وأن الشارح في هذا يوظّف معارفه العلميَّة وقدراته الأدبية في فنيَّة وابتكار توظيفاً محكماً تكون حصيلته النهائيَّة إبراز المعنى

على أكمل وجه وأتم صورة . وبهذا لا يكون عمله مجرد تقديم مادة لغوية أو نحوية هي في واقع الأمر تحصيل حاصل أو تكرار لما قاله العلماء الأوائل .

ولوجدناأيضاً أن عمل الشراح التجميعيين الانتخابيين يقوم على جمع الشروح السابقة ، وانتخاب شرح منها تكون عناصر الشرح فيه وافية كاملة معروضة في ثوب من التنسيق والتهذيب والتشذيب بحيث لا يكون عنصر من العناصر طاغياً طغياناً يظهر للقارىء بوضوح أو يحرم العناصر الأخرى من الوجود .

ولوجدنا كذلك أن أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي ينبغي عليهم وقد اتخذوا هذا المنهج مرتكزاً لأعمالهم أن يعتمدوا اختصار المعلومات في الشرح مسلكاً ، والتسهيل في عرضها سبيلاً بحيث يقدمون سائر العناصر التي يقتضيها الشرح ولكن في صورة تختلف عن سائر الشراح ذوي المناهج الأخرى ، صورة قوامها التركيز القائم على الاقتصاد والايجاز الموصل إلى معنى النص بأقرب طريق وفي سهولة ويسر .

وبناء على هذه المقومات والصفات التي أجملنا الحديث فيها كان جنوح أصحابها نحو اللغة والنحو ظاهرة من الظواهر التي تستحق المناقشة والتعليل .

ونحن لا ننكر أن أصحاب هذه المناهج قد حاولوا جهدهم أن يوفروا لأعمالهم سائر المقومات والصفات التي تقوم عليها مناهجهم ، ولكنهم وهم يحققون ذلك لم يسلموا من أن يتغوّل عنصرا اللغة والنحو في بعض أعمالهم على عناصر الشرح الأخرى ، وذلك بسبب ميلهم وجنوحهم نحو العمل اللغوي النحوي .

فالمرزوقي مثلاً رأيناه في مواضع مختلفة من شرحه يند عنه شيء من الميل الى اللغة والنحو إلى درجة تجعل غلبة جهده في العمل التحليلي وقفاً عليهما كليهما أو أحدهما . ومن أمثلة ذلك عمله في بيت دريد بن الصمة القائل :

كَمِيشُ الازَارِ خَارِجٌ نِصفَ سَاقِهِ بَعِيدٌ عَنِ الآفَـاتِ طَلاَّعُ أَنْجُدِ

فقد جاء عمله في هذا البيت منصباً في غلبته على اللغة إلى درجة أنسته أن يورد

ما تضمنه البيت من معنى[1] . وكذلك الحال في بيتي الصمة بن عبدالله القشيري وهما :

حَنَنْـتَ إلى رَيَّا وَنَفْسُـكَ باعَدَتْ مَزارَكَ مِن رَيَّا وَشَعْبَـاكُما مَعَا
فَمَا حَسَـنٌ أَنْ تَأْتِـيَ الأَمْـرَ طَائِعا وَتَجْـزَعَ أَنْ دَاعِـي الصَّبابَـةِ أَسْمَعَا

فقد جاءت غلبة عمله المطلقة فيهما في مجالي اللغة والاعراب بحيث أخذ ذلك من عمله نحو عشرين سطراً، في حين أن عرض المعنى لم يأخذ منه سوى ثلاثة أسطر . هذا فضلاً عن إغفاله تصوير الجو النفسي الذي دفع الصمة إلى هذا القول والأسلوب البلاغي الذي شمل البيتين من مخاطبة النفس بهذا العتاب في موقفيها النقيضين: مفارقتها رَيَّا في طوع واختيار ، وحنينها إليها وجزعها عليها في شوق ووله ، وتسلل الشاعر بأسلوبه هذا إلى عاطفة القارىء ، يحركها للتجاوب المستحب[2] .

وإذا كان المرزوقي يجنح إلى اللغة والنحو في قلة وفي مواضع يمكن أن تحصى ، فإن التبريزي ذا المنهج التجميعي الانتخابي كان جنوحه نحو اللغة والنحو مطرداً ، ولقد سبق أن ناقشنا هذا الجنوح في عمله عند دراسة منهجه، حيث رأيناه في مواضع عديدة يميل في عمله إلى النحو خاصة ، إلى درجة تدفعه أحياناً إلى أن ينقل في شرحه ما أورده المرزوقي من عمل في النحو ، مكتفياً به عن سائر العناصر الأخرى[3] ، ولو قرأنا عمله في بيت سعد بن مالك الذي يقول فيه .

يَا بُؤْسَ لِلْحَـرْبِ الَّتِي وَضَعَـتْ أَرَاهِـطَ فاسْتَرَاحُوا

لوجدنا أن ما نقله من النحو في شرحه من الشروح التي كان ينتخب منها قد أحال تنسيق العناصر إلى تغول واضح للنحو ، إذ جاء نقله فيه واحداً وعشرين

(١) ينظر شرحه ق ٢ : ٨١٨ وما يليها .
(٢) المصدر نفسه ق ٣ : ١٢١٥ وما يليها .
(٣) ينظر المثال الذي أوردناه له في هذا الخصوص في دراسة منهجه ، وينظر ٢ : ١١٢ ، ٣: ٨٧ ، ١٠٥ ، ٤ : ٦٠ ففي هذه الصفحات اكتفاء بالنحو أو اللغة أو هما معاً .

سطراً ، وجاء ما نقله في معنى البيت سطراً واحداً(١) .

أما أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي لفلم يسلموا من سيطرة اللغة والنحو على بعض أعمالهم ، فلو قرأنا شروحهم لوجدناهم مع استيفائهم صفات منهجهم في غلبة أعمالهم فانهم في بعض الأحيان كانوا يميلون إلى اللغة والنحو ، بحيث يكون لهما الغلبة على عملهم ، ويكفي أن نورد مثالاً لكل واحد من هؤلاء حتى ندرك مدى جنوحهم في بعض الأحيان إلى هذين العنصرين . ففي الشرح المنسوب خطأ إلى أبي العلاء المعري نجد أن صاحبه قد وقف في بيت هشام بن عقبة الذي يقول فيه :

فَلَمْ يُنْسِنِي أَوْفَى المُصِيبَاتِ بَعْدَهُ ... وَلَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

ونقل عن ابن جنى قوله : « يحتمل في « أوجع » أمرين أحدهما أن يكون من يَوْجَعُ فحملها على الأول أقوى في الإعراب ، وحملها على الثاني أقوى في المعنى ، ذلك أنه إذا جعلتها من وَجعَ يَوْجَعُ كان معناه أن النكء نفسه وجعٌ فأسندت الوجع إليه، مبالغة كقولهم: جنّ جنونه ، وضلّ ضلاله، وموت مائت . والآخر أن يكون قياسه أشد إيجاعاً كقولك : هو أشد إكراماً له من غيره ، غير أنه حذف همزة « أوجع » في الماضي ثم بنى منه أفعل إلى معناها للمبالغة » ولم يزد على هذا العمل اللغوي البحت شيئاً يخدم به العناصر الأخرى في شرح النص التي من أهمها عرض المعنى(٢) .

وفي شرح البياري رأيناه يقف في البيت الأول من باب الحماسة القائل :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِبِلِي ... بنو اللَّقِيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا

فيسود صفحة كاملة في تراكيب «لو» في حالات النفي والاثبات شرطاً وجواباً دون أن يهتم بأن هذا يخرجه عن حد المنهج الذي رسمه لنفسه في مقدمته(٣) .

---

(١) ينظر المصدر نفسه ٢ : ٢٩ وما يليها .
(٢) ينظر مخطوطة هذا الشرح ، الورقة ٨٨ .
(٣) ينظر مخطوطة شرحه ، اللوحة ٢ .

أما زيد بن علي فالحق أننا رأيناه أقل أصحاب هذا المنهج ميلاً إلى أن يجعل اللغة والنحو يتغولان على عمله ، ومع ذلك فان في شرحه موضعاً يشهد بتأثره بهذه الظاهرة وعدم الخروج عن دائرتها .[1] وقد ناقشنا هذا الموضوع في الدراسة التي أقمناها حول شرحه وعناصره في الكتاب الثاني من هذا البحث .

واذا كنا قد أرجعنا الظاهرة السابقة المتمثلة في التوسع والاستطراد إلى تأثير شروح الشعر الجاهلي التي قام بها علماء القرن الرابع الهجري . فان هذه الظاهرة ترجع كذلك إلى هذا التأثير . فأنت تستطيع أن تجد شيوع اللغة والنحو في شرح أبي بكر بن الانباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ للقصائد السبع الطوال أو شرح أبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨هـ للقصائد التسع المشهورات . ويكفي أن تقرأ عمل ابن الأنباري في بيت طرفة بن العبد الذي يقول فيه :

وَبَــرْكٍ هجُــودٍ قَدْ أَثَــارَتْ مَخَافتي نَوَادِيَهــا أَمشِي بِعَضْــبٍ مُجَرَّدِ

أو عمله في بيت عمرو بن كلثوم القائل :

ذراعَــيْ عَيْــطَلٍ أَدْمَــاء بِكْرٍ تَرَبَّعَــتِ الأَجَــارِعَ والمُتُونَا

لتجد أن اللغة والنحو سيطرة كاملةً على عمل الرجل في شرح الشعر[2] .

ومثل ذلك يمكن أن نجد أيضاً في مواضع مختلفة من شرح أبي بجعفر النحاس[3] .

على أننا إذا بحثنا في شأن هذه الظاهرة وتسلطها على شراح الشعر الجاهلي في ذلك القرن ، وجدناها ترجع إلى أن جل العلماء الذين تتابعوا على شرح الشعر القديم كانوا من ذوي الاهتمام باللغة والنحو ، فأبو عمرو الشيباني المتوفى سنة

---

(١) هو عمله في الهجائية ٥٥ ، وقد أطال في النحو في البيت القائل :
أَقُــولُ حِـينَ أَرَى كَعْبــاً ولِحْيَتَــهُ لاَ بَارَكَ اللهُ في بِضْــعٍ وَسِتِّيــن

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢١٧ وما يليها « بيت طرفة » وص ٣٧٩ وما يليها « بيت عمرو » .

(٣) ينظر مثلاً شرحه ١ : ١٠٣ ، ٢ : ٣٦ ، ٧٩ .

٢٠٦هـ أو سنة ٢١٠هـ كان « عالماً باللغة حافظاً لها جامعاً لأشعار العرب »[(١)]، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٨هـ أو ٢٠٩، أو ٢١٣هـ « كان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها »[(٢)]، وعبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة ٢١٣هـ « كان صاحب النحو واللغة والغريب »[(٣)]، وابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣٢هـ يعد «أحفظ الناس للغات العرب»[(٤)]، وابن السكيت المتوفي سنة ٢٤٤هـ أو ٢٤٦ هـ «كان من أكابر أهل اللغة»[(٥)]، وأبو حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٠هـ « كان عالماً ثقة بعلم اللغة والشعر »[(٦)]، وأبو الفضل الرياشي المتوفى سنة ٢٥٧هـ، قال عنه المازني : « قرأ عليّ كتاب سيبويه وهو أعلم به مني »[(٧)]، وأبو سعيد السكري المتوفى سنة ٢٧٥هـ كان بجانب عمله في صنع الدواوين نحوياً لغوياً[(٨)].

فهؤلاء جميعاً كانوا من ذوي الاهتمام باللغة أو النحو أو الاثنين معاً، وقد انعكس هذا الاهتمام على أعمالهم في شرح الشعر، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتأثر بهم شراح القرن الرابع الهجري، واذا علمنا أن شراح الحماسة قد وقفوا على أعمال هؤلاء العلماء الأوائل كما وقفوا على أعمال رجال القرن الرابع الذين عاصروهم أو سبقوهم بقليل، فان تأثير هذه الظاهرة لا بد أن يتسرب بصورة ما إلى اعمالهم في الحماسة بحيث يلحظه القارئ الدارس لشروحهم.

على أن هناك أمراً يجب ألا نغفله ونحن نتحدث عن هذه الظاهرة وتسربها إلى أعمال شراح الحماسة هو أن دراسة الشعر قد قامت في البداية لخدمة القرآن الكريم

---

(١) نزهة الألباء للكمال بن الأنباري ص ٩١.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٥.
(٣) المصدر نفسه ص ١١٢.
(٤) المصدر نفسه ص ١٥١.
(٥) المصدر نفسه ص ١٧٨.
(٦) نفسه ص ١٨٩.
(٧) نفسه ص ١٩٩.
(٨) نفسه ص ٢١١، وينظر معجم الأدباء لياقوت ٨ : ٩٤.

والحديث الشريف ، وكذلك الشأن بالنسبة للدراسات الأخرى في علمي اللغة والنحو ، وقد ظلت هذه النظرة مسيطرة على شراح الشعر القديم بمختلف أجيالهم بالرغم من استقلال هذه العلوم وقيام كل علم منها في وحدة قائمة لذاتها لا سيما علم الشعر[١] .

ولم يكن شراح الحماسة بمعزل عن تأثير هذه الظواهر . حقاً إننا قد لاحظناهم في مختلف فتراتهم يفسرون لغة الشعر بما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف ، لاكما كانت الحال عليه في البداية حين كان المفسرون للقرآن والحديث يلجؤون إلى الشعر لتفسير ما فيها من غريب تبعاً للدعوة التي وجهها عبدالله بن عباس رضي الله عنه حيث قال : إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب[٢] ولكنهم من جهة أخرى ظلوا متأثرين بهذه النظرة التي تجعل دراسة الشعر معينة على فهم القرآن والحديث بدلالة أننا نجد الخطيب التبريزي يذهب إلى هذا حيث نراه يقول في مقدمته لشرح الحماسة : « أشرف العلوم كلها علم الكتاب والسنة ، وهما قطبا كل علم ، وأصلا كل فهم ، إذْ كانا طريقاً إلى معرفة الخالق تعالى وشكر نعمته ، وسبيلاً إلى ادراك السعادة والفوز بجنته ، ولا يصح حقيقة معرفتهما إلاّ بعلم الإعراب الدال على الخطأ من الصواب ، وعلم اللغة الموضحة على حقيقة العبارات ، المفصحة عن المجازوالاستعارات وعلم الأشعار، إذْ كان يستشهد بها في كتاب الله - عز وجل - وفي غريب أخبار رسوله - صلى الله عليه وسلم »[٣] .

فلا شك أن هذه النظرة التي ظلت مسيطرة على شراح الحماسة إلى زمن التبريزي ، المتوفى في مطلع القرن السادس الهجري هي التي جعلتهم يجنحون دائماً إلى اللغة والنحو في أعمالهم التي عقدوها حول الحماسة من حيث إن دراسة القرآن والحديث قد ربطت بين علوم الإعراب واللغة والأشعار وجعلتها تسير مجتمعة في خط

(١) ينظر شروح الشعر الجاهلي للعمري ، فقد تحدث عن تأثر شراح الشعر الجاهلي بهذه النظرة .

(٢) ينظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق ١ : ٣٠ .

(٣) شرح التبريزي ١ : ٢ .

واحد لخدمةٍ غايتها فهم القرآن والحديث ، فهذا الربط بين الشعر واللغة والنحو هو الذي أدى إلى تغوّل اللغة والنحو أحياناً في عمل شراح الحماسة ، فضلاً عن اهتمام شراح الشعر بهذين العلمين ، وتخصص الكثيرين منهم فيهما .

ج ـ إغفال الشاعر والعوامل الموحية له بالشعر :

لعلنا لاحظنا من خلال دراستنا لهذه الشروح أن اهتمام الشراح فيما يتصل بالشاعر كان موجهاً إلى دراسة اسمه فحللوه لنا لغوياً وبينوا ما هو مرتجل منه وما هو منقول ، وأثاروا كل ما يتصل بذلك من قضايا لغويّة وصرفيّة واشتقاقيّة ، كما كان موجهاً إلى نسبه فأوردوه لنا إلى آخر جدّ وصلوا إليه في عمود النسب المتصل بقبيلته ، وموجهاً أيضاً إلى القصص والأخبار التي اتصلت بما قاله من شعر فسوّدوا الصفحات العديدة بالأخبار المطوّلة التي تعج بالأسماء والأنساب والأمثال والأشعار . أما الشاعر نفسه فلا وجود له في أعمالهم ، نعني الشاعر الانسان الذي له وجوده في شعره ، وهو الوجود الذي تشير إليه عواطفه ومشاعره ، ويدل عليه عقله وتفكيره والخط النفسي الذي يسير فيه أثناء بناء شعره ومعالجته لموسوعاته وعرض أفكاره ومعانيه في هذه الموضوعات ، وبناء صوره وأخيلته التي يؤدي بها هذه الأفكار والمعاني ، وفنيته وابداعه في صنعة الشعر بما يبرز خصائصه التي تميزه عن شعراء عصره ، وربط ذلك كله بثقافته التي ألمّ بها وبالبيئة التي وجد فيها والمجتمع الذي عاش فيه . كل هذه الأمور التي تجعلنا نعيش مع الشاعر ونلمسه في خطوات تحليل النص أهمل الشراح النظر فيها في شروح نصوص الحماسة .

وهذه في واقع الأمر ظاهرة لا تمس شراح الحماسة فحسب ، بل تشمل سائر شراح الشعر القديم . وقد أفاد عنها الدكتور أحمد جمال العمري حين ذكر أنه لم يجد لدى الشراح القدامى من يهتم بقصد الشاعر أو دراسة العوامل المؤثرة الموحية بقول الشعر أو دراسة الخط النفسي في القصيدة، أو دراسة الخصائص المميزة لشعره . وعلل ذلك بأن «طبيعة العصور القديمة والظروف العلميّة والثقافيّة فيها لم تكن تلتفت إلى هذا الأمر من قريب أو بعيد ، لأن كلّ ما يهمّ الشارح وقتئذ هو المادة

الفنيّة،النسيج الشعري وحده ، تحاول ان تعرفه وتحلله وتقومه خدمة للعلم أولاً وقبل كل شيء »[1] .

واذن فنحن لا نتوقع ان يخرج شارح من شراح الحماسة عن المسار الذي سار فيه شراح العصور الأولى للأدب أو شراح عصره ، وأن يتجاوز الظروف العلميّة والثقافية المحيطة به والتي توارثها أجيال العلماء إلى نهج مغاير في شرح النص يحيل عملية الشرح إلى تحليل فني يجعلنا نحس بوجود الشاعر في كل خطوة من خطواته ، نلمس من خلاله عواطفه وعقله ومواقفه التي أوحت له بالشعر ، ندرك غرضه ومقاصده وابداعه وخصائصه الدالة عليه .

ومن المؤسف حقاً أن شراح الحماسة بعد القرن السادس ، الذي كان قرن تجميع وانتخاب او اختصار وتسهيل قد ساروا إلى جمود ، يكررون ما قاله السابقون اختصاراً أو تطويلاً ، ويدورون حول ما دار فيه الشراح الأوائل ، ويرددون أقوال شيوخهم الذين قرؤوا عليهم كتاب الحماسة دون أن يعلموا أن هذه الأقوال هي حصيلة أعمال السابقين أخذها شيوخهم ، ولم يزيدوا عليها شيئاً أو يخرجوا إلى رحاب أوسع في عملية الشرح ، ولا أدل على هذا القول من شرح مجهول المؤلف كنا قد أشرنا إليه في ثبت شروح الحماسة ، ذكر صاحبه في خاتمته أنه قد فرغ منه في الخمس من ربيع الأول سنة ١١٣٥هـ ، أي بعد خمسة قرون وبضعة عقود من الفترة التي حددناها لهذا البحث . ننظر في هذا الشرح فنجد صاحبه لم يصنع فيه شيئاً سوى أنه سلخ أقوال المرزوقي في شرحه وأقوال غيره من الشراح الأوائل بدون أن يدل عليهم أو ينص على أنه يأخذ منهم ، قال في بيت ربيعة بن مقروم الذي يقول فيه :

أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

« ذكر بعض المتأخرين في « أرجيته » الراوية « أوجيته » وما عداه تصحيف » وهي عبارة المرزوقي التي سبقت الإشارة إليها في دراسته يوردها هذا الشارح دون أن

(١) شروح الشعر الجاهلي ١ : ٣٧٣ .

يعلم أن المرزوقي قد عنى بقوله بعض المتأخرين ابن جني معاصره[1] .

إننا لا ننكر أن الشراح الأوائل قد قدموا خدمات جليلة لديوان الحماسة وفق معطياتهم ، ووفق الظروف الثقافيّة والعلمية التي كانت محيطة بهم ، ولكن إغفال الشاعر والانصراف عنه إلى مسائل لغويّة ونحويّة وأخباريّة ، وترك مراميه ومقاصده ، وابراز عواطفه وخطه النفسي في بنائه الشعري ، والوقوف عند خصائصه ومميزاته أمر كان ينبغي التنبه له في عملية تحليل الشعر وشرحه ، لأن فصل الشاعر عن شعره لا يعطي القارىء الدارس الصورة الكليّة التي ينبغي أن يخرج بها من قراءته لتحليل النص . ولهذا رأينا عدداً من العلماء في عصرنا هذا الحديث ممن اشتغل بالحماسة يحاولون إعادة شرحها من جديد ، فعل ذلك الشيخ سيد علي المرصفي في سنة ١٩١٢م ، حين أخرج للقراء الجزء الأول من كتابه « أسرار الحماسة » وقال في مقدمته ، مشيراً إلى صنيع الشراح الأوائل في اختيار الحماسة : « ولست في تفسير معانيه وبيان مغازيه متبعاً لقوم مدوا أيديهم على ذلك الديوان بالكتابة ، وظنوا أنهم فوقوا سهام الصواب ، وقد أخطؤوا غرض الإصابة، فكثيراً ما يخلطون في أوضاع اللغة ولا ينتبهون ، ويخلطون في بيان ما تقصده أدباء الشعر وما يشعرون ، ملؤوا كتبهم ببضاعة الاعراب والبناء ، وتحقيق ما نحاه ابن خروف أو انتحاه الفراء »[2] .

وفعل ذلك أيضاً الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، الذي أشرنا إلى أنه كان يدرس لطلابه بجامع الزيتونة شرح المرزوقي على ديوان الحماسة ، ثم عدل عن ذلك فاصطنع للديوان شرحاً من تأليفه[3]. وفعل نحواً من هذا الاستاذ علي النجدي ناصف حين ذيّل دراسته لحماسة أبي تمام بتحليل قطع منها نحا فيها منحى المرصفي في جعله عناوين للقطع التي حللها ، وسلك في تحليله مسلكاً مغايراً لمسلك المرصفي ، ومسلك كل الذين لهم في الحماسة عمل[1] . إنه مسلك أشبه بالتحليل

---

(١) ينظر الورقة ١٣ من مخطوطة هذا الشرح ، المخطوطة بمكتبة السليمانية بتركيا تحت رقم ٢٧٧٥ ، وينظر شرح المرزوقي ق ١ : ٦٤ .

(٢) ينظر مقدمة أسرار الحماسة الصفحة رقم « ز » .

(٣) ينظر ما قلناه في هذا الصدد في ثبت شروح الحماسة في القسم الأول من هذا البحث .

(٤) ينظر دراسة في حماسة أبي تمام ص ٢٤ والصفحات التي بعدها .

الفني المعاصر الذي رأيناه عند علمائنا الأدباء مما عنوا بدراسة الشعر القديم وتحليله[1] .

وفي إدراكنا أن هؤلاء العلماء : المرصفي وابن عاشور والنجدي ، الذين اتجهوا إلى الحماسة بالشرح والتحليل في زماننا هذا ما فعلوا ذلك إلّا لأنهم أحسوا بأن ما قدمه الشراح الأوائل من جهود في خدمة هذا الاختيار ـ مع ما فيه من فضل وعلم لا ينكر ـ فانه يحتاج إلى إعادة نظر ومسلك مغاير ورؤية للشاعر الحماسي غير الرؤية التي ارتآها هؤلاء الشراح ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا : إننا بالرغم من وقوفنا كذلك على أعمال بعض هؤلاء المعاصرين[2] ، فإن اختيار الحماسة لا يزال يحتاج ـ في رأينا ـ إلى من يتصدى له بالشرح والتحليل ، وذلك وفق ما انتهى إليه الباحثون في عصرنا هذا بثقافتهم المتنوعة وبرؤيتهم المتجددة للأدب ودوره في الحياة ، وبنظرتهم الصائبة في التراث الأدبي القديم وتنقيته وبعثه من جديد في صورة تلائم العصر والحياة التي وصل إليها قراء العربيّة في هذا القرن العشرين .

ولا شك أن التصدي بالشرح والتحليل لاختيار الحماسة وفق ما ذكرناه سيكون له أثره في انتفاء هذه الظواهر التي رأيناها في مواد شروح الشراح لا سيما ظاهرة إغفال الشاعر ومقاصده في الشعر والمواقف النفسية الموحية له به .

---

(١) من هؤلاء الدكتور طه حسين في تحليله لقصائد بعض الجاهليين في كتابه « حديث الأربعاء » وأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي في تحليله بعض شعر أمرىء القيس في كتابه « امرؤ القيس حياته وشعره » والدكتور محمد نجيب البهبيتي في تحليله بعض شعر الجاهليين في كتابه « تاريخ الشعر العربي إلى نهاية القرن الثالث » وأستاذنا الدكتور محمد زكي العشماوي في تحليله جملة من شعر النابغة في كتابه « النابغة الذبياني » والدكتور محمد النويهي في تحليله بعض قصائد من المفضليات في كتابه « الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه » .

(٢) لم نقف على عمل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في الحماسة ، وذلك بسبب ما أوضحناه من أن مخطوطة شرحه التي خلّفها لا تزال في مكتبته العاشورية بتونس ، التي لم تهيّأ لافادة الدارسين والباحثين منها .

- ٣ -
في الشراح

تسلّط نزعاتهم في عمليّة الشرح :

وهي ظاهرة لاحظناها في سائر أعمال الشراح ذوي المناهج الواضحة ، فلقد وقفنا عندها في عمل المرزوقي في نزعته إلى التعالي والتفرد من جهة ، واتباعه هواه النفسي ومزاجه من جهة أخرى ، وكلا الأمرين كان لهما تأثير واضح في عمله الذي اتصل بالحماسة .

فأما نزعته إلى التعالي والتفرد فقد تسلّطت عليه إلى درجة جعلته يستهين بشراح الحماسة الذين سبقوه ، لا يذكرهم في شرحه حين ناقشهم بل يشير إليهم باشارات مبهمة غامضة لا تدل عليهم مثل « وقال بعضهم » أو « وروى بعضهم » وكذلك جعلته يستهين بمعاصرين مثل ابن جني الذي كان يتعرض له مناقشاً بدون أن يسميه في شرحه ، وهذا بطبيعة الحال قد حرمنا من الوقوف على مصادره التي اعتمد عليها في شرحه والتي تتصل بالحماسة مما قام به شراح سابقون له في الزمن أو معاصرون له .

وأما اتباعه هوى نفسه ومزاجه في شرح الشعر فقد أثّر تأثيراً واضحاً في خطه العملي لشرح النصوص ، وقد تعرّض إلى هذا الجانب في عمله الدكتور أحمد جمال العمري حيث ذكر أن المرزوقي « أخضع الشرح للعامل النفسي والمزاجي ، فاذا أعجبه نص جال وصال ، وظل يدور حوله ذاكراً أشياء كثيرة وطويلة ، أما إذا لم يعجبه فقلما يعيره التفاتاً، وأحياناً لا يفسره، وكان يجب عليه أن يتجرد من أهوائه وعواطفه أمام النص ، وأن يكون محايداً لأنه عالم . . . والعلم يجب أن ينظر إليه بعيداً عن الأهواء »[١] .

وأما ابن جني فقد تسلطت عليه نزعة الجنوح المستمر إلى اللغة والنحو فأخضع النصوص الشعرية إلى هذه النزعة فما أثار من نصوص الحماسة قضية لغويّة

---

(١) شروح الشعر الجاهلي ص ٢٤٦ .

أو نحويّة أو عروضيّة تصدى له وناقشه وحلله ، وما لم يكن فيه ذلك أهمله وتغاضى النظر حتى عن روايته ، ومن ثم حوّل اختيار أبي تمام الأدبي إلى عمل بعيد كل البعد عن الأدب ومجاله .

ونحن نعترف بأن الرجل قد قدّم عملاً طيباً في خلال المجال الذي اصطنعه لنفسه وأفاد فوائد جمة في عنصري اللغة والنحو ، ولكن هل هذا هو كل ما ينبغي عمله في اختيار شعري قام على الجودة وخلّفه شاعر فذ يعد زعيم مدرسة في الشعر ؟ ! .

وأما أبو محمد الأعرابي فقد تسلطت عليه نزعة التحدي واظهار سقطات السابقين ، فدفعته هذه النزعة إلى تزييف أعمال النمري في الحماسة وإظهاره بمظهر العالم العاجز الذي يتصف بالغباوة والجهل وتسويد الهذيان، في حين أن النظرة العلميّة الصحيحة كانت تحتم عليه أن يعرض للرجل فيما أصاب وفيما أخطأ ، وأن يورد كلامه كاملاً بدون حذف أو تحوير حتى يتسم نقده له بالموضوعية وسلامة الرأي وحتى يتيح لنا الوقوف على كلاميهما معاً لنرى عمله وعمل النمري ونحكم إن كان ما تصدى به صواباً أو غير صواب . أما أن يعمد في أكثر من موضع وبدافع من نزعته هذه إلى بتر كلام الرجل وتحويره وفق الوجهة التي يريدها فهي طريقة تبعد عن الموضوعيّة وتنأى عن سبيل العلم القويم ، وكذلك تسلطت عليه نزعته الدائمة نحو ما أخذه عن شيخه أبي الندى والتسليم به في صورة تدعو إلى الدهشة ، وهذه النزعة جعلته في عمله الذي أداه في الحماسة مثل شيخه أبي الندى يخضع نصوص الحماسة وفهمها والقدرة على شرحها وتحليلها إلى عمليّة قصصيّة أخباريّة بحتة هي في واقع الأمر تمثل جزءاً من التحليل والشرح وليست التحليل كله .

وأما التبريزي فقد رأيناه ذا نزعتين : نزعة تجعله يهتم كثيراً باللغة والنحو ، ونزعة تجعله ينساق وراء شيخه أبي العلاء فيما خلّفه من عمل وما أخذه عنه أيام تلمذته له ، ولقد أدت النزعة الأولى إلى كثير من الخلل الذي جاء في مواضع شملت سائر أجزاء شرحه ، قصر جهده فيها على النحو واللغة دون عناصر الشرح

الاخرى حتى إن الدارس ليبحث عن معنى النص في هذه المواضع فلا يجده لأن نزعة الشارح قد قصرت العمل فقط على النحو أحياناً واللغة أحياناً أخرى . وأما النزعة الثانية فقد جعلت عمله مختل المنهج من حيث إن منهجه يقوم على انتخاب عناصر شرح النصوص من الشروح التي أمامه وعرضها في صورة متكاملة منسقة متآزرة لا يطغى عنصر فيها على العناصر الأخرى ، فكانت نزعته نحو شيخه أبي العلاء وتأثره الواضح به قد دفعت به في كثير من المواضع إلى الاستطراد المخل لا فيما قاله أبو العلاء في شرحه لنصوص الحماسة بل في استطرادته البعيدة عنها حين كان يتعرض إلى ما ذكره أبو رياش في شرحه من أشعار فيتصدى لها بالشرح والتوضيح من جهة لغويّة وغير لغويّة .

وأما أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي فلقد رأينا أحدهم ، وهو صاحب الشرح المنسوب لأبي العلاء، ينزع إلى عمل ابن جني في التنبيه ، فينقل منه حتى كاد يخرج بعمله عن الحد الذي رسمه لمنهجه ، وهو منهج قائم ، كما رأينا ، على تقديم عناصر الشرح في اختصار وتسهيل ، فكان نزوعه المتفاوت نحو ابن جني مؤدياً إلى خلل في مواضع من شرحه ، وخارجاً بها عن الخط الذي ينبغي أن يسير فيه .

وهكذا نرى من خلال هذه الملاحظات التي كنا قد تعرضنا لها بالتفصيل والشرح عند دراستنا لعمل كل شارح أن نزعات هؤلاء الشراح قد شكّلت ظاهرة عامة كان لها تأثيرها الواضح في عمليّة الشرح وهي نزعات وان تباينت في الموازنة بين شارح وآخر ، فان النتيجة التي أدت إليها في عمليّة الشرح كانت واحدة هي قصور في الشرح أو خلل في المنهج .

وخاتمة القول في هذه الظواهر وما طرحناه فيها من قول أنها ظواهر رأيناها من خلال عملنا في هذه الشروح ، جمّعناها في هذا الفصل وعكسنا بالرأي وجهات نظرنا فيها ، وهي وجهات نظر قد تكون مثار خلاف ، إذ قد يقول قائل : إننا قد ركبنا في بعض آرائنا جواد الشطط حين حكّمنا على أعمال هؤلاء القدماء معايير في التحليل والشرح لم تجل في فكرهم في ذلك الزمن ، وانما هي نتاج ثقافي وأدبي ونقدي طرأ على الأعمال الأدبية في هذا العصر الحديث . ومن التعسف النظر إلى تقويم عمل قديم

وفق معايير حديثة ، ولكنا نقول : إن مثل هذا القول قد يكون صحيحاً لا سبيل إلى رده إن كنا قد حكمنا هذه المعايير في الأعمال ذاتها ، وانما نحن بنظرنا إلى عملية الشرح وفق حركة شرح الشعر في ذلك الزمن ، وما تمخض عنها من عناصر للشرح ، ووفق مناهج هؤلاء الشراح التي سلكوها في أعمالهم ، وبناء على ذلك أعطينا كلّ ذي حق حقه ، ولكنا ونحن نقوم بهذا لم نغفل أمرين أحدهما رؤيتنا الحديثة في تحليل الشعر وشحره، والآخر متن الحماسة الذي يضّم شعراً يعد جزءاً من تراث أدبي خالد تقرؤه أجيال الأمة في كل عصر من عصورها، ولهذا كان يتحتم علينا أن نلحظ ما ينبغي عمله في خدمة هذا المتن ، وأن نحلل ذلك ونناقشه وفق رؤيتنا المعاصرة تجاوباً مع النظرة الحديثة إلى التراث الأدبي والدعوة إلى دراسته وتمحيصه وعرضه في ثوب جديد يتلاءم مع ثقافة الأمة المعاصرة متوخين من ذلك أن يتصدى الباحثون في زماننا هذا إلى الحماسة ، كما تصدى لها العلماء القدماء في أجيالهم المتعاقبة ، حتى نستطيع أن نقدم لأجيالنا الحاضرة وأجيالنا المقبلة أعمالاً في متن الحماسة تقرؤها هذه الأجيال فتحس بعظمة هذا التراث الأدبي وابداع الشعراء الأوائل في قول الشعر وتفيد من ذلك كله في حياتها الفكرية والثقافية والأدبيّة .

خاتمة ونتائج

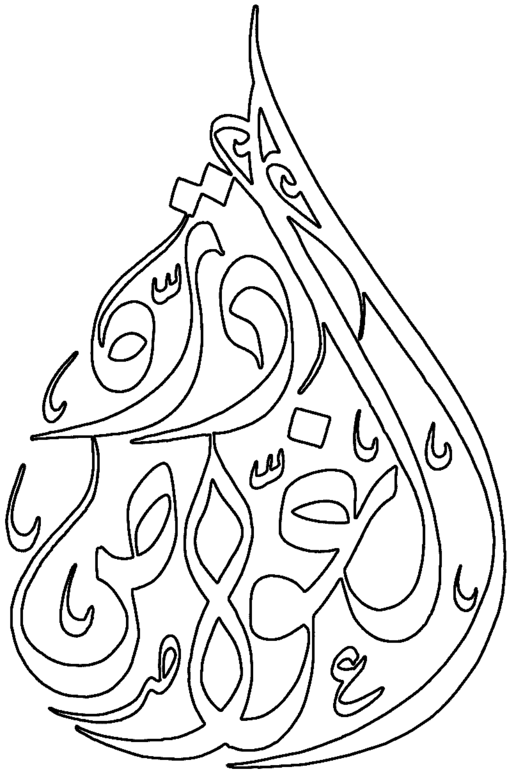

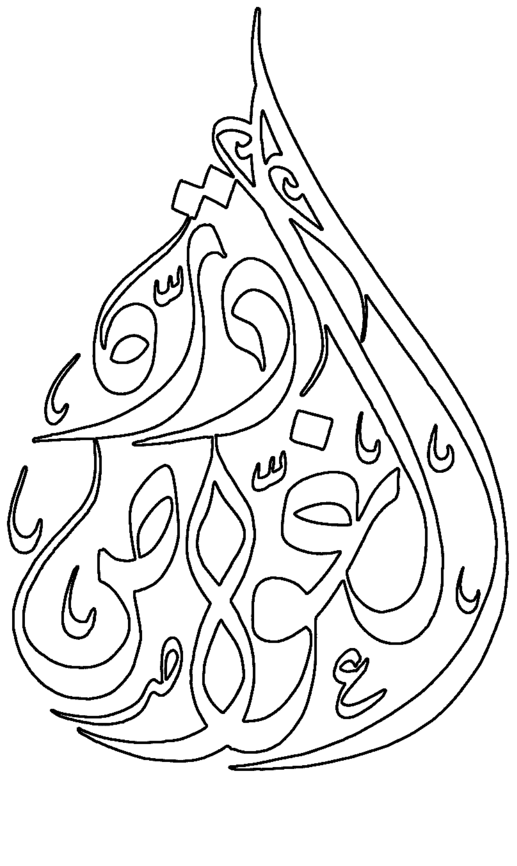

والآن وقد وصلنا الى نهاية هذا الكتاب نوّد أن نجمل منجزاته من خلال عرض أهم ما اشتمل ، وما خرجنا به فيه .

لقد بدأ بدراسات ممهدة ضمّناها فصلين قام الأول في اختيار أبي تمام لديوان الحماسة وصنيعه فيه ، حيث وقفنا عند اهتمامه بالاختيارات الشعرية واذاعتها في كتب مميزةً تميَّز بها عن سائر الشعراء الذين سبقوه ، وناقشنا الزمان والمكان اللذين صنع فيهما هذه الاختيارات فتعرضنا لروايتين في هذا الخصوص، الرواية التي تقول بأنه قد صنع خمسة اختيارات في دار آل سلمة عندما حصره الثلج بهمذان ، والرواية التي تقول : بأنه قد صنع ثلاثة اختيارات فقط، وناقشنا آراء الباحثين في الرواية الأولى وانتهينا إلى ترجيح أن أبا تمام قد صنع بهمذان ثلاثة اختيارات هي : ديوان الحماسة ، والوحشيات ، واختيار شعراء الفحول . أما بقية الاختيارات الأخرى فقد رجّحنا أنّه ظلّ يواصل العمل فيها بعد رحيله من همذان متنقلاً من مكان لآخر حتى انتهى به المطاف في الموصل حيث كانت وفاته سنة ٢٣٢ هـ.

ثم انتقلنا بالدراسة إلى ديوان الحماسة حيث ناقشنا روايته ووصوله إلى أيدي العلماء الشراح ، وانتهينا إلى أنه بجانب النسخة التي خلّفها أبو تمام في دار آل سلمة بهمذان والتي حُملتْ فيما بعد إلى علماء أصبهان ، فإن ديوان الحماسة قد أخذ مشافهة عن أبي تمام ، أخذه أبو المطرف الأنطاكي ، وأنشده لكل من أبي رياش أحمد بن إبراهيم، والحسن بن بشر الآمدي . وعن طريق هذين العالمين أخذ العلماء ديوان الحماسة ، وتواترت الرواية بين أجيالهم من هذه السبيل . ثم عرضنا بعد ذلك إلى طريقة أبي تمام في تصنيف أبواب هذا الاختيار ، وانتهينا إلى أنها عشرة أبواب لا أحد عشر باباً كما جاء في شرح المرزوقي المطبوع الذي وجدنا فيه باب الأضياف والمديح

بابين لا باباً واحداً . ورجَّحنا أن يكون ذلك قد وقع من نساخ شرح المرزوقي ، لا من المرزوقي نفسه ، وأتينا بالأدلة على هذا الترجيح . وعرّجنا بالبحث بعد ذلك إلى اختيار القطع في هذه الأبواب ، فلاحظنا خللاً فيها نجم عن رواية بعض الشعر في باب لا يدخل في حده ، وذهبنا إلى أن هذا الخلل لا يمكن تعليله باختلاف نسخ الحماسة ورواياتها ، وانما أبو تمام هو وحده المسؤول عنه ، وان ذلك وقع منه بسببين أحدهما : أن أغراض الشعر لم تكن قد تبلورت بعد في عصره بالصورة التي نراها اليوم فهو رائد في تصنيف الشعر تحت هذه الأبواب . والثاني أنه كان يراعي في الباب الواحد مشاكلة القطع في بعض المعاني ، وإنْ خرجت عن الحدّ الذي يقوم عليه الباب .

وانتقلنا بعد هذا لمقياس الاختيار عنده ، وانتهينا إلى أنه مقياس جمالي فني جعله يختار بعض الشعر من شعر الشاعر ويترك بعضه الآخر ، وان هذا المقياس كان وفق المعايير النقديّة التي انتهى إليها العلماء النقاد للجيّد من الشعر في ذلك الزمن ، ولاحظنا أنه بالرغم من أن الكثرة الغالبة من شعر الاختيار لم تخرج عن حدّ الجودة فإنّ بعض الشعر الذي ضمّه الاختيار لم يسلم من انتقاد بعض المتأدبين من الكتّاب مثل ابن العميد وضياء الدين بن الأثير . كذلك تعرضنا بالمناقشة إلى ما رآه علي النجدي ناصف أن أبا تمام قد أسقط باب الاعتذار من اختياره ، وتمنّيه لو أنه كان قد أسقط باب الملح وجاء بالاعتذار بدلاً منه معتمداً في هذا التمني على أن الاعتذار فن كريم القول وأن الملح فيها كثير من الخنا والتصريح بالعوراء ، وبينّا أنه بتمنيه هذا يريد من أبي تمام أن يأخذ بالمقياس الأخلاقي ، وهو أمر لم يرده أبو تمام ولا رمي إليه من اختياره .

ثم عرضنا بعد ذلك إلى شعراء الحماسة فلاحظنا أن أبا تمام قد عني في اختياره بالشعراء المقلين والمجهولين ، وأكدنا أن غايته من هذا هي أن الشعراء المكثرين أو المعروفين قد تداول الناس دواوينهم قبل عصره واهتمت بهم كتب الاختيارات ، كما لاحظنا أنه قد اختار لشعراء جاهليين واسلاميين وأمويين وعباسيين ، غير أن كثرتهم كانت من الجاهليين أو المخضرمين ، ومن هنا كانت أهمية الاختيار بالنسبة لعلماء

اللغة الذين وجدوا فيه معيناً لا ينضب في الاستشهاد بما فيه من شعر في تفسير اللغة والاحتجاج بصحتها ، ووقفنا أيضاً على رأي بعض الباحثين أن أبا تمام قد أكثر الاختيار لشعراء قبيلته فان اختياره لشعرهم لم يخرجه عن حد مقياس الجودة الذي بنى عليه اختياره بل أكدنا أن بعض شعر قبيلته مما اختاره يعد أبلغ ما ضمّت بعض أبواب الاختيار من قول . ومن ثم فلا مجال للقول بعصبيّة الرجل في اختياره . كما عرضنا للدعوى القائلة بأن أبا تمام قد قصد من اختياره لشعر المقلين والمجهولين إخفاء أكثر إحسان الشعراء لأنه سرق منه بعض معانيه، وطوى بعضه الآخر ليجعله عدة يرجع إليها في وقت الحاجة، ورجا من وراء ذلك أن يترك أهل المذاكرة أصول أشعارهم على جوهها ويقنعوا باختياره لهم فتغبى عليهم سرقاته ، وقد بينّا خطل هذه الدعوى وتهافتها من وجهين أحدهما : ان اختيار الحماسة حوى جملة من الأشعار التي استمد منها أبو تمام بعض معانيه ، فلو أنه كان يتوخي إخفاء الأشعار التي كان يأخذ منها معانيه لأخفى هذه الأشعار الواردة في اختياره . والآخر أن أبا تمام ليس وحده الذي كان يمتلك أشعار المحسنين حتى يحجبها عن الناس بقصد إخفاء أخذه منها أو بقصد جعلها عدة يرجع إليها عند الحاجة .

وأخيراً عرضنا في هذا الفصل لأهم قضيّة تمس اختيار الحماسة وهي تلك الدعوى التي أثارها كل من ابن العميد وأبي علي المرزوقي،أن أبا تمام كان يغيرّ في ألفاظ نصوص الحماسة ، يزيل ما فيها من عوار بما يناسب ذوقه ونقده ، وناقشنا ذلك باستفاضة وعرضنا رأي من أدلى فيها بقولٍ ، وانتهينا إلى أن أصحاب هذه الدعوى لم يأتوا بدليل واحد يؤكد صحة ما ذهبوا إليه، وأن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد اختلاف في روايات النص ، كان أبو تمام يقارن بينها فيختار منها ما يتفق مع ذوقه ونقده ، كما بينّا أن اختلاف الرواية ظاهرة لا تشمل اختيار الحماسة فحسب بل تشمل سائر الاختيارات الشعريّة ودواوين الشعراء ، وقد أتينا بما يؤكد هذا القول ويدعمه وذلك من خلال دراسة لنماذج من المفضليات والأصمعيات ، وهما الاختياران اللذان اتفق أهل العلم والدراسة في الأدب على أنهما أوثق مصدرين وصلا إلينا في الشعر القديم ثم وقفنا تبعاً لذلك عند رأي الدكتور ناصر الدين الأسد

في رفض اختيار الحماسة مصدراً من مصادر الشعر الجاهلي بحجة أن ديوان الحماسة ليست فيه رواية تعتمد على سند معروف ، وبحجة الدعوى التي قال بها كل من ابن العميد والمرزوقي بأن أبا تمام كان يغيرّ في النصوص الشعريّة ، فناقشنا هذا الرأي وأوضحنا وجهة نظرنا المتمثلة في أن المخطوطات التي وقفنا عليها قد أفادت بأن كتاب الحماسة بجانب وصوله إلى العلماء عن النسخة التي تركها أبو تمام في بيت آل سلمة بهمذان ، فانه قد أخذ شفاهة عن أبي تمام نفسه أخذه عنه أبو المطرف الأنطاكي وأخذه العلماء الشراح من هذه السبيل ، كذلك بينّا أن لا مجال للقول بأن أبا تمام لم يأخذ شعر الحماسة رواية من أحد ، لأنه اختاره من مجاميع شعر القبائل ودواوين الشعراء التي صنعها العلماء الرواة المصححون للشعر القديم ، فأخذه عن هذه المجاميع والدواوين يعد في حد ذاته توثيقاً لما اختار ، ولقد حرصنا في هذا الخصوص ان نؤكد أن من الخير لدارسي الأدب في زماننا هذا الأخذ برأي علماء اللغة الذين وثقوا بما روي من شعر في الحماسة واعتبروه حجة يدعمون بها تفسيراتهم في اللغة فهو خير بكثير من الانسياق وراء دعاوى وأوهام لا تقوم على ساق في مجال الحجج والبراهين .

هذا أهم ما عرضنا إليه بالدراسة في الفصل الأول . أما الفصل الثاني فقد تناولنا فيه حركة شرح الشعر وتطوره حتى ظهور شروح الحماسة ، فرسمنا صورة لما كان عليه شرح الشعر في عصر ما قبل الاسلام وهو العصر الذي لم يكن الناس فيه في حاجة إلى شرح الشعر ، لأن الشاعر في ذلك الزمن لم يكن مفصولاً عن متلقّي شعره بحاجز زمني أو مكاني إلا في حالات خاصة حين يعمد الشاعر إلى استخدام تركيب أو تصوير فني يتجاوز فيه حد المألوف لديهم ، فيتولى توضيحه وتفسيره أو يتولى عنه ذلك رواة شعره ، ولاحظنا أيضاً أنه لما جاء الاسلام كانت الحاجة إلى شرح الشعر مثل سابقتها في الجاهلية لم تتجاوز في مطلبها تفسير لفظةٍ أو تركيب غير مألوف ، أو خبر متصل بالشعر ذاته أو قائله . غير أنه لما بدت عناية المسلمين بالقرآن وحاجتهم إلى فهم لغته ومعانيه بدأت عناية خاصة بالشعر لحاجتهم إله في تفسير القرآن والحديث الشريف ، ولاحظنا كذلك أن هذه العناية قد صحبتها عناية أخرى من القبائل حين استقرت في الأمصار الاسلامية ، وبدأت مراجعة أشعارها في الجاهلية ، ورواية هذه

الأشعار ، فاقتضت هذه العناية تفسير الأحداث التي صاحبت هذه الأشعار بل تجاوز الأمر ذلك إلى تفسير بعض ألفاظه ومعانيه . كذلك لاحظنا أن عناية ثالثة بدأت على يدي علماء متخصصين في رواية الشعر وتدوينه ، وأكدّنا أنه وان كان شرح الشعر غير مقصود لذاته في تلك الفترة التي بدأ فيها الجمع والتدوين فانه قد خطا على يدي هؤلاء العلماء الرواة الأوائل خطوات أدت إلى توسع في عناصره اذ تجاوز ما كانت عليه الحال في الجاهليّة وأول الاسلام إلى البحث في رواية الشعر وما فيها من اختلافات وذكر مناسباته وأخبار قائليه ، بل امتد حتى شمل البحث في عيوبه والحكم على الشعراء والمفاضلة بينهم .

ثم وقفنا عند صنيع طبقات العلماء المتوالية في شرح الشعر فلاحظنا أن الطبقة الثانية من العلماء قد اعتمدت على ما أخذته من الطبقة الأولى ، ولم تقف عند نقله فحسب بل أضافوا إليه ما اعتبروه تصحيحاً لخطأ ، أو توجيهاً لرأي ، أو سداً لنقص . وكذلك كان حال الطبقة الثالثة ، الأمر الذي أدى إلى إثراء حركة شرح الشعر بالفيض الغزير في عناصر الشرح المختلفة ، كما لاحظنا أيضاً أنه قد بدأ شيء من التخصص لدى هذه الطبقات الأولى من العلماء ، تخصص بعضهم في الغريب ، وبعضهم في النحو ، وبعضهم في الأخبار والأيام والأنساب . ثم رأينا توالي طبقات العلماء المهتمين بشرح الشعر ، وبداية اتجاه مغاير للسابقين في عملية شرح الشعر حيث نشأ لدى بعض الشراح ما يمكن أن نسميه بالشرح الأدبي الذي يعالج المعاني ومقاصد الشعراء فيها ، ويركزّ جلّ همه في هذا المدار لا يتجاوزه إلى اللغة وما فيها من اشتقاقات ، أو النحو وما فيه من مشكلات .

وسجلنا أيضاً أنه إذا كان شرح الشعر قد بدأ عند علماء الطبقة الأولى والثانية وتلاميذهم ذا مقصد تثقيفي فانه قد تحولّ عند الطبقات التي تلت هؤلاء العلماء ، ومع ظهور شروح الحماسة إلى مقصد تعليمي ، توسّعت بسببه دائرة شرح الشعر فأصبحت على شيء غير قليل من التعمق في دراسة اللغة وقضاياها والنحو ومسائله ، والرواية واختلافاتها ، والمعاني وتأويلاتها ، إلى غير ذلك من العلوم التي يقوم عليها شرح الشعر .

كذلك سجلنا أن شروح الحماسة عندما ظهرت إلى حيّز الوجود كانت متأثرة بجميع ما طرأ على شرح الشعر عامة ، لأن هؤلاء الشراح الذين تصدوا لشرح حماسة أبي تمام لم يكونوا بمعزل عن حركة شرح الشعر عامة ، ومن ثم لاحظنا أنهم قد شغلوا حيزاً غير قليل بآراء العلماء السابقين أمثال الخليل والأصمعي وأبي عبيدة وابن الأعرابي والأخفش وغيرهم ، كما لاحظنا فيهم شيئاً من التخصص في عنصر من العناصر التي يقوم عليها الشرح ، إذ رأينا منهم من كان يهتم بالغريب من اللغة ويعالجه في بعض أعماله مثل أبي العلاء المعري . ومن كان يهتم بالنحو وما فيه من عويص مثل أبي الفتح ابن جني . ومن كان يهتم بالأخبار التاريخية ومناسبات الشعر وما يتصل بذلك من أيام وأنساب مثل أبي رياش . ومنهم من كان يهتم بالمعاني وما فيها من تأويلات مثل أبي عبدالله النمري . كما رأينا من حاول أن يجمع بين هذه العناصر جميعها في تفاوت ملحوظ مثل أبي علي المرزوقي .

كذلك لاحظنا أنهم ساروا في طريق التحوّل من المقصد التثقيفي إلى المقصد التعليمي ، ، حيث كانت مناهجهم في جملتها مناهج تعليميّة ، تقوم على جعل النص الشعري مجالاً لتعليم جملة من العلوم المكوّنة لعناصر الشرح وتزويد طالبي شروحهم بالمعلومات التي تتصل بهذه العلوم في تطويل واسهاب أو تسهيل واختصار وفق قدرات هؤلاء الطلاب الذهنيّة وملكاتهم الاستيعابيّة .

على أن أهم ما لاحظناه حين بدأت شروح الحماسة في الظهور وابّان تواليها هو أن الثقافة المكونّة لشرح الشعر وفهمه ونقده قد اتسعت كثيراً ، وذلك بتعدد أعمال العلماء عبر طبقات عدة ، وهي أعمال شملت الكثير من علوم العربيّة من لغة ونحو وبلاغة ونقد ورواية وأخبار تاريخيّة ، وكان من الطبيعي أن تسهم هذه الأعمال المتشعبة في علوّ ثقافة الشارح وارتقائها . وبجانب ذلك كان أهم ما خرجنا به من علاقة شروح الحماسة بحركة شرح الشعر وتطوره أن هذه الشروح تعد جزءاً من شرح الشعر عامة ، فهي صورة منه وممثلة له ، بل إن جلّ الذين تصدّوا لشرح ديوان الحماسة لم يكتفوا بما شرحوه فيها وانما أسهموا إسهامات طيبة في شرح جملة من الدواوين والمختارات سواء في ذلك الشعر القديم أو الشعر المحدث .

وحين وصلنا إلى مرحلة ظهور شروح الحماسة ثم تواليها بعد ذلك عبر القرون رأينا أن نستعرض هذه الشروح منذ أول شرح وصل إلينا خبره والى عصرنا هذا الحديث ، فكان أن صنعنا ثبتاً لها ، وضعنا في مقدمته شرح أبي القاسم الديمرتي المتوفى سنة ٢٨٧هـ باعتباره أقدم شارح وصل إلينا خبر عنه أنه صنع شرحاً للحماسة ، وسجلنا أن هذا مخالف لما ذهب اليه البغدادي في الخزانة من أن أول من شرح الحماسة هو أبو عبدالله النمري المتوفى سنة ٣٨٥هـ ، ومخالف كذلك لما ذهب إليه عبد السلام هارون وعبدالله عسيلان أن أبا رياش هو أول من فعل ذلك ، ولم يفتنا ونحن نوضح ذلك أن نسجل أن الديمرتي وإن جاء في مقدمة شراح هذا الثبت ليس هو أول من شرح الحماسة فقد سُبق إليه من بعض الشراح الذين لم يصل إلينا خبر عن شروحهم ، وذلك بناء على الاشارة التي وردت في مقدمة شرح النمري من أنه ـ أي الديمرتي ـ كان متبعاً لغيره في بعض شرحه .

لقد تتبعنا الشروح وفق ما أسعفتنا به المصادر إلى هذا العصر الحديث فبلغت في ثبتنا الذي صنعناه أربعة وأربعين شرحاً ، وأشرنا إلى أنه قد سبقنا في عمل مثل هذا الثبت كل من عبد السلام هارون وعبدالله عسيلان ، وأن ثبت هارون قد بلغ لديه ثلاثين شرحاً ، وبلغ ثبت عسيلان خمسة وثلاثين شرحاً ، وبهذا نكون قد أضفنا تسعة شروح فوق ما أورداه معاً ، كما كنا ونحن نورد هذه الشروح نناقش ما دار حولها من أقوال ، ونوضح ما هو صحيح النسبة لصاحبه وما هو غير صحيح ، دالين على المفقود منها والمخطوط والمطبوع ، هذا فضلاً عن تذييلنا لهذا الثبت بشروح مجهولة المؤلف عثرنا عليها من خلال بحثنا وتنقيرنا في المكتبات المختلفة .

ثم كان أن انطلقنا من إيراد هذا الثبت لتوضيح الشروح التي تدخل في دائرة الفترة الزمنية التي حددناها لهذا البحث وهي نهاية القرن السادس الهجري ، فرأينا أن هذه الفترة قد ضمت ثلاثة أنواع من هذه الشروح ، نوع تمثله شروح لم يصل عنها شيء ، ولا يعرف مكانها حتى الآن ، ونوع تمثله شروح وصلت إلينا، منها شرحان مطبوعان ومنها شروح مخطوطة جمعناها من مكتبات العالم ، ونوع ثالث تمثله شروح لم تصل إلينا ولكن وصلت عنها نقولات متعددة في الشرحين المطبوعين

والشروح الأخرى المخطوطة .

وكان من الطبيعي أن تقوم دراستنا في شروح النوع الثاني والثالث ، والتي تبلغ في مجموعها ستة عشر شرحاً ، منها ستة شروح في القرن الرابع ، وسبعة شروح في القرن الخامس ، وثلاثة شروح في القرن السادس .

وحين بلغت الدراسات الممهدة غايتها في الوصول إلى تحديد الشروح التي يقوم عليها بحثنا وفق ما حددناه من فترة زمنيّة ، اتجه البحث إلى دراسة مناهج هذه الشروح وتطبيقها في نماذج من أعمال الشراح ، وذلك من خلال نظرة موازنة تحكم العمل وتضبطه ، فكان أن قام القسم الثاني من هذا الكتاب مشتملاً على ستة فصول ، جاء الفصل الأول في مناهج الشراح ، حيث بدأنا العمل فيها بالوقوف على المناهج الثلاثة التي حددها الدكتور أحمد جمال العمري لشراح الشعر الجاهلي وهي : المنهج النقلي الالتزامي ، والمنهج الابداعي الفني ، والمنهج التجميعي الانتخابي التكميلي ، وعرضنا ما أورده من معايير وصفات لهذه المناهج ، ورأينا أنه إذا كان شراح الشعر الجاهلي قد ساروا في شروحهم وفق هذه المناهج ، فانها بمعاييرها وصفاتها التي حددها الدكتور العمري ليست بالضرورة أن تنطبق على شراح الحماسة ، وذلك بسبب أمور أربعة أعطيناها حقهّا في المناقشة والشرح وانتهينا إلى أن أحد هذه المناهج وهو المنهج النقلي الالتزامي لم يتخذ سبيلاً من قبل شراح الحماسة وإن كنا لا نعدم من أثر له في بعض أعمال الشراح ، وأن منهجين فقط يمكن أن نجدهما لدى شراح الحماسة وهما : المنهج الابداعي الفني ، والمنهج التجميعي الانتخابي ، غير أننا سجلنا بداية أن جملة من المعايير والصفات التي أسبغها الدكتور العمري على هذين المنهجين بدت لنا عند التطبيق في شروح الحماسة نظريّة بحتة لا سبيل اليها في هذه الشروح إلاّ عن طريق تصيّد الأمثلة النادرة .

وبجانب هذين المنهجين لاحظنا أن شراح الحماسة قد حققوا بأعمالهم ثلاثة مناهج أخرى هي : المنهج العلمي التخصصي ، والمنهج التتبعي التقويمي ، والمنهج الاختصاري التسهيلي . وبذلك بلغت مناهج الشرّاح خمسة مناهج من حيث التقنين والتطبيق . وأوضحنا من خلال الموازنة والشرح المعايير والصفات التي تقوم عليها

هذه المناهج ، فبدأنا بالمنهج الابداعي الفني الأدبي ، وعرضنا إلى الجانب النظري في معايير الدكتور العمري التي طرحها في هذا المنهج ، وذلك من خلال نظرتنا إلى شرح المرزوقي الذي يعد خير من يمثل هذا المنهج من شراح الحماسة ، وحددنا وفق الرؤية التطبيقية المعايير والصفات التي رأيناها في قيام هذا المنهج .

انتقلنا بعدها إلى المنهج العلمي التخصصي فلاحظنا أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين المنهج السابق موازنين بين المنهجين خارجين من هذه الموازنة بأهم المعايير والصفات التي اتصف بها هذا المنهج مؤكدين أن أفضل من اتخذ هذا المنهج سبيلاً هو أبو الفتح عثمان بن جني في عمليه « المبهج » و « التنبيه » تدرّجنا بعدها إلى المنهج التتبعي التقويمي فلاحظنا أنه منهج برز عند علماء القرن الرابع وما تلاه من قرون ، وأن الأعمال فيه لم تقم من تلقاء ذاتها كما هو الحال في المنهج الابداعي الفني ، والمنهج العلمي التخصصي ، وانما قامت بناء على أعمال السابقين من حيث إنه منهج يقوم على تتبع أعمال الشراح السابقين ورصد ما فيها من أخطاء وأوهام ، ومناقشتها بالتقويم والتصحيح ، وهو لهذا منهج يقوم على طريقتين : طريقة في إنشاء الكتب وتأليفها وطريقة في التتبع والتقويم ، ولا تخلو الطريقة الثانية من تأثر بالمناهج الأخرى ، ورأينا أن أبرز من سلك هذا المنهج في أعمال الحماسة عالمان أحدهما أبو هلال العسكري والآخر أبو محمد الأعرابي .

ثم كان أن وقفنا عند المنهج التجميعي الانتخابي فلاحظنا أنه مثل المنهج التتبعي التقويمي يقوم على أعمال السابقين ولكنه يختلف عنه في أنه لا ينظر في أعمال السابقين ليتتبعها ويقوّم ما فيها من أخطاء . وانما هو منهج يجمّع أعمال السابقين لينتخب منها شرحاً مستوفياً لجميع عناصر الشرح ، ولاحظنا أن الخطيب التبريزي يعدّ رائداً في هذا المنهج ، غير أن دراسة شرحه جعلتنا نقف من المعايير والصفات التي حددها الدكتور العمري لهذا المنهج موقف المعترض من حيث إن بعضها قد بدا نظرياً بحتاً يصعب تحققه في شرح التبريزي للحماسة ، ولقد فصّلنا الحديث في هذا الجانب ووضحنا بالشرح والأمثلة كلّ ما يدعم هذا الاعتراض ، وانتهينا إلى أنه بالرغم من الخلل الواضح الذي وقع فيه التبريزي في مواضع عديدة من شرحه بسبب

نزوعه إلى النحو واللغة من جهة ، ومشايعته شيخه أبي العلاء من جهة أخرى فانه قد حاول جاداً أن يفيد من الشروح التي سبقته بجمعها وينتخب منها شروحه في الحماسة ، وهي شروح أفاد منها طلابه في المدرسة النظاميّة ، كما أفاد منها طالبو علم الأدب الذين جاوءا بعده فضلاً عن متابعة شارحين من شراح القرن السادس له في هذا المنهج هما أمين الدين الطبرسي ، وأبو الرضا الراوندي .

ثم عرضنا إلى المنهج الاختصاري التسهيلي فتحدثنا أولاً في العوامل التي دفعت فئة من الشراح إليه فلاحظنا اقتناع هذه الفئة بأن الغاية من شرح الشعر هي الوصول إلى معنى الشاعر ومقصده ، ومن ثمّ يمكن الوصول إليه من أسهل الطرق وأيسر السبل ، واقتناعها كذلك بأن الشروح التي صنعها السابقون لديوان الحماسة قد جاءت مسهبة في تناول عناصر الشرح إسهاباً مبالغاً فيه في كثير من الأعمال فلماذا لا يقوم عمل يصفّي هذا الفيض الغزير التي تزخر به هذه الشروح وتنقّيه من الإسهاب والاستطراد وتقدمه في ثوب موشى بالاختصار والتسهيل وكذلك اقتناعها التام بأن قراء الشروح يمثلون فئات متفاوتة في القدرة على تحصيل العلم ، متباينة في الطباع والأهواء فلماذا لا يقوم منهج يراعي اختلاف قدرات المتلقين ومشاربهم وأهوائهم ، يقدّم لهم عناصر الشرح سهلة ميسرة خالية من الاستطراد ، بعيدة عن التشعب والاغراب ، منهج يضم اللغة ولكن بقدر محدود ، والنحو ولكن بصورة تحقق إدراك المعنى فحسب والرواية ولكن في لمحات تفي بالغرض المطلوب ، وأخبار الشعراء ومناسبات الشعر ولكن في اقتصاد واقتصار ، ولاحظنا أنه منهج يشبه المنهج التجميعي الانتخابي في الافادة من أعمال السابقين ، ولكنه لا يقدمها في الثوب الذي يقدمها به التجميعيون الانتخابيون الذين يكتفون بنقل ما ينتخبون من الشروح دون أن يعملوا فيه ما يشذبه ويهذّبه ، وانما يقدمها في صورة يحوطها الاختصار وتحكمها السهولة ويضبطها اليسر ، ورأينا أن خير ما ينطبق عليه هذا المنهج شرحان أحدهما الشرح المرجّح نسبته إلى زيد بن علي الفارسي والآخر المنسوب خطأ إلى أبي العلاء المعري ، ولاحظنا أن هناك شرحين آخرين سلكا المنهج نفسه هما : شرح البياري وشرح الأعلم الشمنتري .

وحين انتهينا من تحديد المعايير والصفات التي قامت عليها هذه المناهج الخمسة اقتضى العمل أن تتوالى فصول خمسة في هذا القسم خصصنا كلّ فصل منها لتطبيق منهج من هذه المناهج ، فبدأنا بالمنهج الابداعي الفني الأدبي ، ودرسنا عمل أبي علي المرزوقي من خلاله فعرضنا أولاً لشخصيته وما تركبت عليه من نزعة اعتداد وتعال أثرت في مصادره وعمله فلاحظنا أنها أثّرت في مصادره من حيث جعلته قليل الإفادة من الأعمال التي سبقته في شرح الحماسة بل جعلته يتعمد الإغضاء من العلماء السابقين له أو المعاصرين ممن لهم صلة بعمله في الحماسة ، الأمر الذي أدى إلى حرماننا من معرفة جلّ الشروح التي أفاد منها في شرحه ، ولاحظنا أنها أثرت في عمله في الشرح حيث جعلته متفرداً بآرائه ، حتى في اللغة والنحو - وهما من العلوم التوقيفيّة - رأينا عمله فيهما دالاً على ذاتيته وتفرده في تحليلاته اللغويّة ومناقشاته للمسائل الإعرابيّة.

ولقد حاولنا أن نتتبع أعماله في الحماسة من خلال عناصر الشرح فرأيناه قليل الاهتمام بعناصر ثلاثة هي : مناسبات الشعر التاريخيّة وأخبار الشعر ، وتفسير أسماء الشعراء والأعلام ، وتحديد بحور الأشعار وأضربها وقوافيها . ولقد عللنا ذلك بأنه لم يقف على شرح أبي رياش ذي الاهتمام بالأخبار التاريخية ومناسبات الشعر . ولم يقف على كتاب « المبهج » لابن جني ذي العناية بشرح أسماء الشعراء والأعلام . أما خلو شرحه من تحديد أوزان الشعر وما يتصل بها من ضروب وقواف فقد عللناه بأن هذا العنصر لم يكن من العناصر التي اهتم بها الشراح في زمنه وما قبله .

إنَّ العناصر التي تجلّت فيها عبقرية المرزوقي هي : الرواية ، واللغة ، والنحو ، والمعاني ، والبلاغة ، والنقد . لقد حققّ فيها أعمالاً طيبة ، أكدت دراستنا لها أنها تدل على ذاتية متفردة وعلى إبداع وفنيّة ، وعلى أسلوب أدبي مشرق برغم جنوحه المتكرر إلى أساليب المعلمين .

لقد عشنا مع المرزوقي في هذه العناصر ، ودرسناها عنصراً عنصراً ، حتى مذهبه النحوي أفضنا في دراسته ومناقشته ، فكان أهم ما خرجنا به أن المرزوقي بمنهجه الإبداعي الفني الأدبي قد كان معلماً بارزاً في عمله الذي أداه في الحماسة ،

فشرحه يعد نسيج وحده بالقياس إلى الشروح التي وصلت إلينا .

أما المنهج العلمي التخصصي فقد اخترنا لتطبيقه أعمال ابن جني في كتابيه « المبهج » و « التنبيه » فلاحظنا أنه جعل من ديوان الحماسة وأسماء شعرائه وما ورد فيه من أعلام مجالاً يثير فيه كوامن العلوم التي تخصص فيها ، بل لاحظناه أنه الشارح الوحيد الذي لم يكتب للعامة ، وانما قد قصد بأعماله خاصة الخواص من ذوي التخصص العالي والملكات ذات القدرة على الفهم والاستيعاب .

لقد تتبعنا عمله في المبهج ورأينا كيف أنه ابتدع عنصراً جديداً من عناصر الشرح يتصل بشرح اسم صاحب النص شرحاً لغوياً بحتاً ، يبحث فيه عن اشتقاق العلم ، ما كان مرتجلاً وما كان منقولاً ، وما يتصل به من نظائر في كلام العرب أو في القياس . لقد عرضنا عمله في جوانب متعددة ، فلاحظنا أنه عمل دلّ على سيادة مطلقة في علم التصريف ، وعلى علو باذخ في الاشتقاق ، واستيعاب تام لما يقبله القياس وما لا يقبله .

وحين عرضنا إلى كتابه « التنبيه » وتتبعنا عمله في عناصر شرح الشعر لاحظنا أنه في عنصر الأوزان والقوافي لم تكن نظرته في معالجته عامة تشمل سائر نصوص الحماسة وانما كانت نظرة خاصة تختص بما يثير قضية فحسب . كذلك رأيناه في عنصر الرواية يختلف عن الابداعيين الفنيين الذين رأيناهم يناقشون الرواية من وجوه مختلفة ، أما هو فقد كان ينظر إلى الرواية من جهة اللغة وجهة الاعراب ، ولا يقف عندها إلاّ إذا كانت ذات معضلة تعوز الشرح ، أو مشكلة إعرابية تحتاج إلى تأويل وايضاح ، وكذلك كان حاله في اللغة والنحو ، لم يتخذ منهما وسيلة يستعين بها في تفسير الألفاظ والتراكيب بغية الوصول إلى معنى النص كما هو الحال عند سائر الشراح الآخرين ، وانما كان عمله اللغوي موقوفاً على النظر إلى الألفاظ والتراكيب بغية الوصول إلى معنى النص كما هو الحال عند سائر الشراح الآخرين ، وانما كان عمله اللغوي موقوفاً على النظر إلى الألفاظ نظرة جزئية من حيث هي لفظة مفردة يقف عندها يعالج تصريفها أو اشتقاقها ، مستعرضاً ما تثيره من قضية تتصل بالقياس او الاشتقاق ، وأما عمله النحوي فقد رصدنا فيه عدة ملاحظات أهمها اثارة للقضايا

النحويّة ظاهرة الاشكال أو القضايا التي تبدو جليّة ولكنها تخفي وراءها الغامض من المسائل وثانيتها تتبعه الدائم للخلاف بين سيبويه وأبي الحسن الأخفش في جملة من المسائل التي خالف فيها الأخفش جمهرة النحاة ، وثالثتها تنويهه المستمر بأن الاعراب قد يجيء مخالفاً للمعنى ، ورابعتها اعتماده الواضح على القياس في المسائل الإعرابيّة .

وأما عمله في المعاني فانه لم يهتم بها الا من خلال الاعراب ، ولقد أبان ذلك في مقدمته حين أفاد بأنه تحامى تفسير شيء من معاني أبيات الحماسة الا ما ينعقد بالاعراب ، ولذا كان تعرضه لعنصر المعاني نادراً وفي مواضع قليلة من « التنبيه » .

ولما كانت المعاني ليست من همّه كانت البلاغة أيضاً ليست من همّه فهو حين ينظر إلى لون بلاغي ينظر إليه من وجهة نحويّة ، وكذلك كان شأنه في نقد الأشعار لواردة في الحماسة ، لا ينتقدها من حيث المعاني ، جودتها ورداءتها ، وانما ينتقدها حين يرى خروج تركيب ما عن قواعد الإعراب التي قننّها النحاة .

إن أهم ما يخرج به الدارس لعناصر شرح ابن جني هو أن معالجته لها كانت رهينة المنهج الذي سلكه وهو منهج علمي متخصص في مجالات معيّنة من الشرح ، مجال المشاكل التي تثيرها النصوص في اللغة وما يلحق بها من اشتقاق أو تصريف ، ومجال المسائل الإعرابيّة وما يتصل بها من خلاف بين النحاة ، ومجال المشكلات التي تتصل بالعروض والقوافي او تتصل بشذوذ التراكيب في استخدام الشعراء . ولقد رأيناه في هذه المجالات يتحرك بأسلوب يغلب عليه الطريقة الجدليّة المتأثرة أحياناً بطرق المتكلمين في التعبير وهو أسلوب قد يثير في نفوسنا شيئاً من المتعة الذهنيّة ، ولكنه خال من الإثارة الوجدانيّة التي نجدها في أسلوب الإبداعيين أمثال المرزوقي .

ثم كان أن وقفنا عند المنهج التتبعي التقويمي وطبّقناه في عملين : أحدهما « ضبط مواضع من الحماسة » لأبي هلال العسكري ، والآخر « إصلاح ما غلط فيه أبو عبدالله النمري » لأبي محمد الأعرابي .

فأما عمل أبي هلال فقد لاحظنا أنه قد تتبع نسخة للحماسة بخط أحد الشيوخ فقام بضبطها وتحريرها ، وسجلنا أن عمله في تتبع هذه النسخة وتقويمها قد

دار حول جوانب ثلاثة ، أحدها : التصحيف الذي يقع في روايات الحماسة فيؤدي إلى فساد في المعنى ، والثاني : تحريف الرواية الذي ينجم عنه خلل المعنى أو خلل الاعراب أو خلل الوزن أو خلل أن يجري الكلام على غير المألوف عند العرب ، وثالثه : الخطأ في نسبة الشعر إلى غير قائله . ولقد ناقشنا عمله من خلال هذه الجوانب ، محللين الأمثلة لدراستها وتبيان جهد الرجل فيها ، وانتهينا الى أن أبا هلال من خلال عمله في هذه الرسالة « ضبط مواضع من الحماسة » قد حقق منهجاً في التأليف ، ومنهجاً في معالجة ما تناوله من تقويم واصلاح ، وقد كشفت هذه التقويمات والاصلاحات عن ثقافته في فن الشعر ، وما تقتضيه هذه الثقافة من معرفة بعلم النحو واللغة والصرف والعروض ، ووقوف على الأنساب والأخبار التاريخيّة .

وأما عمل أبي محمد الأعرابي فقد عرضنا فيه أولاً لما جاء في مقدمته فلاحظنا أنه ألّف هذا الكتاب الذي تعرّض فيه لأبي عبدالله النمري بدافع من التحدي واظهار المقدرة على التصدي بالنقد والتقويم لأعمال من سبقه ، ولاحظنا أيضاً أن العجلة كانت صفة من صفات عمله حيث أنجزه في مدة لا تتجاوز الأسبوع ، وسجلنا أن هذا أوقعه في عدم الموضوعيّة حيناً ، والى خلل في التتبع والتقويم أحياناً أخرى . ثم درسنا عمله في تتبع ما جاء في شرح معاني أبيات الحماسة لأبي عبدالله النمري ، فلاحظنا أنّه كان يناقشه ويرد عليه في جوانب أربعة أولها : جانب الرواية وتصحيح ما اعتمده النمري في متنه من رواية للحماسة ، وثانيها تصحيح نسبة الشعر الى غير قائليه ، وثالثها التنبيه على أمور أغفلها النمري في شرحه ، ورابعها التصدي بالمناقشة لما قرره النمري من معاني أبيات الحماسة. ولقد درسنا عمله من خلال هذه الجوانب جميعها محاولين أن نظهر ما حققه الرجل من خدمة للحماسة في تتبعه لعمل النمري وتقويمه ، غير أن دراستنا له في هذه الجوانب قد كشفت عن جملة من المآخذ عليه ، رصدناها من خلال العمل فبلغت أربعة ، أحدها : حرصه على ايراد مثل من الأمثال في كل موضع من المواضع التي تتبع فيها النمري شعراً كان المثل أو نثراً ، وقد أوقعه حرصه المتوالي هذا في أن يورد أمثالاً تعد من مرتذل القول وتجري على ألسنة السوقة لا ألسنة العلماء ، وثانيها : أنه كان يتعمد في بعض الأحيان ألاّ

يورد كلّ ما قاله النمري في معاني الأبيات ، وانما يكتفي بذكر جزء ينطلق منه لينال من النمري ، الأمر الذي جعل البغدادي يتهمه بالتزييف ، وثالثها : أنه كثيراً ما كان يخرج في عمله التتبعي التقويمي عن الموضوعيّة ، وذلك باستخدامه العبارات الجارحة يرددها في ثنايا كتابه بقصد النيل من أبي عبدالله النمري والحط من قدره ، ورابعها : اضطرابه في الحكم على النمري حيث اشتملت أحكامه على شيء غير قليل من الاضطراب والتناقض ، غير أننا ونحن نورد هذه المآخذ ونقيم الأمثلة على صحتها والدلالة عليها ، لم يفتنا أن نسجل ما انتهينا إليه في عمل الرجل ، فهو بالرغم من هذه المآخذ التي أخذناها عليه فانه قد استطاع بحق وفي جوانب متعددة من عمله أن يسهم في خدمة ديوان الحماسة إسهاماً طيباً يدل على جهده وعلمه .

أما المنهج التجميعي الانتخابي فقد خصصنا لتطبيقه ودراسته شرح أبي زكرياء التبريزي الأوسط المتداول بين أيدي الناس . ولكننا قبل أن نبدأ في التطبيق نوهنا إلى أن هناك عالمين من علماء القرن السادس الهجري قد تابعا التبريزي في منهجه هذا واستطاعا أن يحققا معاييره وصفاته في عمليهما وهما أمين الدين الطبرسي ، وأبو الرضا الراوندي ، وكان يمكن أن نطبق هذا المنهج على عمل أحدهما ، غير أن ريادة التبريزي في هذا المنهج ألزمتنا بأن نخصّه بهذا التطبيق ، فكان أن لاحظنا أولاً الجوانب التي بدت نظريّة في كلام الدكتور العمري في هذا المنهج ، فأكدّنا أن التبريزي قد حاول أن يجمع في شرحه مايحقق جميع العناصر المطلوبة في الشرح ولكنه لم يوفّق بين هذه العناصر توفيقاً تاماً ، وينسق بينها بانسجام يشعرنا بالتكامل والترابط اِلاّ في مواضع ضئيلة من شرحه ، كما أنّه اعتمد في جمهور شرحه على المرزوقي محاولاً أن يكمل ما فيه من نقص من الشروح الأخرى ، غير أن هذه الشروح لم تكن لتسد حاجته في استكمال هذا النقص ، ومن ثم جاءت جملة من النصوص خالية تماماً من أدنى شرح ، وكان مقتضى عمله ـ وهو الشارح المنتخب ـ أن يسدّ هذا النقص من عنده ، ولكنه لم يكن مبدعاً بحيث يحقق بإبداعه وإعمال فكره استكمال ما ينتخبه من الشروح ، هذا فضلاً عن انسياقه المتكرر وراء

شيخه أبي العلاء في استطرادته المختلفة ، وكذلك انسياقه وراء أبي رياش في نقولات مسهبة سوّد بها العديد من الصفحات دون أن يعمل فيها قلمه بالتهذيب والتشذيب أو الحذف والاختصار ، الأمر الذي أدى إلى طغيان عنصر أخبار الشعر على عناصر الشرح في القطع التي كان أبو رياش يذكر خبر أبياتها أو بواعث الشعر فيها .

لقد حاولنا أن نتتبع التبريزي في سائر العناصر التي ضمّها شرحه قصداً إلى بيان كيفيّة انتخابه من الشروح التي سبقته لكل عنصر منها ، وكان كل ذلك عن طريق الأمثلة وعرضها ومناقشتها ، ولقد كشفت دراستنا لانتخابه من الشروح عن عدة ملاحظات بعضها سلبي وبعضها إيجابي. فمن الملاحظات الايجابية أنه كان ينظم ما ينقله من الشروح وبخاصة حين ينقل من الشرح الواحد أكثر من عنصر ، فهو كما رأيناه يكثر النقل من شرح المرزوقي ، ولكنه كان يتصرف فيما ينقله حيث ينظمه ويرتّبه وفق الرؤية التى يراها في معالجة عناصر الشرح لا وفق ما جاءت في شرح المرزوقي ، ومنها أيضاً أنه على كثرة نقله من الشيوخ دون أن يبدي رأياً فيما ينقل ، كانت له بعض المواقف التي دلت على شخصيته في العمل الانتخابي وهي مواقف وان كانت ضئيلة إذا ما قيست بالكثرة الكاثرة التي بدا فيها مجرد جمّاع ناقل ، فانها على أية حال دلت على ذاتية فيه ، وعلى حضور ذهن فيما كان يعرضه من آراء أثناء عملية الشرح . أمّا الملاحظات السلبية فمنها أنه وغيره من الشراح الذين اتخذوا هذا المنهج سبيلاً قد وقعوا في ظاهرة سلبيّة في الانتخاب وهي أنهم كانوا لا يعزون جميع ما ينتخبون من آراء وأقوال إلى أصحابها ، وبخاصة حين ينقلون عن المرزوقي حيث كانوا يوردون كلامه في صورة توحي بأن هذا من عملهم وجهدهم ، ومن ثم بدت خطورة هذه الظاهرة في عمل الانتخابيين من حيث إنها تجعل الدارسين لشروحهم أو المستفيدين منها في اضطراب مستمر حين ينسبون إليهم أقوالاً ليست لهم أو يجعلون لأعمالهم قيمة لا تؤول إليهم في واقع الأمر . ومنها كذلك كثرة نقله من أبي رياش في أخبار الشعر وما يتصل بها من شخصيات وأشعار ، وهو لم يكتف بايراد هذه الأخبار وما يتصل بها فحسب بل كان يزيد عليها تعليقات شيخه أبي العلاء على جزيئات

منها ، وكل ذلك في إسهاب مخل أدّى إلى تغوّل هذا العنصر على سائر العناصر الأخرى .

واذا كنا قد سجلنا في عمل التبريزي هاتين الملاحظتين وغيرهما فان البحث قد سجل له ما لا يغمض حقه فيما صنع ، فقد حاول بحق أن يبتكر منهجاً مغايراً لسابقيه في شرح الشعر ، وجد شيوخه وسابقيهم قد عالجوا الحماسة في شروحهم من نواح مختلفة ، كلّ شرح يركّز في ناحية دون أخرى ، فأراد بمنهج جديد أن يجمع بين هذه النواحي في شرح واحد أي أن يجمع شروحاً في شرح ، ومن ثم جاء عمله جامعاً لمناهج مختلفةوأساليب متباينة ، وهو وان بدا في جلّ عمله غير خلاق ولا مبتكر فيما يكمل به ما يجده من نقص في هذه الشروح ، فانه في مقابل ذلك دلّ على جهد مضنٍ وحضور ذهن في استدعاء معلوماته التي قرأها أو سمعها من شيوخه أثناء عملية الشرح ، وأن يوظف ذلك في مواضعه ، وفي هذا فضل لا ينكر ، ولو شفعه اخر بأن عزا نقولاته إلى أصحابها ، ونفى عن هذه النقولات الاستطرادات المخلة بتنسيق العناصر لكَان شرحه الغاية الخالدة في هذا المنهج .

وأما المنهج الاختصاري التسهيلي فقد أفدنا بأنه يمكن تطبيقه في شرح زيد بن علي والشرح المنسوب خطأ لأبي العلاء المعري ، ولكن لما كنا قد عقدنا دراسة كاملة حول الشرح المرجح نسبته لزيد بن علي في الكتاب الثاني من هذا البحث اخترنا الشرح الآخر للدراسة والتطبيق ، وقد لاحظنا من خلال دراستنا له أنه قد حاول في غلبة شرحه أن يوفر مقومات هذا المنهج وصفاته غير أننا أخذنا عليه أمرين أحدهما ميله المتكرر إلى النقل من ابن جني في شيء من الإسهاب وبخاصة في عنصر اللغة ، والآخر عدم إفادته من المصادر التي تحت يده إفادة مطلقة تعصمه من الخطأ في تفسير بعض نصوص الحماسة ، فهو قد دلّ في شرحه أنه قرأ المرزوقي والتبريزي ولكنه كان في بعض الأحيان يأتي بتفسير خطأ للشعر ، يختلف عن التفسير الذي قرره المرزوقي أو انتخبه التبريزي في شرحه .

كذلك سجلنا أن هناك شارحين قد سلكا سبيل هذا المنهج أحدهما الأعلم الشنتمري الذي استطاع أن يحقق هذا المنهج تحقيقاً جيداً ، ولكن شرحه جاء في

الحماسة التي صنعها ، وليس في حماسة أبي تمام ، أما الآخر فهو أبو الحسن البياري ، غير أن شرحه لم يصل الينا كاملاً ، وانما وصل منه الجزء الأول فقط ، وهو جزء لم يستكمل باب الحماسة كله ، ناهيك عن سائر الأبواب الأخرى .

واذا كنا تتبعنا للشروح التي صدرت في الفترة الزمنيّة التي حددناها لهذا البحث قد كشف عن شروح لم تصل إلينا كاملة أو وصلت ولكنها غير واضحة المنهج أو وصلت في صورة نقولات في شروح وصلت الينا فان هذا اقتضى أن يقوم قسم ثالث لدراسة هذه الشروح . ومن ثم قام الفصل الأول من هذا القسم في دراسة شروح كل من أبي الفتوح الجرجاني ، وأبي رياش ، وأبي عبدالله النمري ، وأبي هلال العسكري ، وأبي العلاء المعري . لقد تتبعنا هذه الشروح ودرسنا عناصر الشرح فيها ، وكنا في كل شرح نجد نقصاً واضحاً في جملة من العناصر التي تقوم عليها عمليّة الشرح وتكشف عن منهج صاحبه في وضوح وجلاء ، وانتهينا إلى أن هذه الشروح بصورتها التي وصلت إلينا لا يمكن تصنيفها تحت أي منهج من المناهج فشرح الجرجاني كشفت الدراسة أنه مجرد رواية مصححة لمتن الحماسة عليه تعليقات متفرقة لا يمكن تسميتها شرحاً إلاّ من باب التجوز ، والنقولات التي وصلت عن شرح أبي رياش ، وان دلت على بعض العناصر فإن غلبتها قد جاءت في الأخبار التاريخيّة ، وهي مع هذا لم تبيّن لنا عمله في عناصر مهمة في الشرح مثل الرواية والنحو والبلاغة والنقد ، كما أن عمله في اللغة والمعاني غير واضح في هذه النقولات الوضوح كله ، ولذا صعب علينا أن نضعه تحت منهج من المناهج ، ومختصر معاني أبيات الحماسة الذي وصل إلينا عن شرح أبي عبدالله النمري لم يكشف لنا عن عمل النمري إلاّ في عنصري الرواية والمعاني ، وهو بجانب هذا قد أفاد من شيخه أبي رياش ولكنه لم يكن ذا منهج نقلي التزامي لأنه لم يقف عند حدّ النقل فحسب بل كان يناقش وينتقد ، ويورد ما يراه من رأي مخالف لمن ينقل عنه ، وهو أيضاً كان يتعرّض للديمرتي في شرحه ولكن تعرضّه لم يكن تعرّض متتبع مقوّم على نحو ما رأينا عند أصحاب المنهج التتبعي التقويمي ، فقد كان يعرض لجوانب الصواب والخطأ معاً ، كما أنه لم يتتبع كل مواطن الزلل في شرح الديمرتي ، وانما كان يناقش ما في

الشرح من زلل من خلال العنصرين اللـذين قصر عملـه عليهما وهما الـرواية والمعاني . كذلك لم يبد النمري في شرحه تجميعاً انتخابياً ، فهو وان أفاد من أعمال رجال سبقوه فان افادته لم تكن إفادة تجميع وانتخاب ، ولم يكن كذلك ذا منهج علمي تخصصي على النحو الذي رأيناه عند ابن جني ، ولا سلك سبيل أصحـاب المنهج الاختصاري التسهيلي الذين يوفرون لشروحهم سائر العناصر يعرضونهـا في سهولة ويسر .

إن كل الذي خرجنا به من هذا المختصر أن الرجل كان مثل شيخه أبي رياش الذي رأيناه يقصر جلّ جهده على الأخبار التاريخية ، فهو أيضاً قد قصر جهده على دراسة الروايات وتحليل المعاني . أما عناصر الشرح الأخرى فنحـنُ لا نكاد نظفـر بشيء منها سوى لمحات ضئيلة لا تقاس بأعمال أصحـاب الشروح الـذين طبّقنـا عليهم المناهج الخمسة .

أما أبو هلال في شرحه الذي لم يصل إلينا فان النقولات التي وردت عنه قد دلت على معالجته لجملة من عناصر الشرح كشفت عنها الدراسة حيث لاحظنا أنه كان كثير الاهتمام بنقد الأشعار الـواردة في اختيار الحماسـة ، وتعـريف الشعـراء ، وتصحيح نسبة القطع الواردة في الاختيار ، وكشفت أيضاً عن عمل له في المعاني ، ولكن في مواضع قليلة ، وكذلك عنصر الأخبار التاريخيّة . ولاحظنا أن ثمة عناصر لم ترد في هذه النقولات مثل عنصر اللغة الذي لم نجد فيه نقولات تذكر وكذلك النحو والاعراب والبلاغة وأوزان الشعر وأضربه وقوافيه،الأمر الذي جعلنا نتوقف متسائلين أكان له عمل في هذه العناصر لم تنقله لنا هذه الشروح التي وصلت إلينا أم أنه في الأصل لم يولها اهتمامه؟ ومهما كان الجواب فان النتيجة التي خرجنا بها من هذه النقولات أنها لا تكشف عن منهج واضح لأبي هلال في شرحه يهيىء لنا السبيل إلى إدراجه تحت منهج من المناهج الخمسة ، وان كان ظننا يذهـب إلى أنـه أشبـه بأصحاب المنهج الابداعي الفني منه إلى أصحاب أي منهج آخر .

وأما أبو العلاء في شرحه « الرياشي المصطنعي » فان ما وصل إلينا عنه جاء عن

طريق ما كان ينتخبه التبريزي في شرحه ، وقد رأينا بالرصد ان نقولات التبريزي عن شرح أبي العلاء قد بلغت نحو بضعة ومائةموضع ،غير أنها مع تنوعها والاسهاب في بعضها لم تيسّر لنا تحديد منهج أبي العلاء في شرحه فقد جاءت جل هذه النقولات في شرح أسماء الشعراء ، وفي اللغة والنحو ، ولاحظنا أن نقولات التبريزي عنه في عنصر المعاني كانت ضئيلة جداً ، وذلك بسبب أن التبريزي في شرحه الانتخابي كان يعتمد في عنصر المعاني على المرزوقي ، ولهذا قلّ انتخابه من الشروح الأخرى في هذا العنصر غير أن دراستنا لعمل أبي العلاء في عنصر اللغة والنحو وملاحظتنا حرصه الدائم على مراعاة المعنى في التحليل اللغوي والاعرابي جعلتنا نسجل أنه كان ذا اهتمام بهذا العنصر ، فلم يكن مقتصداً مقتصراً فيه كما ذهب الدكتور العمري ولا كانت عنايته باللغة صارفة له عن التدقيق في معاني الشعر ، يعرضها في صورة تكاد تكون نثراً كما ذهب الدكتور عسيلان . لقد ناقشنا هذا الجانب في كلام الباحثين وبيّنا عدم صحة ما ذهبا إليه من قول .

ان هناك عناصر لم تكشف عنها نقولات التبريزي من شرح أبي العلاء مثل عنصر الرواية الذي جاء النقل فيه أشد ضآلة من عنصر المعاني ،ومثل عنصر الأخبار التاريخيّة الذي لم يورد التبريزي منه سوى في موضع واحد ، ومثل البلاغة والنقد اللذين لا وجود لهما البتّة في نقولات التبريزي .

لقد لاحظنا إن أبا ألعلاء كان في شرح أسماء الشعراء أشبه بابن جنى ، غير أنه يختلف عنه في أنه لم يجنح إلى التصريف كما كان يفعل ابن جنى ، كما أنه في عنصري اللغة والنحو لم يكن مثله ينظر إلى الأبيات التي تثير قضية لغويّة أو نحويّة ، ولا ينظر إلى المعنى إلا من خلال ارتباطه بالإعراب. كذلك لم يكن يعمد إلى اثارة الخلاف بين أبي الحسن الأخفش وسيبويه وينظر إلى ما تعطيه أبيات الحماسة من دعم لرأي أحد الرجلين ، كلّ هذه الأمور التي لاحظناها في عمل ابن جنى لم يكن لأبي العلاء شأن فيها. هذا فضلاً عن أن ابن جني كان في عمله الذي رأيناه له في «التنبيه» علمياً بحتاً ، أما أبو العلاء فانه بجانب جنوحه نحو اللغة وتحليلها في النصوص ، فان عمله لم يخل من جانب أدبي ، وبخاصة في نظرته إلى كلام العرب ونقله الكثير

من أدبها ليدلل به على صحة المعنى اللغوي للألفاظ والتراكيب أو لمعاني النصوص ومقاصد الشعراء .

هذا الذي فصّلناه في الموازنة بين عمل أبي العلاء وابن جني فصّلناه أيضاً بين عمله وأعمال أصحاب المناهج الأخرى ، ومن ثمّ انتهينا إلى أن ما وصل إلينا من عمل أبي العلاء شيء مختلف عن سائر المناهج الخمسة بحيث لم يتأت لنا إدراجه تحت واحد منها .

واذا كنا قد درسنا الشروح الواضحة المنهج والشروح غير الواضحة فان دراستنا لها جميعاً قد كشفت عن ظواهر عامة شملت سائر أعمال الشراح ، ومن هذا كان أن خصصنا الفصل الثاني من هذا القسم الأخير لدراسة هذه الظواهر فلاحظنا أنها من خلال رصدنا لها يمكن تصنيفها في ثلاث مجموعات : مجموعة تتصل بمتن الحماسة وتشمل ظاهرتين إحداهما : قلة رجوع الشراح إلى الأصول في رواية متن الحماسة ، والأخرى تغاضيهم عن مناقشة النحل في المتن المختار من قبل أبي تمام ، ومجموعة تتصل بمادة الشروح وتشمل ثلاث ظواهر إحداها الاستطراد والتوسع في بعض عناصر الشرح ، والثانية طغيان اللغة والنحو في عمليّة الشرح ، والثالثة إغفال الشاعر والعوامل الموحية له بالشعر ، ومجموعة تتصل بالشراح أنفسهم وتشمل ظاهرة واحدة هي تسلط نزعات الشراح وأهوائهم في أعمال الشرح .

لقد درسنا هذه الظواهر وفق مجموعاتها ، ووفق ما أفرزته هذه الشروح من أعمال ، وانتهينا إلى أن عدم رجوعهم إلى مجاميع الشعر ودواوين الشعراء قد أدى بهم إلى الوقوع في افتراضات لا معنى لها حين كان أبو تمام يختار بعض الشعر ويسقط بعضه الآخر ، كما حرمهم من دراسة تطبيقية في طريقة اختيار أبي تمام للشعر ، ومعرفة دقّته فيما كان يختار وما كان يترك ، كذلك لاحظنا أنهم لم يناقشوا الاشارات التي صدرت عن الشراح الأوائل حول نحل بعض القطع وتوليدها ، وانما وقفوا عند حد النقل وترديد ما قالوه دون أن يناقشوا صحته أو خطأه على النحو الذي رأيناه فيما بعد عند الباحثين المعاصرين .

أما في ظاهرة التوسع والاستطراد فقد لاحظنا أنه لم يسلم منها شارح من

الشراح على مختلف المناهج التي سلكوها ، ولقد عللنا شيوع هذه الظاهرة في أعمالهم بتأثرهم الواضح بشراح الشعر الجاهلي في القرن الرابع الهجري الذين أدركوا أن القصد من شرح الشعر هو التعليم والتثقيف إلى جانب الامتاع ، فوسعوا من نشاطهم في الشروح فحلّلوا ودقّقوا وأسهبوا واستطردوا في كل شيء يتصل بالنص من قريب أو بعيد فجاءت شروحهم زاخرة بالمواد العلمية التي هي حصيلة الجمع والجهد ، ولم تكن هذه النظرة بغائبة عن شراح الحماسة ، وبخاصة إذا علمنا أنهم لم يكونوا بمعزل عن حركة شرح الشعر عامة ، ومن هنا جاء إليهم التوسع . . والاستطراد حتى شمل أصحاب المنهج التجميعي الانتخابي الذين يفترض في عملهم التهذيب والتشذيب ، وأصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي الذين يفترض فيهم أن يكونوا بعيدين عن هذه الظاهرة كل البعد .

أما ظاهرة طغيان اللغة والنحو في عملية الشرح فقد أوضحنا أننا لا نعني بها أصحاب المنهج العلمي التخصصي لانهم قد بنوا منهجهم على إثارة القضايا التي تتصل باللغة والنحو ، ومن ثم فمن الطبيعي أن نجد اللغة والنحو يطغيان في أعمالهم ، وكذلك لا نعني بها أصحاب المنهج التتبعي التقويمي لان أعمالهم تقوم وفق ما يتتبعونه ويقومونه في أعمال الآخرين ، نحواً كان أو لغةً أو غيرهما . إننا نعني بها أصحاب المنهج الابداعي الفني والمنهج التجميعي الانتخابي والمنهج الاختصاري ، فهؤلاء تقوم مناهجهم على مقومات وصفات لا تقتضي وجود هذه الظاهرة في أعمالهم ، ولكنهم مع محاولاتهم الدائبة في توفير هذه الصفات والمقومات لأعمالهم لم يسلموا من شيوع هذه الظاهرة في شروحهم حيث رصدناها في بعض أعمال المرزوقي وفي انتخاب التبريزي وفي أعمال صاحب الشرح المنسوب خطأ لأبي العلاء ، وأبي الحسن البياري ، وأبي القاسم زيد بن علي . ولقد عللنا لهذه الظاهرة وتسربها في أعمال هؤلاء الشراح بأنها مثل ظاهرة التوسع والاستطراد ترجع إلى التأثر بأعمال أبي بكر بن الأنباري وأبي جعفر النحاس ، وهي في جملتها يمكن أن ترجعها بالنسبة لشراح الشعر القديم إلى أن كل العلماء الأوائل الذين عنوا بشرح الشعر ابتداء من أبي عمرو الشيباني المتوفى سنة ٢٠٦ أو ٢١٠ هـ إلى أبي سعيد السكري المتوفى سنة

٢٧٥هـ كانوا من ذوي الاهتمامات باللغة والنحو ، وقد انعكس هذا الاهتمام على أعمالهم في شرح الشعر ومن ثم تأثر بذلك كل من جاء بعدهم من شراح الشعر سواء في ذلك شراح الحماسة أو غيرهم .

كذلك سجلنا أن نشأة دراسة الشعر وارتباطها في البداية بخدمة القرآن الكريم والحديث الشريف قد كان لها تأثير في غلو هذه الظاهرة ووجودها في شروح الشراح من حيث إن النظرة إلى شرح الشعر وسيلة إلى فهم القرآن والحديث قد ربطت علم الأشعار بعلمي اللغة والنحو لتصب جميعها في وسيلة واحدة لخدمة غاية واحدة هي فهم القرآن والحديث ، ومن هنا ارتبط شرح الشعر لدى الشراح بهذين العلمين بالرغم من انفصال هذه العلوم عن بعضها وقيام كل منها في وحدة قائمة لذاتها .

لقد رأينا أن اهتمام الشراح فيما يتصل بالشاعر كان منصباً على شرح اسمه لغوياً ، وتبيان نسبه وقبيلته والأحداث التي كانت وراء قوله الشعر وما يتصل بها من أنساب وأيام وأمثال وأشعار. أما الاعر نفسه فلا وجود له في تحليل الشعر وشرحه ، الأمر الذي شكل ظاهرة عامة شملت سائر الشروح . ان الشاعر بعواطفه وعقله وتفكيره والخط النفسي في بناء شعره ، والعوامل الموحية له بالشعر كل هذا لم يكن من هم الشراح في ذلك الزمن ، ولقد اعتمدنا في تعليل انتقاء وجود الشاعر في عملية الشرح لدى الشراح ، على ما علله الدكتور العمري في وجود هذه الظاهرة لدى شراح الشعر الجاهلي ، وهي علة ترجع إلى طبيعة العصور القديمة والظروف العلمية والثقافيّة فيها ، وهي طبيعة لم تكن تلتفت إلى هذه الأمور من قريب أو بعيد ، لأن كل ما يهم الشارح ـ وهو واقع تحت تأثير هذه الظروف ـ هو المادة الشعريّة يحلّلها ويقدمها خدمة للعلم أولاً وقبل كل شيء لا خدمة للشاعر وابراز مقاصده ومراميه وخصائصه التي تميز شعره .

ولاحظنا أيضاً أن سائر شراح الحماسة بعد القرن السادس الهجري داروا في الفلك نفسه بل صاروا يكررون ما قاله الشراح الأوائل اختصاراً أو انتخاباً دون أن يكون لهم أدنى إضافة فيما خلّفه هؤلاء الشراح القدماء ، ومن هنا رأينا العلماء

المعاصرين الذين تصدوا إلى الحماسة بالعمل في مجال التعليم قد فكروا في عمل شرح لهـا وذلك على نحو ما وضحنا في عمل الشيخ سيد علي المرصفي ومحمد الطاهر بن عاشور وعلي النجدي ناصف .

أما الظاهرة العامة والأخيرة التي سجلناها لهؤلاء الشراح فهي تسلط نزعاتهم وأهوائهم في عمليّة الشرح ، فقد رأيناها عند المرزوقي في نزعته الى التعالي والتفرد من جهة واتباعه هوى نفسه ومزاجه من جهة أخرى ، وسجلنا مدى تأثير ذلك في مصادره وعمله ، كذلك سجلنا لابن جني جنوحه المستمر نحو اللغة والنحو مما دفع به إلى اخضاع النصوص الشعرية في الحماسة إلى هذه النزعة فحوّل اختيار أبي تمام الأدبي إلى عمل بعيد عن الأدب ومجاله . ورأيناها أيضاً في عمل أبي محمد الأعرابي حيث برزت لديه نزعة التحدي واظهار سقطات الآخرين وقد دفعته هذه النزعة إلى تزييف بعض أعمال النمري بغية اظهار عجزه وضعفه في فهـم الشعـر وشرحـه ، فخرج في عمله عن الموضوعيّة التي ينبغي أن يتمسك بها كل ناقد متصد إلى أعمال غيره . كذلك سجلت الدراسة في هذا الخصوص نزعتين تحكمتا في عمل التبريزي في الحماسة إحداهما نزعته إلى اللغة والنحو ، والأخرى انسياقه المتكرر وراء شيخه أبي العلاء بحيث جعلته النزعة الأولى يقصر جهده على اللغة والنحو في كثير من النصوص التي ينتخبها من الشروح ، وجعلته النزعة الثانية مختل المنهج في مواضع متعددة كان ينزلق فيها نحو الاستطراد الذي ينقله في شرحه من أعمال أبي العلاء .

ولقد سجلنا كذلك أن بعض أصحاب المنهج الاختصاري التسهيلي لم يسلم من هذه الظاهرة وهو صاحب الشرح المنسوب خطأ إلى أبي العلاء حيث لاحظناه ينزع الى أعمال ابن جنى في « التنبيه » فينقل منها في مواضع من شرحه مما يعـدّ استطراداً في العمل وتغليباً لعنصر على عناصر الشرح الأخرى ، ولولا أنها كانـت قليلة في عمله لا تقاس بما استوفاه من صفات منهجه ومقوماته لأخرجتـه عن حدّ المنهج الذي رسمه لعمله .

ولعل أهم نتيجة خرجنا بها من دراستنا لهذه الشروح جميعها ، ومن خلال ما

رصدناه فيها من ملاحظات وظواهر عامة هي أننا ـ وفق رؤيتنا المعاصرة لشرح الشعر ، ووفق فهمنا للنظرة الحديثة إلى تراثنا الأدبي والدعوة إلى دراسته وتمحيصه وعرضه في ثوب جديد يتلاءم مع ثقافة عصرنا والعصور التي سوف تليه ـ نرى أن ديوان الحماسة ، هذا الاختيار العظيم الذي خلفه أبو تمام ، لا يزال في حاجة إلى جهود علماء معاصرين يتصدون لشرحه وفق المفاهيم النقديّة الحديثة ، والرؤية المعاصرة لعمليّة الإبداع الشعري وشرحه وإيصاله إلى طلاب الأدب .

إننا نأمل أن نكون بهذه الدراسة قد حققنا عملاً مفيداً في تراثنا الأدبي واضافة جديدةً في ميدان البحث العلمي ، فان حققنا في ذلك توفيقاً فبها ونعمت ، وإلّا فما قصرنا في الجهد وإن حرمنا التوفيق الذي هو من عند الله تعالى ، عليه توكلنا وإليه ننيب .

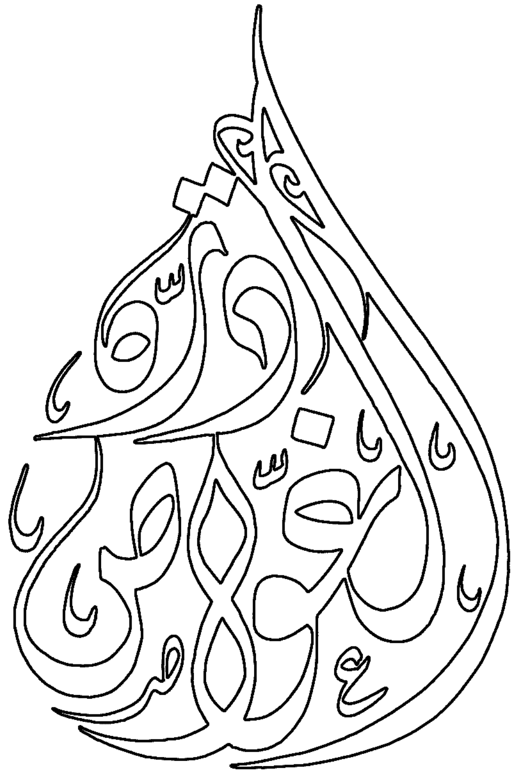

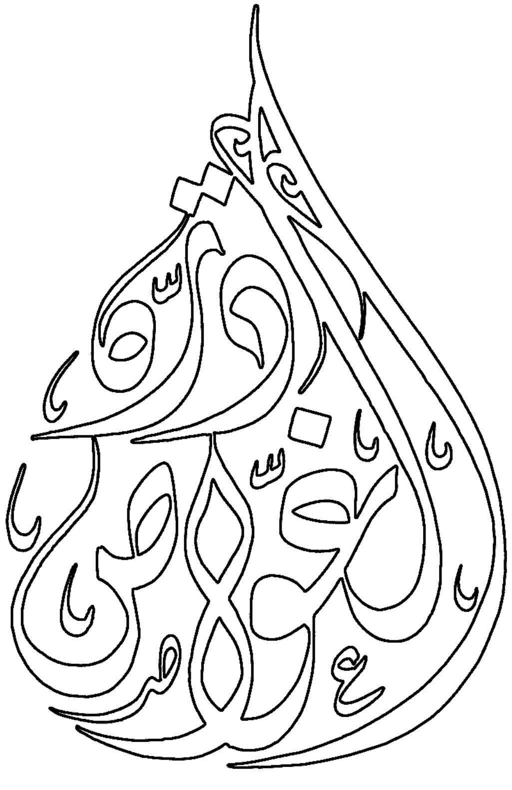

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الاهداء ٣

توطئة ٥ـ ٨

القسم الاول/دراسات ممهدة ٩ـ ٩٢

الفصل الأول: في اختيار أبي تمام للحماسة وصنيعه فيه ١١ـ ٥٦

١ ـ اختياراته في الشعر ١١

٢ ـ رواية أبي تمام للحماسة ١٧

٣ ـ أبواب الحماسة ٢٠

٤ ـ وجود قطع في الأبواب ليست منها ٢٥

٥ ـ مقياس أبي تمام في الاختيار ٣٢

٦ ـ في شعراء الحماسة ٣٨

٧ ـ في دعوى تغيير أبي تمام لنصوص الحماسة ٤١

الفصل الثاني: في شرح الشعر وتطوره حتى ظهور شروح الحماسة ٥٧ـ ٩٢

١ ـ في شرح الشعر وتطوره ٥٧

٢ ـ في ثبت شروح الحماسة وما يتصل بدراستنا منها. ٧٢

القسم الثاني: في الموازنة بين المناهج وتطبيقها ٩٣ـ ٣٠٦

الفصل الأول: في مناهج الشراح .... ٩٥ ـ ١٢٠

الفصل الثاني: المنهج الأدبي الإبداعي وتطبيقه في شرح المرزوقي. ١٢١ـ ١٨٥

الفصل الثالث: المنهج العلمي التخصصي وتطبيقه في أعمال ابن جني .... ١٨٦ ـ ٢١٣

الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع: المنهج التتبعي التقويمي
وتطبيقه في عَمَلَيْ أبي هلال وأبي محمد الأعرابي ٢١٤ـ ٢٤٥
الفصل الخامس: المنهج التجميعي الانتخابي ٢٤٦ـ ٢٧٧
وشرح الخطيب التبريزي
الفصل السادس: المنهج الاختصاري التسهيلي
والشرح المنسوب خطأً إلى أبي العلاء ٢٧٨ـ ٣٠٦
القسم الثالث: شروح غير واضحة المنهج وظواهر في أعمال الشراح ٣٠٧ـ ٣٨٧
الفصل الاول: شروح غير واضحة المنهج. ٣٠٩ـ ٣٥٧
١ ـ شـرح أبي الفتوح ثابت الجرجاني ٣٠٩
٢ ـ شرح أبي رياش أحمد بن إبراهيم ٣١٣
٣ ـ شرح معاني كتاب الحماسة لأبي عبدالله ٣١٨
النّمري
٤ ـ شرح أبي هلال العسكري ٣٢٩
٥ ـ شرح أبي العلاء «الرّياش المصطنعي» ٣٤٠
الفصل الثاني: ظواهر عامة في أعمال الشرّاح .... ٣٥٨ ـ ٣٨٧
١ ـ في متن الحماسة
أ ـ ندرة رجوع الشراح الى الاصول في رواية المتن ٣٥٩
ب ـ تغاضيهم عن قضية النحل في متن الحماسة ٣٦٤
٢ ـ في مادة الشروح
أ ـ التوسع والاستطراد ٣٦٨
ب ـ طغيان اللغة والنحو في عمليّة الشرح ٣٧٢
جـ ـ إغفال الشاعر والعوامل الموحية له بالشعر ٣٨٠
٣ ـ في الشراح
تسلّط نزعاتهم في عمليّة الشرح ٣٨٤
الخاتمة: ونتائج الكتاب ٣٨٩ـ ٤١٥